بسم الله الرحمن الرحيم

أبيات في الفرج للسهيلي:

قال ابن دحية عن السهيلي: أنشدنيها، وقال: ما يسأل الله بها في حاجة إلا قضاه إياها، وهي:

يَا مَنْ يَرى مَا في الضَّمِيرِ ويَسمَعُ ... أَنْتَ المُعَدُّ لِكُلِّ مَا يُتَوَقَّعُ
يَا مَنْ يُرجَّى للشَّدَائِد كُلِّهَا ... يَا مَنْ إليْهِ المُشْتَكَى والمَفْزَعُ
يَا مَنْ خَزَائنُ رِزْقِه في قَولِ كُنْ ... اُمْنُنْ فَإنَّ الخَيْرَ عِنْدَكَ أَجْمَعُ
مَا لِي سوى قَرْعي لِبَابِك حيلةٌ ... فَلَئنْ رُددْتُ فَأَيَّ بَابٍ أقْرَعُ
مَا لِي سوى فقْري إلَيْكَ وَسِيلَةٌ ... وَبالافْتقَارِ إليْكَ فَقْرِيَ أدْفَعُ
منْ ذا الذي أدْعُو وأهْتفُ باسْمه ... إنْ كَانَ فَضْلُكَ عَنْ فَقيرِكَ يُمْنَعُ
حاشَا لِمجْدك أنْ تُقنِّط عَاصيًا ... الفضْلُ أَجْزَلُ وَالمَوَاهبُ أوسَعُ

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ﴾[٩: الصف]. والصلاة والسلام على البشير النذير، والسراج المنير محمد وآله الأطهار وصحابته الأخيار، وأزواجه، ومن اهتدى بهديه، وبعد:
تشرفتْ بتدريس السيرة النبوية العطرة بكلية الشريعة ، فغمرتني السعادة حين شاهدت القاعة مكتظة لا من كلية الشريعة بسنواتها الأربع، بل من عموم التخصصات في الجامعة.. وذلك دليل حبَ الشباب لنبيهم، والحنين لسماع ذكريات الإسلام الأولى، واللهفة نحو القدوة.

وهذا ما حفزني على كتابة سُطُور تجمع المهم من حياته الكريمة، وتأريخه الجهادي بصورة مختصرة ليسهل استيعابها – فقد روي عن الإمام زين العابدين علي بن الحسين أنه قال: كنا نُعلّمُ مغازي رسول الله ﷺ كما نعلم السورة من القرآن. وعن محمد بن سعد بن أبي وقاص قال: كان أبي يعلمنا مغازي رسول الله ﷺ وسراياه ويعدها علينا، ويقول: يا بني هذه شرف آبائكم فلا تضيعوا ذكْرها. قال الزُّهري: في علم المغازي خير الدنيا والآخرة[١].

– ومراعاة لظروف عصرنا وإيقاعه السريع، وتلون الثقافات، وهجوم الإعلام المرئي الذي ضيق مساحة القراءة عموما.

---
(١) سبل الهدى والرشاد ٤/ ٢٠. عن ابن عساكر.

أهمية التأريخ والسيرة خاصة:

تحرك التأريخ في العديد من سور القرآن، في حين لم تتجاوز آيات الأحكام مائتي آية أو سبعمائة في أكثر تقدير. وتكررت أنباء خلق آدم، وقصته مع الملائكة وإبليس، ونبأ هابيل وقابيل، وخبر أصحاب السفينة وإدريس وإبراهيم ولوط وهود وصالح وشعيب وموسى مع فرعون وعيسى ويوسف ويحيى وزكريا في سرد رائع ممتع ولم يغفل بلقيس وسبأ.

إنه التأريخ يحدثنا كم مَرَّ على الأرض من عقلاء جلبوا لأنفسهم وقومهم الهدوء والسلام كالملكة بلقيس. وكم متهورين تسببوا في شقاء قومهم. أما تأريخ الأنبياء وخاتمهم محمد ﷺ، فهو الهادي إلى الطريق الصحيح. ففي سيرته نجد الإنسان الذي سعدت به الدنيا، وكان رحمة للعالمين.

عناية المسلمين بالسيرة:

حظي التأريخ بعناية المسلمين ، فهذا أبو العلاء المعري يقول:

ما كان في هذه الدنيا بنو زمن إلا وعندي من أخبارهم طَرَفُ[1]

وحظيت سيرة النبي ﷺ خاصة بعناية لم يظفر بها أحد؛ فالمفسرون والمحدثون والفقهاء واللغويون والنحاة وأهل الفرائض والأصوليون وعلماء الكلام؛ يرتعون في ساحة النبي ﷺ ، ويَسْبَحُونَ في بحر القرآن الكريم، والسنة الشريفة أقوالاً، وأفعالاً، وتروكًا، واجبًا، ومسنونًا، ومندوبًا، ومحرما ، ومكروها ، ومباحًا.

هكذا أصبح للتاريخ الإسلامي النكهة والمذاق بعد نبوة محمد ﷺ.

أما التأريخ الجاهلي فهو ممتد وراء السُّور الإسلامي.

---

(١) اللزوميات ٢/ ١٤٨.

بداية كتابة السيرة وأشهر كتابها[1] :

المرحلة الأولي:

في الوقت الذي كانت الرواية التأريخية تنقل مشافهة مثل غيرها من السنن، إلا أن البعض من الصحابة كان قد دوّنها في مدونات إلى جانب غيرها من السنن، ومن رجال هذه المرحلة:

١- سعيد بن سعد بن عبادة الخزرجي: وقد كتب شيئًا من حياة الرسول الأكرم ﷺ، علمًا أن أباه سعد كان يحتفظ بصحف كتبها بين يدي رسول الله ﷺ.

٢- سهل بن أبي خيثمة: كانت له عناية خاصة بالسيرة النبوية ومغازي الرسول ﷺ، كان مولده سنة ٣هـ ، ووفاته أيام معاوية، وصل كتابه إلى حفيده محمد بن يحيى بن سهل، فكان إذا روى منه قال: وجدت في كتاب آبائي ... منه نصوص في ابن سعد والطبري والبلاذري[2].

المرحلة الثانية:

ومن رجالها: عروة بن الزبير (ت ٩٣هـ)، فقد ذكر في السبل أنه أوّل من صنف في السيرة النبوية. أما الذهبي فقد قال: إن أول من ألف فيها موسى بن عقبة (ت ١٤١هـ) كتابه المغازي، وقال مالك: إن مغازيه من أصح المغازي، وقال الذهبي: وكأنه يعرِّض بابن إسحاق، وأبو فضالة عبدالله ابن كعب بن مالك الأنصاري (ت ٩٧هـ)، وأبان بن عثمان بن عفان (ت ١٠٥هـ) له كتاب في

---

(١) أبجد العلوم ٢/٥١٤. والسبل ٤/٢١.

(٢) تراثنا العدد ٥٥/٥٦. ص٢١٨ بتصرف.

السيرة والمغازي، ووهب بن منبه (ت ١١٠هـ)، وعاصم ابن عمرو بن قتادة الأنصاري (ت ١٢٠هـ)، وقد اعتمد عليه ابن إسحاق كثيرًا. وشرحبيل بن سعد (ت١٢٣هـ). ثم ابن شهاب الزهري (ت ١٢٤هـ)، وقال السهيلي: إن مغازي الزهري أوَّل ما صنف في ذلك وليس كما قال، ثم من أشهرها وأجمعها ما كتبه إمام السيرة محمد بن إسحاق (ت١٥١هـ) ؛ فأخرج السيرة في كتابه المغازي بصورة جعلت مَنْ بعده عيالاً عليه، مجمعين على أن محمد بن إسحاق أعلم وأوثق من كَتَبَ في السيرة على الإطلاق.

وحمل عن المغازي يحيى بن سعيد بن العاص من بني عبد مناف[(١)]. ويأتي بعده محمد بن سعد بن منيع البصري الزهري (ت٢٣٠)، صاحب الطبقات.

ثم ظهرت سيرة ابن هشام المبنية على سيرة ابن إسحاق سِوَى ما أقدم عليه من حذف واختصار "وأشياء يشنع الحديث به، وبعضٌ يسوء بعض الناس ذكره"[(٢)]، واختفت سيرة ابن إسحاق بسبب ما ساء وشَنُعَ ، والسبب الحقيقي أنه كان يتشيع كما قال الخطيب البغدادي: فأما الصدق فليس بمدفوع عنه، وقد أجمع الكبراء من أهل العلم على الأخذ عنه ، منهم شعبة وسفيان وابن عيينة وحماد بن زيد وحماد بن سلمة وابن المبارك وغيرهم أكثر من أن يحصيهم العد، وقد استشهد به البخاري وروى له مسلم. وأما قول مالك فيه، فإنما هو ردة فعل لما

---

(١) أعلام النبلاء ١٣٩/٩.

(٢) من كلام ابن هشام بنصه ٤/١.

قال ابن إسحاق: ائتوني بعلم مالك فأنا بيطاره، فرد عليه بأنه دجال من الدجاجلة، وهذا لا يقبل لأنه من كلام الأقران بعضهم في بعض[1].

وقد اهتم العلماء بسيرة ابن هشام فهم بين شارح ومختصر وقد كثروا. ولأبي معشر نجيح بن عبدالرحمن السندي (ت ١٧٠هـ) كتاب في المغازي و لم يعرف إلا في نقول الواقدي وابن سعد وقد يرجع إليه الطبري في مواضع.

وللواقدي أبي عبدالله محمد بن عمر (ت٢٠٧هـ) كتاب المغازي، ثم لأبي عبدالله محمد بن سعد بن منيع الزهري تِلميذ الواقدي كتاب الطبقات. ونقلت كتب الحديث والتأريخ كل شاردة وواردة، وتخصص أبو نعيم والبيهقي في دلائل نبوته ﷺ، والترمذي والقاضي عياض في شمائله، وابن دحية في معجزاته. وتكفل الاستيعاب لابن عبد البر، وأسد الغابة لابن الأثير، والإصابة لابن حجر بتراجم أصحابه، وهناك شرح غريب الحديث، وبيان المجمل والناسخ والمنسوخ، والصحيح والضعيف، وهلم جرا. ولا يعرف النبي ﷺ من لم يدرس القرآن والسنة.

الحالة قبل ظهور النبي ﷺ :

آ- العرب: كانوا في حالة بؤس، فأغلبهم يعيش متنقلاً مع الماشية طالبًا للغارة والثأر، فمنهم من كانوا يهودًا وهم: حمير، وكثير من كندة وبنو كنانة وبنو الحارث، ومنهم من مال إلى النصرانية وهم: ربيعة وغسان وبعض قضاعة، ومنهم من مال إلى المجوسية وهم: بنو تميم، ومنهم من كان على دين إبراهيم،

---

(١) تأريخ بغداد ١/٢٢٤.

ومنهم من كان على دين شعيب، والكثير من قبائل العرب كانوا يعبدون الأصنام، ويرتكبون الآثام، ولا أدل على تخلفهم وقسوتهم من وأدِ بناتهم[1].

ب- لفرس: أمة تقع في بلاد إيران وسواد العراق وهم المجوس، كانوا يعبدون النار وينكحون محارمهم، والسواد الأعظم منهم طبقة مسحوقة تعمل في الزراعة والصناعة وتجبي الضرائب الباهظة لملوك فارس الأكاسرة المولعين باكتناز الجواهر والنفائس.

ج- الروم: غارقون في الشهوات والجدل الديني الممل، والرهبنة التي تجعل من طول الشعر والأظافر وترك الغسل واعتزال النساء قربة إلى الله. وظلوا مع فارس في صراع مرير حتى طواهم الإسلام.

قبيلة النبي ﷺ:

قبيلة النبي عليه السلام قريش لا تنافسها قبيلة عربية شرفًا وسيادة ؛ فقريش خلاصة أبناء إسماعيل، وهم سكان الحرم. والكعبةُ المشرفة التي يعظمها العرب قاطبة سبب من أسباب احترام العرب لهم. ووقوعُ مكة المكرمة في طريق القوافل بين الشام واليمن هيأ لهم سبل العيش في التجارة، وقد سَنَّ هاشم بن عبدمناف جد النبي ﷺ رحلة الشتاء إلى اليمن والصيف إلى الشام، وعقد اتفاقيات تجارية وودية مع ملوك الشام واليمن والحبشة، فبرعت قريش في التجارة ، ونالت من الثروة ما عزز مكانتها.

❁ ❁ ❁

(١) اللآلي المضية للشرفي – مخطوط. وجمهرة أنساب العرب لابن حزم ٤٩١.

القسم الأول : العهد المكي

نسبه الشريف من قبل أبيه وأمه:

نسبه من قبل أبيه:

أ- محمد بن عبدالله بن عبدالمطلب بن هاشم بن عبدمناف بن قُصَي بن كلاب بن مرَّة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فِهْر بن مالك بن النَّضْر بن كنانة بن خزيمة بن مُدرِكة بن الياس بن مضر بن نِزار بن مَعَدٍّ بن عدنان. وينتهي إلى إسماعيل الذبيح بن إبراهيم خليل الرحمن[1].

نسبه من قبل أمه:

ب- محمد بن آمنة الشريفة المصونة، سيدة نساء قريش، بنت وَهب بن عبدمناف بن زُهرة بن كلاب. وعنده يجتمع نسب أبيه وأمه ؛ فرسول الله أشرف ولد آدم حسبًا، وأفضلهم نسبًا من قِبَل أبيه وأمه، وقد ورد عنه ﷺ: "ما ولدتني بَغِيٌّ قط منذ كنت في صلب آدم، فلم تزل تنازعني الأمم كابراً عن كابر، حتى خرجتُ في أفضل حيين في العرب هاشم وزُهرة"[2].

---

(١) المصابيح ٤١. والدلائل ١/١٧٩. قال في البحر: المجمع عليه إلى عدنان. ١/٢٠٥.

(٢) كنز العمال رقم ٣٢٠١٩.

مكان المولد الشريف وزمانه:

وُلد ﷺ بمكة بشعب بني هاشم يوم الاثنين ١٢ من ربيع الأول عام الفيل[١] ٥٣ ق هـ - ٥٧٠م على المشهور، وقيل: إنه ولد يوم الجمعة في ١٧من ربيع الأول[٢] .

---

(١) هو العام الذي زحف فيه أبرهة الحبشي من صنعاء بجيش جرار وفيل ضخم، يريد هدم الكعبة، وصَرْفَ الناس إلى كنيسة بناها بصنعاء، وبالغ في تزيينها فتسلل أعرابي فتغوَّط فيها فغضب أبرهة، ولما قرب من مكة أخَذَ جيشُه مائتي بعير لعبد المطلب فجاء إلى أبرهة فأجلَّه وأكرمه وسأله عن حاجته، فطلب إطلاق إبله، فقال: لقد نقصت في عيني إذ تتحدث عن إبلك لا عن الكعبة، مجدك ومجد آبائك أتيتُ لخرابه. فقال عبد المطلب قولته المشهورة: أنا رب إبلي، وللبيت رب يحميه. رجع عبد المطلب فأخذ بحلقة باب الكعبة، وناشد ربه:

لا هُمَّ إن المرء يمـ ـنع رحله فامنع حِلاَلَكْ

إن كنت تاركهم وكعـ ـبتنافأمرما بَدَالَك

لا يغلبن صليبهم ومحالهم أبدًا محالك

فما إن تم إنشاده حتى زحفت أفواج من الطيور الصغيرة من جهة البحر يحمل كل طير حجرًا بمنقاره وحجرين في مخالبه، فحصبتهم حتى أفنتهم، وكان هذا بمثابة إرهاص لقدوم النبي (ص).

(٢) الصحيح من سيرة النبي للسيد جعفر العاملي ٢/٦٤. وسيرة سيد المرسلين للسبحاني ١٩٠، وهناك اختلاف في اليوم والشهر لا يتعلق به أمر شرعي. فقه السيرة للغزالي ٦٠. قال في البحر الزخار ١/٢٠٦: عام الفيل لليلتين خلتا منه يوم الإثنين، وقيل: بعد الفيل بثلاثين يومًا أو أربعين يومًا.

العبرة والدروس:

اختص الله وحده بعلم السر في اختيار نبيه ﷺ من تلك الأسرة وذلك المكان ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [١٢٤: الأنعام] .

ولكنا نقول: إن الناس معادن – وكلهم لآدم – إلا أن منهم من يتفوق في معالي الأمور حتى يكون في أعين عشاق الفضيلة كالنجم في المجرة، ومنهم من تهبط به خساسة نفسه حتى يكون أحقر من البعرة، ولله در القائل:

والناسُ كالأرض ومنها هُمُ   من خَشِنِ اللمس ومن لـيِّنِ
فجَنْدَلٌ تدمى به أرجل   وإثمدٌ يحمل في الأعينِ

إنه اصطفاء لا ينافي قاعدة: ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾ [١٣: الحجرات] ولا يمس حق الإنسان، بل من باب تَفَضُّلِ الله على من يشاء، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [٣٣: آل عمران].

كلمة عن المولد الشريف:

يكاد يجمع علماء الأمة وفضلاؤها على أن الاحتفال بالمولد الشريف بدعة مستحسنة تجلب البركة، وكل بدعة موافقة لقواعد الشريعة فلا محذور فيها؛ كشق الطرق وبناء المدارس التي لم تكن موجودة في عصر النبوة. والمولد– وإن لم يحتفل به في الثلاثة القرون الأولى وإنما بدأه صاحب إربيل – إلا أن إظهار السرور بمولد رسول الله وقراءة سيرته وترديد الذكر والصلوات عليه ﷺ من تعظيم شعائر الله:

كرِّرْ وردِّد ذكْرهم في مسمعي   فهم الشّفا لصبابتي وتوجعي

وكلما تباعد الزمان بالأمة عن نبيها كانت بحاجة لمناسبات تشدها لماضيها المشرق، ولا أغلى من المناسبات التي تْذكّر برسول الله ﷺ، وتدعو إلى التأسي به. قال الحافظ ابن حجر: إن الاحتفال بالمولد بدعة حسنة لها أصل من السنة، وذلك أن اليهود في المدينة كانوا يصومون عاشوراء شكرا لله على إغراق فرعون ونجاة موسى، فقال ﷺ: " أنا أحق بموسى منكم فصامه وأمر بصيامه"(١).

وقيل: إن النبي ﷺ عقّ عن نفسه بعد النبوة مع أن جده قد عق عنه(٢) ؛ فدل على أنه ﷺ احتفل بمولده. وروي أن رجلاً سأله عن صوم يوم الاثنين فقال: ذاك يوم ولدت فيه(٣). ويحمل قول من حرّمه على فعل شيء في المولد مخالف للسنة. والخلاصة فالاحتفالات والمناسبات التافهة قد كثرت ، والنبي ﷺ أولى بيوم لميلاده ويوم لهجرته كمناسبات رمزية.

الإرهاصات التي روي أنها وقعت ليلة المولد:

منها أن يهوديا صرخ قائلا: طلع نجم أحمد. ومنها نزوله عند ولادته ساجدًا رافعًا رأسه إلى السماء، وخروج نور أضأت له قصور بصرى بالشام أو ما بين

---

(١) سبل الهدى ٤٤٤/١. والبخاري ١٩٠٠. ومسند أحمد ٨٧٢٥.

(٢) سبل الهدى ٤٤٥/١. والعقيقة وليمة يذبح فيها عند ختان المولود في اليوم السابع. والبيهقي في السنن ٣٠٠/٩.

(٣) مسلم كتاب الصيام رقم ١٩٧. المسند ٢٠٠/٢، ٢٣٠ . سنن أبي داود ٢٤١/١، والصوم والسبل ٤٠١/١. والمصابيح ص١٠. وينظر السيرة للسبحاني ١٩٤/١.

المشرق والمغرب، وأن أمه لم تجد لحمله ألما ولا ثقلا – وكان عادة الجاهلية إذا ولد لهم مولود بالليل وضعوه تحت برمة لا ينظرون إليه حتى الصبح فوضعوها على رسول الله ﷺ فانفلقت – وأنه ولد مختونا مقطوع السرة، وأنه تكلم في المهد، وأن الملائكة كانت تحرك مهده، وأن إبليس حزن ورنّ حين لعن وحين أهبط وحين ولد النبي ﷺ، وحين نزلت الفاتحة، وأن إبليس حجب عن السموات، وأن الأصنام انقلبت، وتساقطت شرفات إيوان كسرى، وانطفأت نار الفرس، وغاضت بحيرة ساوة، وروي أن عبدالمطلب سماه محمدًا؛ لأنه رأى أن سلسلة من فضة خرجت من ظهره، لها طرف في السماء وطرف في الأرض والشرق والغرب، ثم عادت كأنها شجرة على كل ورقة منها نور يتعلق بها أهل المشرق والمغرب، فسماه محمدًا ليحمده أهل السماء والأرض، وروي أن الرهبان والأحبار والكهان تحدثوا عن مولده ونبوته[1] . والله أعلم بصحة ذلك.

المراضع:

١– أمه آمنة أرضعته سبعة أيام.

٢– ثُويبة مولاة أبي لهب أرضعته أربعة أشهر، وأرضعت قبله الحمزة وبعده أبا سلمة بن عبدالأسد بلبن ابنها مسروح[2]، لم تسلم هي ولا ابنها وكان النبي ﷺ وخديجة بارَّان بها، أعتقها أبو لهب لما بشرته بمولد محمد ﷺ؛ لذلك قيل: إنه يخفف عنه العذاب كل اثنين[3].

---

(١) سبل الهدى ١/٤٠٩ – ٤٣٨، والدلائل لابن نعيم ٣٦. والدلائل للبيهقي ١/٨٠.

(٢) البحر الزخار ١/٢٠٥.

(٣) سبل الهدى ١/٤٥٧. والطبقات ١/١٠٨. والسبحاني ١/٢٠٠.

٣- حليمة بنت أبي ذُؤيب السعدية وهي أشهر مرضعاته. وفي إسلامها وزوجها الحارث بن عبد العزيز خلاف، وشاركتها في حضانته ابنتها الشيماء[١].

قدمت حليمة مكة مع نساء قومها، وكانت في عسر وبؤس، فلما أخذت محمدًا ﷺ أقبل لبنها، ودرَّت ناقتها، وسبق القافلة حمارُها بعد أن كان يشق على القافلة عجزًا وتأخرًا، ورأت من الله البركة والخير والزيادة[٢].

قال البويصري[٣]:

وبـدت في رضـاعه معجـزات	لـيس فيهـا عـن العيـون خفـاءُ
إذ أبتـه ليتمـه مرضـعات	قلـن مـا في اليـتم عنـاء غَنَـاءُ
فأتتـه مـن آل سـعد فتـاة	قـد أبتـها لفقرهـا الرضـعاءُ
أرضـعته لبانهـا فسـقتها	وبنيهـا ألبـانَهن الشـاءُ
أصبحت شُـوَّلا عجافًا وأمست	مـا بهـا شـائل ولا عجفـاءُ
أخصب العيش عندها بعد محل	إذ غـدا للـنبي منـها غـذاءُ
يـا لهـا منـةً لقـد ضـوعف الأجـ	ـر عليهـا مـن جنسـها والجـزاءُ
وإذا سـخر الإلـه أناسًـا	لسـعيد فـإنهم سـعداءُ

٤- امرأة من بني سعد غير حليمة وهي مرضعة حمزة[٤].

٥- ثلاث نسوة من بني سليم أخرجن له ثُديِّهن فدرت ورضع منهن.

٦- أم فروة[١].

---

(١) السبل ١/٤٦٥.

(٢) المصابيح ١٤. وابن هشام ١/١٦٣.

(٣) ديوانه ص٥١.

(٤) الطبقات ١/١٠٩. والسبل ١/٤٦٠.

إخوته من الرضاعة:

١- عمه الحمزة من ثويبة وحليمة وامرأة أخرى من بني سعد.

٣- أبو سلمة عبدالله بن عبد الأسد المخزومي من ثويبة، وهو من السابقين إلى الإسلام.

٣- أولاد حليمة من الحارث: عبدالله وحفص وأمية والشيماء وقد أسلمت.

حادثة شق الصدر:

روى مسلم(٢) أن جبريل أتى النبي وهو يلعب مع الغلمان فأخذه وشق قلبه فاستخرج منه علقة، فقال: هذا حظ الشيطان منك، ثم غسله في طشت من ذهب بماء زمزم، ثم لأمَهُ، ثم أعاده في مكانه، وجاء الغلمان يسعون إلى أمه [مرضعته] فقالوا: إن محمدًا قد قتل، فاستقبلوه وهو منتقع اللون. قال أنس: وقد كنت أرى أثر ذلك المخيط في صدره.

وروي أن الملائكة ختمته بختم النبوة، ووزنوه بعشرة من أمته فرجحهم حتى وزنوه بألف فرجحهم، فقال: دعه فلو وزنتَهُ بأمته لرجحها. وروي أن كاهنًا رآه فصرخ ياللعرب من شر قد اقترب، اقتلوا هذا الغلام.

وروي أن نفرًا من نصارى الحبشة رأوه بعد فطامه، فقالوا: غلام له شأن، فلنأخذه إلى ملكنا.

أيُّ ذلك كان فقد بادرت به حليمة إلى أمه خوفًا عليه من مس الجن، وحدثتها بما جرى، فقالت: أمه ما للشيطان عليه من سبيل، وأخبرتها بما رأت في حمله

---

(١) السبل ١/٤٦٠.

(٢) مسلم ١/١٤٧ كتاب الإيمان ، باب الإسراء والمعراج. والنسائي ١/٢٢٤. والحاكم ٢/٦٠٠. ودلائل النبوة ١/١٤٣.

ومولده. وكان عمره حين رجوعه لأمه خمس سنوات على قول ابن عباس، وأربع في قول غيره[1]. وحادثة الشق تكررت للرسول وهو في الخمسين من عمره، حين أسري به كما نقلها أصحاب الصحاح وغيرهم.

نقد رواية شق الصدر[2]:

بعيدًا عن المستشرقين المتعصبين الذين لا يؤتمنون على تأريخ نبينا ﷺ؛ فهم يرونه عدوًا لهم – نجد من المسلمين مَنْ يسوق الإشكالات التالية:

١– ذُكِرَ أن سبب إرجاعه لأمه حادثة شق الصدر، وهي وقعت وعمره سنتان وأشهُرٍ، أو ثلاث سنوات، مع أن الروايات تذكر أنه عاد إلى أمه وعمره خمس سنوات. وقيل في سبب إرجاعه لأمه: إن نفرًا من نصارى الحبشة رأوه مع حليمة فأرادوا أخذه إلى ملكهم. فما تخلصت منهم إلا بصعوبة فبادرت برده[3].

٢– الشر لا ينحسم بنزع مضغة أو علقة ولا يغسل بالماء، وإنما هو معنى من المعاني لا يقاوم إلا بتهذيب النفس واستقامة السلوك ومعونة الله ولطفه، وإذا كان الشر ماثلاً في عضو معين فلماذا خُصَّ به خاتم الرسل دون أنبياء الله ورسله؟.

---

(١) السبل ١/٤٧٧.

(٢) جعفر العاملي ٢/٨٦. وهيكل ١١١.

(٣) ابن هشام ١/١٦٧.

٣- حادثة الشق تكررت، ولا يوجد مبرر لتكرارها لو صح حدوثها في صباه؛ لأن العملية أجريت بأمر الله بواسطة أفضل ملائكته ومعاذ الله أن تفشل عمليته في غرفة العناية الإلهية المركزة.

ثم يقال: لماذا وقفت عمليات التطهير عند الرابعة أو الخامسة ولم يُشق سادسة وسابعة.

٤- قولُ الملك : هذا حظ الشيطان منك ينافي إطلاق قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ [٦٥: الإسراء].

٥- شق الصدر يؤدي إلى القول بأن النبي ﷺ مُجْبَرٌ على الخير مسلوب الاختيار، بيد أن فضيلة مغالبة الهوى وإيثار رضى الله ميزة عباد الله الصالحين ولا يكون ذلك إلا بالاختيار[1].

والذي يجزم بصحة الواقعة فسنده أنها وردت في الصحاح فهو يعتمد النقل. والله أعلم.

كفالة جده ثم عمه أبي طالب:

بعد أن ظل ثلاث سنوات أو خمسًا في بني سعد عاد إلى أمه مكتمل الصحة، في كفالة جده عبدالمطلب، حيث نشأت بينهما علاقة حميمة ألغت المراسم المتبعة مع سيد مكة إذ كان لا يتجرأ على الجلوس في مجلس عبدالمطلب عند الكعبة غيره، وحين يحاول أعمامه إزاحته يقول: دعوا ابني، فوالله إنَّ له لشأنًا[2].

---

(١) الإمام الهادي ص٢٠ من رسائل العدل والتوحيد. حيث قال: إن الأنبياء مخيرون.

(٢) المصابيح ص٢٠. وابن هشام ١/١٧٩.

وفاة أمه آمنة[١]:

ما إن أكمل السادسة حتى فقد أمه حين عودتها من زيارة قبر زوجها بالمدينة، وليزور وليدها أخواله أيضًا. مرضت بالأبواء ودُفنَت بها؛ وبموتها فَقَدَ أغلى مخلوق لديه، وعادت به أم أيمن باكيًا مستوحشًا يكابد اليتم منذ كان جنينًا، فمنذ وعى وهو يسمع أمه تئن لفقد أبيه، وها هي تغيب أمام ناظريه ويواريها الثرى وحيدة غريبة لتترك وحيدها وحيدًا، ووليدها فريدًا.

ازدادت حفاوة جده به وظل معه سنتين ثم ودعهُ إلى قبره بلوعة وحزن، وعمر الجد ثمانون سنة. وظلت صورة جده المهيبة في ذاكرته، وفي أحلك الأزمات كان ينادي: أنا النبي لا كَذِب، أنا ابن عبد المطلب[٢].

كفالة أبي طالب لرسول الله ﷺ[٣] :

عَهِدَ عبدالمطلب قبل موته بحفيده إلى ولده أبي طالب أجَلّ أبنائه قدرًا، وأعظمهم نبلاً ومكانة في قريش. وقيل: إن عبد المطلب جمع أولاده وقال لحفيده ﷺ: من ترضى لكفالتك؟ ، فهؤلاء عمومتك وعماتك، فجعل ينظر في وجوههم حتى أتى أبا طالب فجلس في حجره، فقال: هذا يا جد، فقال عبد المطلب: سبحان الله ! ما أردتُ غيرك يا عبد مناف[٤].

---

(١) ابن هشام ١/١٦٨.

(٢) البخاري رقم ٢٧٠٩، ٢٧١٩، ٢٧٧٢، ٢٨٧٧، ٤٠٦١، ٤٠٦٣.
ومسلم ٣/١٤٠٠، ١٤٠١. والترمذي ١٦٨٨.

(٣) ابن هشام ١/١٧٩، الطبقات ١/١١٩.

(٤) ينظر اللآلي المضيئة – مخطوط ص٦٠.

وأبناء عبد المطلب وإن لم يكونوا مثله في الكرم والعزم وقوة الإرادة والتأثير في العرب قاطبة؛ إلا أنَّ أبا طالب تَفَوَّقَ في إدارة شئون ابن أخيه فغمره عطفًا وحنانًا وحبًا ؛ إذ احتل من قلبه وقلب امرأته فاطمة بنت أسد مكانة فاقت مكانة أولادهما حقيقة لا مجازًا. وظلت هذه الأبوة الحانية قرابة نصف قرن. ومن الأمثلة على شدة تعلق محمد ﷺ بعمه وحب عمه له، خروجه معه إلى الشام.

رحلة النبي ﷺ الأولى إلى الشام[1]:

بينما أبو طالب يتجهز للخروج في تجارة إلى الشام إذا بمحمد ﷺ– وعمره اثنا عشر ربيعًا– متشبِّثٌ بثيابه يبكي صبابةً وشغفًا بعمه، يريد الذهاب معه، ولم يكن العم الجليل يريد لقرة عينه تحمُّلَ مشاقِّ رِحْلَةٍ مضنية لكنه أمام إصرار الصبي على مرافقته قال: والله لا أفارقك ولا تفارقني.

بَحِيْرَى الراهب[2]:

روى أهل السير أنَّ ركبَ أبي طالب لما نزل بُصرى من أرض الشام التقى براهب يُسمى بحيرا، إليه انتهى علم النصرانية، كثيرًا ما مر به تجار قريش لا يكلمهم ؛ لكنه كما قيل: رأى غمامة تظل الرسول، ورآه نزل تحت شجرة وتدلت عليه أغصانها، والغمامة تظلل الشجرة ؛ فصنع طعامًا للقافلة، وجعل يتأمل علامات النبوة في محمد فوجدها مطابقة لما عند أهل الكتاب، وسأل أبا طالب عنه فأجابه بما وافق ما عند بحيرا من العلامات ، فنصحه أن يرده خوفًا عليه من اليهود.

---

(١) ابن هشام ١/١٨٠. ابن سعد ١/١١٩. السبل ٢/١٨٨.

(٢) ابن هشام ١/١٧٩.

عصمته ﷺ في طفولته من أمر الجاهلية[١]:

كان ﷺ محفوظًا بعناية الله من كل ما يشينه منذ طفولته، فما تعرَّى مع الصبيان، ولا شرب خمرًا مع الشباب، ولا تعاطى اللهو مع اللاهين، ولا عرف طريق البغايا، ولا سجد لصنم. وقد روي عن علي كرم الله وجهه قوله: لقد قرن الله برسوله ﷺ أعظم ملك من ملائكته[٢].

النبي ﷺ والعمل:

لم يكن نبي الله ﷺ بمعزل عن حياة الناس، وأبرز ما نُقِلَ عن حياته قبل النبوة هو ما نقصُّه ليكون لنا بعون الله عبرة وأسوة:

١- الرعي: قال ﷺ: "**ما بعث الله نبيًا إلا رعى الغنم**"، فقال أصحابه: وأنت؟ قال: "**نعم، كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة**"[٣]. وفي رواية: "**بُعِثَ موسى وهو راعي غنم، وبُعِثَ داود وهو راعي غنم، وبعثتُ وأنا أرعى غنم أهلي بأجياد**"[٤].

العبرة والدرس:

---

(١) ابن هشام ١/١٨٣. والسبل ٢/١٩٨. والبداية والنهاية ٢/٣٤٩.

(٢) نهج البلاغة ٤٦٩.

(٣) البخاري ٢١٤٣ كتاب الإجازة، ورواية برقم ٣٢٢٥. قالوا: أكنت ترعى الغنم؟ قال: وهل من نبي إلا وقد رعاها، وتكرر برقم ٥١٣٨.

(٤) المسند رقم ١١٩١٨ عن أبي سعيد الخدري . ومجمع الزوائد ٤/٦٥ وقال : فيه الحجاج بن أرطأة وهو مدلس.

أ- لو شاء الله أن يولد الرسل بين خِرَقِ الحرير، وملاعق الذهب لفعل، ولكنه أراد أن يكونوا قدوة البشر في ميدان العمل والنشاط والارتزاق من كسب أيديهم؛ فخير ما أكل المرؤ من كسب يده، بل وردت آثار تجعل العمل عبادة تمسح الذنوب.

قال ابن عباس: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: "**مَن أمسى كَالاً من عمل يديه أمسى مغفورًا له**"[1]. وعن أبي هريرة عنه ﷺ: "**إن من الذنوب ذنوبًا لا يكفرها الصلاة ولا الصيام ولا الحج ولا العمرة، قالوا: فما يكفرها يا رسول الله؟ قال : الهموم في طلب المعيشة**"[2].

والآثار في هذا وإن كان في بعضها مقال، إلا أنها من الكثرة قد تصل إلى حد التواتر حول معنى واحد وهو حث الإسلام على العمل ليعول الإنسان نفسه وأهله، فحتى اللقمة يضعها في فم امرأته له بذلك أجر.

إن البطالة ومضيعة الوقت شيء مخيف، ومشكلة ثقيلة على كاهل الشعوب. أما الإسلام فقد حذَّر أفراده من تضييع الوقت والمال والشباب، يقول ﷺ: "**لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع: عن عمره فيما أفناه، وشبابه فيما أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه، وفيما أنفقه، وعن حبنا أهل البيت**"[3].

إن الإنسان مِلْكٌ لله ويجب أن يمشي وفق منهج الله، والذي أهدى له الأرض ليستمتع بخيراتها، ويعبدْ عليها، وحذَّره من تعطيل الأرض وكُفْرِ النعمة، قال تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ۝ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ ۝ وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ﴾ [الرحمن: ١٠-١٢]. ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ

(١) الطبراني في الأوسط رقم ٧٥٢٠، ومجمع الزوائد ٦٣/٤.

(٢) الطبراني في الأوسط ١٠٢ ، ومجمع الزوائد ٦٣/٤.

(٣) الطبراني في المعجم الكبير ١٠٢/١١ رقم ١١٠٧٧. وأمالي أبي طالب ٧٣.

ٱلْأَرْضَ ذَلُولاً فَٱمْشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ﴾ [١٥: الملك]. ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [١٤: النحل].

﴿أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [٢٠: لقمان]. ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم ٣٤،٣٢] .

ب- التواضع والتعامل مع الواقع:

فقد كانت الفرصة المتاحة أمام النبي ﷺ هي رعي الغنم والتجارة، فلم يتردد في عمل ما أتيح له، ولو كانت مكة زراعية لحرث وزرع . أليس هو الذي يقول: "**إذا قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة فليغرسها**"[١] .

هذا هو الدين الذي تخلى أهله عن روائع تعاليمه؛ فها نحن متكدسون في المدن، هجرنا قرانا ومزارعنا، واحتشدنا في كادر إداري ضخم صنعنا فيه مصطلحات فارغة المعنى.

---

(١) رواه في الكامل ٢٩٢/٦ للجرجاني. وأنوار النبوة على الحديث واضحة.

ج- لنا أن نفهم من رعي الغنم أهمية الثروة الحيوانية لننتفع بلحمها الطري ولبنها السائغ ؛ فهي أجود لصحتنا من الدجاج المستورد المثلج المكتوب عليه مذبوح بالطريقة الإسلامية حرصًا على شعورنا الميت. وصار الأبناء لا يجدون غير الطعام المعلب من الجبن الهولندي إلى اللحم الدانمركي إلى الشكولاتة المعجونة بلحم الخنزير.

د- قال العلماء: الحكمة من رعي الأنبياء للغنم قبل النبوة أن يحصل لهم الحلم والشفقة ؛ لأنهم إذا صبروا على رعيها، ودفع عدوها عنها، وعلموا اختلاف طباعها، وشدة تفرقها مع ضعفها واحتياجها إلى المعاهدة - ألفوا من ذلك الصبر على الأمة، وعرفوا اختلاف طباعها وتفاوت عقولها؛ فجبروا كسرها، ورفقوا بضعيفها، وأحسنوا التعاهد لها ، فيكون تحملهم لمشقة ذلك أسهل مما لو كلفوا القيام بذلك من أول وهلة؛ لما يحصل لهم من التدريج على ذلك برعي الغنم. وخصت الغنم بذلك لكونها أضعف من غيرها، ولأن تفرقها أكثر من تفرق الإبل والبقر. وفي ذِكْر النبي ﷺ للرعي وهو أكرم الخلق، تواضع عظيم لربه، وتصريح بمنته عليه وعلى إخوانه من الأنبياء صلى الله عليهم أجمعين[1].

هـ- رَعْيُ الغنم في الشعاب الهادئة أحب إلى قلب صبي موهوب معد لأمر عظيم - من صخب مكة ومجونها فهو يبحث عن فرصة للتأمل كما فعل أبوه إبراهيم الخليل عليه السلام: إن قومه قريشًا يعبدون الأصنام، فيا ترى أهي نصبت الجبال، وبسطت السهول، وشقت الأودية، أهي المسئولة عن السماء ونجومها والأرض ومن عليها؟ إنها صماء عمياء، فإذا كان قطيع من الغنم يستنفد من صاحبه الجهد في حمايته ورعايته فمن هو الحافظ لهذا الكون والمهيمن عليه؟.

---

(١) فتح الباري ٤/٤٤١ كتاب الإجارة. بتصرف.

مع هذا الذكاء الفطري والنقاء الطبيعي عناية الله وعصمته له من كل سوء. روي أنه طلب من زميله أن يحرس له غنمه ليحضر عرسا بمكة فما قعد ليسمع الغناء حتى غلبته عينه فنام حتى الصبح، وعاد ليلة أخرى فنام[١].

وجهة نظر:

يرى البعض أن قصة رعي الغنم غير صحيحة، ولا تليق بالنبي ﷺ، ولا يحتاج إلى تدريب برعي الغنم ليرعى الأمم ، فالجبروت والظلم والإهمال إذا كانت غريزة في الشخص فما رَعْيُ الغنم لها بنافع[٢].

قال الشيخ الغزالي رحمه الله: إن أناسًا ظلوا يتعلمون قرابة عشرين سنة تعرض عليهم القضية فيخبطون فيها خبط عشواء، فإذا عرضت القضية نفسها على أمي سليم الفطرة نقي العقل صدع فيها بالحق لأول وهلة.

ومعنى ذلك أن هناك من تبذل في إقامة عوجه العقلي عشرين سنة حافلة بالبحث والدرس فتعجز عن الوصول به إلى مرتبة رجل أوتي رشده بأصل الخلقة. ونحن موقنون من مطالعة سيرة محمد ﷺ بأنه طراز رفيع من الفكر الصائب والنظر السديد، وأنه – قبل رعي الغنم وبعدَه ، وقبل احتراف التجارة وبعدها – كان يعيش يقظ القلب في أعماء الصحراء، صاحيًا بين السكارى والغافلين[٣].

---

(١) البداية والنهاية ٤/٣٥٠.

(٢) الصحيح من سير النبي ٢/٩٩ بشيء من المعنى .

(٣) فقه السيرة ٧١.

ثم إن رواية الرعي على قراريط مشكلة، فما عرف أن القيراط جزء من الدينار والدرهم إلا متأخراً فما كانت العرب تعرفها. وبعضهم فسر القراريط بأنه اسم موضع بمكة، لكنه لا يعرف مكان بهذا الاسم[1]، والله أعلم.

حرب الفجار:

حضر ﷺ حرب الفجار الرابعة مع أعمامه وقومه ومعهم قبيلة كنانة ضد قبيلة قيس عيلان هوازن، واختلف في سنه بين ١٤ و ١٥ و ٢٠ سنة، وهل قاتل أو أعان؟. وسببها أن النعمان بن المنذر كان يبعث كل سنة بقافلة تحمل المسك ونحوه إلى عكاظ، وتعود بالجلود والحبال وبرود اليمن، فعرضَ البرَّاضُ الكناني وعروةُ الرحال الهوازني نفسيهما لحمايتها فاختار عروة ؛ فاعتبر البراضُ ذلك تحديًا من عروة فغافله في الطريق فقتله في الشهر الحرام فنشبت الحرب واستُحلَّتِ المحرمات فسميت بالفجار.

حلف الفضول:

افتقرت مكة وقريش بعد موت هاشم وعبدالمطلب بن هاشم إلى رجل مهاب الجانب مسموع الكلمة إذ وجد اللئيم نفسه بغير رادع، والظالم بغير وازع، وسبب هذا الحلف أن رجلاً من زبيد باع بضاعة من العاصي بن وائل السهمي فمطله بالثمن، فاستعدى عليه قبائل قريش فانتهروه فقام صارخًا وقريش حول الكعبة:

يا آل فِهْرٍ لمظلوم بضاعته   بِبَطنِ مكة نأتي الدار والنَّفرِ

في أبيات استغاثهم بها، فقام الزبير بن عبدالمطلب، وقال: ما لهذا مترك، فاجتمعت هاشم وزهرة وتيم في دار عبدالله بن جُدعان ، فتعاقدوا وتحالفوا في

---

(١) فتح الباري ٤/٤٤١ كتاب الإجارة.

شهر القعدة الحرام قيامًا على نصرة المظلوم ، والتآسي في المعاش ما بَلَّ بَحْرٌ صُوفةً، وما رسا حِرَاءٌ وثبير مكانهما، فَسُمِّي حلف الفضول؛ لأنهم دخلوا في فضول من الأمر ؛ ثم مشوا إلى العاصي فأرغموه على رد سلعة الزبيدي . قال الواقدي: ولا نعلم أحدًا سبق بني هاشم بهذا الحلف. وفي هذا الحلف الذي تستريح له النفوس الزكية قال النبي ﷺ: " **لقد شهدتُ في دار ابن جدعان حِلفًا ما أحب أنَّ لي به حمرَ النعم، لو دعيتُ به في الإسلام لأجبت**"[١] .

الدرس والعبرة:

١- من الجدير بالنبلاء أن يعيشوا هموم الناس، فإن كانوا على خير أعانوهم، أو ردوهم عن غيهم عملاً بالحديث الشريف: "**انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا**، قالوا: هذا المظلوم، فما بال الظالم؟ قال: " **ترده عن ظلمه**"[٢]. فالسلبية سوأة أخلاقية.
ومن عجيب أمر الفجار – ومحمد ﷺ كان صغيرًا – أن عتبة بن ربيعة كان يتيمًا في حجر حرب بن أمية، وقد ضربه إشفاقًا من خروجه معه، فلم يشعر إلا وهو على بعيره بين الصَّفَّين ينادي: يا معشر مُضَر علام تفانون؟ فقالت هوازن: فما تدعو إليه؟ قال: الصلح على أن ندفع لكم دية قتلاكم ونعفوا عن دمائنا. قالوا: وكيف ذاك؟ قال: ندفع إليكم رُهُنًا منا. قالوا: ومَن لنا بهذا؟ قال: أنا. قالوا: ومن أنت؟ قال: أنا عتبة بن ربيعة بن عبد شمس، فرضُوا ورضيت كنانة ودفعوا إلى هوازن أربعين رجلاً، فيهم حكيم بن حزام، فلما رأوا الرُّهُنَ في

---

(١) الطبقات ١/١٢٨. والسبل ٢/٢٠٨. والسنن للبيهقي ٦/١٦٧، والبداية ٤/٣٥٥.

(٢) البخاري رقم ٢٣١١ –٢٣١٢، والترمذي رقم ٢٢٥٥. ومسند أحمد برقم ١١٩٤٩.

أيديهم عفوا عن الدماء وأطلقوهم، وانقضت حرب الفجار. وكان يقال: لم يَسُد من قريش مُملق غير عتبة وأبي طالب فإنهما سادا بغير مال. وعتبةُ هذا كان ينهى قريشًا عن حرب النبي ﷺ يوم بدر، وقال لهم: ارجعوا واعصبوها برأسي وقولوا: جَبُنَ عتبة ؛ فقال النبي ﷺ: إن كان في أحد منهم خير ففي صاحب الجمل الأحمر يعني عتبة[1].

٢- أحبَّ النبي ﷺ الصلح والمصلحين، وكان حلف الفضول أحب إليه من حمر النعم؛ لأنه لنصرة المظلوم وقمع الظالم، وصدق الله: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [١١٤: النساء].

٣- النبي ﷺ في العشرين من عمره وهو يرقب الأحداث والرجال ويشترك فيها وبدأ يخطط لمستقبل جديد.

خديجة الكبرى رضي الله عنها وزواجها برسول الله ﷺ[2]:

كانت خديجةُ بنتُ خويلد بن أسد بن عبدالعزى بن قصي بن كلاب امرأةً تاجرةً ذاتَ شرف ومال تستأجر الرجال في مالها، فلما بلغها عن رسول الله ﷺ ما بلغها من صدق حديثه وعظيم أمانته وكرم أخلاقه بعثت إليه فعرضت عليه أن يخرج في مالها إلى الشام مع غلامها ميسرة، وتعطيه أفضل ما تعطي غيره، فخرج وعمره ٢٥ سنة. وقيل: إن أبا طالب سأل خديجة أن تستأجر ابن

(١) السبل ٤/٥٠. وابن أبي شيبة رقم ٣٦٦٧٨، ودلائل النبوة ج٣ص٦٣.

(٢) ابن هشام ١/١٨٧. وأسد الغابة ١/١٢٤. وسيرة ابن كثير ١/٢٦٢. وعيون الأثر ١/١١٥. والغزالي ٧٨. وحياة محمد ١٢٠. والسبل ٢/٢٢٢. والطبقات ١/١٢٩. والمواهب ١/١١١. والطبري ٢/٢٨٠.

أخيه قائلا: هل لك يا خديجة أن تستأجري محمدًا؟ وإنك قد استأجرت فلانًا بِبَكْرَين ولا نرضى لمحمد دون أربعة، فكان جواب خديجة لو سألت ذلك لبعيد بغيض فعلنا، فكيف وقد سألتَه لحبيب قريب!.

حالف محمدًا ﷺ الحظ في رحلته التجارية، وتمكن بحلو شمائله وجاذبيته وذكائه وأمانته أن يوفر لخديجة رضي الله عنها ربحًا مضاعفًا، وابتاع لها كل ما رغبت أن يعود به معه، أما ميسرة فقد بهره هذا الشاب الرائع، وأجَلَّه أيما إجلال، ليس لكريم أخلاقه وحسن مصاحبته فحسب؛ بل رَوَى أنه كان يرى ملكين يظللانه وقت الهاجرة، وفي الشام أخبره نسطور الراهب أن محمدًا نبي هذه الأمة. وفي سوق بصرى اختلف النبي ﷺ مع رجل في سلعة فقال الرجل: احلِفْ باللات والعزى، فقال: ما حلفت بهما قط، فقال الرجل: القول قولك، ثم خلا بميسرة وقال: هذا نبي، والذي نفسي بيده إنه لهو، نجد وصفه في كتبنا[1].

نَقَلَ ميسرةُ ما رأى وسمع لخديجة، واستمعت من محمد ﷺ نفسهِ يشرح الرحلة بأعذب بيان غيرَ مُدِلٍّ ولا متطلع إلى جمالها ومالها، وبينما هو يتحفز للقيام ليذهب راضيًا مرضيا بنجاح مهمته، كان قلب خديجة يدق بمحبة هذا الشاب الذي لا يتكرر مثله في الرجال. قال البويصري:

ورأتــه خديجــةٌ والتقــى والــز	هــدُ فيــه ســجيةٌ والحيــآءُ
وأتاهــا أن الغمامــة والسَّــرْ	حَ أظلَّتْــه منــهما أفيَــاءُ
وأحاديــثُ أنَّ وَعْــدَ رســولِ ال	لــهِ بالبعــث حــان منــه الوفــاءُ
فدعتــه إلى الــزواجِ ومــا أحــ	ســنَ مــا يبلــغُ المــنى الأذكيــاءُ[2]

---

(١) عيون الأثر ١/١١٧. البداية ٢/٣٥٨. والطبري ٢/٢٨٠.

(٢) ديوانه ص٥٢.

لم تُضَيِّعْ خديجةُ رضي الله عنها الفرصةَ فسارعت إلى إبلاغ الصادق الأمين بقولها: يا ابن عم إني قد رغبتُ فيك لقرابتك، وسِطَتكَ في قومك، وأمانتك، وحسن خلقك، وصدق حديثك، وعرضت نفسها عليه. وقيل: باحت بما في نفسها لصديقتها نفيسة بنت مُنْيَة فحدثت رسول الله ﷺ حديث الوسيط المحنك: وأجرت معه هذا الحوار: ما يمنعك أن تتزوج؟ قال: ما بيدي ما أتزوج به، قالت: فإن كُفِيتَ ذلك ودُعيتَ إلى الجمال والمال والشرف والكفاءة ألا تجيب؟ قال: ومن هي؟ قالت: خديجة، قال: كيف لي بذلك وقد ردت أشراف قريش وأغنياءَها؟ قالت: عليَّ ذلك، فأخبر أعمامه فخرج معه عمه الحمزة، وقيل: أعمامه، وقيل: عمه أبو طالب والحمزة، وخطب أبو طالب فقال: أما بعد فإن محمدًا ممن لا يوازن به فتى من قريش إلا رجح به شرفًا ونبلاً وفضلاً وعقلاً، وإن كان في المال قُلٌّ ، فإنما المال ظل زائل وعارية مسترجعة. وله في خديجة بنت خويلد رغبة، ولها فيه مثل ذلك، فقال عمرو بن أسد عم خديجة رضي الله عنها مبديًا إعجابه بمحمد ﷺ: هو الفحل لا يُقْدَعُ أنفُه[1]، وأنكحها منه، وأمهرها عشرين بكرة. وذكر اليعقوبي[2] أن هالة أخت خديجة أو عزت لعمار بن ياسر فكلم رسول الله ﷺ.

---

(١) قَدَعَ الفحل: ضرب أنفه بالرمح إذا كان غير كريم. يضرب مثلا للكريم. تاج العروس١١/٣٥٤.

(٢) في تأريخه ١/٣٤٠.

ولا صحة لرواية أن والد خديجة رضي الله عنها عقد بها وهو سكران فلما صحى أنكر العقد ثم أمضاه[1] ؛ لأنه توفي قبل حرب الفجار[2].

كان عمر النبي ﷺ ٢٥ سنة وهو الأشهر. وقيل: ٣٠ وقيل: ٢١. وعمر خديجة ٤٠ وهو الأشهر ، وقيل: ٤٥ وقيل: ٣٥ أو ٣٠ أو ٢٨ أو ٢٥.

الأسرة السعيدة:

زفت أفضل نساء قريش وأكمل الزوجات على وجه الأرض إلى سيد بني آدم، وأنجبت له كل أولاده: القاسم، وكان النبي ﷺ يكنى به، ثم رقية، ثم زينب، ثم أم كلثوم قبل البعثة. ثم فاطمة الزهراء عليها السلام، ثم عبدالله الملقب بالطيب والطاهر بعد البعثة. أما إبراهيم فأمه مارية القبطية.

قال ابن إسحاق: إن القاسم وعبدالله هلكا في الجاهلية بمكة، وأما بناته فكلهن أسلمن وهاجرن معه. ومِتن قبله إلا فاطمة عليها السلام فقد ماتت بعده بستة أشهر[3]. وذكر السهيلي أن القاسم مات في الإسلام، وقد كان قادرًا على المشي[4].

أم المؤمنين الأولى خديجة الكبرى رضي الله عنها – الدرس والعبرة:

الأسرة هي اللَّبنة الأولى في البناء الاجتماعي، والتناسب بين الزوجين سرُّ نجاحها، فأين التناسبُ بين محمد ﷺ وخديجة رضي الله عنها؟ فهي كبيرة في السن، غنية، تزوجت برجلين قبله وأنجبت، وهو أصغر منها ب ١٥ سنة، فقير.

---

(١) المصنف لعبد الرزاق ٥/٣٢٠. عن الزهري.
(٢) الروض الأنف ١/٢١٣.
(٣) ابن هشام ١/١٩٠.
(٤) الروض الأنف ١/٢١٤. والتحف ٣٣.

بكر. والجواب: أن خديجة رضي الله عنها كسرت الفوارق والتقت مع النبي ﷺ في المبادئ التقاء الماء بالماء ؛ فهي عاقلة، ذكية، شريفة، جميلة، عفيفة، كاملة. أما الرسول فكما قيل:

ليس على الله بمستنكر   أن يجمع العالم في واحد

لم يكن مصادفة أن يقترن محمد ﷺ بامرأة مثل خديجة رضي الله عنها، فلا يمكن إلا أن تكون يد القدرة أعدها وهيأها كما أعدت وهيأت زوجها العظيم، فلو كان في النساء نبيات لكانت خديجة، إني والله مبهور إزاء هذه الأم المباركة لما وهبها الله من ذكاء وقّاد، وقلب حنون، ونفس كبيرة، وشجاعة توازي شجاعة جيش الفتح كاملاً إن انضم إليها عظيم مثلها هو أبو طالب عم الرسول فقد قام الاثنان منفردين في مكة بما قام به المهاجرون والأنصار مجتمعين في المدينة. إنّ خديجة مدرسة عتيقة وجامعة ضخمة يتعلم فيها الرجال قبل النساء، وها نحن نلتقط بعضًا من الدروس:

١- شمرت السيدة خديجة رضي الله عنها تشمير أولي العزم في تكوين شخصيتها؛ فبرزت للدنيا بعد نسبها الشريف عاقلة ذكية غنية عالية الأخلاق جمة المكارم، تختزن طاقة جبارة من الإبداع وتقدير المواقف وتصريف الأمور، ولديها موهبة نادرة، ونظرة ثاقبة في التنبؤ بالمستقبل واستشراف الغيب، و لم تجد في أنوثتها ما يمنعها من التفوق المعنوي والمادي على كثير من الرجال.

٢- التقطت ذبذباتُ قلبها أخبارَ شاب هو بالنسبة لشباب مكة كالجوهر قياسًا بالمدر، فالتقطت هذه الجوهرة وأودعتها قلبها وعقلها وسواد عينها، كما التقطت ابنة شعيب موسى قائلة لأبيها: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ [٢٦: القصص] ، وبادرت خديجة كما بادرت ابنة شعيب إلى ترشيح

نفهسا زوجًا لأعظم رسل الله لثقتها بأنها المرأة الوحيدة المناسبة لشغل هذا المنصب الرفيع.

٣- استطاعت بكفاءة فائقة أن تملأ قلب الفتى النبيل الذي يصغرها بخمسة عشر سنة؛ لأنها طراز نادر من النساء، فلا تقع عين زوجها منها إلا على كل جميل، ولا تسمع أذناه إلا كل حسن، عاملته معاملة الحبيب المدلل، والمَلِك المهيب ، ومنحته مالها ونفسها بدون منة ولا إدلال.

هكذا يجب أن تكون النساء غذاءً سهلَ الهضم، وشذى ينعش الروح والبدن، وواحة ترتاح فيها النفس، ويفرح بمرآها القلب.

٤- مثلت دور الأم فمنحته من الحنان والعطف والشفقة ما بَزَّتْ به الأمهات، وأنسته وحشة اليتم وقسوة الحياة.

٥- عاشت مع زوجها المبادئ قبل العاطفة ، فآمنت به عن ثقة واطمئنان، فهي ترقب في رجلها الشهم خصائص فوق طاقة البشر.

٦- الكفاءة والتناسب في الزواج من العوامل الهامة في السعادة الزوجية واستقرار الأسرة، وأهمُّ ركائزها الدينُ والخُلُقُ في الزوجين ليضمن كلاهما حقوق صاحبه التي شرعها الله.

٧-حفظت خديجة رضي الله عنها حقوق زوجها كزوج، وحُرْمَتَه كنبي، فأعطته كل شيء، وآمنت به قبل كل حي، فحفظ الله لها مكانتها، وأرسل جبريل يُقرؤها السلام، ويبشرها ببيت في الجنة من قَصَبٍ، لا نصب فيه ولا صخب[1] .

(١) البخاري رقم ٣٦٠٥/٣٦٠٩. ومسلم رقم ٢٤٣٢/٢٤٣٥ فضائل خديجة.

وحفظ النبي للزَّوج الأولى، وأم المؤمنين الأولى، والمؤمنة الأولى والمجاهدة الأولى، وأم أولاده الأخيرة والأولى- عَهْدَ الود والوفاء ، فما فارقت خياله، ولا توقف عن ذكرها، بل كان يحن حنين الهائم إلى ذكرياتها ويتشمم في الربوع آثارها، فما ذبح شاة ولا وصل إلى يديه خير إلا تعاهد أصدقاء خديجة ، ومن كان يهوى دار خديجة رضي الله عنها، ويقول: اذهبوا بهذا لفلانة فقد كانت تأتينا أيام خديجة[١].

حتى أثار ذلك الحنين والوفاء غِيرةَ عائشة البكر الوحيدة من أزواجه ، فقالت: إن هي إلا عجوز أبدلك الله خيرًا منها، فقال: ما أُبدلتُ خيرًا منها؛ أعطتني حين منعني الناس، وواستني حين حرمني الناس، وصدَّقتني حين كذبني الناس، ورزقني الله منها الولد[٢]. صلى الله عليك يا خير الأزواج، وأكرم من حصَّن النساء، وأوفى من عرفته الدنيا.

٨- استمر الزواج ربع قرن ، ما فكَّر النبي ﷺ في غيرها حُرَّةً ولا أَمَةً ، ولو فعل ما خالف المألوف، وهذا يخرس المستشرقين الزاعمين بأن محمدًا شهواني كثير النساء ؛ فإذا تزوج بعد ذلك وقد ذهب قَرَمُ الشباب، فإنما هو لمصلحة الدعوة، وجبر الخواطر المكسورة، ولو أراد المتعة لتزوج من الأبكار ما شاء لكنه لم يفعل.

(١) أمالي أبي طالب ص٤٠. وفي البخاري رقم ٣٦٠٧، ومسلم ٢٤٣٥.
(٢) أحمد في المسند ٢٤٨١٨/٩. ومجمع الزوائد ٢٢٤/٩.

اشتراك النبي ﷺ في بناء الكعبة[1]:

كانت الكعبة رَضْمًا من الحجارة فوق القامة، فنزل عليها سيل كاد أن يهدمها، وتعرض كنزها للسرقة، فعزمت قريش على إعادتها، وتواصوا بأن لا يُدخِلُوا في بنيانها كسبا خبيثا، وصادف أن قذف البحر بسفينة شروا أخشابها للسقف، وتسابق الجميع لشرف العمل بالكعبة، وفي المقدمة سادة قريش، كل حريص على إنجاز حصته المقسومة له .

قيل: إنهم هدموها إلى أن أفضوا إلى حجارة خضر كأسنمة الإبل فحاول أحدهم تحريكها فتحركت مكة فبنوا على ذلك الأساس ، أساس إبراهيم.

كان النبي ﷺ مع عمه العباس ينقلان الحجارة، فأشار عليه أن يضع إزاره على عاتقه وقاية من الحجارة، فلما حاول حَلَّه خرَّ إلى الأرض وطمحت عيناه إلى السماء، ثم أفاق فقال: **إزاري إزاري، فشَدَّ عليه إزاره**[2] .

تحكيم النبي ﷺ في وضع الحجر الأسود:

لما وصل البناء إلى مكان الحجر تنازعوا أيهم يضعه، وتفاقم الخلاف حتى كادوا يقتتلون، وقربوا جفان الدم، فاقترح أحدهم أن يُحَكِّمُوا أول داخلٍ بابَ الصفا، فكان محمدًا ﷺ، فقالوا جميعًا: الأمين رضينا بحكمه. فدعى ﷺ بثوب

---

(١) ابن هشام ١٩٢/١. والطبقات ١٤٥/١. وابن كثير ٢٧٠/١. والروض الأنف ٢٢١/١.

(٢) البخاري رقم ٣٦١٧. والبداية ٣٥٠/٢، ومسلم ٢٦٨/١ برقم ٣٤٠ ومابعده.

فوضع الحجر عليه وأمر زعماء القبائل أن يأخذوا بأطراف الثوب ، ورفعوه فوضعه بيده الشريفة في مكانه.

الكعبة عبر التأريخ:

بناها إبراهيم وولده إسماعيل، عليهما السلام ثم قريش. ثم عبدالله بن الزبير لَـمَّا هدمها الحجاج بالمنجنيق حال حصاره له، وأدخل فيها الحِجْرَ عملاً برواية خالته عائشة أنه ﷺ قال: " **لولا أن قومك حديثو عهد بالإسلام لهدمت الكعبة وأعدتها على قواعد إسماعيل**"[1]؛ فهدمها عبدالملك بن مروان وردها على بناء قريش وقال: مالنا ولتخليط أبي خبيث، فلما بلغه الحديث ندم. ثم أراد أبو جعفر المنصور العباسي أن يردها على بناء ابن الزبير. فنهاه الإمام مالك وناشده أن لا يجعل من البيت ملعبة للملوك من شاء أن يهدمه هدمه حتى تذهب هيبته من القلوب[2].

العبرة والدرس:

(١) البخاري رقم ١٥٠٦،١٥٠٩. ومسند أحمد رقم ٢٤٧٦٣، ٢٥٤٩٣، ٢٥٥١٨، ٢٥٥٢١، ومسلم ٢/٩٦٨ رقم ١٣٣٣.

(٢) الروض الأنف ١/٢٢١.

١- دل رضى قريش بمحمد ﷺ وحكمه على مكانته فيهم لا لأنه حفيد عبدالمطلب فحسب بل لصفاته الذاتية التي عبَّروا عنها بالأمين ، وأي وصف أغلى من الأمانة؟.

٢-أظهر حُكمُه في شأن الحجر موهبةً فطرية، وعقلية وقادة، ودراية تامة بنفسيات المجتمع، فما كانت تطيب نفوس القبائل لولا أن يَسَّر لزعمائهم التشبث بأطراف الثوب وإلا لسالت دماؤهم على الرمال لا يبالون.

٣- العقلاء نعمة لا تُقدر بثمن، فهم صمام الأمان من الكوارث التي يصنعها الإنسان بيديه ؛ فالذي أشار بالتحكيم رجل عاقل كافأه الله بدخول أكرم نسمة، وبحُكمٍ أثلج الصدور.

خلوة النبي ﷺ وعبادته في غار حراء[1]:

اقترب عمره الشريف من الأربعين محبًا للخلوة نافرًا من الأصنام متأملاً في المخلوقات التي تدعو العقلاء إلى الاعتراف بالخالق، وكان يطربه نشيد زيد بن عمرو بن نفيل الرافض للوثنية:

أربًّا واحدًا أم ألفَ رَبٍّ ... أدِينُ إذا تقسَّمتِ الأمورُ
عزلت اللات والعزى جميعًا ... كذلك يفعل الجَلْدُ الصبورُ

وسمع قس بن ساعدة على ناقته بعكاظ يقول: أيها الناس اسمعوا وعُوا، وإذا وعيتم فانتفعوا، إنه من عاش مات، ومن مات فات، وكل ما هو آتٍ آت.

---

(١) البخاري ١/٤ رقم ٣. وفتح الباري ١/٢٢. ومسلم ١/١٣٩ رقم ١٦٠. وابن هشام ١/٢٣٤.

إن في السماء لخبرا، وإن في الأرض لَعِبَرا: ليل داج ، وسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، وبحار ذات أمواج.

البعرة تدل على البعير، والأثر على المسير، أفلا يدل ذلك على اللطيف الخبير؟ مالي أرى الناس يذهبون فلا يرجعون، أرضوا بالمقام فأقاموا، أم تُركوا فناموا؟ أقسَمَ قسٌّ قسمًا حقًا لا حانثًا فيه ولا آثما، إن لله دينًا هو أحب إليه من دينكم الذي أنتم عليه، ونبيًا خاتمًا حان حينه، وأظلكم أوانه، وأدرككم إبَّانه ؛ فطوبى لمن آمن به فهداه، وويل لمن خالفه وعصاه. قال النبي ﷺ: لو التفت لرآني[1] .

ثم قال: تبًا لأرباب الغفلة من الأمم الخالية والقرون الماضية، يا معشر إياد أين الآباء والأجداد، وأين المريض والعواد، وأين الفراعنة الشداد، أين من بنى وشيَّد، وزخرف ونَّجد، وغره المال والولد، أين من بغى وطغى، وجمع فأوعى ، وقال: أنا ربكم الأعلى؟، ألم يكونوا أكثر منكم أموالاً وأولادًا، وأبعد منكم آمالاً، وأطول منكم آجالاً؟، طحنهم الثرى بِكَلْكَلِه، ومزقهم الدهر بتطاوله فتلك عظامهم بالية ، وبيوتهم خالية، عمرتها الذئاب العاوية. ثم قال:

في الذاهبين الأولين ... من القرون لنا بصائرْ
لما رأيتُ مواردًا ... للموت ليس لها مصادرْ
ورأيت قومي نحوها ... يمضي الأصاغر والأكابرْ
لا يرجع الماضي ولا ... يبقى من الباقين غابرْ
فعلمت أني لا محا ... لة حيث صار القوم صائرْ

---

(١) الطبراني ٨٨/١٢. وكنز الفوائد ١٣٤/٢ . والسبل ٢٥٢/٢. والبيان والتبيين للجاحظ ٣٠٨/١. والدلائل ١٠١/٢.

وحال خلوته وفَّرت السيدة خديجة رضي الله عنها لزوجها الراحة والهدوء، وكفته مؤنة البيت، وزوَّدته في الغار بما يحتاج إليه، فكان يتعبد الليالي ذوات العدد ثم يعود لأهله ويتزود لمثلها حتى أتاه اليقين، وأذن الله لنور الهداية أن يظهر.

بدء الوحي[1]:

المشهور أن الوحي نزل على رسول الله ﷺ وأكرمه الله بالنبوة وعمره أربعون سنة. وزاد بعضهم عشرة أيام، وبعضهم شهرين، وبعضهم سنتين، وبعضهم ثلاثا، وبعضهم خمسًا في يوم الإثنين نهارًا ؛ لقوله ﷺ: " **ذاك يوم ولدت فيه، وفيه بعثت**"[2]، واختلف في الشهر: فقيل: ١٧ رمضان أو ٧ أو ١٤ أو في آخره وهو الراجح. وقيل في: ١٧ رجب. وقيل: أول ربيع الأول . وقيل: في ثامنه[3]، الموافق ٦١٠م.

عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت: أولُ ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ثم حبب إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء[4]، فيتحنث فيه[1] الليالي ذوات العدد قبل أن

---

(١) البخاري رقم ٣ ورقم ٤٦٧٠. وفتح الباري ٢٢/١. و٧١٥/٨. ومسلم ١٦. والحلبية ٢٧٣/١، ومروج الذهب ٢٧٥/٢. والبداية ٥/٣. والطبري ٢٩٨/٢.

(٢) مسلم ١١٦٢.

(٣) ينظر الروض الأنف مع ابن هشام ٢٦٥/١. واليعقوبي ٢٠١/١. والطبري ٢٩٠/٢. والبداية والنهاية ٣/٥.

(٤) رأس الجبل على بعد ثلاثة أميال شمال الحرم.

ينزع إلى أهله، ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها حتى جاءه الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملك [جبريل]، فقال: اقرأ، قال: ما أنا بقارئ، قال: فأخذني فغطَّني حتى بلغ مني الجهد[٢]، ثم أرسلني فقال: اقرأ، قلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطَّني الثانية حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ ، فأخذني فغطَّني الثالثة، ثم أرسلني فقال: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴾[٣] .

فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد رضي الله عنها، فقال: "زملوني، زملوني" فزملوه حتى ذهب عنه الروع[٤]. فقال

---

(١) بمعنى يتحنف أي يتبع الحنيفية دين إبراهيم، والفاء تبدل ثاء وفي كثير من كلامهم. فتح الباري ١/٢٣.

(٢) غطني ضمني، وعصرني حتى حبس نفسي، والجهد غاية الوسع. الفتح ١/٢٤. وما: في ما أنا بقارئ للنفي أي لا أحسن القراءة، والباء لتأكيد النفي، قال أبو سامة عن سؤال لماذا تكرر النفي ثلاثًا: يحمل قوله الأولى على الامتناع، والثاني على الإخبار، والثالث على الاستفهام. الفتح ١/٢٤. قال الحافظ: لعل حكمة التكرار ثلاثا إشارة إلى ما ينشأ عن الوحي من قول وعمل ونية، واشتماله على التوحيد والأحكام والقصص.

(٣) العلق أول القرآن، وقيل: الفاتحة، وقيل: المدثر.دلائل النبوة ٢/١٥٥. وأسباب النزول للواحدي ٥.

(٤) زملوه: لفوه بثوب، والروع: الفزع.

لخديجة وأخبرها الخبر: "**لقد خشيت على نفسي"**[1]، **فقالت خديجة: كلا والله ما يخزيك الله أبدا ؛ إنك لتصل الرحم، وتحمل** الكل، وتكسبُ المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق[2].

فانطلقت به خديجة رضي الله عنها حتى أتت وَرَقَة بن نوفل بن أسد بن عبد العزَّى ، ابن عم خديجة رضي الله عنها، وكان امرأ تنصَّر في الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العبراني، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخًا كبيرًا قد عمي، فقالت خديجة رضي الله عنها: يا ابن عم، اسمع من ابن أخيك، فقال ورقة: يا ابن أخي ما ذا ترى؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى، فقال ورقة: هذا الناموس الذي نَزَّلَ الله على موسى، ياليتني فيها جذَع، ليتني أكون حيا إذ يخرجك قومك ، فقال رسول الله ﷺ " أو مُخْرِجِّي هُمْ "؟. قال: نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي، ثم لم ينشب ورقة أن توفي، وفتر الوحي.

فترة الوحي واقتران إسرافيل عليه السلام بالنبي ﷺ:

---

(١) اختلف العلماء في الخشية على اثني عشر قولا: منها الجنون، والهاجس، والموت من شدة الرعب، ودوام المرض، والعجز عن حمل أعباء النبوة، والعجز عن النظر إلى الملك من الرعب، وعدم الصبر على أذى قومه، وأن يقتلوه، وأن يفارق الوطن، وأن يكذبوه، وأين يعيروه، وأولاها الثالث، واللذان بعده، وما عداها فمعترض عليه. فتح الباري ١/٢٤

(٢) الكلّ بالفتح من لا يستقل بأمره، أي تعينه. وتكسب: تعطي الناس ما لا يجدونه عند غيرك. وتقري: تقدم للضيف الطعام والشراب. نوائب: جمع نائبة وهي المصيبة، وإضافتها إلى الحق لأنها تأتي في حق وباطل.

اختلفت الأقوال في مدة تأخر الوحي بين ثلاث سنوات، وسنتين ونصف، وستة أشهر، ونصف شهر، وقيل: غير ذلك[1]. وقيل: إن إسرافيل قُرِنَ به ﷺ في فترة الوحي. وقيل: قُرن به قبل الوحي[2]. وبعد الوحي قُرِنَ به جبريل، ونزل القرآن على لسانه. وروي أنهما قرنا به منذ السابعة من عمره إلى التاسعة عشرة يُعّلمانه ولا يراهما[3].

عودة الوحي وتتابعه:

قال ﷺ: بينا أنا أمشي إذ سمعتُ صوتًا من السماء، فرفعت بصري، فإذا الملك الذي جاءني بِحِرَاءٍ جالس على كرسي بين السماء والأرض، فرعبت منه، فرجعت فقلت: زملوني زملوني، فأنزل الله تعالى:﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ۝٤ وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ ۝٥﴾[١-٥: المدثر] فحمي الوحي وتتابع. والرجز: الأصنام[4].

صفة الوحي:

سئل ﷺ كيف يأتيك الوحي؟ فقال ﷺ: أحيانًا يأتيني مثل صَلْصَلَةِ الجَرَسِ وهو أشده علي، فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال، وأحيانًا يتمثل لي الملك

---

(١) فتح الباري ١/٣٦. والسيرة لدحلان بهامش السيرة الحلبية ١/١٦٣.

(٢) السيرة الحلبية ١/٢٤٤. وابتسام البرق ٨٠.

(٣) ابتسام البرق ٨٠.

(٤) البخاري رقم ٤ ورقم ٤٦٧١. ومسلم ١/١٤٣.

رجلا، فيكلمني فأعي ما يقول. قالت عائشة: ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصَّد عَرَقًا[1].

والمروي أن جبريل كان يأتي في صورة دحية الكلبي، وأنه نزل عليه ٢٤ ألف مرة ، وعلى آدم ١٢ مرة، وأدريس ٤ مرات، ونوح ٥٠ مرة، وإبراهيم ٤٢ مرة، وموسى ٤٠٠ مرة، وعيسى ١٠ مرات[2].

وكان يعاني من التنزيل شدة يكرره بعد جبريل خشية أن يتفلت منه، فأنزل الله عليه: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ [١٦-١٩: القيامة]. فكان يسمع بعد ذلك من جبريل وكأنما يُنقَرُ في صدره[3]. روي أن جبريل تبدى له ﷺ في أحسن صورة، وأطيب رائحة فقال: يا محمد إن الله يقرئك السلام، ويقول لك: أنت رسولي إلى الجن والإنس، فادعهم إلى قول لا إله إلا الله، ثم ضرب برجله الأرض فبعث عين ماء فتوضأ منها جبريل، ثم أمره أن يتوضأ، وقام جبريل يصلي، وأمره أن يصلي معه فعلمه الوضوء والصلاة ثم عرج إلى السماء، ورجع رسول الله لا يمر بحجر ولا مدر ولا شجر إلا وهو يقول:

---

(١) البخاري رقم ٢. ومسلم رقم ٢٣٣٣ كتاب الفضائل . السيرة لابن كثير ٤٢١/١.

(٢) المواهب اللدنية ١١٢/١. وذكر أنه كان يأتيه على ٤٦ نوعًا، وغالبها من صفات حامل الوحي ٢٠/١ الفتح.

(٣) البخاري رقم ٤٦٤٤ بتصرف نزر. والطبقات ١٩٧/١، والفتح ٢٩/١. السيرة لابن كثير ٤٢٥/١. الطبري ٢٣٢/٢٠/١٤. والدر المنثور ٤٦٧/٦.

السلام عليك يا رسول الله ، حتى أتى خديجة فأخبرها فغشي عليها من الفرح، ثم أمرها فتوضأت وصلى بها كما صلى به جبريل[1] .

فرض الصلاة:

كان ذلك أول فرضها ركعتين، ثم إن الله أقرها في السفر كذلك، وأتمها في الحضَر[2]. وقيل: كانت بالصباح والعشي.

الدروس والعبر:

١ -لم ينزل الوحي على رجل مغمور ، ماضيه مشبوه، بل على أكرم عربي من أكرم قبيلة، عُرِفَ بالصدق والأمانة، وتميَّز على غيره بطهارة السلوك، ونقاء السريرة، وكأنه مَلَكٌ يمشي على الأرض، ما جُرِّبَتْ عليه كذبة، ولا عُثِرَ له على زلة، ولا رُصِدَتْ له هفوة. وهكذا يُختارُ رجال المهمات.

٢- من حكمة الله أن بقي النبي ﷺ أميًا لا يقرأ ولا يكتب ولا يقول شعرًا، فلو كان ذا ثقافة عالية، وصاحب معلقات مذهبة ؛ لقال المرتابون: إن القرآن من إبداعه. لكنه كما قال تعالى:﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَـٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [٤٨: العنكبوت]. ﴿وَمَا عَلَّمْنَـٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾ [٦٩: يس].

---

(١) السيرة الحلبية بما يقاربه ص٢٢٤. والسير ة لابن كثير ٤٠٥/١. وتأريخ الاسلام ١٢٨ السيرة النبوية.

(٢) المواهب اللدنية ١١٢/١. وينظر في فرض الصلاة: السبل ٣٩٨/٢.

٣- قال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ [البقرة:١٨٥]، ومن مزايا هذا الشهر، شهر الجهاد الأصغر والأكبر:

أ- أنزل الله فيه جميع الكتب المنزلة على أنبيائه، وأنزل القرآن في ليلة القدر منه.

ب- أكرم الله محمدًا ﷺ بالرسالة في رمضان.

ج- اختص الله الشهر بالصوم، والصوم مدرسة يتربى فيها الصائم على طهارة النفس، وعفة الضمير، والصبر، والأمانة، وترك أمهات الشهوات: المأكل ، والمشرب، والمنكح ؛ ليكون على ترك السيئات أقدر، وإذا جاع الصائم أو عطش فلعله يحس بالجياع فيمد لهم يد المساعدة.

د- وقعت في شهر رمضان أهم المعارك الإسلامية وهي معركة بدر الكبرى في ١٧ منه، وهي فجر الإسلام. وفتح الله على نبيه ﷺ مكة المكرمة في ١٠ منه.

هـ - في شهر رمضان ليلة القدر وهي خير من ألف شهر، وسبب تخصيص هذه المدة أن رجلاً من بني إسرائيل لبس السلاح في سبيل الله ألف شهر فعجب المؤمنون من ذلك، فأعطوا ليلة القدر هي خير من مدة ذلك الغازي.

وقيل: إن الرجل فيما مضى ما كان يقال له: عابد حتى يعبد الله ألف شهر، فأعطوا ليلة القدر، إن أحيوها كانوا أحق بأن يسموا عابدين من أولئك العباد؛ ولأن الألف شهر تزيد على ثمانين سنة، وهو عمر طويل قال زهير:

سئمت تكاليف الحياة ومن يعش ثمانين حولاً لا أبا لك يسئم

٤- نبَّهت بداية الوحي بسورة العلق: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ على المكانة التي ينبغي أن تحتلها الأمة المسلمة في ميدان

الثقافة. واشتمال السورة على خفايا علم الأجنة – إشارة إلى وجوب السبق في البحوث الطبية لأمة محمد ﷺ.

٥- في لحاق جبريل بالنبي ﷺ إلى مكة بعد بداية الوحي بساعات بهذه الآيات البديعة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ۝٤ وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ ۝٥ وَلَا تَمۡنُن تَسۡتَكۡثِرُ﴾ – سِرٌّ من أسرار هذا الدين، وكأن جبريل يقدم البطاقة الشخصية لمحمد ﷺ وأمته في سورة العلق والمدثر، مكتوب عليها: أنتم أمة القراءة، وبناة الحضارة، وعلماء الطب، وحملة الدعوة، وأنتم البيئة الطاهرة.

إن عجبي لا يكاد ينقضي حين أقرأ: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ﴾بعد: ﴿قُمۡ فَأَنذِرۡ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ﴾. وقبل: ﴿وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ﴾ أي اتركِ الأصنام. وأتساءلُ: أبَلَغَ دينُنَا في الاهتمام بالنظافة والمظهر الأنيق إلى هذا المستوى؟! نعم، فلا يجدر بمن يقود العالم إلى الله إلا أن يكون نظيفًا أنيقًا صحيحَ الجسم والعقل، وإني لأستحيي لحاملي البلهارسيا والسل أن يذهبوا إلى من بيدهم مقود الحضارة، والراكبين صهوة التقدم، لدعوهم إلى الإسلام، أما كان الأجدر بنا أن نستر عوراتنا حتى نُشفى من مرض التأخر المزمن، والتخلف المزري، وندع الإسلام يدعو لنفسه بنفسه مع احترامي للمخلصين البررة.

٥- جاء الوحي بطريقة المواجهة، فها هو جبريل يغط النبي ﷺ ويهزه، وليس كما يروِّج بعض المستشرقين بأنه صفاء روحي، وبلوغ النهاية في التأمل، وبعضهم وإن قارب الاعتراف بنبوة محمد ﷺ ووصَفَهُ بالعبقرية والحنكة والدهاء والعظمة لكن هذه الصفات – إن لم تتصل بالوحي – صفاتٌ إنسانية،

والنبوة شيء آخر فوق مستوى البشر، يخص الله بها من يشاء من عباده فيتحدث باسم الله ويبلّغ عنه.

وقد شاء الله أن يدحض فرية الناسبين آيات الوحي إلى التأمل وبلوغ ذروة الصفاء الروحي بما أودع في آىاته الباهرات من الأدلة القاطعة أنه من عند الله، فها هو الأمي يُؤمر بالقراءة ، ورفع راية القلم، ويتحدى الخطباء والشعراء وأرباب البيان، ويطلب من الجن والإنس أن يأتوا بسورة من مثله، ويعجز الجميع، وما يزال التحدي قائمًا. أيقدر محمد على هذا؟ ، ثم يتحدث عن العلق، وهو حديث عن عالم النُّوَيّة في علم الأجنة، وتكاثر الخلايا لتنقسم إلى عناصر أساسية تتكون منها الأنسجة التي تتشكل بدورها إلى مكونات العظام، والتجاويف، والعصب، واللحم، والعروق .

إن مصطلح العلق لم يعرفه العالم على وجه الدقة إلا عند ظهور التصوير المتحرك في بدايات هذا القرن تقريبًا، من أين لمحمد ﷺ هذا الاكتشاف المجهول في المجتمع البدوي؟ لولا أنه كلام الذي أودَع ألوف الحيوانات المنوية في الملي متر المربع!. ﴿ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَىۡءٍ خَلَقَهُۥ﴾ [٧: السجدة].

أسرة الرسول ﷺ وإسلام خديجة رضي الله عنها:

برز الدور العظيم والحميم لأسرة النبي ﷺ في التفافها حوله وإيمانها المطلق به، فهذه السيدة خديجة رضي الله عنها تلوي عنق الزمان إعجابًا بها ، وهي تقول لزوجها الصادق: كلا والله لن يخزيك الله أبدًا، وعددت له خصال الخير التي يفعلها: تصل الرحم، تصدق الحديث، تكسب المعدوم، تحمل الكَلّ، تعين على نوائب الحق، وتمد يدها معلنة إيمانها بثقة وقناعة ومعرفة تامة بنزاهة وأمانة وصدق زوجها النبي ﷺ وكل ذرة فيه تشهد له بأنه أصدق بني آدم، فظفرت بسبق الناس كلهم إلى الإسلام. ومن أجدرُ بهذا الشرف والمجد من خديجة،

أليست هي التي قالت: أبشر يا ابن عم واثبُت، فو الذي نفس خديجة بيده إني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة[1].

إنها قدَّمت لله ورسوله كل ما تقدر عليه، وكانت لرسول الله ﷺ ركنًا ركينًا في أيامه الحالكة لم ينافسها إلا أبو طالب. لذلك كرمها الله ورسوله فكانت أهلاً لأن تكون مع ابنتها الزهراء على رأس سيدات نساء العالمين. وأن تكون أم المؤمنين الأولى والوحيدة ربع قرن.

السابقون بعد خديجة رضي الله عنها:

قال ابن إسحاق: ثم كان أول ذكر من الناس آمن برسول الله ﷺ، وصلى معه وصدق بما جاءه من الله تعالى علي بن أبي طالب بن عبدالمطلب ابن هاشم رضوان الله وسلامه عليه وهو يومئذ ابن عشر سنين[2].

وقد روى عفيف الكندي - وكان تاجرًا - أنه جاء إلى مكة فشاهد رجلاً وغلامًا وامرأة يصلون، فسأل العباس فأخبره بأن الرجل محمد والغلام علي

---

(١) ابن هشام ١/٢٣٨.

(٢) ابن هشام ١/٢٤٥. و الحلبية ١/٢٦٨. وتأريخ الطبري ٢/٣٠٩. وأسد الغابة ٤/٨٨. وعيون الأثر ١/١٧٩. والبداية والنهاية لابن كثير ٣/٣٤-٣٥. ومحمد رسول الله ٦٨. ودلائل النبوة ٢/١٦٠. وابن كثير ١/٤٢٨. والطبري ٢/٣١٠. وتأريخ دمشق ٤٢/٢٧. والمصنف لعبد الرزاق ٥/٣٢٥. وقد أوسع في ذلك في شرح النهج ٤/٢١٩، وقد رجح أبو جعفر الاسكافي أن عمره حين أسلم ١٥ عامًا.

والمرأة خديجة وقال: هذا دينٌ جاء به ابن أخي وما على وجه الأرض على هذا الدين غير هؤلاء الثلاثة[1].

قال: وكان من نعمة الله على علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، ومما صنع الله له، وأراد به من الخير أن قريشًا أصابتهم أزمة شديدة، وكان أبو طالب ذا عيال كثير، فطلب النبي ﷺ من عمه العباس وكان موسرًا أن يشاركه في التخفيف عن أبي طالب بكفالة اثنين منهم، فأخذ رسول الله ﷺ عليا فضمه إليه، وأخذ العباس جعفرًا. فلم يزل علي مع رسول الله ﷺ حتى بعثه الله نبيًا فاتبعه وآمن به وصدقه وآزره و لم يفارقه حتى نزل معه القبر وكان آخر الناس عهدًا به.

وكان أول ذكر أسلم بعد علي زيد بن حارثة رضي الله عنه مولى رسول الله ﷺ[2]. ثم أسلم أبو بكر الصديق رضي الله عنه واسمه عبدالله ولقب بعتيق بن

---

(١) الخصائص ٢٧. والاستيعاب ٣/٢٠١. والحاكم ٣/١٨٣. ووافقه الذهبي على تصحيحه. وأسد الغابة ٤/٤٧. وتهذيب الكمال ٢٠/١٨٤. والسيرة لابن كثير ١/٤٣٠. والبداية ٢/٣٤. والطبري ٢/٣١٣. والمنتظم ٢/٣٥٩. وتأريخ ابن الوردي ١/٩٩. وتأريخ الاسلام للذهبي السيرة النبوية ١٣٧. واليعقوبي ١/٣٤٣. وسيرة سيد المرسلين ١/٣٣٠. والصحيح من سيرة النبي ٢/٣٢٠. والاعتصام ١/٢٧٤. وابن الصلاح في كتابه معرفة علوم الحديث وقال: والأورع أن يقال: أول من أسلم من الرجال الأحرار أبو بكر، ومن الصبيان أو الأحداث علي، ومن النساء خديجة، ومن الموالي زيد بن حارثة، ومن العبيد بلال، ومثله قال ابن كثير في البداية ٣/٣٦.

(٢) ابن هشام ١/٢٤٧. وعيون الأثر ١/١٨٢. وابن كثير ١/٤٢٨.

عثمان أبي قحافة من بني تَيْم[1]، وكان عالمًا بأنساب قريش، تاجرًا ذا خُلُقٍ ومعروف، مألوفًا لعلمه وتجارته وحسن مجالسته فكان يدعو إلى الإسلام من يثق به، فقيل: أسلم بدعائه عثمان بن عفان، والزبير بن العوام، وعبدالرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وطلحة بن عبيدالله رضي الله عنهم. ثم أسلم أبو ذر رضي الله عنه قدم مكة وأعلن إسلامه متحديًا قريشًا وعاد إلى قومه غفار حتى قدم على النبي صلى الله عليه وآله وسلم المدينة فهو خامس أربعة[2]. فهؤلاء هم السابقون.

ثم أسلم أبو عبيدة عامر بن الجراح، وأبو سلمة عبدالله بن عبد الأسد، والأرقم بن أبي الأرقم ، وعثمان بن مظْعون، وأخواه قدامة وعبدالله، وعبيدة ابن الحارث بن المطلب بن عبد مناف، وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل، وامرأته فاطمة بنت الخطاب أخت عمر، وأسماء بنت أبي بكر، وعائشة وهي صغيرة، وخباب بن الأرت، وعمير بن أبي وقاص، وعبدالله بن مسعود، ومسعود بن ربيعة. وعمار، وخباب، وجعفر وأم أيمن[3] رضي الله عنهم أجمعين.

الدعوة السرية:

كانت الدعوة إلى الإسلام همسا ثلاث سنوات، وقيل: أربع[4]، والداخلون فيه لا يرجون من محمد صلى الله عليه وآله وسلم شيئا فهو فقير؛ فالغني عرّض نفسه وماله للمتاعب، والفقير زاده إيمانه في الله عناء؛ لكن حلاوة الإيمان عوضتهم من كل شيء. في

---

(١) روى الطبري ٢/٣١٦ أنه أسلم قبل أبي بكر جماعة، قدَّرهم بخمسين. قال الراوي: ولكنه كان أفضلهم إسلامًا. والمشهور أنه أسلم بعد زيد بن حارثة. والله أعلم.

(٢) أسد الغابة ٦/٩٦. والسبل ٢/٤٢١. والرسالة المحمدية ١٥.

(٣) ابن هشام ١/٢٥٢.

(٤) السبل ٢/٤٣١. والطبري ١/٣١٨.

شعاب مكة تعلموا من رسول الله ﷺ حقيقة التوحيد والصلاة، وآمنوا باليوم الآخر، وتهيأوا له بالتزامهم بما ينزل على نبيهم من مبادئ الدين وتعاليمه، وما من يوم يمر إلا وازدادوا تماسكًا وصلابة، وتوطدت بينهم الأواصر. والحكمة من التكتم أن الوثنية راسخة مألوفة، والتوحيد غريب مستنكر كما حكى الله عنهم: ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [٥:ص]، والإسلام في بدايته كالنبتة لا تقدر على مقاومة العواصف، فلما دخل الناس في دين الله جماعات وفرادى، وفشى ذكر الإسلام بمكة ناسب الجهر بالدعوة؛ إذ لا مبرر للخفاء؛ فالمسلمون قد تلقوا دروسًا في الصبر، وتعلقت آمالهم بالله، وعشقت نفوسهم التضحية في سبيله. روي أن نفرًا من المشركين اطلعوا على جماعة من الصحابة فيهم سعد بن أبي وقاص وهم يصلون في بعض الشعاب، فناكروهم وعابوا عليهم صنيعهم حتى قاتلوهم، فضرب سعد رجلاً من المشركين فشجَّه فكان أول دم سال من أجل الإسلام[1]. فلم يعد من المناسب إحراج المسلمين وراء الإنكار؛ ولماذا يستمر التخفي وقد بان السبيل، وقد بدأ الجهر بعشيرة النبي ﷺ، ثم قومه.

الجهر بالدعوة :

أ- إنذار بني عبدالمطلب:

عن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه[2] قال: لما نزلت: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [٢١٤: الشعراء]، دعاني رسول الله ﷺ وأمرني بذبح شاة، وإعداد

---

(١) ابن هشام ١/٢٦٢.

(٢) ينظر حديث علي في تأريخ الطبري ٢/٣٢١. والكامل لابن الأثير ٢/٤١ بلفظه. والبداية والنهاية ٣/٥٢. وتفسير الطبري ١١/١٩/١٤٨، وسيرة ابن

طعام ولَبَنٍ، وأن أجمع له بني عبدالمطلب، فجمعتُهم وهم أربعون رجلاً يزيدون رجلاً أو ينقصون، فيهم أعمامه: أبو طالب وحمزة والعباس وأبو لهب، فقدّمتُ إليهم تلك الجفنة، فأخذ رسول الله ﷺ قطعة فشقها بأسنانه ثم رمى بها في نواحيها. وقال: كلوا بسم الله فأكل القوم حتى نهلوا عنه ما نرى إلا آثار أصابعهم، والله إن كان الرجل ليأكل مثلها، ثم قال ﷺ: اسقهم يا علي، فجئت بقعب اللبن فشربوا منه حتى نهلوا جميعًا، وايم الله إن كان الرجل ليشرب مثله، فلما أراد ﷺ أن يكلمهم قاطعه أبو لهب. قال علي: فدعوتهم مرة أخرى وصنعتُ لهم ما صنعت بالأمس، فقال لهم: يا بني عبد المطلب إني والله ما أعلم شابًا من العرب جاء قومه بأفضل مما جئتكم به، إني جئتكم بخير الدنيا والآخرة، وقد أمرني الله أن أدعوكم إليه، فأيكم يؤازرني على هذا الأمر، على أن يكون أخي ووصيي وخليفتي فيكم، فأحجم القوم عنا جميعًا، وقلتُ وإني لأحدثهم سنًا، وأرمصهم عينًا، وأعظمهم بطنًا، وأحمشهم ساقًا: أنا يا نبي الله أكون وزيرك عليه؛ فأخذ برقبتي ثم قال: إن هذا أخي ووصيي وخليفتي فيكم؛ فاسمعوا له وأطيعوا، فقام القوم يضحكون ويقولون لأبي طالب: قد أمرك أن تسمع لابنك وتطيع، وتكلموا بكلام فيه لين وسخرية، وختمه أبو لهب بالتهديد بأنكم إن لم تأخذوا على يده فستهجم عليه العرب فلا يجد من يمنعه، فأجابه أبو طالب: نحن والله سنمنعه.

كثير ٤٥٧/١. ولكن بلفظ: " خي وكذا وكذا "، وكنز العمال ٣٦٣/٩ عن ابن إسحاق وابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه بلفظ: " أخي ووصيي وخليفتي فيكم "، والنسائي في الخصائص ٧٦ رقم ٣٦ بلفظ: " أخي وصاحبي ووارثي "، ومسند أحمد رقم ١٣٧١ بلفظ: " أخي وصاحبي ".

الدرس:

الأمـر جـدٌّ وهـو غـير مـزاح   فاعمـل لنفسـك صـالحًا يـا صـاح

١- دعى عمومته وأبناءهم إلى الإيمان بالله، ثم دعاهم إلى انتداب وزير يعتمد عليه في إدارة شئون الدعوة في جو عائلي، وضيافة كريمة؛ لأن إيمانهم ووقوفهم بجانبه أمر هام لنجاح الدعوة، وأهم منه التركيز على شخصية الوزير.

٢- التوفيق الذي حالف عليًا كرم الله وجهه والفرصة التي انتهزها من النادر أن تتكرر لشخص في التأريخ، وهكذا الموفقون والأذكياء يقرؤون ما وراء الغيب، ويهتبلون الفرص فلا يدعونها تفوتهم.

٣- إيمان علي كرم الله وجهه العميق بصَّره بمعنى كلام النبي ﷺ وكشف له قناع المستقبل؛ فبادر إلى إجابته دون تردد، ثم إنه لو لم يجبه لوقع النبي ﷺ في إحراج إذ لم ينتدب لمؤازرته أحد من أقاربه.

٤ -كانت من دلائل النبوة أن يوافق النبي ﷺ على هذا الصغير ويقول جازمًا: فاسمعوا له وأطيعوا.

٥ -كان علي كرم الله وجهه عند حسن الظن فما من موطن إلا وهذا العهد ماثل بين عينيه، فضرب أعلى الأمثلة في الوفاء.

ب-إنذار قومه:

لما نزل قول الله تعالى: ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ ٩٤[: الحجر]. صعد على الصفا فصرخ في قريش، فلما اجتمعوا قال: **أرأيتكم لو أخبرتكم أنَّ خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي؟** قالوا: نعم، ما جربنا عليك إلا صدقًا، **قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد.** فقال أبو

لهب: تبًا لك سائر اليوم، ألهذا جمعتنا؛ فنزلت: ﴿تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ ١ مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ﴾ [١-٢: المسد] [(١)] .

الدرس:

١- ما أجمل ما بدأ به إمام الدعاة إلى الله من حجة ومنطق: لو حذرتكم من هجوم قريب يستأصل شأفتكم أتصدقونني؟ نعم، فأنت الصادق الأمين. إذن فأنا أحذركم من عذاب الله الشديد القادم.

٢- لكن أشقى قريش وأشأمها عم محمد ﷺ يُغَلّب منطق الوقاحة، ويقابل رسول الله ﷺ بسوء الأدب، وهبَّ بجواره أسوأ منه امرأته حمالة الحطب أم جميل صخر بن حرب بن أمية أخت أبي سفيان. فتفرغ الإثنان لمؤاذاته ﷺ، ولم يفُت هذه الحية الرقطاء أن تزرع الشوك في طريق النبي ﷺ لتُدمي قدمه كما زرعته نميمة وسخرية وحقدًا في قلبه ومن يشابه أبَه فما ظلم. لكنهما لم يُفَتَّا في عضد عزيمة سيد أولي العزم.

٣- نصح عشيرته، وقومه من القلب؛ إن الرائد لا يكذب أهله، وقال: "**والله لو كذبت الناس جميعًا ما كذبتكم، ولو غررت الناس جميعًا ما غررتكم، والله الذي لا إله إلا هو إني لرسول الله إليكم خاصة، وإلى الناس كافة، والله لتموتن كما تنامون، ولتبعثن كما تستيقظون، ولتحاسبن بما تعملون، ولتجزون بالإحسان إحسانا، وبالسوء سوءا، وإنها لجنة أبدًا، ولنار أبدا** "[(٢)].

مرحلة الإيذاء والمعاناة:

---

(١) البخاري ٤٤٩٢. والفتح ٥٠١/٨. ومسلم ١٩٤/١. وتأريخ الإسلام السيرة ص١٤٦.

(٢) سبل الهدى والرشاد ٤٣٢/٢.

بعد أن جهر بدعوته بدأت قريش بالغمز واللمز والتهكم، فكلما مر بهم محمد ﷺ يقولون: هذا غلام عبد المطلب أو ابن أبي كبشة يُكلَّمُ من السماء، لكنهم لم يبعدوا عنه ولم يردوا عليه حتى عاب آلهتهم فأضمروا له العداوة وناكروه وأجمعوا على خلافه إلا من عصمه الله بالإسلام وهم قليل مقموعون.

دفاع أبي طالب عن رسول الله ﷺ ونصرته له:

حَدِب[1] على رسول الله ﷺ عمه أبو طالب ومنعه وقام دونه، ومضى رسول الله ﷺ على أمر الله مظهرًا لأمره لا يرده عنه شيء، فلما رأت قريش أن رسول الله ﷺ لا يُعتِبُهم[2] من شيء أنكروه عليه من فراقهم وعيب آلهتهم، ورأوا أن عمه أبا طالب قد حَدِب عليه وقام دونه فلم يسلمه لهم - مشى رجال من أشرافهم إلى أبي طالب فقالوا: يا أبا طالب إن ابن أخيك قد سب آلهتنا، وعاب ديننا، وسفَّه أحلامنا، وضلل آباءنا، فإما أن تكفه عنا، وإما أن تخلي بيننا وبينه؛ فقال لهم أبو طالب قولاً رفيقًا، وردهم ردًا جميلاً فانصرفوا عنه[3].

ومضى رسول الله ﷺ على ما هو عليه يظهر دين الله ويدعو إليه، ثم شَرِي[4] الأمر بينه وبينهم حتى تباعد الرجال وتضاغنوا، وأكثرت قريش ذكر رسول الله ﷺ بينها فتذامروا فيه وحض بعضهم بعضًا عليه.

ثم إنهم مشوا إلى أبي طالب مرة أخرى فقالوا له: يا أبا طالب إن لك سنًا وشرفًا ومنزلة فينا وإنا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا، وإنا والله لا

---

(١) أي عطف عليه ورق له.

(٢) يعتبهم: يرضيهم.

(٣) ابن هشام ١/٢٦٤، ٢٦٥.

(٤) شري: استطال وتفرق.

نصبر على هذا من شتم آبائنا، وتسفيه أحلامنا، وعيب آلهتنا، حتى تكفه عنا، أو ننازله وإياك في ذلك حتى يهلك أحد الفريقين.

عزيمة لا تلين:

فبعث أبو طالب إلى رسول الله ﷺ فقال له: يا ابن أخي إن قومك قد جاءوني فقالوا لي كذا وكذا، فأبْقِ علي وعلى نفسك ولا تُحمِّلني من الأمر ما لا أطيق؛ فظن رسول الله ﷺ أنه قد بدا لعمه فيه بَدَاء[1] أنه خاذله ومسلمه، وأنه قد ضعف عن نصرته، فقال: "**يا عم والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه، ما تركته**"! ثم استعبر ﷺ فبكى، ثم قام فلما ولى ناداه أبو طالب: أقبل يا ابن أخي، فأقبل عليه، فقال: اذهب فقل ما أحببت فوالله لا أسلمك لشيء أبدًا.

ثم إن قريشًا حين عرفوا أن أبا طالب قد أبى خذلان رسول الله ﷺ مشوا إليه بعمارة بن الوليد بن المغيرة فقالوا له: هذا عمارة بن الوليد أنهد[2] فتى في قريش وأجمله فخذه فلك عَقْلُه[3] ونَصْرُه، واتَّخِذْهُ ولدًا لك، وسلّمْ إلينا ابن أخيك فنقتله فإنما هو رجل برجل، فقال: بئس ما تسومونني[4]. أتعطونني ابنكم أغذوه لكم، وأعطيكم ابني تقتلونه! هذا والله ما لا يكون أبدًا، فقال المطعم بن عدي – وكان صديق أبي طالب-: يا أبا طالب لقد أنصفك قومك، وجهدوا في

---

(١) أي رأي جديد.

(٢) أي أشد وأقوى.

(٣) العقل: الدية.

(٤) أي تكلفونني .

التخلص مما تكرهه، فما أراك تريد أن تقبل منهم شيئًا، فقال: والله ما أنصفوني، ولكنك قد أجمعت على خذلاني ومظاهرة القوم علي، فاصنع ما بدا لك[1].

منع الله رسوله ﷺ وأعزَّ ركنه بعمه العظيم أبي طالب الذي جمع بني هاشم وبني المطلب وحثهم على نصرة رسول الله ﷺ فأجابوا إلا أبا لهب قبحه الله.

وقد قال أبو طالب أشعارًا في مواجهة التحدي نلتقط منها:

ولما رأيتُ القومَ لا وُدَّ فيهمُ — وَقَدْ قَطَعُوا كُلَّ العُرَى والوَسائلِ
وَقَدْ صَارَحُونَا بالعَداوةِ والأذَى — وقَدْ طَاوَعُوا أمرَ العدو المُزَايِلِ
وَقَد حَالَفُوا قَوْمًا علينَا أظنَّةً — يَعُضُّونَ غيظًا خَلْفَنَا بالأنَامِلِ
صَبَرْتُ لَهُم نَفْسي بِسَمْرَاءَ سَمْحَةٍ — أبيضَ عضْبٍ من تُراثِ المَقاوِلِ[3]
أحْضَرتُ عندَ البيتِ رَهطي وإخوَتي — وأمسكتُ من أثوابِه بالوصَائل[4]
و أعوذُ بِرَبِّ النَّاسِ مِن كُلِّ طَاعِنٍ — عَلَينَا بسوءٍ أو مُلحٍّ بباطلِ
وَمِن كَاشِحٍ يَسْعَى لَنَا بِمَعِيبَةٍ — وَمِن مُلْحِقٍ في الدِّينِ مَا لم نُحاوِلِ
وَبالبَيتِ حقِّ البيتِ مِن بَطنِ مَكَةَ — وَباللَّهِ إنَّ اللَّهَ لَيسَ بغَافِلِ
كَذَبتُم وَبَيتِ اللَّهِ نُبزَى[2] محمدًا — ولَمَّا نُطَاعِنُ دُونَهُ ونُناضِلِ
ونَسلِمَهُ حتَّى نُصَّرعَ حَولَهُ — وَنَذْهَلَ عَن أبْنَآئِنَا والحَلائِلِ[1]
وَيَنْهَضُ قَومٌ في الحديدِ إليكُمُ — نُهُوضَ الرَّوايَا تحتَ ذات الصَّلاصِلِ[2]

---

(١) ابن هشام ١/٢٦٦. والاكتفاء ١/٢١٤.

(٢) نبزى محمد: أي نسمله ونغلب عليه.

(٣) المقاول: الملوك. يريد بهم آباءه. وهم وإن لم يكونوا ملوكا لكنهم أشرف منهم ، وربما يشير إلى سيف أهداه سيف بن ذي يزن لعبدالمطلب حين وفد عليه يهنئه بالظفر على الأحباش بعد مولد الرسول (ص) بعامين.

(٤) الوصائل: ثياب حمر، فيها خطوط، كان يكسى بها البيت.

ثم قال يمدح رسول الله ﷺ:

وَمَا تَرْكُ قَوْمٍ لا أَبَا لَكَ سيدًا ... يَحُوط الذمارَ غير ذَربٍ مُواكلِ[3]

وَأبيضَ يُسْتَسْقَى الغَمَامُ بِوَجْهِهِ ... ثِمَالَ اليَتَامى عِصْمَةً للأرَامِلِ[4]

يَلُوذُ بِهِ الهُلاك مِنْ آل هَاشِمٍ ... فَهُم عِنْدَهُ فِي رَحْمَةٍ وَفَواضِلِ[5]

هذا الموقف الصلب والعزم الذي لا يلين، وهذا الكلام الرائع جعل طائفة من الأمة[6] يجزمون بإيمان أبي طالب ولا سيما قوله:

---

(١) الحلائل: الزوجات: مفردها حليلة.

(٢) الروايا: الجمال التي تحمل الماء، ولها صلصلة بالماء الذي عليها.

(٣) الذمار: ما يلزم حمايته. والذَّربُ: الفاحش المنطق. والمواكل : الذي لا جد عنده، يكل الأمور لغيره.

(٤) الثمال: المال الذي يقوم به الإنسان.

(٥) أبيات مختارة من قصيدة طويلة في سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٧٣ وما بعدها .

(٦) وهم الزيدية: أنظر الشافي ١/١٧٨. والحاكم الجشمي في تفسيره ٢٦٤. والإمامية: أنظر مجمع البيان ٣١/٤. ومعهم كثير من العلماء منهم: مفتي مكة الشافعي العلامة أحمد بن زيني دحلان الشافعي، وقد ألف كتابًا سماه " أسنى المطالب في نجاة أبي طالب ". أوسع فيه الأدلة على إسلام أبي طالب.

ولقــد علمــت بــأنَّ ديــنَ محمــد   مــن خــير أديــان البريــة دينــا

ألا أبلغــا عــني علــى ذات بيننــا   لؤيا وخصًّا من لؤي بني كعب

ألم تعلمــوا أنــا وجــدنا محمــدًا   نبيًّـا كموسـى خـط في الكتـب

إنما أخفى إسلامه ليتسنى له الصمود أمام جبروت قريش. أما الطائفة الأخرى كالمعتزلة أو بعضها فقد توقفوا. وأما الطائفة الثالثة فقد قطعوا بأنه مات مشركًا. وكان حقه أن نعترف له بالجميل مقابل نصف قرن كفل فيه الرسول ورباه وأحبَّه ونصره وآزره واستنفر حوله أهله وأولاده، وكان يقول لولده عندما يشاهد محمدًا يصلي وحيدا: صل جناح ابن عمك. أي عظمة هذه، وأي مروءة، وأي نبل؟!. ولست في مقام إقناع المعتقدين بشركه، ولا يترتب على هذا الأمر حكم ضروري سوى حسن الظن ما استطعنا. فإن رسول الله ﷺ حزن لموته وموت خديجة حزنا أليما وسمّى ذلك العام بعام الحزن، وكان دائم الحنين لذكريات أبي طالب وخديجة رضي الله عنها.

ونحن نرصد بعضاً من ألوان الأذى:

١- بادر أبو لهب بلؤم وحقد لعل بعضه اكتسبه من امرأته فأمر ولديه: عتبة وعتيبة، فطلقا رقية وأم كلثوم ابنتي رسول الله ﷺ ظنا منه أن النبي ﷺ سينشغل بإعالتهما، وهذا ضغط نفسي وحسي.

٢- مَشْيُ قريش إلى أبي طالب مرارا كما تقدم.

٣-وثَبَتْ كل قبيلة على من فيهم من المسلمين يعذبونهم ويفتنونهم عن دينهم، ومنع الله رسوله ﷺ منهم بعمه أبي طالب ومعه بنو هاشم.

٤- اجتمع إلى الوليد بن المغيرة نفر من قريش، وكان ذا سن فيهم، وقد حضر موسم الحج فقال لهم: يا معشر قريش إنه قد حضر هذا الموسم وإن وفود العرب ستقدم عليكم، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا، فأجمعوا فيه رأيًا واحدًا ولا تختلفوا. فقالوا: فأنت يا أبا عبد شمس فقل رأيا نقُلْ؟.

قال: بل أنتم فقولوا أسمع، قالوا: كاهن، قال: لا والله ما هو بكاهن لقد رأينا الكهان فما هو بزمزمة[١] الكاهن ولا سجعه، قالوا: فنقول: مجنون، قال: ما هو بمجنون لقد رأينا الجنون وعرفناه فما هو بخنقه ولا تَخَالجه ولا وَسْوَسَتُه، قالوا: فنقول: شاعر، قال: ما هو بشاعر،لقد عرفنا الشعر كله رجزه وهزجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه فما هو بالشعر.

قالوا: فنقول: ساحر، قال: ما هو بساحر لقد رأينا السحار وسحرهم فما هو بنفثهم ولا عقدهم[٢]، قالوا: فما تقول أنت؟، قال: والله إن لقوله لحلاوة، وإن أصله لَعَذْق[٣]، وإن فرعه لجناة[٤]. وما أنتم بقائلين من هذا شيئا إلا عرف أنه باطل، وإن أقرب القول فيه لأن تقولوا: ساحرٌ جاء بقول هو سحر يفرق بين المرء وأخيه، وبين المرء وزوجه، وبين المرء وعشيرته. فتفرقوا عنه بذلك، لا يمر بهم أحد إلا حذروه إياه، وذكروا لهم أمره؛ فأنزل الله تعالى في الوليد: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالاً مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾

---

(١) الزمزمة: كلام خفي لا يسمع.

(٢) كان الساحر يعقد خيطا ثم ينفث فيه.

(٣) العذق، بالفتح: النخلة.

(٤) الجناة: ما يجنى.

وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمۡهِيدٗا ١٤ ثُمَّ يَطۡمَعُ أَنۡ أَزِيدَ ١٥ كَلَّآۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِأٓيَٰتِنَا عَنِيدٗا﴾ [١١-١٦ : المدثر][1] .

وصدرت العرب من ذلك الموسم بأمر رسول الله ﷺ فانتشر ذكره في بلاد العرب كلها، بسبب الوليد ونفره.

وإذا أراد الله نشر فضيلة   طويت أتاح لها لسان حسود

٥- أغروا به سفهاءهم فكذبوه وآذوه، ورموه بالشعر والسحر والكهانة والجنون، ورسول الله ﷺ مظهر لأمر الله غير مبال بهم، وقد مر يومًا بأشرافهم في الحجر فأكثروا الغمز واللمز فوقف عليهم وقال: أتسمعون يا معشر قريش: أما والذي نفسي بيده لقد جئتكم بالذبح؛ فنزلت كلمته عليهم كالصاعقة، فراحوا يتلطفون قائلين له: انصرف يا أبا القاسم فوالله ما كنت جهولاً، فتذامروا في اليوم الثاني، فوثبوا عليه وثبة رجل واحد قائلين له: أنت الذي تقول في آلهتنا كذا، وهو يقول: نعم، أنا الذي أقول ذلك، فأخذ رجل بمجمع ردائه، فقام أبو بكر رضي الله عنه دونه وهو يبكي ويقول: أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله.

ومن أشد ما لقي ﷺ أنه خرج يومًا فما لقيه أحد إلا كذبه وآذاه، فرجع إلى منزله فتدثر من شدة ما أصابه، فأنزل الله تعالى عليه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ١ قُمۡ فَأَنذِرۡ﴾ [١ -٢: المدثر][2] .

---

(١) ابن هشام ١/٢٧٠. وأسباب النزول ٣٦٣.

(٢) المصابيح الصادعة بتفسير أهل البيت (ع) ١/٣٥٣.

٦ – أذية أبي جهل تسبَّبَت في إسلام حمزة رضي الله عنه:

مرَّ أبو جهل برسول الله ﷺ عند الصفا فآذاه وشتمه ونال منه بعض ما يكره من العيب لدينه والتضعيف لأمره، فلم يكلمه رسول الله ﷺ، ومَوْلاةٌ لعبد الله بن جُدعان في مسكن لها تسمع ذلك، ثم انصرف أو جهل إلى ناد من قريش عند الكعبة فجلس معهم.

فلم يلبث حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه أن أقبل متوشحًا قوسه، راجعًا من قنص له[١]، وكان يحب الصيد، وكان بعد الصيد لا يمر على ناد من قريش إلا وقف وسلم وتحدث معهم، وكان أعز فتى في قريش وأشدها شكيمة فلما مر بالمولاة وقد رجع رسول الله ﷺ إلى بيته قالت له: يا أبا عمارة لو رأيت ما لقي ابن أخيك من أبي الحكم[٢] بن هشام: آذاه وسبه، وبلغ منه ما يكره؛ فاحتمل حمزة الغضب لما أراد الله به من كرامته، فخرج يسعى ولم يقف على أحد، مُعِدًا لأبي جهل إذا لقيه أن يوقع به، فلما دخل المسجد نظر إليه جالسًا في القوم، فأقبل نحوه حتى إذا قام على رأسه رفع القوس فضربه بها فشجه شجة منكرة، ثم قال: أتشتمه وأنا على دينه أقول ما يقول فَرُد ذلك عليَّ إن استطعت؟، فقامت رجال من بني مخزوم لينصروا أبا جهل، فقال: دعوا أبا عمارة، فقد سببت ابن أخيه سبًا قبيحًا، فلما أسلم حمزة عرفت قريش أن

---

(١) القنص: الصيد.

(٢) أبو الحكم: كنية أخرى لأبي جهل، واسمه عمرو بن هشام بن المغيرة من بني مخزوم.

رسول الله ﷺ قد عزَّ وامتنع، وأن حمزة سيمنعه، فكفوا عن بعض ما كانوا ينالون منه[1].

٧ - سياسة الترغيب والإغراء[2]:

أ-كان عتبة بن ربيعة سيدًا من سادات قريش فقال لهم يومًا في ناديهم، ورسول الله ﷺ جالس في المسجد وحده: يا معشر قريش ألا أقوم إلى محمد فأكلمه وأعرِضُ عليه أمورًا لعله يقبل بعضها فنعطيه أيها شاء ويكف عنا؟ وذلك حين أسلم حمزة ورأوا أصحاب رسول الله ﷺ يزيدون ويكثرون. فقالوا: بلى يا أبا الوليد، قم إليه فكلمه، فقام إليه وقال: يا ابن أخي إنك منا حيث قد علمت من السِّطة[3] في العشيرة والمكان في النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم، وسفهت به أحلامهم، وعِبْتَ آباءهم، فاسمع مني أعرض عليك أمورًا تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها. فقال له رسول الله ﷺ: قُلْ يا أبا الوليد أسْمَع.

قال: يا ابن أخي إن كنت تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تريد به شرفًا سوَّدناك علينا حتى لا نقطع أمرًا دونك، وإن كنت تريد به ملكًا ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رئيًا[4] تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا

---

(١) ابن هشام ١/٢٩١، والاكتفاء ١/٢٢٦.

(٢) نور اليقين ص٥٠. وابن هشام ١/٢٩٥. والاكتفاء ١/٢٧٧.
(٣) السطة: الشرف، من الوسط، كالعدة من الوعد.
(٤) الرئي: ما يتراءى للإنسان من الجن.

حتى نبرئك منه، فإنه ربما غلب التابع[1] على الرجل حتى يداوى منه، حتى إذا فرغ ورسول الله ﷺ يستمع منه قال: أقد فرغت يا أبا الوليد؟ قال: نعم. قال: فاسمع مني. ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝٤ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ۝٥ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۝٦ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ۝٧ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٨ ۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٩ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ۝١٠ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ۝١١ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝١٢ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ۝١٣ إِذْ جَآءَتْهُمُ

---

(١) التابع: الصاحب من الجن.

ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ قَالُواْ لَوۡ شَآءَ
رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةٗ فَإِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا عَادٞ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ
فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَقَالُواْ مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةًۖ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي
خَلَقَهُمۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ
رِيحٗا صَرۡصَرٗا فِيٓ أَيَّامٖ نَّحِسَاتٖ لِّنُذِيقَهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ
وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَخۡزَىٰۖ وَهُمۡ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيۡنَٰهُمۡ
فَٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡعَمَىٰ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ فَأَخَذَتۡهُمۡ صَٰعِقَةُ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡهُونِ بِمَا كَانُواْ
يَكۡسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾ وَيَوۡمَ يُحۡشَرُ أَعۡدَآءُ ٱللَّهِ
إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمۡ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيۡهِمۡ سَمۡعُهُمۡ
وَأَبۡصَٰرُهُمۡ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمۡ لِمَ شَهِدتُّمۡ
عَلَيۡنَاۖ قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنطَقَ كُلَّ شَيۡءٖ وَهُوَ خَلَقَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَإِلَيۡهِ
تُرۡجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَتِرُونَ أَن يَشۡهَدَ عَلَيۡكُمۡ سَمۡعُكُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُكُمۡ وَلَا
جُلُودُكُمۡ وَلَٰكِن ظَنَنتُمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعۡلَمُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمۡ ظَنُّكُمُ
ٱلَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمۡ أَرۡدَىٰكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن يَصۡبِرُواْ
فَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡۖ وَإِن يَسۡتَعۡتِبُواْ فَمَا هُم مِّنَ ٱلۡمُعۡتَبِينَ ﴿٢٤﴾ ۞ وَقَيَّضۡنَا لَهُمۡ
قُرَنَآءَ فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَحَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ
خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ

كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ ۖ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ ۖ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُواْ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُواْ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ﴾[1]، وهكذا تحدّرت

---

(١) سجدة تلاوة – وسجود التلاوة في القرآن (١٥) مرة. ويستحب قراءة هذا

الآيات من سورة فصلت منسابة من ثنايا رسول الله ﷺ كالدرر، وعتبة يستمع ملقيًا يديه خلف ظهره معتمدًا عليهما، ولما انتهى ﷺ إلى السجدة سجد، ثم قال: قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت فأنت وذاك.

فقام عتبة إلى أصحابه فقال بعضهم لبعض: نحلف بالله لقد جاءكم بغير الوجه الذي ذهب به، فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك؟ قال: سمعت قولاً والله ما سمعت بمثله قط، والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة. يا معشر قريش، أطيعوني واجعلوها بي وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم وعزه عزكم، وكنتم أسعد الناس به. قالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه، قال: هذا رأيي فيه فاصنعوا ما بدالكم.

ب- بجعل الإسلام يفشوا بمكة بين الرجال والنساء لا يرده شيء، وقريش تحبس من قدرت على حبسه وتفتن من استطاعت فتنته من المسلمين. ثم إن أشراف قريش بعثوا إلى محمد فجاءهم ﷺ سريعًا، لأنه كان حريصًا على رشدهم عزيزًا عليه عنتهم، فقالوا له: يا محمد إنا والله ما نعلم رجلاً من العرب أدخل

الدعاء حال السجود، وهو سجدة واحدة . : اللهم لك سجدت، ولك عبدت، وبك آمنت، ولك أسلمت، وعليك توكلت، سجد وجهي للذي خلقه وصوره وشق سمعه وبصره، فتبارك الله أحسن الخالقين. اللهم اكتب لي بها عندك أجرا، وضع عني بها وزرا، واجعلها لي ذخرا، وتقبلها مني كما تقبلتها من عبدك داود عليه السلام.

على قومه مثل ما أدخلت على قومك، لقد شتمت الآباء، وعبت الدين والآلهة، وسفهت الأحلام، وفرقت الجماعة، فما بقي أمر قبيح إلا قد جئته فيما بيننا وبينك، فإن كنت إنما تطلب بما جئت به مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت إنما تطلب به الشرف فينا فنحن نسودك علينا، وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رئيًا تراه قد غلب عليك بذلنا لك أموالنا في طلب الطب لك حتى نبرئك منه أو نُعذرَ فيك.

فقال لهم رسول الله ﷺ: ما بي ما تقولون، ما جئت بما جئتكم به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم، ولكن الله بعثني إليكم رسولاً، وأنزل علي كتابًا وأمرني أن أكون لكم بشيرًا ونذيرًا، فبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم، فإن تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه علي أصبِرْ لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم.

قالوا: يا محمد، فإن كنت غير قابل منا شيئًا مما عرضناه عليك فإنك قد علمت أن ليس من الناس أحد أضيق بلدًا، ولا أقل ماء، ولا أشد عيشًا منا فسل لنا ربك الذي بعثك بما بعثك به فَلْيُسَيِّر عنا هذه الجبال التي قد ضيقت علينا، وليبسط لنا بلادنا، وَلْيُفَجِّر لنا فيها أنهارًا كأنهار الشام والعراق، وَلَيَبْعَثْ لنا من مضى من آبائنا، وَلْيَكُن فيمن يبعث لنا منهم قصي بن كلاب، فإنه كان شيخ صدق، فنسألهم عما تقول، أحق هو أم باطل؟ فإن صدقوك وصنعت ما سألناك صدقناك، وعرفنا به منزلتك عند الله، وأنه بعثك رسولاً كما تقول.

فقال لهم صلوات الله وسلامه عليه: ما بهذا بعثت إليكم، إنما جئتكم من الله بما بعثني به، وقد بلغتكم ما أرسلت به إليكم، فإن تقبلوه فهو حظكم في الدنيا والآخرة وإن تردوه علي أصبر لأمر الله تعالى حتى يحكم الله بيني وبينكم.

قالوا: فإذا لم تفعل هذا لنا فخذ لنفسك وسل ربك أن يبعث معك ملكًا يصدقك بما تقول ويراجعنا عنك، وسله فليجعل لك جنانًا وقصورًا وكنوزًا من ذهب وفضة يغنيك بها عما نراك تبتغي، فإنك تقوم بالأسواق كما نقوم، وتلتمس المعاش كما نلتمسه، حتى نعرف فضلك ومنزلتك من ربك إن كنت كما تزعم. فقال لهم رسول الله ﷺ ما أنا بفاعل وما أنا بالذي يسأل ربه هذا، وما بعثت إليكم بهذا، ولكن الله بعثني بشيرًا ونذيرًا، فإن تقبلوا ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه علي أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم.

قالوا: فأسقط السماء علينا كسفا[1] كما زعمت أن ربك إن شاء فعل، فإنا لا نؤمن لك إلا أن تفعل، فقال رسول الله ﷺ: ذلك إلى الله، إن شاء أن يفعله بكم فعل، قالوا: يا محمد، أفما علم ربك أنا سنجلس معك ونسألك عما سألناك عنه، ونطلب منك ما نطلب، فيتقدم إليك فيعلمك ما تراجعنا به، ويخبرك ما هو صانع في ذلك بنا إذ لم نقبل منك ما جئتنا به؟ إنه قد بلغنا أنك إنما يعلمك هذا رجل باليمامة يقال له: الرحمن[2]، وإنا والله لا نؤمن بالرحمن أبدا، فقد أعذرنا إليك يا محمد، والله لا نتركك وما بلغت منا حتى نُهلِكَكَ أو تُهلِكَنَا، وقال قائلهم: نحن نعبد الملائكة: وهي بنات الله، وقال قائلهم: لن نؤمن لك حتى تأتينا بالله والملائكة قبيلاً.

---

(١) جمع كسفة بالكسر، وهي القطعة من الشيء .

(٢) هو مسيلمة بن حبيب الحنفي، المعروف بمسيلمة الكذاب، كان قد تسمى بالرحمن في الجاهلية، وكان من المعمَّرين، الروض الآنف. ج٤ص٢٢٥.

فلما قالوا ذلك لرسول الله ﷺ قام عنهم، وقام معه عبدالله بن أمية بن المغيرة، وهو ابن عمته[1] فقال له: يا محمد، عرض عليك قومك ما عرضوا فلم تقبله منهم، ثم سألوك لأنفسهم أمورًا ليعرفوا بها منزلتك من الله كما تقول ويصدقوك ويتبعوك فلم تفعل، ثم سألوك أن تأخذ لنفسك ما يعرفون به فضلك عليهم ومنزلتك من الله فلم تفعل، فوالله لا أومن بك أبدًا حتى تتخذ إلى السماء سلمًا ثم ترقى فيه وأنا أنظر إليك حتى تأتيها، ثم تأتي معك بأربعة من الملائكة يشهدون لك أنك كما تقول، وايم الله لو فعلت ذلك ما ظننت أني أصدقك، ثم انصرف عن رسول الله ﷺ وانصرف عنه رسول الله ﷺ إلى أهله حزينًا آسفًا لما فاته مما كان يطمع به من قومه حين دعوه، ولما رأى من مباعدتهم إياه، ونزلت سورة الفرقان ، ومنها: ﴿وَقَالُواْ مَالِ هَـٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ لَوۡلَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَلَكٞ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ۝٧ أَوۡ يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٞ يَأۡكُلُ مِنۡهَاۚ وَقَالَ ٱلظَّـٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلٗا مَّسۡحُورًا﴾ [الفرقان ٧، ٨].

٨- احتمل أبو جهل حجرا وأراد أن يشدخ رأس النبي ﷺ وهو ساجد، فلما دنى منه رجع منهزما متغيرا لونه مرعوبا قد يبست يداه على الحجر وقال: عرض لي دونه فحل من الإبل ما رأيت مثل هامته وأنيابه فهم أن يأكلني. قال رسول الله ﷺ: "**ذلك جبريل لو دنا لأخذه**"[2].

٩- لما قال لهم أبو جهل ذلك قام النضر بن الحارث فقال: يا معشر قريش، إنه والله قد نزل بكم أمر ما أتيتم له بحيلة بعد، قد كان محمد فيكم غلامًا حدثًا،

---

(١) أسلم عبدالله قبل فتح مكة.

(٢) البداية والنهاية ٥٧/٣. وابن هشام ٢٩٩/١.

أرضاكم فيكم وأصدقكم حديثًا وأعظمكم أمانة، حتى إذا رأيتم في صدغيه الشيب، وجاءكم بما جاء به قلتم: ساحر، لا والله ما هو بساحر، لقد رأينا السحرة ونفثهم وعقدهم، وقلتم: كاهن، لا والله ما هو بكاهن، قد رأينا الكهنة وتخالجهم وسمعنا سجعهم، وقلتم: شاعر، لا والله ما هو بشاعر قد رأينا الشعر وسمعنا أصنافه كلها: هزجه ورجزه، وقلتم: مجنون، لا والله ما هو بمجنون لقد رأينا الجنون فما هو بخنقه، ولا وسوسته، ولا تخليطه، يا معشر قريش فانظروا في شأنكم فإنه والله لقد نزل بكم أمر عظيم.

وكان النضر بن الحارث من شياطين قريش، وممن كان يؤذي رسول الله ﷺ، وينصب له العداوة، وكان قد قدم الحيرة وتعلم بها أحاديث ملوك الفرس، ورستم واسفنديار، فكان إذا جلس رسول الله ﷺ مجلسًا فذكر فيه بالله وحذر قومه ما أصاب من قبلهم من الأمم من نقمة الله، خلفه في مجلسه إذا قام ثم قال: أنا والله يا معشر قريش أحسن حديثًا منه، فهلمّ إلي فأنا أحدثكم أحسن من حديثه، ثم يحدثهم عن ملوك فارس ورستم واسفنديار ثم يقول: بماذا محمد أحسن حديثًا مني؟.

وكان ابن عباس رضي الله عنهما يقول: نزل فيه ثماني آيات من القرآن: قول الله عزوجل: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَـٰتُنَا قَالَ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾[١٥: القلم]، وكل ما ذكر فيه الأساطير من القرآن[١].

١٠-كان عقبة بن أبي معيط صديقًا لأبيِّ بن خلف، فقال أبيٌّ: بلغني أنك استمعت إلى محمد، والله لا أرضى عنك حتى تتفل في وجهه وتكذبه، ففعل عدو الله، فنزل قول الله:﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَـٰلَيْتَنِى

---

(١) ابن هشام ١/٣٠٠.

ٱتَّخَذۡتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلاً ﴿٢٧﴾ يَـٰوَيۡلَتَىٰ لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلاً ﴿٢٨﴾ لَّقَدۡ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكۡرِ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَنِي ۗ وَكَانَ ٱلشَّيۡطَـٰنُ لِلۡإِنسَـٰنِ خَذُولاً﴾[1] [٢٧-٢٩الفرقان]. وقُتِلَ عقبة يوم بدر بيد علي كرم الله وجهه، وأبي يوم أحد بيد النبي ﷺ.

١١- تعرضت أسرة عمار بن ياسر لأشد العذاب، فقد كان أبوه وأمه وأخوه عبدالله معلقين منكوسين، فمر عدو الله أبو جهل فطعن أم ياسر بحربته في قُبُلها فماتت راضية مرضية مستهزئة بهؤلاء البالونات المنفوخة، وكانت رحمة الله عليها أول شهيدة في الإسلام. وقيل أول قتيل: الحارث بن أبي هالة بن خديجة[2].

وأقبل عمار إلى النبي ﷺ فزعًا وشكى إليه أنه نال من العذاب ما أجبره على أن يتكلم بالكفر. ويسب رسول الله ﷺ. فوضع النبي ﷺ يده على صدره قائلا: كيف تجده؟ قال: مطمئنا بالإيمان. قال: فإن عادوا فعد[3]، فنزل قول الله تعالى:﴿إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنٌّ﴾ [١٠٦ النحل].

---

(١) تفسير الطبري ١٢/١٩/١١. وأسباب النزول للنيسابوري ٢٧٩.

(٢) السيرة لمغلطاي ص١١٥. والطبقات ج ٨ ص٢٦٤. ودلائل النبوة ج٢ ص٢٨٢.

(٣) الطبقات ج٣ص٢٤٩ تفسير الطبري مج٨ ج١٤ ص٢٣٧ الحلية ج١ ص١٩٠ المستدرك ج٢ص٣٥٧ وصححه الذهبي. وأسباب النزول ٢٣٧.

١٢- كان بلال رضي الله عنه عبدًا لأمية بن خلف فكان يخرجه في حر الظهيرة ويطرح فوقه صخرة ثقيلة ويتركه فوق الرمل الحامي قائلا له: لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد، وهو يردد نشيده المشهور: أَحَدٌ أَحَدٌ.

١٣-كان النبي ﷺ ذات يوم يصلي بفناء الكعبة، فجاءه خباب فكشف له عن ظهره وكانوا يلزقونه بالحجارة الحامية بالشمس أو النار هو والضعفاء من أمثاله ، فقال: يا رسول الله ادع الله أن يفرج عنا، فغضب النبي ﷺ حتى احمر وجهه وقال: "إن من كان قبلكم لَيُمْشَطُ أحدهم بأمشاط الحديد ما دون عظمه من لحم وعصب ما يصرفه ذلك عن دينه، ويوضع المنشار على مَفرق رأس أحدهم فيشق باِثْنَتَينِ ما يصرفه ذلك عن دينه. ولَيُتمَنَّ الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه"[(١)].

١٣- تشريد المسلمين عن ديارهم، وتجريدهم من ممتلكاتهم .

١٤- سياسة الحصار والتجويع.

الهجرة الأولى إلى الحبشة

في رجب سنة خمس من النبوة[(٢)] - ٦١٥م:

قال النبي ﷺ لأصحابه وهو يرى شدة ما نزل بهم من البلاء وقد منعه الله بعمه أبي طالب: " لو خرجتم إلى الحبشة فإن بها ملكًا لا يظلم عنده أحد، حتى يجعل الله لكم فرجًا مما أنتم فيه"؛ فخرجوا سرًا وعددهم اثنا عشر وأربع نسوة، وقيل: إحدى عشر وامرأتان، فيهم رقية بنت النبي ﷺ وزوجها عثمان وهما

---

(١) البخاري رقم ٣٤١٦. وأبو داود ٢٦٤٩. وأسد الغابة ١٤٧/٢.

(٢) ابن هشام ٣٢١/١. والروض الأنف ٧٩/٢. وتاريخ الطبري ٣٢٨/٢. و الطبقات ٢٠٣/١. و البداية والنهاية ٨٤/٣. وسيرة ابن كثير ٣/٢. و السبل ٤٨٥/٢، ٥١٧. ومغلطاي ١١٦. وهاشم معروف١٦٣.

أول من خرج، والزبير ومصعب وأم سلمة وزوجها ثم هاجر جعفر بن أبي طالب، ثم تتابع المسلمون حتى بلغوا ثلاثة وثمانين رضي الله عنهم.

محاولة قريش لاسترجاع مهاجري الحبشة[1]:

كانَ بين قريش والحبشة علاقات تجارية وقد أزعجهم مقر المسلمين الآمن هناك، وحصانة الرسول بحماية أبي طالب، فأرسلوا عبدالله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص بهدايا كثيرة للنجاشي ولبطارقته. وأرسل أبو طالب أبياتًا للنجاشي يحضه على عدم تسليم المهاجرين:

تعلـم أبيـت اللعـن[2] أنـك ماجـد كـريم فـلا يشـقى لـديك المجانـب[3]

سلم الرسولان الهدايا للبطارقة طالبين تأييدهم عند الملك، ثم سلما هدايا الملك وقالا: إنه قد لجأ إلى بلدك غلمان منا سفهاء فارقوا دينهم و لم يدخلوا في دينك، وطلبوا منه أن يردهم، وكانا يكرهان أن يسمع الملك كلام المسلمين، فأشارت البطارقة بردهم، فغضب وقال: لاها الله لا أسلمهم وقد جاوروني واختاروني على من سواي حتى أسمع منهم، فطلبهم وسألهم عن دينهم فكلمه جعفر بن أبي طالب رضوان الله عليه بهذا الكلام البديع: **أيها الملك، كنا قومًا أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا، نعرف نسبه، وصدقه، وأمانته، وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه، من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث،**

---

(١) ابن هشام ١/٣٣٣.

(٢) معناها: أبيت أن تأتي ما تذم عليه. وهي تحية الملوك في الجاهلية.

(٣) الداخل في حمى الإنسان.

وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكفِّ عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش، وقول الزُّور ، وأكلِ مال اليتيم، وقذف المحصنات، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئًا، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام – وعدد عليه أمور الإسلام – فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به من الله، فعبدنا الله وحده فلم نشرك به شيئًا، وحرَّمنا ما حرم علينا، وأحللنا ما أحلَّ لنا، فعدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث، فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلادك، واخترناك على من سواك، ورغبنا في جوارِك، ورجونا ألا نظلم عندك أيها الملك.

فقال له النجاشي: هل معك مما جاء به عن الله من شيء؟.

فقال له جعفر: نعم، فقال النجاشي: فاقرأه علي، فقرأ عليه صدرًا من ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ فبكى النجاشي حتى اخضلت[1] لحيته، وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفَهم حين سمعوا ما تلا عليهم، ثم قال لهم النجاشي: إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مِشكاةٍ[2] واحدة، انطلقا فلا والله لا أسلمهم إليكما، ولا يُكَادون. وقد أسلم رحمه الله ولما مات صلى عليه النبي وأصحابه[3].

محاولة أخرى لعمرو بن العاص:

---

(١) أي ابتلت من الدموع.

(٢) المشكاة: الكوة غير النافذة. أراد أن القرآن والإنجيل كلام الله تعالى وأنهما من شيء واحد.

(٣) البخاري رقم ١٣١٨. ومسلم رقم ٩٥١. ومغلطاي ١٢٢.

حاول أن يلقي للملك كلامًا يبيد به خضراءهم، فقال للملك: إهم يقولون في عيسى قولاً عظيمًا، يقولون: إنه عبد، فأرسل إليهم ليسألهم عنه، ونزل بالمسلمين كرب عظيم، وأجمعوا على أن يقولوا للملك ما قال لهم النبي ﷺ فقال له جعفر: هو عبدالله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول[1]. فضرب النجاشي بيده إلى الأرض فأخذ منها عودًا ، ثم قال: والله ما عدا عيسى بن مريم ما قلتَ هذا العود[2].

فتناخرت بطارقته حوله حين قال ما قال، فقال: وإن نخرتم، ثم قال للمسلمين: اذهبوا فأنتم الآمنون، مَنْ سَبَّكُم غرَم " كررها ثلاثًا " ما أحب أن لي جبلاً من ذهب وأني آذيت رجلاً منكم، ثم رد الهدايا، وحمد الله الذي رد عليه ملكه حين خرج عليه خارج ونصره الله عليه.

أثر إسلام الحمزة وعمر رضي الله عنهما على المسلمين[3]:

برغم قتامة الجو في مكة، فإن بارق أمل قد وقع بإسلام حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه، وهو رجل شجاع جَلْد، قوي الشكيمة، لا يهاب شيئًا، وبعد ثلاثة أيام تبعه عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وكان معروفًا بحدة الطبع وقوة الشكيمة، وطالما لقي منه المسلمون ألوانًا من الأذى، إلا أنه رغم قسوته كان ينطوي على رقة ولمسات خير، فقد روت زوج عامر بن ربيعة قالت: بينما نحن نشد الرحال إلى الحبشة وقف عُمَرُ وكنا نلقى منه البلاء، وقال: أتنطلقون يا أم عبدالله؟ قلت: نعم، فقد آذيتمونا وقهرتمونا، حتى يجعل الله لنا فرجا، فقال:

---

(١) البتول: العذراء المنقطعة عن الأزواج.

(٢) أي مقدار هذا العود.

(٣) ابن هشام ١/٣٦٦. ابن كثير ٢/٣٢.

صحبكم الله، ورأيت له رقة وحزنًا، فأخبرت عامرًا بما لاحظت من رقته، فقال: أطمعت في إسلامه، فقلت: نعم، قال: لا يسلم حتى يسلم حمار الخطاب.

لكن عمر ربما أعجب بصلابة المسلمين، ورمق جلالة وعظمة المبادئ الإسلامية، وكان بقاؤه مشركًا مجرد تقليد للآباء، وقد آن لهذا الصراع أن ينحسم حين ذهب إلى النبي ﷺ يريد قتله فلقيه نعيم بن عبدالله وقال: والله لقد غشتك نفسك يا عمر، أترى بني عبد مناف تاركيك تمشي على وجه الأرض وقد قتلت محمدًا، ارجع إلى أهلك فأقم أمرهم فقد أسلمت أختك وزوجها سعيد بن زيد، فرجع مسرعًا وكان عند أخته خباب بن الأرَتْ يقرؤها القرآن فقال: ما هذه الهينمة؟ فأنكرت وأخفت الصحيفة واختبأ خباب، وقفز عمر على زوج أخته يضربه، ولما حاولت أن تصده ضربها فشجها، فقالت هي وزوجها: نعم، قد أسلمنا وآمنا بالله ورسوله فاصنع ما بدالك. فلما رأى الدم على وجه أخته ندم وطلب منها أن تعطيه الصحيفة لينظر ما الذي جاء به محمد ﷺ، وحلف ليردَّنها إذا قرأها، فلما قال ذلك طمعت في إسلامه وقالت: يا أخي إنك نجس على شركك وإنه لا يمسها إلا طاهر، فقام فاغتسل فأعطته الصحيفة وفيها ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ۝٢ إِلَّا تَذۡكِرَةً لِّمَن يَخۡشَىٰ ۝٣ تَنزِيلًا مِّمَّنۡ خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلۡعُلَى ۝٤ ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَمَا تَحۡتَ ٱلثَّرَىٰ ۝٦ وَإِن تَجۡهَرۡ بِٱلۡقَوۡلِ فَإِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى ۝٧ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٨ وَهَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝٩ إِذۡ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِقَبَسٍ أَوۡ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ

هُدًى ﴿١٠﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى ﴿١٢﴾ وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخۡفِيهَا لِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۢ بِمَا تَسۡعَىٰ﴾ فقال: ما أحسن هذا الكلام وأطيبه وأكرمه، فلما سمع خباب خرج وقال: يا عمر إني سمعت النبي ﷺ يقول: "اللهم أيد الإسلام بعمر بن الخطاب أو أبي الحكم بن هشام"[1]. فالله الله يا عمر، فقال: دلني على محمد؛ لأسلم. فدله. فأخذ عمر سيفه وذهب، فضرب باب البيت الذي فيه رسول الله ﷺ، فنظر رجل من خلل الباب، فعاد فزعا قائلا هذا عمر متوشحًا سيفه، فقال حمزة: فأذنْ له فإن جاء لخير بذلناه له، وإلا قتلناه بسيفه، فلما دخل نهض إليه رسول الله ﷺ فجبذه جبذة شديدة وقال: ما جاء بك؟ فوالله ما أرى أن تنتهي حتى ينزل الله بك قارعة، فقال: جئت لأومن بالله ورسوله، فكبر رسول الله ﷺ وتنفس أصحابه الصعداء، قال ابن مسعود: ما كنا نقدر أن نصلي عند الكعبة حتى أعزنا الله بحمزة وعمر رضي الله عنهما.

حصار الشعب

(في سنة سبع من النبوة):

(١) المسند رقم ٤٣٦٢. بدون ذكر أبي الحكم. ومجمع الزوائد ٦٣/٩ بلفظ: "اللهم أعز الإسلام بأحب الرجلين إليك عمر بن الخطاب وأبي جهل بن هشام". والكامل لان عدي ٢١/٧.

لجأت قريش - بعد خيبة رسوليها إلى النجاشي وانحياز الملك لصالح النبي ﷺ وأصحابه، وذعرهم من الإسلام وهو يفشو في القبائل، وإسلام حمزة وعمر - إلى سلاح المقاطعة والتجويع، فكتبوا كتابًا تعاقدوا فيه على بني هاشم: على أن لا يُنكحُوا إليهم ولا يُنْكِحُوهُم، وَلا يبيعوا منهم شيئًا ولا يبتَاعُوا منهم. ثم تعاهدوا وتواثقوا على ذلك، وعلقوا الصحيفة في جوف الكعبة.

انحاز النبي ﷺ والمحاصرون معه إلى شعب بني هاشم، وظلوا ثلاث سنوات، كابدوا فيها الأهوال، وقال أبو طالب في ذلك:

ألا أبلغا عني على ذات بيننا ... لؤيا وخصّا من لؤي بني كعب
ألم تعلموا أنا وجدنا محمدًا ... نبيّا كموسى خُط في أول الكتب[1]

وتبارى أبو جهل وأبو لهب وأشباههما في إحكام الخناق، فأبو لهب في الأسواق يقول للتجار: غالوا على أصحاب محمد، وأبو جهل دائم المراقبة على فم الشعب لئلا يتسلل إليهم شيء سرًا.

في هذه الفترة كانت الأذيةُ شديدةً والحصارُ خانقًا، والقرآنُ الكريم يثبت المؤمنين، ويدافع عن النبي ﷺ، ويسحق أباطيل المستهزئين[2]، ويرفع معنويات المسلمين الذين لم يستكينوا، ولم تنطفئ في نفوسهم جذوة الأمل، وحماس الدعوة إلى الله، بل ازدادت عمقاً، وكَسَبَ الإسلام بفضل جدهم ونشاطهم أنصارًا كثيرين.

الهجرة الثانية إلى الحبشة بعد ثلاثة أشهر من الأولى:

---

(١) ابن هشام ٣٥٢. والروض الأنف ١٠٢/٢. وبحار الأنوار ٤٤٧/٣٥. شرح ابن أبي الحديد ٣٣٦/٣. الصحيح من سيرة النبي ٢٣٠/٣. وأمالي أبي طالب ص٣٥٨. ابن كثير ٤٩/٢.

(٢) ابن هشام ٣٥٤/١.

بلغ المهاجرين بالحبشة إسلام أهل مكة، فأقبلوا حتى إذا دنوا من مكة وجدوا الخبر باطلاً، فلم يدخل منهم أحد إلا بجوار أو مستخفيًا[1].

ثم هاجروا مرة ثانية وعدتُهم ثلاثةٌ وثمانون رجلاً منهم ثماني عشرة امرأة، وخرج أبو بكر رضي الله عنه حتى بلغ برك الغماد، ثم رجع في جوار سيد القارة مالك بن الدُّغُنَّة.

حديث نقض الصحيفة
في السنة العاشرة من النبوة:

(١) ابن هشام ١/٣٦٤. قال السهيلي ج٢ص١٢٦: وسبب ذلك أن رسول الله ﷺ قرأ سورة النجم، فألقى الشيطان في أمنيته – أي في تلاوته – عند ذكر اللات والعزى، وإنهم لهم الغرانقة العلى، وإن شفاعتهم لترتجى؛ فطار ذلك بمكة فَسُرَّ المشركون، وقالوا: قد ذكر آلهتنا بخير، فسجد رسول الله ﷺ بآخرها، وسجد المسلمون والمشركون. وأنزل الله: (فينسخ الله ما يلقي الشيطان). ومن هاهنا اتصل بالمهاجرين بأرض الحبشة بأن قريشًا أسلموا. وأهل الأصول ردوا هذا الحديث، والذي صححه زعم أن الشيطان قال ذلك وأذاعه، والرسول لم ينطق به، إلا أن في حديثهم مناقضة حيث قالوا: إن جبريل قال لمحمد: ما أتيتك بهذا، وهذا يعني أن النبي قالها من نفسه، وعنى بها الملائكة أن شفاعتهم لترتجى، أو أن النبي قاله حاكيًا عن الكفرة بأنهم يقولون ذلك، فقالها متعجبًا من كفرهم. والكلام في هذه القصة كثير، وقد صححها المستشرقون؛ لكن جمهور العلماء يعتبرونها قصة مختلقة من وضع الزنادقة واليهود تلطخت بها كتب المسلمين للأسف. محمد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ٩٨. هيكل ١٦٠، وفقه السيرة للغزالي ١١٦.

قام هشام بن عمرو بن ربيعة أخو نضلة بن هاشم بن عبدمناف من أمه، وكان شريفًا في قومه، واصلاً لبني هاشم، يأتي بالبعير إلى فم الشعب ليلاً وقد أوقره طعامًا فيطلق خطامه ليدخل الشعب إلى بني هاشم، ثم يأتي به وقد أوقره بَزًا فيفعل به مثل ذلك.

ثم إنه مشى إلى زهير بن أبي أمية بن المغيرة، وكانت أمه عاتكة بنت عبد المطلب فقال: يا زهير أقد رضيت أن تأكل الطعام وتلبس الثياب وتنكح النساء وأخوالك حيث قد علمت، لا يباعون ولا يبتاع منهم، ولا ينكحون ولا يُنكح إليهم؟ أما إني لأحلف بالله أن لو كانوا أخوال أبي الحكم بن هشام ثم دعوتَه إلى مثل ما دعاك إليه منهم ما أجابك إليه أبدًا، قال: ويحك يا هشام فماذا أصنع؟ ولو كان معي رجل آخر لقمتُ في نقضها حتى أنقضها قال: قد وجدتَ رجلاً. قال: فمن هو؟ قال: أنا. قال له زهير: أبغِنَا ثالثًا.

فذهب إلى المُطعم بن عدي فقال له: يا مطعم أقد رضيت أن يهلك بطنان من بني عبدمناف وأنت شاهد على ذلك موافق لقريش فيه؟ أما والله لئن أمكنتموهم من هذه لتجدنَّهم إليها منكم سراعًا، قال: ويحك فماذا أصنع؟ إنما أنا رجل واحد، قال: قد وجدتَ ثانيًا. قال: من هو؟ قال: أنا، قال: أبغنا ثالثًا: قال: قد فعلت. قال: من هو ؟ قال: زهير بن أبي أمية، قال: أبغنا رابعًا. فذهب إلى أبي البختري بن هشام، فقال له نحوًا مما قال للمطعم بن عدي فقال: وهل من أحد يعين على هذا؟ قال: نعم وأخبره، قال: أبغِنَا خامسًا. فذهب إلى زمعة بن الأسود بن المطلب، فكلمه وذكر له قرابتهم وحقهم فقال له: وهل معنا أحد؟ قال: نعم؛ فاتَّعَدُوا خَطْم الحَجُون[1] ليلاً بأعلى مكة، فاجتمعوا هنالك

(١) خطم الحجون: موضع . والحجون: جبل بأعلى مكة.

فأجمعوا أمرهم وتعاقدوا على القيام في الصحيفة حتى ينقضوها، وقال زهير: أنا أبدؤكم فأكون أول من يتكلم.

فلما أصبحوا غدوا إلى أنديتهم، وغدا زهير بن أبي أمية عليه حلة فطاف بالبيت سبعًا ثم أقبل على الناس، فقال: يا أهل مكة، أنأكل الطعام ونلبس الثياب، وبنو هاشم هلكى لا يُباع إليهم ولا يبتاع منهم؟ والله لا أقعد حتى تشقَّ هذه الصحيفة القاطعة الظالمة. قال أبو جهل - وكان في ناحية المسجد-: كذبتَ والله لا تُشق، فقال زمعة بن الأسود: أنت والله أكذب، ما رضينا كِتَابَتَهَا حين كُتِبَتْ، وقال أبو البختري: صدق زمعة لا نرضى ما كُتِبَ فيها ولا نُقِرُّ به، وقال المطعم بن عدي: صدقتما وكذب من قال غير ذلك، نبرأ إلى الله منها ومما كُتب فيها، وقال هشام بن عمرو نحوًا من ذلك، فقال أبو جهل: هذا أمر قضي بليل، فقام المطعم إلى الصحيفة ليشقها فوجد الأرضَة قد أكلتها إلا "باسمك اللهم". وقد كان النبي ﷺ أخبر عمه أبا طالب بذلك، فقال أبو طالب لقريش ما أخبره به. وكان كاتب الصحيفة منصور بن عِكرِمة، فشلت يده فيما يزعمون[1].

عام الحزن: وفاة أبي طالب وخديجة[2]:

ودَّع الحياة أبو طالب وتبعته خديجة بنت خويلد رضي الله عنها بعد ثلاثة أيام[1]، وبموت هذين الجبلين الشامخين أعلن النبي ﷺ الحداد عامًا كاملاً، سماه

---

(١) ابن هشام ٣٧٤/١. ومغلطاي ١٢٨. سيرة ابن كثير ١٤٤/٢. والكامل ٥٩/٢. وتأريخ الإسلام السيرة ٢٢١.

(٢) في سنة ٤٩ ، ٨ أشهر و١١ يومًا من مولده ﷺ، وقيل: في النصف من شوال من السنة العاشرة من البعثة، وقيل: قبل هجرته بثلاث سنين. وقيل: بخمس.

عام الحزن، تتابعت عليه فيه المصائب، إذ تجرأت عليه قريش ونالت منه ما لم تنله أيام أبي طالب، فبينما هو ذات يوم ساجد عند البيت قال أبو جهل: أيكم يذهب إلى سلَى جزور بني فلان ليضعه على ظهر محمد، فقام أشقاهم ووضع الفرث على ظهره الشريف وهو ساجد، فبلغ طفلته فاطمة سلام الله عليها وجاءت فألقته عن ظهره وشتمت أبا جهل ومن معه واحتقرت أخلاقهم الوضيعة.

في يوم آخر: وضع شقي آخر التراب على رأسه ﷺ وهو ساجد، فدخل على بناته معفرًا فجعلت إحداهن تغسله وتبكي، فقال ﷺ: لا تبكي يا بُنيةُ فإن الله مانعٌ أباكِ. ويقول بين ذلك: ما نالت مني قريشٌ شيئًا أكرهه حتى مات أبو طالب. وقد أطلق النبي ﷺ دعوته: اللهم عليك بقريش، اللهم عليك بأبي جهل، وعليك عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة، وأمية بن خلف، وعقبة بن أبي معيط، قال ابن مسعود راوي الحديث: فوالذي بعثه بالحق لقد رأيت من دعى عليهم صرعى يوم بدر يسحبون إلى قليب بدر[2].

زواجه بسَوْدَة رضي الله عنها:

(١) وقيل: خمسة أيام في رمضان. وقيل: ماتت قبل الهجرة بخمس سنين، وقيل: بأربع سنين، وقيل: بعد الإسراء. ينظر مغلطاي ١٣١.

(٢) البخاري رقم ٤٩٨، والطبري ٢/٣٤٤. والبداية ٣/١٥١. فتح الباري ٧/١٦٥. عيون الأثر ١/٢٢٦.

بعد أيام[1] من موت خديجة تزوج سودة بنت زمعة، وكانت قبله عند السكران بن عمرو الذي أسلم وهاجر إلى الحبشة الهجرة الثانية، فقدم مكة ومات فيها، وقيل: مات في الحبشة. وقيل: تزوج بسودة بعد عقده بعائشة[2].

النبي # في الطائف[3]:

ذهب النبي ﷺ سيرًا على قدميه إلى قبيلة ثقيف بالطائف يتلمس عندهم النصرة، فأقام بالطائف شهرًا، وقيل: عشرة أيام يدعوهم إلى الله، فلم يجيبوه[4]، بل قابلوه باللؤم والخسة، وبرهنوا على أنهم أصحاب أخلاق رفيعة، قال له أحد كبارهم: أما وجد الله أحدًا يرسله غيرك. فأغروا به سفهاءهم، فجعلوا يرمونه بالحجارة حتى أدموا رجليه، وحاول زيد بن حارثة رضي الله عنه أن يقيه بنفسه فشُجَّ في رأسه، ولم يؤمن من أهل الطائف أحد؛ فالتجأ من وقع الحجارة إلى حائط عنب لعتبة وشيبة ابني ربيعة، وهو يردد: **اللهم إليك أشكوا ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين وأنت ربي، إلى من تكلني إلى عدو يتجهمني[5]، أم إلى قريب ملكته أمري؟، إن لم يكن**

---

(١) وقيل: بعد موتها بسنة.

(٢) مغلطاي ١٣٢. والسيرة لابن كثير ٢/١٤٥.

(٣) بعد موت خديجة بثلاثة أشهر وثمانية أيام لليال بقين من شهر شوال سنة ١٠ للبعثة. ابن هشام ١/٤١٩. والطبقات ١/٢١٠. والطبري ٢/٣٤٤.

(٤) إلا ما جاء في مجمع الزوائد ٦/٣٥، أن امرأة تسمى رقيقة أضافته وشرب عندها سويقًا ونهاها عن عبادة طاغيتهم، وأمرها إذا صلت أن توليه ظهرها، فلما أسلمت ثقيف سأل ولديها، ما فعلت أمكما؟ قال: تركناها على الحال التي تركتَها، قال: لقد أسلمت أمكما إذاً.

(٥) تجهمه: استقبله بوجه كريه.

بك عليَّ غضب فلا أبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي. أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تُنزل بي غضبك، أو يَحِلَّ عليَّ سخطك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك[1].

فلما رآه ابنا ربيعة تحركت له رحمهما فأرسلوا عَدَّاسًا غلامًا لهما نصرانيًا بقطف من عنب، فلما وضعه بين يديه قال: باسم الله، فنظر عداس في وجهه، فقال: إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد، فسأله: من أين أنت يا عداس وما دينك؟ قال: نصرانيٌ من أهل نَيْنَوَى، فقال ﷺ: من قرية الرجل الصالح يونس بن متى؟، قال: وما يدريك ما يونس بن متى؟، قال ﷺ: ذلك أخي كان نبيًا وأنا نبي، فأكب عداس على رسول الله ﷺ يقبل رأسه ويديه وقدميه.

فسأله ابنا ربيعة عما فعل، فقال: ما في الأرض خير منه، لقد أخبرني بأمر ما يعلمه إلا نبي، فقالا له: ويحك يا عداس لا يصرفنك عن دينك فإنه خير من دينه.

استماع الجن للقرآن :

في وادٍ على بعد ليلة من مكة في مكان يسمى نخلة، قام ﷺ يصلي من جوف الليل، فاستمع إليه نفر من الجن، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ

(١) ابن هشام ١/٤٢٠. و الطبري ٢/٣٤٥. ومجمع الفوائد ٦/٣٥. وبعضهم يضعف رواية هذا الدعاء عن النبي بعلة أن ابن إسحاق مدلس ثقة، لكن الدعاء لا يصح أن يلفظ به إلا فم النبي (ص)، فهو يتغلغل إلى القلب بدون توقف، فأنوار النبوة عليه ظاهرة، ولا عبرة بتضعيف من ضعفه. وابن إسحاق ثقة ثقة.

ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُواْ يَـٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَـٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَـٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [٢٩ ٣٢: الأحقاف] [1] .

ثم انتهى إلى حراء فأرسل رجلاً إلى المطعم بن عدي، وكان شهمًا فيه شيء من مروءة أبي طالب، وطلب منه أن يجيره فقال: نعم، ودعى بنيه فلبسوا السلاح وتوزعوا على أركان البيت يحرسون محمدًا ﷺ والمطعم على راحلته ينادي إني قد أجرت محمدًا فلا يَهجْهُ أحد منكم، فقالت له قريش: أتابع أم مجير؟ قال: بل مجير، قالوا: إذن لا تُخفَرُ ذمتُك، وقد حفظ النبي ﷺ لمطعم هذا الصنيع[2]. فقال في أسارى بدر: " لو كان المطعم حيًا ثم كلمني في هؤلاء النتني لتركتهم له"[3].

الإسراء والمعراج: ٢٧ رجب قبل الهجرة بسنة –٦٢١م

الإسراء من مكة إلى بيت المقدس، والمعراج من بيت المقدس إلى السموات العلى. تظافرت الروايات أن جبريل جآءه بالبراق – وهي دابة فوق الحمار

---

(١) ابن هشام ٤٢٢/١. وتأريخ الإسلام [السيرة النبوية] ص١٩٨. والطبري ٣٤٧/٢.

(٢) الطبقات ٢١٢/١.

(٣) البخاري رقم ٣٦٧٠، ٣٧٩٩.

ودون البغل يضع حافره في منتهى طرفه، قال ﷺ: فركبته حتى أتيت بيت المقدس وصليت ركعتين، فأتيت بقدحين من خمر ولبن، فأخذت اللبن فقال جبريل: الحمد لله الذي هداك للفطرة، لو أخذت الخمر غوت أمتك[1]. ثم نصب له المعراج إلى السماوات العلى.

أما سياق البخاري فيفيد أن المعراج حصل من مكة، وهذا نصه:

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كان أبو ذر يحدث أن رسول الله ﷺ قال: " فُرج عن سقف بيتي وأنا بمكة، فنزل جبريل عليه السلام، ففرج صدري، ثم غسله بماء زمزم، ثم جاء بطست من ذهب، ممتلئ حكمة وإيمانًا، فأفرغه في صدري، ثم أطبقه، ثم أخذ بيدي فعرج بي إلى السماء الدنيا، فلما جئت إلى السماء الدنيا، قال جبريل لخازن السماء: افتح قال: من هذا؟ قال: هذا جبريل قال: هل معك أحد؟ قال: نعم، معي محمد ﷺ، فقال: أرسل إليه؟ قال: نعم. فلما فتح علونا السماء الدنيا فإذا رجل قاعد على يمينه أسودةٌ، وعلى يساره أسودةٌ، إذا نظر قِبَلَ يمينه ضحك، وإذا نظر قبل يساره بكى، فقال: مرحبًا بالنبي الصالح والابن الصالح، قلت لجبريل: من هذا؟ قال: هذا آدم، وهذه الأسودة عن يمينه وشماله نسمُ بنيه، فأهل اليمين منهم أهل الجنة، والأسودة التي عن شماله أهل النار، فإذا نظر عن يمينه ضحك، وإذا نظر قبل شماله بكى، حتى عرج بي إلى السماء الثانية ، فقال لخازنها: افتح، فقال له خازنها مثل ما قال الأول، ففتح". قال أنس: فذكر: أنه وجد في السماوات آدم، وإدريس وموسى وعيسى وإبراهيم صلوات الله عليهم، ولم يذكر كيف منازلهم، غير أنه ذكر: أنه وجد آدم في السماء الدنيا، وإبراهيم في السماء السادسة، قال أنس: فلما مرَّ بإدريس،

---

(١) البخاري ٤٤٣٢. ومسلم ١/١٤٥.

قال: مرحبًا بالنبي الصالح والأخ الصالح. "فقلتُ لجبريل: من هذا؟ قال: هذا إدريس، ثم مررت بموسى، فقال: مرحبًا بالنبي الصالح والأخ الصالح، قلت: من هذا ؟ قال: هذا موسى، ثم مررت بعيسى، فقال: مرحبًا بالأخ الصالح والنبي الصالح، قلت: من هذا؟ قال: هذا عيسى، ثم مررت بإبراهيم فقال: مرحبًا بالنبي الصالح والابن الصالح، قلت: من هذا؟ قال: هذا إبراهيم صلى الله عليه وعلى الأنبياء جميعًا ".

قال ابن شهاب: فأخبرني ابن حزم: أن ابن عباس وأبا حبة الأنصاري:كانا يقولان: قال النبي ﷺ: " ثم عرج بي حتى ظهرت لمستوى أسمع فيه صريف الأقلام" قال ابن حزم وأنس بن مالك: قال النبي ﷺ "ففرض الله على أمتي خمسين صلاة، فرجعت بذلك، حتى مررت على موسى، فقال: ما فرض الله لك على أمتك؟ قلت: فرض خمسين صلاة، قال: فارجع إلى ربك، فإن أمتك لا تطيق ذلك، فراجعني فوضع شطرها، فرجعت إلى موسى، قلت: وضع شطرها، فقال: راجع ربك، فإن أمتك لا تطيق، فراجعت فوضع شطرها، فرجعت إليه، فقال: ارجع إلى ربك ، فإن أمتك لا تطيق ذلك، فراجعته، فقال: هي خمس، وهي خمسون، لا يبدل القول لدي، فرجعت إلى موسى، فقال: راجع ربك فقلت: استحييت من ربي، ثم انطلق بي، حتى انتهى بي إلى سدرة المنتهى، وغشيها ألوان لا أدري ما هي، ثم أدخلت الجنة، فإذا فيها حبايل اللؤلؤ، وإذا ترابها المسك"[1].

فابتداء الإسراء من الحجر. وفي رواية أم هاني: أنه من بيتها، إذ قالت: نام عندي فصلى العشاء، ثم نام ونمنا، فلما كان قبيل الفجر أهبنا رسول الله ﷺ، فلما صلى الصبح فصلينا معه، فقال: يا أم هاني لقد صليت معكم العشاء الآخرة

---

(١) البخاري رقم ٣٤٢.

كما رأيتِ في هذا الوادي، ثم جئت إلى بيت المقدس فصليت فيه، ثم قد صليت صلاة الغداة معكم الآن كما ترين"، ثم قام ليخرج فأخذت بطرف ردائه، فتكشف عن بطنه كأنه قبطية مطوية[1]. فقلت: يا رسول الله لا تحدث به الناس فيكذبوك ويؤذوك، قال: والله لأحدثنهموه. قالت: فقلت لجارية حبشية: اتبعي رسول الله حتى تسمعي ما يقول للناس وما يقولون له، فلما خرج رسول الله ﷺ إلى الناس أخبرهم فعجبوا، وقالوا: ما آية ذلك يا محمد، فإنا لم نسمع بهذا قط، قال: آية ذلك أني مررت بعير بني فلان وهي قادمة عند طلوع الشمس. وقد سألوه متعجبين إنا لنركض إلى بيت المقدس شهرًا ذهابًا وشهرًا إيابًا، وأنت تأتيه في ليلة واحدة فصفه لنا؟، قال ﷺ: "لما كذبتني قريش قمت في الحجر، فجلى الله لي بيت المقدس فطفقت أخبرهم عن آياته وأنا أنظر إليه"[2]. ولما كان في الصباح ابتدروا إلى الطريق يرقبون الإبل التي أخبر بقدومها، فقال أحدهم: هذه الشمس طلعت، وقال آخر: وهذه العير قد أقبلت.

الدروس والعبر:

١-التحرر من المادة، والتطور الذي وصلت إليه البشرية في اختراق الفضاء يُسَهِّلُ لمن كان يصعب عليه تصديق أن يذهب إنسان في رحلة بعيدة ويعود في نفس الليلة، أو كما روي و لم يبرد فراشه؛ فالعبد عبدالله والكون كونه، والدابة

---

(١) ثوب من كتان تنسج بمصر. ابن هشام ٤٠٢/١.

(٢) البخاري رقم ٤٤٣٣.

الفضائية مجرد وسيلة لعلها ترمز إلى تعليم الناس الأخذ بالوسائل. وسرعةُ الضوء إنما هو مقياس انتهى إليه علم البشر، أما رب الكون فلا يحكمه شيء، فليس عجبًا في باب النبوة أن يُطلِع رَسولَه على شيء من كونه في لمح البصر.

٢- جاءت هذه الدعوة تشريفًا لرسول الله ﷺ، وترويحًا عن قلبه المكدود، وشحذًا لهمته لمواجهة مستقبل حافل بالأحداث العظام.

٣- صرَّح القرآن الكريم بأن الحكمة منها أن يريه من آياته الكبرى؛ ليستخف بالمتاعب والمصائب، ﴿سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَـٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [١: الاسراء].

٤- إخباره قريش وهم في عنفوان تكذيبهم له، يدل قطعًا على صدق نبوته، فما يجرؤ أحد يُكَذَّبُ صباح مساء أن يزيد الطين بلة لولا أنه مرسل من الله. و لم يعد يشغل تكذيبُهم من باله إلا كما تشغل الذرة حيزًا من المجرة .

٥- لم يخبر أن رحلته ردًا على التحدي الذي طلب منه بأن يصعد إلى السماء، مما يبرهن على أن القرآن الكريم معجزتُه الخالدة التي لا يحتاج معها إلى معجزة أخرى، حتى وإن كانت بحجم الإسراء والمعراج.

٦- أفرزت الحادثة اختبارًا للمسلمين؛ فارتد كثير ممن كان أسلم؛ لكن أبا بكر رضي الله عنه لما أخبروه قال: والله لئن كان قاله لقد صدق، إنه ليخبرني أن الخبر يأتيه من السماء إلى الأرض في ساعة من ليل أو نهار فأصدقه، فهذا أبعد مما تعجبون منه، فسماه النبي ﷺ "الصديق"[١] .

---

(١) المستدرك ٦٢/٣. ابن هشام ٣٩٩/١.

٧- الإسراء بالجسد آية وعبرة، ولذلك صدَّرها الله تعالى بقوله: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ﴾، وهو المشهور عن جماهير المسلمين؛ ولذلك كذبته قريش، وبعضهم يقول بالروح فقط، ولو كان كذلك لم يكن فيه أي معجزة، فأي إنسان عادي يمكن أن يرى ذلك؛ مع أن عائشة رضي الله عنها كانت تقول: ما فُقِدَ جَسد رسول الله ﷺ، ولكن الله تعالى أسرى بروحه. وكان معاوية يقول: كانت رؤيا من الله تعالى صادقة[١].

٨- هناك استدراك أصولي على فرض الصلاة، فالزيدية والمعتزلة[٢] وطوائف من الحنفية والشافعية يستشكلون فرض الصلوات خمسين ثم نسخها إلى خمس؛ لأنه لا يجوز نسخ الفعل قبل إمكان العمل به، لأن ذلك بَدَاء لا يجوز على الحكيم جلّ وعلا؛ فضعفوا هذه الرواية باعتبارها آحادية، وحمله الإمام المهدي على أنه تعالى لم يكن قد فرض ما زاد على الخمس ولا أمر بها على سبيل الحتم والجزم، بل أمر نبيه أن يعرض على أمته التكليف بالخمس، فلما أخبر موسى عليه السلام فهم أنها تثقل عليهم، فأشار بما أشار، حتى وقعت على خمس، فحتمها وأمضاها. وهذا محمل حسن. إلا أن هناك إشكالاً في تحديد فرض الخمس الصلوات، فالمروي أنها كانت ركعتين في الغداة والعشي[٣]. ولعل فرض الخمس قد سبق المعراج كما جاء في روايات، ثم زيدت في الحضر وأقرت في السفر، وإن لم يحدد لنا تأريخ فرضها، والله أعلم.

---

(١) ابن هشام ١/٣٩٩. والشفاء ١/٣٥٩.

(٢) المعتمد ١/٣٧٥.

(٣) المعيار ٤٤٣. والغاية ٢/٤١٣.

أما الطائفة الأخرى من المسلمين فقد أجازوا نسخ الفعل قبل التمكن من الامتثال، واستدلوا بهذا وبقصة نسخ ذبح إبراهيم لولده[1].

٩- الربطُ بين المسجد الحرام والمسجد الأقصَى، وإمامة النبي ﷺ للأنبياء عليهم السلام إشارةٌ إلى تسليمهم الراية للنبي الخاتم ﷺ، فهو المؤتمن على تمثيل الدين الصحيح والمقدسات من الانحراف الذي وقع فيه أبناء إسماعيل بجوار الكعبة، وأبناء إسحاق بجوار بيت المقدس. وهذا يوجب على كل موحد أن يبذل نفسه ونفيسه في الدفاع عن مقدسات الإسلام، ولا سيما البيت الحرام والمسجد النبوي والمسجد الأقصى، ونحن في أمل أن يهيئ الله من أجيال المسلمين من يطهر الأقصى من دنس الصهاينة وخبث اليهود. ولا يعني ضعف المسلمين الآن وتراخيهم وضعف أنظمتهم وتقبلهم بالهزائم المذلة – نهاية المجد الإسلامي، فالأمل في الله كبير ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم﴾ [٣٨: محمد].

١٠-القول بأن الإسراء بالروح فقط، لا يعني بالضرورة أنه من فكرة المستشرقين بغية إنكار معجزات رسول الله ﷺ؛ لأنه خلاف قديم، وهو رأي عائشة وطائفة معها.

دعوة القبائل للإسلام[2]:

ظل النبي ﷺ مستخفيًا ثلاث سنين ثم جهر في الرابعة، وها هو يتعدى السنة العاشرة، وقريش لم تزداد إلا عتوًا واستكبارًا، قد ضاقوا به ذرعًا، وقد ردته

---

(١) روضة الناظر ٢٣٥/١. والبرهان ١٣٠٣/٢. مسألة رقم ١٤٣١.

(٢) ابن هشام ٤٢٢/١. وابن كثير ١٥٥/٢.

ثقيف أقبح رد، ومع انتهازه للأشهر الحرم، والتقائه بـحُجاج العرب في الحرم، ومنى، ومزدلفة، وعرفات، وفي أسواقهم: بعكاظ، ومجنة، وذي المجاز[1]- لم تستجب له القبائل التي دعاها إلى نصرته وحمايته لكي يبلغ كلمة الله: مثل: بني عامر بن صعصعة، وبني محارب، وفزارة، وغسان، ومرة، وحنيفة، وسليم، وعبس، وبني نصر، وبني البكار، وكندة، وكلب، وبني الحارث بن كعب، وعذرة، والحضارمة، وهمدان؛ لاستشعار القبائل أن من ناصره صار عدوًا لقريش، لكن هذه العزلة والركود الخانق لم توهن له عزمًا، فالنفوس العالية كالياقوت لا تغير النار فيه بريقًا: قال الحريري:

فطالما أصلي الياقوت جمرَ غضىً   حتى انطفى الجمرُ والياقوتُ ياقوت

لم يفقد الأمل في الله، وإن لازمه عدو الله أبو لهب ملازمة ظله قائلاً لكل قبيلة يدعوها: إنه ابن أخي، ساحر كذاب، فرق شملنا وعاب آلهتنا فلا تصدقوه، فيقولون: عمه أدرى به إذن. ثم أذن الله لجهده أن يُثمر تصديقًا لقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧] هيأ الله لإظهار دينه وإعزاز نبيه ستة من الخزرج، كانت اليهود تحدثهم أن نبيًا قد أطل زمانه، سنتبعه ونقتلكم معه قتل عاد وإرَم، فلما كلمهم الرسول ودعاهم إلى الله، قال بعضهم لبعض: إنه هو، فلا تسبقنكم إليه يهود فآمَنُوا

(١) عكاظ: بين مكة والطائف، ومجنة: أسفل مكة،وذو المجاز: قرب عرفات،كلها تقام في الأشهر الحرم.

به[1]، وقالوا: إن بين قومنا عداوة وشرًا، فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك، فلما رجعوا حدثوا قومهم بالإسلام، فلم تبق دار إلا وفيها ذكر لرسول الله ﷺ.

بيعة العقبة الأولى[2]:

(سنة ١٢ من النبوة – ٦٢١م)

وافى الموسم اثنا عشر رجلاً فيهم الستة المذكورون، قال عبادة بن الصامت: بايعنا رسول الله ﷺ بيعة النساء قبل أن تفرض الحرب على أن لا نشرك بالله شيئًا، ولا نسرق، ولا نزني، ولا نقتل أولادنا، ولا نأتي ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا، ولا نعصيه في معروف، قال لنا: فإن وفيتم فلكم الجنة، وإن غشيتُم من ذلك شيئًا فأمركم إلى الله عز وجل إن شاء عذب وإن شاء غفر، فبعث معهم مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصي، يقرؤهم القرآن، ويعلمهم الإسلام، ويفقههم في الدين، وكان يسمى: بالمقرئ.

سفير محنك وداعية ناجح:

ذهب أسعد بن زرارة بمصعب إلى دار بني عبد الأشهل، وكان سعد بن معاذ وأسيد بن حُضَير سيدي قومهما، وكلاهما مشرك، فلما سمعا بمصعب وزميله قال سعد لأسيد: انطلق إلى هذين الذين أتيا ليسفها ضعفاءنا فازجرهما، فلولا

---

(١) سيرة مغلطاي ص١٤٣. في الطبقات ج١ ص٢١٨.: أن أول من أسلم رجلان: أسعد بن زرارة، وذكوان ابن عبد قيس، وفي العام المقبل أسلم ستة، وقيل: ثمانية وفي رواية: أن أول من أسلم إياس بن معاذ بمفرده.

(٢) ابن هشام ٤٣١/١. وابن كثير ١٧٨/٢. والكامل ٦٦/٢. والطبري ٣٥٦/٢.

أن أسعد بن خالتي لكفتيك أمرهما. فأخذ أسيد حربته ثم أقبل إليهما، فلما رآه أسعد قال لمصعب: هذا سيد قومه قد جاءك فاصدق الله فيه. قال مصعب: إن يجلس أكلمه، فوقف عليهما متشتمًا غاضبًا وقال: ما جاء بكما؟ تسفهان ضعفاءنا؟ اعتزلانا إن كانت لكما في أنفسكما حاجة، فقال له مصعب: أو تجلس فتسمع، فإن رضيت أمرًا قبلتَه، وإن كرهته كُفّ عنك ما تكرهه؟ قال: أنصفت، ثم ركز حربته وجلس إليهما، فكلمه مصعب بالإسلام، وقرأ عليه القرآن؛ فقالا: فيما يذكر عنهما: والله لعرفنا في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم في إشراقه وتسهُّله، ثم قال: ما أحسن هذا الكلام وأجمله! كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا في هذا الدين؟ قالا له: تغتسل وتُطهِّر ثوبيك، ثم تشهد شهادة الحق، ثم تصلي؛ ففعل ثم قال لهما: إن ورائي رجلاً إن اتبعكما لم يتخلف عنه أحد من قومه، وسأرسله إليكما الآن، إنه سعد بن معاذ، ثم أخذ حربته وانصرف إلى سعد وقومه وهم جلوس في ناديهم، فلما نظر إليه سعد مُقبلاً، قال: أحلف بالله لقد جاءكم أسيد بغير الوجه الذي ذهب به؛ فلما وقف قال له سعد: ما فعلت؟ قال: كلمت الرجلين، فوالله ما رأيت بهما بأسًا وقد نهيتهما، فقالا: نفعل ما أحببت، وقد حُدثت أن بني حارثة قد خرجوا إلى أسعد بن زرارة ليقتلوه، وذلك أنهم قد عرفوا أنه ابن خالتك؛ ليُخفرُوك، قال: فقام سعد مُغضبًا مبادرًا، تخوفًا للذي ذكر له من بني حارثة، فأخذ الحربة من يده، ثم قال: والله ما أراك أغنيت شيئًا، ثم خرج إليهما، فلما رآهما مطمئنَّين، عرف أن أسيدًا إنما أراد منه أن يسمع منهما، فوقف عليهما متشتمًا، ثم قال لأسعد بن زرارة: يا أبا أمامة، أما والله لولا ما بيني وبينك من القرابة ما رُمتَ هذا مني، أتغشانا في دارنا بما نكره؟ – وقد قال أسعد بن زرارة لمصعب بن عمير: أي مصعب، جاءك والله سيد مَن وراءه من قومه، إن يتبعك لا يتخلف عنك منهم اثنان – قال: فقال له

مصعب: أوَ تقعد فتسمع، فإن رضيت أمرًا ورغبت فيه قبلته، وإن كرهته عزلنا عنك ما تكره؟ قال سعد: أنصفت، ثم ركز الحربة وجلس، فعرض عليه الإسلام، وقرأ عليه القرآن قالا: فعرفنا والله في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم، لإشراقه وتسهله، ثم قال لهما: كيف تصنعون إذا أنتم أسلمتم ودخلتم في هذا الدين؟ قالا: تغتسل فتطهر وتُطهر ثوبيك، ثم تشهد شهادة الحق، فأسلم، ثم أخذ حربته فأقبل عامدا إلى نادي قومه، قال: فلما رآه قومه مقبلاً قالوا: نحلف بالله لقد رجع إليكم سعد بغير الوجه الذي ذهب به، فلما وقف عليهم قال: يا بني عبد الأشهل، كيف تعلمون أمري فيكم؟ قالوا: سيدنا وأوصلنا وأفضلنا رأيا وأيمننا نقيبة، قال: فإن كلام رجالكم ونسائكم عليّ حرام حتى تؤمنوا بالله وبرسوله، قالا: فوالله ما أمسى في دار بني عبد الأشهل رجل ولا امرأة إلا مسلمًا ومسلمة .

درس وعبرة:

١- أتمنى على من يرغبون في الدعوة إلى الله أن يقرأوا قصة مصعب وأسعد جيدًا،كيف استطاع مصعب وهو غريب أن يستدرج سيدي قومهما في مجلس واحد بحسن أدبه ولطفه: ألا تجلس فتسمع، فإن رضيت وإلا رفعنا عنك ما تكره! أي عاقل يسمع مثل هذا ولا يسعه إلا أن ينصت ولذلك أسلما.

٢- تحرك أسيد داعيًا إلى الله قبل أن يجف رأسه، وما أحسن الحيلة التي جلب بها سعدَ بن معاذ، الذي وصل إلى شابين عظيمين، وداعيين كريمين؛ يستهوي حسنُ خلقهما ودماثة طباعهما وخفة دمهما النافرين عن الإسلام بهدوء ووقار، وفَوْرَ إسلام سعد بادر مستدركًا ما فاته من سبق زملائه، وخاطب قومه خطاب كريم يحب لهم الخير، وألقى بثقله في قومه لصالح الإسلام الذي اعتنقه منذ دقائق، ولأنه خاطبهم من قلبه، فقد أسلموا أجمعين، هكذا كان السلف

الصالح لا غرور ولا فجور، ولا تأفف، ولا استكبار، فجزاهم الله عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء.

بيعة العقبة الثانية[1]:

رجع مصعب رضي الله عنه إلى مكة ووافى الموسم سبعون فارسًا يزيدون اثنين أو خمسة في بعض الروايات، بينهم نُسيبةُ بنت كعب من بني النجار، وأسماء بنت عمرو من بني سلمة ضمْن خمسمائة حاج من الأوس والخزرج، فتسللوا مثنى وفرادى للقاء رسول الله ﷺ عند العقبة بعد ثلث الليل من أوسط أيام التشريق؛ فجاء ﷺ ومعه عمه العباس على دين قومه، لكنه أراد أن يستوثق لابن أخيه.

فلما اجتمعوا قال لهم العباس: إن محمدًا في عز من قومه، ومنعة في بلده،وقد أبى إلا الانحياز إليكم واللحوق بكم، فإن كنتم وافين له بما دعوتموه إليه، ومانعيه ممن خالفه فأنتم وما تحملتم من ذلك، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم، فمن الآن فدعوه. فقالوا: قد سمعنا ما قلت. فقالوا لرسول الله ﷺ: تكلم فخذ لنفسك ولربك ما أحببت؛ فتلى عليهم القرآن ودعاهم إلى الله ورغب في الإسلام، ثم قال: أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون به نساءكم وأبناءكم.

قال عبادة بن الصامت: بايَعْنَا رسول الله ﷺ بيعة الحرب على السمع والطاعة في عسرنا ويسرنا، ومنشطنا ومكرهنا، وأَثَرَةٍ علينا، وأن لا ننازع الأمر أهله، وأن نقول بالحق أينما كان لا نخاف في الله لومة لائم. فكانت هذه البيعة بيعة

(١) ابن هشام ج١ص٤٣٨. والطبقات ٢٢١/١. والطبري ٣٦٢/٢.

حرب، والبيعة في العقبة الأولى بيعة النساء، ولم يكن قد أذن الله لرسوله بالقتال.

ثم قالوا لرسول الله ﷺ: فما لنا إن وفينا بذلك؟ قال: الجنة. فأجابوا رضي الله عنهم: رضينا لا نُقِيل ولا نَسْتَقِيل، فأخذ البراء بن معرور بيده ثم قال: نعم، والذي بعثك بالحق نبيًا، لنمنعك مما نمنع منه أزُرَنا[1]؛ فَبَايِعْنَا يَا رسول الله فنحن والله أبناء الحرب وأهل الحَلَقَةِ[2] ورثناها كابرًا عن كابر، فاعترض أبو الهيثم بن التيهان – والبراء يتكلم – فقال: يا رسول الله، إنَّ بيننا وبين اليهود حبالاً ونحن قاطعوها، فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتَدَعَنَا؟ فتبسم رسول الله ﷺ ثم قال: بل الدَّمُ الَّدمُ، والـهَدْمُ الـهَدْمُ[3]، أنا منكم وأنتم مني، أحاربُ من حاربتم، وأسالم من سالمتم!.

وقال: أخرجوا إليَّ منكم اثني عشر نقيبًا ليكونوا على قومهم بما فيهم، فأخرجوا تسعة من الخزرج وهم: أسعد بن زرارة ، وسعد بن الربيع، وعبدالله بن رواحة، ورافع بن مالك، والبراء بن معرور، وعبدالله ابن عمرو بن حرام، وعبادة بن الصامت، وسعد بن عبادة، والمنذر بن عمرو بن خنيس. وثلاثة من الأوس وهم: أسيد بن حُضير، وسعد بن خيثمة، ورفاعة بن المنذر. وكان أولَ من بايع البَرَاء بن معرور، ثم بايع القوم.

---

(١) تطلق الأزر على النساء والنفوس.

(٢) السلاح.

(٣) الـهَدْمُ: باسكان الدال وفتحها: إهدار الدم، أي إن طُلِبَ دمكم فقد طلب دمي، وإن أهدر دمكم فقد أهدر دمي، والـهَدَمُ بالتحريك: القبر والمنزل، أي أقبر حيث تقبرون، وأنزل حيث تنزلون.

فلما تمت البيعة صرخ الشيطان بأنفذ صوت: محمدٌ والصباة معه قد أجمعوا على حربكم، فقال النبي ﷺ: هذا الشيطان، أي عدو الله، والله لأفرُغَنَّ لك ثم قال ﷺ: ارفَضُّوا إلى رحالِكم، فقال له العباس بن عبادَة بن نَضلَةَ: والذي بعثك بالحق إن شئت لنميلن على أهل مِنىً غدًا بأسيافنا، فقال ﷺ: لم نؤمر بذلك، ولكن ارجعوا إلى رحالكم، فرجعنا فنمنا، فلما أصبحنا غدت علينا جِلَّةُ قريش فقالوا: يا معشرَ الخزرج، إنه قد بلغنا أنكم قد جئتم إلى صاحبنا هذا تستخرجونه من بين أظهرنا وتبايعونه على حربنا، وإنه والله ما من حي من العرب أبغض إلينا أن تنشب الحرب بيننا وبينهم منكم؛ فانبعث مَنْ هناك من مشركي قومنا يحلفون بالله ما كان من هذا شيء وما علمناه وقد صدقوا لم يعلموه، قال: وبعضنا ينظر إلى بعض.

أسْر بعض النقباء:

اكتشفت قريش الخبر فأدركوا سعد بن عبادة رضي الله عنه، فربطوا يديه إلى عنقه وجعلوا يضربونه ويجذبونه بشعر رأسه، قال سعد: فوالله إني لفي أيديهم إذ طلع عليَّ نفر من قريش، فيهم رجل وضِيءٌ حلوٌ من الرجال، فقلت في نفسي: إن يك عند أحد من القوم خير فعند هذا، فلما دنا مني رفع يده فلكمني لكمة شديدة فقلت في نفسي: والله ما عندهم بعد هذا من خير، فوالله إني لفي أيديهم يسحبونني إذ أوَى لي[1] رجل ممن كان معهم فقال: ويحك، أما بينك وبين أحد من قريش جوار ولا عهد؟ قلت: بلى والله لقد كنت أجيرُ لجبير بن مطعم بن عدي بن نوفل ابن عبد مَناف تُجَّاره، وأمنعهم ممن أراد ظلمهم ببلادي، وللحارث بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، قال: ويحك فاهتف باسم الرجلين، واذكر ما بينك وبينهما، قال: ففعلت وخرج ذلك

(١) أوى له: رق له ورحمه.

الرجل إليهما فوجدهما في المسجد عند الكعبة، فقال لهما: إن رجلاً من الخزرج الآن يُضرب بالأبطح ويهتف بكما ويذكر أن بينه وبينكما جوارًا. قالا: ومن هو ؟ قال: سعد بن عبادة، قالا: صدق والله إن كان ليجير لنا تجارنا ويمنعهم أن يُظلموا ببلده، قال: فجاءا فخلصا سعدًا من أيديهم فانطلق، وكان الذي لَكَمَ سعدًا سهيل بن عمرو العامري، وكان الرجل الذي أوى إليه أبا البَخترِي بنَ هشام[1].

ثمرة الصبر:

أثمر جهد النبي ﷺ وجهاده بلقاء هاتين القبيلتين اليمنيتين الكريمتين "الأوس والخزرج"، وإذا كان لليمنيين أن يفخروا بشيء من ماضيهم؛ فلهم أن يفخروا بالأنصار الذين ارتبطوا بالنبي ﷺ حياة وموتًا، والذين قال فيهم: "المحيا محياكم، والممات مماتكم، ولولا الهجرة لكنت امرءًا من الأنصار"، وهم الذين قال فيهم: "أنتم كثير عند الفزع، قليل عند الطمع".

ولليمنيين أن يفخروا أيضًا بنصرة آل محمد ﷺ، فقد كانوا من أعمدة جيش علي كرم الله وجهه، ولهم لا لغيرهم[2] قال:

(١) ابن هشام ١/٤٤٩. وابن كثير ٢/٢٠٦.

(٢) شرح النهج لابن أبي الحديد ٢/٢٣٤. والتحف ٤٤.

تيممـــت همـــدان الـــذين هُـــمُ هُـــمُ ... إذا نـــاب أمـــر جـــنتي وســـهامي

فـــوارس ليســـوا في الحـــروب بعـــزَّلٍ ... غـــداة الـــوغى مـــن شـــاكر وشـــبام

ومـــن أرحـــب الشـــم المطـــاعين بالقنـــا ... ونِهـــم وأحيـــاء الســـبيع ويـــام

ووادعـــة الأبطـــال يخشـــى مصـــالها ... بكـــل صـــقيل في الأكـــف حســـام

ومـــن كـــل حـــي قـــد أتـــتني فـــوارس ... كـــرام لـــدى الهيجـــاء أي كـــرام

يقـــودهمُ حـــامي الحقيقـــة ماجـــد ... سـعيد بـــن قـــيس والكـــريم محـــامي

جـــزى الله همـــدان الجنـــان فـــإنهم ... سمـــام العـــدا في كـــل يـــوم سمـــام

رجـــال يحبـــون الـــنبي ورهطـــه ... لهـــم ســـالف في الـــدهر غـــير أيـــام

ولـــو كنـــت بوابًـــا علـــى بـــاب جنـــة ... لقلـــت لهمـــدان ادخلـــوا بســـلام

وقد قال ابن عباس للحسين عليه السلام عندما عزم على الخروج إلى العراق: اذهب إلى اليمن فإن لأبيك بها شيعة.

آية القتال:

نزل قول الله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَـٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن

يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ﴾ [٣٩-٤١:الحج]. وقوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾ [١٩٣: البقرة].

المؤاخاة بين المهاجرين رضي الله عنهم:

آخى النبي ﷺ بين المهاجرين على الحق والمؤاساة، أخوين أخوين: بين أبي بكر وعمر. وحمزة وزيد. وعثمان وعبد الرحمن بن عوف. والزبير وابن مسعود. وعبادة بن الحارث وبلال. ومصعب وسعد. وأبي عبيدة وسالم. وسعيد بن زيد وطلحة. فقال علي كرم الله وجهه: يا رسول الله، إنك قد آخيت بين أصحابك، فمَنْ أخي؟ قال الرسول: أما ترضى يا علي أن أكون أخاك فقال ابن عمر: وكان علي جلدًا شجاعًا فقال علي: بلى يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: أنت أخي في الدنيا والآخرة[1].

هجرة المسلمين إلى المدينة:

فتح النبي ﷺ الضوء الأخضر للهجرة إلى المدينة، في ضيافة رجال يتردد مديحهم في القرآن إلى يوم القيامة: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ مِن قَبۡلِهِمۡ يُحِبُّونَ مَنۡ هَاجَرَ إِلَيۡهِمۡ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمۡ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ

(١) المستدرك ج٣ ص١٤ ولم يوافق على تصحيحه الذهبي، البداية والنهاية ج٣ ص٢٧٨. إلا أنه أسوة بابن تيمية راح يتعلل في مؤاخاة النبي لعلي..الطبقات ٣ /٢٣. عيون الأثر ٣٢١/١. ووفاء الوفاء ٢٦٧/١. والسيرة الحلبية ٢٠/٢. والترمذي ٥٩٥/٥ رقم ٣٧٢٠.

وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [٩: الحشر].

انطلقت كتائب المهاجرين يتقدمهم أبو سلمة رضي الله عنه القادم من الحبشة لما بلغه إسلام الأنصار فهاجر إليهم، واعترضه رجال بني المغيرة أسرة زوجه أم سلمة رضي الله عنها فانتزعوا منه خطام بعير أم سلمة، فأخذوها، فغضب رهط أبي سلمة وقالوا: لا نترك ابننا عندها إذ نزعتموها من صاحبنا، فتجاذبوا الطفل سلمة حتى خلعوا يده فكان عند بني عبد الأسد، والمسكينة أم سلمة عند بني المغيرة، فكانت تخرج إلى الأبطح باكية على فراق زوجها وابنها قرابة سنة، حتى مر رجل من بني عمها فرحمها، وقال: ألا ترحمون هذه المسكينةَ فرَّقتم بينها وبين زوجها وولدها؟ فقالوا: الحقي بزوجك إن شئت، ورُدَّ إليها ولدها. قالت: فارتحلتُ ما معي أحد من خلق الله، قلتُ: أتبلغ بمن لقيت حتى ألقى زوجي، حتى إذا كنت بالتّنعيم[1]، لقيت عثمان بن طلحة، (وكان مشركًا) فقال: إلى أين يا ابنة أبي أمية؟ قلت: أريد زوجي في المدينة قال: أو ما معك أحد؟ قلت: لا والله إلا الله وبُنيَّ هذا، قال: والله ما لك من مَتْرَك، فأخذ بخطام البعير فانطلق معي، فوالله ما صحبتُ رجلا من العرب قط أرى أنه كان أكرم منه، كان إذا بلغ المنزل أناخ بي ثم استأخر عني، حتى إذا نزلت استأخر ببعيري فحطّ عنه ثم قيده في الشجرة، ثم تنحى عني إلى شجرة فاضطجع تحتها، فإذا دنا الرواح، قام إلى بعيري فقدمه فرحَّله ثم استأخر عني وقال: اركبي، فإذا ركبت أخذ بخطام البعير وهكذا...، حتى قدمنا المدينة، فوصل بي إلى قباء، وقال: زوجك في هذه القرية، ثم انصرف راجعًا إلى مكة.

---

(١) على فرسخين من مكة .

قالت: والله ما أعلم أهل بيت في الإسلام أصابهم ما أصاب آل بيت أبي سلمة، وما رأيت صاحبًا قط أكرم من عثمان بن طلحة[1].

الدرس والعبرة:

١- إن لكل عسر يسرًا، ولكل ضيق فرجًا. فقد ذهب أبو سلمة وامرأته رضي الله عنها شرقًا وغربًا فرارًا بدينهما، وظلت الأسرة سنة مشتتة، فكانت العاقبة دخول الأسرة في سجل الخالدين، وصارت أم سلمة فيما بعد من عيون أمهات المؤمنين.

٢- المروءة والخلق الكريم معدن نفيس يتحلى به نبهاء الرجال، وإني لأعجب لهذا المشرك الشهم، وأقول لنفسي: لو أن الأمر بيدي لكتبتُ له شرف الهجرة وأجْرَها مكافأةً له على رجولته وغيرته وإنسانيته النادرة، وشرف نفسه وعفتها، أين هذا من كثير من الساقطين؟ الذين يستغلون ضعف المرأة وحاجتها ووحدتها فيبدأون في الغزل والمزاح الثقيل، وربما نزلوا إلى عالم البهائم مباشرة فمارسوا الاغتصاب، أليس عالـمُ اليوم مليئًا بهذا الوباء والانحطاط الأخلاقي؟ وفتاة اليوم ليست أمَّ سلمة، مع تقديري للعفيفات الطاهرات .

هجرة النبي ﷺ - سنة ١٢ من البعثة[2]، ٦٢٢م

أقام ﷺ بمكة بعد أصحابه من المهاجرين ينتظر أن يُؤذَنَ له في الهجرة، ولم يتخلف معه بمكة أحد من المهاجرين إلا من حُبِسَ وفُتِنَ، إلا علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، وأبو بكر رضي الله عنه، وكان أبو بكر كثيرًا ما يستأذن

---

(١) ابن هشام ١/٤٧٠. وتأريخ الإسلام [السيرة النبوية] ٣١٢.

(٢) ابن هشام ج١ ص٤٨٠. والبداية والنهاية ٣/٢١٤. والكامل ٢/٧١. والطبري ٢/٣٧٦. ومجمع الزوائد ٦/٦٢.

رسول الله ﷺ في الهجرة فيقول له: "لا تعجل لعل الله يجعل لك صاحبًا" فيطمع أبو بكر أن يكونه.

ولما رأت قريش أن رسول الله ﷺ قد عز جانبه وصار له شيعة وأصحاب من غيرهم بغير بلدهم، ورأوا خروج أصحابه من المهاجرين إليهم – وأنهم قد نزلوا دارًا وأصابوا منهم منعة – حذروا خروج رسول الله ﷺ إليهم، وعرفوا أنه قد أجمع لحربهم؛ فاجتمعوا له في دار الندوة وهي دار قصي بن كلاب التي كانت قريش لا تقضي أمرًا إلا فيها يتشاورون فيها ما يصنعون في أمر رسول الله ﷺ، فاعترضهم إبليس في هيئة شيخ نجدي[1]، فقال: أدخلوني معكم، فلن تعدموا مني رأيًا، فأدخلوه، فبدأت الجلسة بالحديث عن خطر محمد ﷺ وخوفهم من الوثوب عليهم إن هو التقى بأصحابه في المدينة، فقال أبو البختري بن هشام: احبسوه وأغلقوا عليه بابًا حتى يموت. فقال إبليس: ما هذا برأي، فربما وثب أصحابه فنزعوه من أيديكم.

فقال أبو الأسود ربيعة بن عامر: نخرجه من بين أظهرنا، قال إبليس: ما هذا برأي، ألم تروا حسن حديثه، وحلاوة منطقه، وغلبته على قلوب الرجال، والله لو فعلتم ذلك ما أمنتم أن يُحل على حي من العرب فيغلب عليهم بذلك من

(١) لأن المؤتمرين منعوا أن يدخل معهم أحد من تهامة؛ لأن هواهم مع محمد (ص)، وذكر السهيلي: أن الشيطان تمثل لنبي الله ابراهيم في صورة نجدي ، وقال: إ ن نجدًا يطلع منها قرن الشيطان كما جاء في الحديث. الروض الأنف ٢٢٩/٢. الطبري ٣٠٠/٩.

قوله وحديثه حتى يتابعوه عليه ثم يسير بهم إليكم فيأخذ أمركم من أيديكم، دبروا فيه رأيًا غير هذا.

فقال أبو جهل: والله إن لي لرأيًا ما أراكم وقعتم عليه بعد، قالوا: وما هو؟ قال أرى: أن نأخذ من كل قبيلة فتى شابًا جليدًا نسيبًا وسيطًا[1] فينا، ثم نعطي كل فتى منهم سيفًا صارمًا، ثم يعمدوا إليه فيضربوه بها ضربة رجل واحد فيتفرق دمه في القبائل، فلا يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعًا، فرضوا منا بالعَقل[2]، فعقلناه لهم.

وفي رواية: أرى أن يعطى خمسة رجال من خمس قبائل سيفًا[3] .

فقال إبليس: هذا هو الرأي، فأجمعوا عليه.

فأتى جبريل عليه السلام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: لا تَبِتْ هذه الليلة على فراشك الذي كنت تبيت عليه، وتلا عليه قول الله: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

وفاء وفداء:

جاءت ساعة الصفر من عتَمةِ الليل المحدد لاغتيال النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فاقتربت الفرقة المنوط بها تنفيذ الاغتيال من باب النبي صلى الله عليه وآله وسلم يترصدون استلقاءه على فراشه ليجهزوا عليه، فلمحهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فعمل على إفشال خطتهم، فقال لعلي بن

---

(١) الوسيط: الشريف في قومه.

(٢) العقل: الدية.

(٣) وفاء الوفاء ج١ ص٢٣٦ .

أبي طالب كرم الله وجهه: نَمْ على فراشي، وتَسَجَّ[1] ببردي هذا الحضرمي الأخضرِ[2]، فنم فيه[3]، (فإنه لن يَخْلُصَ إليك شيء تكرهه) [4]. وكان رسول الله ﷺ ينام في برده ذلك.

❁ ❁ ❁

خرج رسول الله ﷺ في هجعة من الليل يتلو سورة (يس) إلى قوله تعالى: ﴿فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [٩: يس]، فلم يبصره أحد منهم، فذهب إلى دار أبي بكر وخرجا سويًا من خوخة في ظهر البيت فاتجها جنوبًا إلى غار ثور، ولم يعلم بهما غير عبدالله بن أبي بكر وأختيه عائشة وأسماء وعامر بن فهيرة مولاهم. قال ابن هشام: انتهى ﷺ إلى الغار ليلاً فدخل أبو بكر رضي الله

---

(١) تسجى بالثوب: غطى به جسده ووجهه.

(٢) الحضرمي منسوب إلى حضرموت.

(٣) الروضة الندية ٢٤.ابن هشام ٤٨٢/١. الروض الأنف ٢٢٩/٢.

(٤) هذه الزيادة، لم تثبت من وجه صحيح ولا حسن، وإنما رواها ابن إسحاق عن مبهمين. والثعلبي، وليس من أهل الحديث، وفي روايته ذكر حراسة جبريل وميكائيل أيضًا، وهاتان الزيادتان هما اللتان جرأتا ابن تيمية على القدح في هذه المنقبة في منهاج السنة ٣١/٣، ٣٢ بما يطول. وأصل القصة ثابت صحيح بدون هذه الزيادة؛ لأنها تقتضي أنه لم يفْدِ بنفسه مع تأمينه ﷺ له بهذه الزيادة؛ ولهذا توصل بها ابن تيمية إلى نفي هذه المنقبة بعد أن كذب هذه الرواية المشتملة على هذه الزيادة فناقض كلامه حينئذ.

عنه قبل رسول الله ﷺ يلتمس الغار؛ لينظر أفيه سبع أم حية يقي رسول الله بنفسه[1].

مكث في الغار ثلاث ليال حتى هدأ الطلب، وجاء عبدالله بن أريقط براحلتيهما، وقد استأجراه ليدلهما على الطريق، واتجها صوب المدينة يطويان المراحل ليل نهار.

الدروس والعبر:

تبرز في المواقف الصعبة عبقريات الأفذاذ الكبار، ومواهب القيادات السياسية العليا، وأعني محمدًا ﷺ الذي لم يترك للصدف أن تلعب دورها، بل أعد عدته منذ زمن بعيد، وكان ترتيبه كما يلي:

١- اختياره لعلي كرم الله وجهه وزيرًا، وإعداده إعدادًا ممتازًا؛ للمواقف الحرجة والعادية، وها هو يباشر دورًا من أخطر الأدوار، إنه الفداء، وبكلمة صارمة: نَمْ يا علي في فراشي، وبدون تردد ينطلق راضيًا لأداء هذا الواجب المقدس، وفداء نبيه الذي رباه، وأدَّبه أحسن تأديب، فتخلق بأخلاقه، وتحلى بصفاته، فآمن به من أول لحظة.

٢- الدور الذي أوكل بعلي كرم الله وجهه مناسب له؛ لأنه خطر والدعوة المحمدية تحتاج إلى وقود وفداء، وأولى الناس بهذا هم آل البيت (ع) ، أقارب النبي ﷺ، ثم إنَّ عليًا شاب شجاع ، لا يرتعد لمثل هذا المهمات القاتلة، بل يذهب إليها باسمًا مبتهجًا.

---

(١) ابن هشام ٤٨٦/١. وذكر ابن كثير أنه سدد الأجحرة في الغار إلا جحرًا سدَّه بكعبه فجعلت الأفاعي تنهشه ودموعه تسيل، فقال ﷺ: "لا تحزن إن الله معنا" ، وفي هذا السياق غرابة ونكاره. البداية والنهاية ٢٢١/٣.

٣- لم يأذن النبي ﷺ لأبي بكر رضي الله عنه أن يسبقه في الهجرة؛ لأنه الرجل المناسب في سنه وعقله وخبرته ومؤآنسته، فاصطحبه معه، فالرفيق قبل الطريق، وأبو بكر صديق قديم لرسول الله ﷺ، وهو معروف بدماثة أخلاقه وحسن حديثه، وقد استنفر أسرته كلها لخدمة رسول الله ﷺ.

٤- اختيار ابن أريقط دليلاً رغم أنه مشرك يدل على أن الكفاءة وحدها هي المحك في التكليف، ونحن ندرك أن جراحة القلب المفتوح تحتاج إلى طبيب بارع: مسلمًا كان أم يهوديًا. ولو جاءني طبيب لا يجيد إلا لبس البزة البيضاء وتعليق المجس على رقبته ليشق صدري ملتزمًا بتلاوة القرآن حال العمل ما وثقت به؛ لأن العلم والخبرة هي الأمان الوحيد، فهل نتعلم من النبي ﷺ هذا الدرس: وهو وضع الرجل المناسب في المكان المناسب؟ .

٥- سبق للنبي ﷺ أن أوعز إلى أبي بكر بإعداد راحلتين قويتين على المطاردة؛ ومواجهة الصحراء البعيدة.

٦- عرض أبو بكر رضي الله عنه على النبي ﷺ أن يقبل أقوى الراحلتين هدية؛ لكنه أبى وقال: إنها الهجرة يا أبا بكر، وهكذا يعلمنا رسول الله ﷺ أن لا نُضَيِّع الفرص، وأن نستثمر أموالنا الخاصة في المصارف التي تُدِرّ ربحًا مضاعفًا. وهل تتكرر هذه الرحلة حتى يُفَوِّت نبي الله الجهاد بماله؟، حتى وإن كانت نفس أبي بكر طيبة.

٧- التمويه على قريش بالتوجه جنوبًا رغم أن طريق المدينة شمالاً، وتكليف عبدالله بن أبي بكر بالتقاط الأخبار، وأسرة أبي بكر بإعداد الزاد، وعامر بن فهيرة راعي الغنم بأن يسير بالغنم وراءهما ليُعَفّي آثارهما، وليتمكنا من الحلب والذبح حين الحاجة.

٨- من الملفت أن المشركين لم يقتحموا بيت النبي ﷺ، وهذا يشير إلى بعض أخلاق كانت لدى العرب وهي احترام البيوت، ولا سيما في الليل، ولهذا فالأجدر بالأنظمة المسلمة أن تحافظ على حرمات البيوت، وتمنع الزيارات قبل الفجر لأن للبيوت حرمة حفظها الكفر والإسلام.

والخلاصة أن الرسول ﷺ استنفد طاقته، وبذل جهده في التفكير والتخطيط والإعداد والتجهيز بالوسائل المعتادة، وترك الأمور بعد ذلك لله؛ ولذلك لا غرابة أن ينبت الله شجرة على باب الغار، وأن تبيض الحمامة وأن تنسج العنكبوت. قال الشاعر:

وإذا العناية لاحظتك عيونها ... نَمْ فالمخاوف كلهن أمان

وقال البويصري:

ظنوا الحمام وظنوا العنكبوت على ... خير البرية لم تنسج ولم تَحُمِ
عناية الله أغنت عن مضاعفة ... من الدروع وعن عال من الأطم

وقال في همزيته:

ويح قوم جفوا نبيًا بأرض ... ألفته ضبابها والظباءُ
وسلوه وحن جذع إليه ... وقلوه ووده الغرباءُ
أخرجوه منها وآواه غار ... وحَمته حمامة ورقاءُ
وكفته بنسجها عنكبوت ... ما كفته الحمامة الحصداء

وقد روي أن المشركين وصلوا إلى باب الغار فرأوا نسج العنكبوت وبيض الحمام، فانصرفوا، فقال أبو بكر: يا رسول الله لو نظر أحدهم إلى قدميه لرآنا، فقال: يا أبا بكر ما ظنك باثنين اللهُ ثالثهما. وفي هذا الحدث نزل قول الله تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدۡ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذۡ أَخۡرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ

إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [٤٠: التوبة][1].

ولسائل أن يسأل: لماذا هذا العناء، وأين البراق ليخطف رسول الله ﷺ في لمح البصر إلى قبة خضراء في المدينة قد بنتها الملائكة؟، والجواب: أن محمدًا ﷺ عبدُ الله يقود المؤمنين في ميدان العبادة، ويُحِبُّ الله تعالى أن يرى عباده الصالحين يتعرضون للبلاء من أجله، ويمحضون العبادة إجلالاً له، وهو ما فعله النبي ﷺ قدوة البشرية إلى يوم القيامة؛ فالتواكل في دينه مرفوض، والتوكل مطلوب، وقد جاءه يومًا رجل وأعلمه أنه ترك ناقته بغير عقال توكلاً على الله، فقال ﷺ: " اعقلها وتَوَكَّلْ "[2]. وهذا هو سر خلود الإسلام وصلاحيته للبقاء؛ لقيامه على الوسائل الطبيعية، وأخذه بالأسباب العادية دون ترك الاعتماد على الله والتوكل عليه وطلب النصر من عنده، والله سبحانه قد تكفل بالنصر للآخذين بالأسباب من المؤمنين، قال تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [٤٧: الروم].

---

(١) البخاري ٤٣٨٦، ومسلم ١٨٥٤/٤. والبداية والنهاية ٢٢٣/٣.

(٢) ابن حبان ٥٦/٢. وحلية الأولياء ٤٣٨/٨.

سراقة بن مالك[1]:

لم تتقبل قريش هزيمة إفلات النبي ﷺ من يدها، فجعلت مائة ناقة لمن يأتيها به، وكان سراقة قد عرف الطريق التي اتجه إليها النبي ﷺ فانسل خفية يعدو على فرسه حتى أدركه، ولما قاربه مضمرًا له الشر ساخت قوائم فرسه في الرمل، فاستنجد بمحمد ﷺ، وطلب منه الأمان وتاب في نفسه حين أيقن أنه ممنوع من رسول الله ﷺ، فعرض على رسول الله ﷺ وصاحبه الزاد والمتاع، فقالا: لا حاجة لنا، عَمِّ عنا الطلب. فرجع ووجد الناس جادين في البحث، فجعل لا يلقى أحدًا إلا رده، ويقول: كفيتم هذا الوجه. كان أول النهار جاهدًا في القبض عليهما، وصار في آخره حارسًا لهما، فسبحان الله: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾ [٧: محمد].

أم معبد[2]:

قالت أسماء بنت عميس: مكثنا ثلاثة أيام بعد خروجهما من الغار لا ندري أين توجه رسول الله ﷺ حتى سمعنا صوتًا يتغنى يسمعه الناس ولا يرونه من أعلى مكة، ويقول:

جزَى اللهُ ربُّ الناسِ خيرَ جزائه ... رفيقين حلا خيمتَي أمَّ مَعبَدِ

هما نزلا بالبرِّ ثم تروَّحا[3] ... فأفلح من أمسى رفيقَ محمد

لَيهْنِ بني كعبٍ مكانُ فتاتِهم ... ومقعدها للمؤمنين بمرصد

---

(١) سيرة ابن هشام ٤٨٩/١. وابن كثير ٢٤٦/٢.

(٢) سيرة ابن هشام ٤٨٧/١. وابن كثير ٢٥٧/٢. وابن سعد ٢٢٩/١.

(٣) ويروى: وارتحلا به.

فلما سمعنا قوله عرفنا أنه توجه إلى المدينة.

واسم أم معبد: عاتكة بنت خالد من بني كعب من خزاعة، نزل بها رسول الله ﷺ ومن معه فسألوها لحمًا وتمرًا يشترونه منها فلم يصيبوا عندها شيئًا، ورأى رسول الله ﷺ شاة بقرب الخيمة لا تُدرُّ تأخرت عن الغنم عَجَفًا وهزالاً، فاستأذنها أن يحلبها، فهزت رأسها بالموافقة متعجبة: ماذا يحلب من شاة شِبْهِ ميتة؟ فمسح ضرعها فَدرَّتْ درًا غزيرًا ، فشربوا وشربت أم معبد، ثم حلبها ثانيًا وترك الإناء مملوءًا، فبايعته المرأة على الإسلام.

أم معبد تصف الرسول ﷺ[1]:

فلما جاء زوجها ورأى اللبن عجب، وقال: من أين لكم هذا ولا حلوبة في البيت؟ قالت: لا والله إلا إنه مرَّ بنا رجل مبارك، كان من حديثه كيت وكيت، قال: صفيه لي يا أم معبد؟ قالت: رأيت رجلاً ظاهر الوضَاءَة، مبتَلِجَ الوجهِ، حَسَنَ الخَلقِ، لم تَعِبْهُ ثَجْلَةٌ[2]، ولم تُزْرِ به صَعْلَة[3]، وسيمٌ قَسيمٌ، في عينيه دَعَجٌ[4]، وفي أشفاره وَطَفٌ[5] وفي صوته صَحَلٌ[6]، أحور[7] أكحل[1]، أزج أقرن[2]، شديد سواد الشعر، في عنقه

---

(١) ابن سعد ١/٢٣١. والسبل ٣/٣٤٨.

(٢) ثجل: من باب فرج : ضخامة البطن . ١٢٥٥ قاموس.

(٣) أي لم يعبه صغر الرأس والدقة والنحول في البدن.-

(٤) أي شديد سواد العين.

(٥) الوطف: طول أشفار العين.

(٦) من باب فرح بحَّ أو احتد في بحح. ٣٢ قاموس.

(٧) شدة بياض بياض العين، وسواد سوادها. ٤٨٦ قاموس.

سَطَعٌ[٣]، وفي لحيته كثافة، إذا صمت فعليه الوقار، وإذا تكلم سما وعلاه البهاء، وكأنَّ منطقهُ خرَزَاتُ نَظْمٍ يتَحَدَّرْنَ، حلوُ المنطقِ، فَصْلٌ، لا نَزْرَ ولا هَذْرَ، أجهرُ الناسِ وأجْمَلُه من بعيد، وأحلاه وأحسنُه من قريب، رَبْعَةٌ لا تَشْنَؤُه من طول، ولا تقتحِمُه عين من قِصَرٍ، غُصْنٌ بين غُصْنَيْنِ، فهو أنضَرُ الثلاثةِ منظرًا، وأحسنُهم قَدْرًا، له رفقاء يَحفُّون به، إذا قال استمعوا لقوله، وإذا أمر تبادروا إلى أمره، محفود محشود[٤]، لا عابسٌ ولا مُفَنَّدٌ: قال: هذا والله صاحب قريش الذي ذُكر لنا من أمره ما ذُكر، ولو كنتُ وافقتُه يا أم معبد لاالتمست أن أصحبه، ولأفعلنَّ إن وجدتُ إلى ذلك سبيلاً .

المرحلة الثانية من حياة الرسول ﷺ:

القسم المدني

الرسول ﷺ في المدينة:

بدأ التأريخ السياسي للإسلام منذ وصول النبي ﷺ إلى المدينة.

والنبي ﷺ يدرك أن عليه صنع المستقبل الجديد، والوقت من ذهب، وينبغي أن لا يضيع لحظة واحدة، فقد آن للإسلام أن تكون له دولة يمنع بها حماه، ويؤدب

---

(١) أكحل: أن يعلو منابت الأشفار سواد خلقه. ١٣٦٠ قاموس.

(٢) الأزج من النعام: الذي فوق عينيه ريش أبيض . ٢٤٤ قاموس. والمراد دقة شعر الحاجبين مع طولهما والقرن اتصالهما.

(٣) السطع: الطول في العنق . ٩٤٠ قاموس.

(٤) محفود : محذوم، محشود: محفود به.

الواقفين في طريق تعاليم الله، ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾ [٣٩: الحج].

إن النبي ﷺ القائد البارع قد بدأ البناء من مكة حين التقى بأنصاره من الأوس والخزرج، وأعدهم إعدادًا يؤهلهم للقيام بدورهم في بناء الدولة الحديثة وسط بحر من الفوضى، واختار سفيرًا نجيبًا من الشباب الذين ربَّاهم هو مصعب بن عمير الذي أحسن تدريب وتدريس الأنصار، وكان هؤلاء الرجال في شوق عارم، وحماس منقطع النظير، يتلهفون لرؤية نبيهم في ديارهم ليس ضيفًا عليهم بل هم ضيوفه، فهو نبيهم ومولاهم ومالك أمرهم بعد الله، ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [٣٦: الأحزاب]، فكانوا يخرجون صفوفًا لاستقبال هذا الوافد الكريم لـمَّا ترامت الأنباء بقدومه إليهم. ظلوا هكذا أيامًا عند مطلع كل شمس حتى يؤذيهم حرُّها، وذات يوم وقد رجعوا للقيلولة سمعوا صارخًا يقول: يا بني قَيْلَةَ ، هذا جَدُّكم – أي حظكم وعزكم – يعني محمدًا. وقيلة: جدة للأنصار ينسبون إليها.

فاستقبله من أهل قباء زهاء خمسمائة مقاتل، تحفهم النساء والأطفال والعبيد مبتهجين بالمقدم السعيد، نزل النبي ﷺ في قباء، وبنى لهم مسجدًا.

مسجد قباء:

هو أول مسجد بني في الإسلام، وهو المسجد المؤسس على التقوى. يقال: إن الذي بناه عمار بن ياسر، وهو أول من بنى مسجدًا في الإسلام؛ لأنه أشار على النبي ﷺ ببنائه وجمع له الحجارة[(١)].

وفي قباء لحقه علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، وقد كان أمره أن يتخلف بعده ليؤدي عنه الودائع إذا عافاه الله من الاغتيال على الفراش؛ إذ كانت قريش تودع عنده كرائم أموالها لصدقه وأمانته، وقد أداها كما قال الأمير الصنعاني:

والأمانـــــات إلى أربابهـــــا ... عنـــه أداهـــا ووافـــاه بريـــا

وَصَلَ علي كرم الله وجهه وقد تشققت قدماه، وسالت منهما الدماء، هاجر وحيدًا على قدميه، مطيَّتُه الشوق إلى الله ورسوله واحتساب الأجر، فبكى النبي ﷺ رحمة له، ومسح قدميه فبرأتا، وما اشتكى لهما ألـمًا بعد[(٢)].

أقام النبي ﷺ بقباء بضع عشرة ليلة[(٣)]، وأقام علي معه ليلتين، وروى حكاية طريفة، قال: كان بقباء امرأة مسلمة لا زوج لها. قال: فرأيت إنسانًا يأتيها من جوف الليل، فيضرب عليها بابها، فتخرج إليه فيعطيها شيئًا معه فتأخذه ، قال: فاستربت بشأنه، فقلت لها: يا أمة الله من هذا الذي يضرب عليك بابك كل ليلة، فتخرجين إليه فيعطيك شيئًا لا أدري ما هو، وأنت امرأة مسلمة لا زوج

(١) ابن هشام ١/٤٩٨. والصحيح من سيرة النبي ٤/١٣٠. وفاء الوفاء ١/٢٥٠. والروض الأنف ٢/٢٤٨

(٢) الكامل ٢/٧٥. وسيد المرسلين ١/٥٦٧.وأسد الغابة ٤/٩٢.

(٣) البداية والنهاية ٣/٢٤٠.

لك؟ قالت: هذا سهل بن حنيف، عرف أن لا أحَدَ لي، فإذا أمسى عدا على أوثان قومه فكسرها، ثم جاءني بها، فقال: احتطبي بهذا، فكان علي كرم الله وجهه يأْثُر ذلك من أمر سَهْلٍ، حتى هلك عنده بالعراق[1].

تحرك الركب بعد يومين إلى المدينة، وكلما مرَّ بحي من أحياء تلك الديار عرض عليه سادتها الضيافة قائلين: انزل عندنا يا رسول الله على الرحب والسعة، والعدة والعدد والمنعة، فكان يثني عليهم ويشكر لهم طيب مشاعرهم، ويقول: دعوا الناقة تمر، فإنها مأمورة.

ولما قارب المدينة وقد أفرغت بيوتها لاستقباله حتى الـمُخَدَّرَات والولائد يزغردن بالنشيد الجميل :

طلـــــع البـــــدر علينـــــا ... مــــن ثنيــــات الـــــوداع
وجـــب الشـــكر علينـــا ... مـــــا دعـــــا لله داع
أيهـــــا المبعـــــوث فينـــــا ... جئـــت بــــالأمر المطــــاع

التفت النبي ﷺ إلى هذه الحناجر الرقيقة والوجوه الجميلة من ولائد بني النجار، فقال لهن ملاطفًا: أتحببنني؟ فأجبن: نعم. فقال مبادلاً الحب بالحب: يعلم الله أن قلبي يحبكن[2]. توجهت الناقة، فبركت في مكان قرب مسجده ، ثم قامت متوجهة بإلهامِ اللهِ تعالى إلى مكان مسجده الذي بُنِيَ لاحقًا، وكان حائطًا لغلامين يتيمين من بني النجار، فبركت وزمزمت وألقت جرانها، فبادر أبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه فأخذ رحله إلى داره. وسأل ﷺ عن الحائط وقال: ثامنوني بحائطكم يا بني النجار. فقالوا: لا نطلب ثمنه إلا من الله، وقيل: إنَّ ولي

---

(١) ابن هشام ٤٩٣/١. والبداية والنهاية ٢٤٢/٣.

(٢) وفاء الوفاء ٢٦٣/١.

اليتيمين قال: سأرضي اليتيمين عنه، وهو لله ولرسوله. وقيل: إن النبي ﷺ اشتراه.

أبو أيوب رضي الله عنه وكرم الضيافة:

قال أبو أيوب: لما نزل عليَّ رسولُ الله ﷺ في بيتي نزل السُّفْلَ وأنا وأمُّ أيوبَ في العُلو، فقلت له: يا نبيَّ الله، بأبي أنت وأمي إني لأكره وأعظِمُ أن أكون فوقَك وتكونَ تحتي، فاظهر أنتَ فكن في العلو وننزلُ نحن فنكونُ في السُّفل، فقال: يا أبا أيوب، إن أرفقَ بنا وبمن يغشانا أن نكونَ في سُفلِ البيت، قال أبو أيوب: فلقد انكسرت جرة كبيرة لنا فيها ماء، فقمت أنا وأم أيوب بقَطيفة لنا مالنا لِحاف غيرها نُنَشِّف بها الماء تخوفًا أن يقطر على رسولِ الله ﷺ منه شيء فيؤذيه.

قال: وكنا نصنع له العشاء ثم نبعث به إليه، فإذا رد علينا فضلةً تيممت أنا وأم أيوب موضع يده، فأكلنا منه نبتغي بذلك البركة، حتى بعثنا إليه ليلة بعشائه وقد جلعنا له بصلاً أو ثومًا فرده، ولم أر ليده فيه أثرًا، فجئته فزعًا فقلتُ: يا رسولَ الله رددتَ عشَاءَك ولم أر فيه مَوضع يدِك، وكنت إذ رددتَه علينا تيممت أنا وأم أيوب موضع يدك نبتغي بذلك البركة، قال: إني وجدت فيه ريح هذه الشجرة وأنا رجل أناجَى، فأما أنتم فكلوه.

ظل رسول الله ﷺ في بيت أبي أيوب حتى بُنِـيَ له مسجده ومساكنه[1].

أسس المجتمع الجديد:

برزت أسس المجتمع الجديد بالمدينة في ثلاثة جوانب: المسجد، والمؤاخاة، وتنظيم العلاقة بين المسلمين وغيرهم.

---

(١) ابن هشام ١/٤٩٨. وابن كثير ٢/٢٧٧.

الأساس الأول: المسجد:

ترسيخ الروابط الإيمانية بين المسلمين وبين ربهم تشبه الروح في الجسد، يستحيل أن تقوم دولة فتية على أجساد لا روح فيها؛ لذلك قاد النبي ﷺ المهاجرين والأنصار رضي الله عنهم في بناء المسجد فأزالوا ما فيه من أشجار، ونبشوا بعض القبور للمشركين كانت فيه قديمة، وجعلوه مائة ذراع في مثلها، وصَفُّوا قبلته بجذوع النخل، وعمقوا الأساس ثلاثة أذرع وردموه بالحجارة ثم باللبِن، وسُقِفَ بعض المسجد بجريد النخل، ولا سيما الصفة التي كانت مأوى لقرابة سبعين من المهاجرين الذين لا مأوى لهم. وسُمُّوا بأهل الصفة، نسبةً إلى صفة المسجد.

كان الحماس في بناء المسجد شديدًا ، وكان نشيدهم :

اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة ... اللهم فارحم الأنصار والمهاجرة

وكلما رأوا النبي ﷺ يعمل كأحدهم التهب حماسهم، وأنشدوا:

لئن قعدنا والنبي يعمل ... لذاك منا العمل المُضَلَّلُ

وارتجز علي كرم الله وجهه فقال:

لا يستوي من يعمر المساجدَا ... يدأب فيها قائمًا وقاعدا

ومن يُرَى عن الغبار حائدا

فرددها عمار بحماس ..

ومن دلائل النبوة: ما روي أن عمارًا دخل وقد أثقلوه باللَّبِن فقال: يا رسول الله قتلوني يحملون عليَّ ما لا يحملون. قالت أم سلمة: فرأيت رسول الله ﷺ ينفض وفرته بيده وكان رجلاً جعدًا، وهو يقول: ويح ابن سمية ليسوا باللذين

يقتلونك إنما تقتلك الفئة الباغية[١]. ولفظ البخاري[٢]: " ويح عمار تقتله الفئة الباغية ".

وقد تحققت النبوءة وقتل عمار في معركة صفين، وكان من أشد المقاتلين مع علي عليه السلام، وعمره ثلاث وتسعون سنة قتله أصحاب معاوية[٣].

الدرس والعبرة:

١- في هذا المسجد البسيط طالما وقف النبي صلى الله عليه وآله وسلم في محرابه يرتّل آيات القرآن ودموعه تقطر على قدميه، ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ۝٧٩ وَقُل رَّبِّ أَدۡخِلۡنِي مُدۡخَلَ صِدۡقٖ وَأَخۡرِجۡنِي مُخۡرَجَ صِدۡقٖ وَٱجۡعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلۡطَٰنٗا نَّصِيرٗا﴾ [٧٩ ٨٠: الإسراء]. وقد اصطف خلفه رهبان الليل فرسان النهار ممن ﴿لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوۡمٗا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلۡقُلُوبُ وَٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ [٣٧: النور].

وكلما مر يوم تعمقت المحبة بين الجماعة المسلمة، وذابت نفوسهم في حب الله ورسوله، كيف لا وهم يسمعون نبيهم يقرأ وصية الباري له: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ

---

(١) دلائل النبوة ٥٤٦/٢ وما بعدها.

(٢) رقم ٤٣٦ و ٢٦٥٧. ومسلم رقم ٢٩١٥

(٣) الإصابة ج٢ص٥٠٦. وأسد الغابة ١٢٧/٤. والاستيعاب ٤٧١/٢ في حاشية الاصابة. والطبري ٤١/٥. والبداية والنهاية ٢٦٥/٣.

عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا ۖ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطًا﴾ [٢٨: الكهف].

هكذا توالى وحي السماء غضًا طريًا، فامتلأت به قلوبهم وشبعت به نفوسهم، فعاشوه قولاً وعملاً.

٢- عجزت مساجد المسلمين اليوم أن تنجب عمالقة كاؤلئك فعوضها بُناتها بالطلاء والزركشة والفخفخة في البناء؛ ليحتشد فيها أقزام وغثاء إلا من عصم الله، وقليل ما هم.

٣ -كان المسجد شعاع الوحدة والمحبة، والصلاة جماعة فيه تفوق صلاة الفرد بسبع وعشرين مرة؛ لأنها تجسد الاصطفاف والتلاحم والنظام، وأعجب من هذا أن الله سبحانه ختمها بفرض لازم وهو أن يلتفت المسلم يمينًا وشمالاً قائلاً لإخوانه في العقيدة: السلام عليكم ورحمة الله، فإذا تصافح المسلمان تناثرت خطاياهما، وعلى حُطام الخطايا تشاد أسس وقواعد مكارم الأخلاق في مجتمع قوي قائم على المحبة والعلاقة المتينة، والانسجام التام عقيدة وسلوكًا، الناس فيه كأسنان المشط.

٤- لما نسي المسلمون أو تناسوا دور المسجد والنفحة الربانية التي لا توجد في سواه وغفلوا عن السر من وراء بناء المسجد وشرعية الجماعة، ووجوب تسليم المسلم على أخيه المسلم مع الملائكة تحول المسجد إلى بؤرة للفتن والتعصب والشجار.

الأساس الثاني: التآخي بين المسلمين[1]:

---

(١) ابن هشام ١/٥٠٤ بلفظه. والبداية والنهاية ٣/٢٧٧. وسيد المرسلين ٢/١٧. ومغلطاي ١٧٧.

قال ابن إسحاق: آخى رسول الله ﷺ بين أصحابه من المهاجرين والأنصار، فقال – فيما بلغنا – ونعوذ بالله أن نقول عليه ما لم يقل –: " تآخَوا في الله أخوينِ أخوين "، ثم أخذ بيد علي بن أبي طالب فقال: هذا أخي، فكان رسول الله ﷺ سيد المرسلين وإمام المتقين ورسولُ رب العالمين الذي ليس له خطير ولا نظير من العباد وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهه أخوين، وكان حمزةُ بن عبدالمطلب أسدُ الله وأسدُ رسوله وعم رسول الله ﷺ وزيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ أخوين، وإليه أوصى حمزة يومَ أحُدٍ حين حضره القتال إن حدث به حادثُ الموت، وجعفر بن أبي طالب ذو الجناحين الطيارُ ومعاذ بن جَبَل أخو بني سلمة أخوين[1]، وكان أبو بكر الصديق بن أبي قُحافة وخارجةُ بن زهير أخوين، وعمر بن الخطاب وعتبان بن مالك أخوين، وأبو عبيدة بنُ الجراح وسعد بن معاذ أخوين، وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع أخوين، والزبير بن العوام وسلمة بن سلامة بن وقش أخوين، وعثمان بن عفان وأوس بن ثابت بن المنذر أخوين، وطلحة بن عبيد الله وكعب بن مالك أخوين، وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل وأبي بن كعب أخوين، ومصعب بن عمير وأبو أيوب خالد بن زيد أخوين، وأبو حذيفة بن عتبة وعباد بن بشر أخوين، وعمار بن ياسر وحذيفة بن اليمان أخوين، وأبو ذر الغفاري والمنذر بن عمرو أخوين، وحاطب بن أبي بلتعة وعويم بن ساعدة أخوين، وسلمان الفارسي وأبو الدرداء أخوين. وبلال مؤذن رسول الله ﷺ وأبو رويحة أخوين. وعبد الله الخثعمي والفزع بن ربيعة أخوين.

فهؤلاء من سُمِّيَ لنا ممن كان رسول الله ﷺ آخى بينهم من أصحابه.

---

(١) وكان جعفر رضي الله عنه يومئذ غائبًا بأرض الحبشة.

الدرس والعبرة:

١- الهجرة الجماعية من مكة إلى المدينة شكلت عبئًا كبيرًا على أهل المدينة، وهي من المشاكل العويصة في العصر الحديث، إلا أن الرسول ﷺ قام بخطوة بارعة، معانا بتوفيق الله، فعمق الأواصر في شكل محسوس يترتب عليه التوارث، وقد لقي هذا التعليم النبوي بيئة كريمة وأرضًا طيبة، روي أن سعد بن الربيع قال لعبد الرحمن بن عوف الذي تآخى معه: أنا أكثر الأنصار مالاً؛ فخذ نصف مالي، ولي امرأتان؛ فانظر أعجبهما إليك فسمّها لي أطلقها، فإذا انقضت عدتها فتزوجها، قال عبد الرحمن: بارك الله لك في أهلك ومالك، دلني على السوق فدله على سوق بني قينقاع، فما انقلب إلا ومعه فضل من أقط وسمن، وتابع الغدو، ثم جاء يومًا وبه أثر صفرة، فقال النبي ﷺ: "مهْيمْ؟" [1] قال: تزوجت، قال: كم سقت إليها؟ قال: نواة من ذهب[2].

إن شهامة سعد لا ينافسها إلا عفة عبدالرحمن. فأي رجل نبيل لا يرضى أن يكون عالة على غيره ما وجد إلى ذلك سبيلا، فخير ما أكل المرؤ من كسب يده.

٢- أراد ﷺ من هذه الأخوة إدماج المهاجرين في المجتمع الجديد.

---

(١) أي ما أمرك وشأنك، وهي كلمة يمانية. النهاية في غريب الحديث ٤/٣٧٩.

(٢) البخاري ١٩٤٣.

٣- قامت الأخوة على الحب في الله تعالى، وهي عبادة كريمة. ففي الحديث الشريف: " سبعة يظلهم الله في ظل العرش يوم لا ظل إلا ظله "[١]. وذكر منهم: " أخوين تحابا في الله ". وهي الأخوة التي تدوم؛ لأنها تقوم على المبادئ الفاضلة، قال الشاعر:

إنَّ أخاك الحق من يسعى معك ... ومن يضر نفسه لينفعك

ومن إذا ريب الزمان صدعك ... شتت فيك شمله ليجمعك

هذا هو الأخ، لا من يدق صدره قائلاً: أي خدمات؟ فإذا طلبت منه خدمة واحدة، قال: أنا آسف.

الأساس الثالث:

تنظيم العلاقة بين المسلمين وغيرهم[٢]:

أدرك النبي ﷺ بحنكته السياسة وتوفيق الله أن تعميق الصلة بين المسلمين أنفسهم لا يكفي، فلابد أن يبحث لهم عن أصدقاء، وعن أجواء مسالمة؛ لأنه جديد على الساحة، والمدينة تعج باليهود أصحاب الثراء والسطوة وبالمشركين في المدينة، وذئاب الأعراب حولها، فبادر إلى عقد وثيقة كشفت عن طبيعة الإسلام السمحة، واستعداد المسلمين للقبول بالآخر، فالأرض واسعة، والدين لله، ولا إكراه فيه.

وهذا ما حسمه النبي ﷺ في هذه الوثيقة الرائعة التي تسد فم من يدعي أن الإسلام لا يقبل بجوار دين آخر، وأن المسلمين يحبون التفرد والتسلط:

---

(١) البخاري ٢٣٤/١ رقم ٦٢٩. والترمذي ٥١٦/٤ برقم ٢٣٩١. النسائي ٢٢٢/٨ برقم ٥٣٨.

(٢) ابن هشام ٥٠١/٢.

نص الوثيقة:

بسم الله الرحمن الرحيم: هذا كتاب من محمد النبي ﷺ بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم، أنهم أمة واحدة من دون الناس. المهاجرون من قريش على ربعتِهم[1] يتعاقَلُون بينهم[2] وهم يَفدون عانيَهم[3] بالمعروف والقسط بين

المؤمنين . ثم ذكر كل بطن من بطون الأنصار وأهل كل دار: بني عوف، بني ساعدة، بني الحارث، بني جشم، بني النجار، بني عمرو بن عوف ، بني النبيت، بني الأوس. إلى أن قال: إن المؤمنين لا يتركون مفرحًا[4] بينهم أن يعطوه بالمعروف في فِداء أو عقل. وألا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه. وإن المؤمنين المتقين على من بغى منهم أو ابتغى دسيعة[5] ظلم أو إثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين، وإن أيديهم عليه جميعًا ولو كان ولد أحدهم، ولا يقتل مؤمن مؤمنًا في كافر، ولا ينصر كافرا على مؤمن، وإن ذمة الله واحدة، يجير عليهم أدناهم، وإن المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس، وإنه من تبعنا من يهودَ فإنَّ له النصر والأسوة، غير مظلومين ولا متناصرين عليهم، وإنَّ سلم المؤمنين واحدة، لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله إلا على سواء وعدل بينهم، وإن

---

(١) الربعة: الحال التي وجدهم عليها الإسلام.

(٢) أي يعقل بعضهم عن بعض. والعقل: الدية.

(٣) العاني: الأسير.

(٤) المفرح: المثقل بالدين والكثير العيال.

(٥) الدسيعة: العظيمة.

كل غازية غزت منا يعقب بعضها بعضًا. وإن المؤمنين يبيء[1] بعضهم على بعض بما نال دماءهم في سبيل الله، وإن المؤمنين المتقين على أحسن هَدي وأقومه، وإنه لا يجير مشرك مالاً لقريش ولا نفسًا، ولا يحول دونه على مؤمن وإنه من اعتبط[2] مؤمنًا قتلاً عن بينة فإنه قوَد[3] به إلا أن يرضى ولي المقتول، وإن المؤمنين عليه كافة، ولا يحل لهم إلا قيام عليه، وإنه لا يحل لمؤمن أقر بما في هذه الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثًا ولا يؤويه وأنه من نصره أو آواه فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل، وإنكم مهما اختلفتم فيه من شيء فإن مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد ﷺ .

وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين، وإن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم، إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوتغ[4] إلا نفسه وأهل بيته، وإن ليهود بني النجار، وبني الحارث، وليهود بني ساعدة، وليهود بني جشم، وليهود بني الأوس، وليهود بني ثعلبة، ولجفنة، ولبني الشُّطيبة مثل ما ليهود بني عوف، وإن موالي ثعلبة كأنفسهم، وإن بطانة يهود كأنفسهم، وإنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد ﷺ وإنه لا ينحجز على ثار جُرح، وإنه من فتك فبنفسه وأهل بيته إلا من ظلم. وإن الله على أبر هذا، وإن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم، وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وإن بينهم النصح والنصيحة، والبر دون الأثم، وإنه

---

(١) أباءه به: قتله به، جعله بواء له.

(٢) اعتبطه: قتله بلا جناية توجب القتل.

(٣) قود: قِصاص، أي يقتل القاتلُ.

(٤) يوتغ: يهلك.

لم يأثم امرؤ بحليفه، وإن النصر للمظلوم، وأن يثربَ حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة، وأن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم، وإنه لا تجار حرمة إلا بإذن أهلها، وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فإن مرده إلى الله عزوجل وإلى محمد رسول الله ﷺ. وإن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبره[١]، وإنه لا تجار قريش ولا من نصرها، وإن بينهم النصر على من دهم يثرب، وإذا دعوا إلى صلح يصالحونه، ويلبسونه فإنهم يصالحونه، ويلبسونه وإنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك فإنه لهم على المؤمنين، إلا من حارب في الدين، على كل أناس حصتهم من جانبهم الذي قبلهم، وإن يهود الأوس مواليهم وأنفسهم، على مثل ما لأهل هذه الصحيفة، مع البر المحض من أهل هذه الصحيفة، وأن البر دون الإثم لا يكسب كاسب إلا على نفسه، وإن الله على أصدق ما في هذه الصحيفة وأبره، وإنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم، وإنه من خرج آمن، ومن قعد آمن بالمدينة، إلا من ظلم وأثم وإن الله جار لمن بر واتقى ومحمد رسول الله ﷺ[٢] .

الدرس والعبرة:

١- هذه وثيقة سياسية وضعها النبي ﷺ منذ اللحظة الأولى مُعَبِّرًا عن صدق رغبته في التسامح والتعايش بسلام في مجتمع آمن يسوده النظام والعدل والحرية؛

---

(١) أي أن الله وحزبه المؤمنين على الرضا به.

(٢) كان هذا قبل أن تفرض الجزية وحين كان الإسلام ضعيفًا، كان لليهود إذ ذاك نصيب في المغنم، إذا قاتلوا مع المسلمين، كما شرط عليهم في هذا الكتاب النفقة معهم في الحروب. ابن هشام ١/٥٠١ بتصرف.

لكن اليهود ارتبطوا بهذا العهد من منظور منفعتهم فقط، مضمرين التحلل منها عندما تتغير الظروف، فاليهود خُبثاء ديدنهم المكر والخديعة والتربص، وطالما عاشوا بين العرب الكرماء يجمعون الثروات من وراء الحروب التي أشعلوها، والحزازات التي زرعوها، ولكن على الباغي تدور الدوائر.

الأذان[1]:

لَمَّا اطمأن رسول الله ﷺ بالمدينة، واجتمع إليه إخوانه من المهاجرين، واجتمع أمر الأنصار – استحكم أمر الإسلام، فقامت أركانه وحلاله وحرامه، وتبوأ الإسلام بين أظهرهم، وكان هذا الحي من الأنصار هم الذي تبوأوا الدار والإيمان، وقد كان رسول الله ﷺ حين قدمها إنما يجتمع الناس إليه للصلاة لحين مواقيتها بغير دعوة. فهمَّ ﷺ أن يجعل ناقوسًا ليضرب به للصلاة.

فبينما هم على ذلك إذا رأى عبدالله بن زيد من الخزرج النداء، فأتى رسول الله ﷺ فقال له: مر بي في النوم رجل عليه ثوبان أخضران، يحمل ناقوسًا فقلت له: يا عبدالله أتبيعه؟ قال: وما تصنع به؟ قلت: ندعو به إلى الصلاة. قال: أفلا أدلك على خير من ذلك؟ قلت: وما هو؟ قال: تقول : الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر. أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن لا إله إلا الله. أشهد أن محمدًا رسول الله، أشهد أن محمدًا رسول الله. حي على الصلاة، حي على الصلاة. حي على الفلاح، حي على الفلاح. الله أكبر، الله أكبر. لا إله إلا الله.

وقال ﷺ: إنها لرؤيا حق إن شاء الله، فقم مع بلال فألقها عليه فليؤذن بها، فإنه أندى صوتًا منك، فلما أذن بها بلال سمعها عمر بن الخطاب رضي الله عنه

---

(١)سيرة ابن هشام ١/٥٠٨.

وهو في بيته، فخرج إلى رسول الله ﷺ وهو يجر رداءه ويقول: يا نبي الله والذي بعثك بالحق لقد رأيت مثل الذي رأى، فقال ﷺ: فلله الحمد على ذلك.

أما الزيدية فيروون أن الله تعالى أمر ملكًا من ملائكته أن يعلم الرسول ﷺ ليلة أسري به، وقالوا: إن الأذان أصل من أصول الدين لا يُبْنَى على الرؤيا، وأثبتوا: "حي على خير العمل، حي على خير العمل"[(١)]. وقد روي أنه: "لما أسري به إلى السماء أوحي إليه بالأذان فنزل به فعلمه جبريل"[(٢)].

---

(١) ينظر مجموع الإمام زيد ٩٣. والأحكام للهادي ٨٤/١. وينابيع النصيحة بتحقيقنا ٥٢٨. والغطمطم الزخار للسماوي ٤٣٦/٤.. ورأب الصدع- تخريج أمالي أحمد بن عيسى ٩٦/١. ونيل الأوطار للشوكاني ٣٩/٢. وهو إجماع أهل البيت. وهو أيضًا قول عبد الله بن عمر كما في المصنف لعبد الرزاق رقم ١٧٩٧. وسنن البيهقي ١٢٤/١. ومصنف ابن أبي شيبة ١٩٥/١. وهو قول زين العابدين أيضًا كما في سنن البيهقي ١٢٥/١. ومصنف ابن أبي شيبة ١٩٥/١. وقد ألف أبو عبد الله العلوي كتابًا جمع فيه ١٩٢ رواية. مطبوع من منشورات مكتبة بدر. والروض النضير ٣٦٩/١.

(٢) الطبراني في الأوسط رقم ٩٢٤٧.

بداية التأريخ العسكري الجهادي للإسلام[1]:

الدعوة الإسلامية، وإن لقيت أهلاً وترحابًا وبلدًا طيبًا فَسَتَهُبُّ عليها أعاصير الخطر – إن لم يتحرك النبي ﷺ لفرض هيبتها –، فالصدامُ مع قريش قادم لا محالة، والأعراب يتربصون، واليهود كالحيات السود بارعون في حياكة المؤامرات، فكان لزامًا أن يمسك النبي ﷺ بزمام المبادرة، وأن يقود كتائب المجاهدين شرقًا وغربًا لنشر دين الله، وتأديب الواقفين في سبيله، فقد آن للمستكبرين أن تُدقَّ أنوفهم، وللمتطاولين أن تشدخ جباههم، وهو ما سنراه في التأريخ الجهادي الذي قال عنه ﷺ: "وددت أني ما تخلفت عن غزوة، ولوددت أني قتلت ثم بعثت، ثم قتلت ثم بعثت".

كما أنه عليه السلام يدرك تكاثر المهاجرين، ويلحظ حنينهم إلى بلادهم، فلابد أن يحركهم في الثأر لكرامتهم التي أهدرها طغاة مكة، فاقتصرت التحركات الأولى على المهاجرين فقط.

وقد اصطلح أهل السِّيَر على أن الغزوة ما خرج فيها رسول الله ﷺ بنفسه، والسرية ما خرج فيها غيره.

---

(١) ابن هشام ٥٩١/١ وما بعدها. والطبقات ٧/٢ وما بعدها. والبخاري ١٤٥٣/٤. والواقدي ٩/١ وما بعدها. ووفاء الوفاء ٢٧١/١ وما بعدها. وسبل الهدى الجزء الرابع خصصه للغزوات، والخامس وخصصه للسرايا. وابن كثير ٣٥٢/٢ وما بعدها. ومغلطاي ١٨٦. وعيون الأثر ٣٥٢/١ وما بعدها. ومعروف الحسني ٣١٠.وهيكل ٢٤٢. والغزالي ٢٢٧. ومحمد رسول الله ١٥٦ وما بعدها. والبداية والنهاية ٢٤٥/٣.

ربما توهم البعض من عدد السرايا والغزوات أن النبي ﷺ تواق لسفك الدماء، وأن الإسلام قائم على السيف، وهو ما روج له المستشرقون كثيرًا.

ولا يحتاج الجواب إلى كبير عناء؛ فالنبي ﷺ جاء بأعظم ثورة في التأريخ مسحت الوثنية من مساحات شاسعة، وزلزلت عروش الظلم في كثير من بقاع الأرض، ورسَّخت قواعد الدين القويم، دين العدل والحرية والرحمة. ولم يتجاوز عدد القتلى من المسلمين وغيرهم ألفا وأربعمائة في أكثر تقدير ذكره المؤرخون.

وماذا فعلت قريش برسول الله ﷺ والمؤمنين في مكة، ألم تنزل بهم ألوان الأذى والبطش والقمع، ألم تصادر حريتهم وديارهم وأموالهم وتضطرهم للهجرة، ثم مدت أذاها إلى الحبشة والمدينة، ولولا أن النبي ﷺ أخذ بزمام المبادرة وقاد الحرب الدفاعية لإزاحة المستبدين المستكبرين لسحقوا المهاجرين والأنصار، ورغم قسوة مشركي مكة، وبما بذروه من المرارة في صدور المسلمين؛ إلا أنهم بقيادة أعظم بني آدم لما فتحوا مكة وأحاطوا بألفي مقاتل كانوا أهلاً للتأديب، ومحلاً للقصاص العادل؛ لكن الرسول ﷺ أعلن العفو العام، وقال: "اذهبوا فأنتم الطلقاء"، وحول دار ألد أعدائه أبي سفيان إلى ملجأ من دخله كان آمنا.

أين نبي الرحمة من قساة القلوب، غلاظ الأكباد في قديم الزمان وحديثه، من كان – قطع الرقاب، وقلع العيون، وتمزيق الأطراف – أشهى عندهم من الطعام والشراب، يعرف ذلك من قرأ فظائع المغول وهولاكو وجنكيز خان.

ومن لو استمْروا لأفنوا البشرية، فالحرب العالمية الثانية أزهقت أرواح خمسين مليون إنسان. والفرنسيون قتلوا مليونين في الجزائر والإيطاليون قتلوا نصف الشعب الليبي، وارتكبوا في الحبشة فظائع تشيب لها العقول، والمستعمر الأبيض الأوربي أباد الهنود الحمر في أمريكا، واستعبد نصف قارة إفريقيا، ثم شكل

البيض دولة عنصرية في أمريكا خاضت حروبًا داخلية أكلت الأخضر واليابس، ولما استقرت دولة ديمقراطية وحرية ومساواة زجت بجيشها في حرب قذرة بفيتنام تساقط سكان تلك البلاة كالذباب بفعل القنابل المبيدة. وأمريكا نفسها هي التي ألقت القنابل الذرية فوق اليابان؛ فأحرقت ربع مليون إنسان في دقائق، وما زالت آثارها إلى اليوم. والحروب الصليبية متهمة ومدانة بإزهاق مئات الألوف من الأبرياء... ومحاكم التفتيش في أسبانيا .

والثورة البلشفية الشيوعية قتلت خمسة وعشرين مليونًا، ولو انفجرت حرب عالمية ثالثة، واستخدم السلاح النووي لا سمح الله؛ لودع الحياة كل كائن حي على وجه الأرض.

فالنبي ﷺ رحمة للعالمين كما وصفه الله، ودينه يسر، وحزمه عدل:

رحمة كله وحزم وعزم　　　ووقار وعفة وحياءُ

١ – سرية حمزة إلي سِيف البحر:

(رمضان لـ ٧ أشهر هـ).

خرج حمزة إلى سِيف البحر، على شاطئ البحر الأحمر بين ينبع والمروة في ثلاثين من المهاجرين[1]. وقيل: إن نصفهم من الأنصار[2]؛ فلقي أبا جهل في ثلاثمائة من أهل مكة، فحجز بينهم مجدي بن عمرو الجُهَنِي، وكان موادعًا للفريقين، و لم يكن قتال.

٢ – سرية عبيدة بن الحارث بن المطلب:

(شوال لـ ٨ أشهر هـ):

بعثه النبي في ستين أو ثمانين من المهاجرين، فلقي أبا سفيان في جمع عظيم من قريش على ماء بالحجاز، فلم يكن بينهم قتال، إلا أن سعد بن أبي وقاص رمى بسهم، فكان أول سهم رُمي به في الإسلام[3].

٣ – سرية سعد بن أبي وقاص:

(في ذي القعدة لـ ٩ أشهر هـ).

خرج في عشرين من المهاجرين، وقيل: ثمانية؛ حتى بلغ الخرار من أرض الحجاز[4].

٤

---

(١) ابن هشام ٥٩٥/١. الطبقات ٦/٢. والطبري ٤٠٤/٢.

(٢) الواقدي ٩/١.

(٣) ابن هشام ٥٩١/١. الطبري ٤٠٤/٢. الواقدي ١٠/١. الطبقات ٧/٢.

(٤) ابن هشام ٦٠٠/١. والواقدي ١١/١. وعيون الأثر ٣٥٦/١. الطبقات ٧/٢.

٤ – غزوة ودَّان أو الأبواء:

(في صفر لـ ١٢ شهرًا من الهجرة).

خرج ﷺ يريد قريشًا وبني ضَمرَةَ، فوادعته ضَمرة و لم يلق كيدًا[1].

٥ – غزوة سَفوان: (وهي بدر الأولي):

في ربيع الأول لـ ١٣ شهرًا هـ[2]:

أغار كرزُ بن جابر الفهري على مواشي المدينة، فخرج ﷺ في طلبه، حتى بلغ وادي سفوان ناحية بدر، وفاته كرز. حمل اللواء علي كرم الله وجهه، واستخلف على المدينة زيد بن حارثة.

٦ – غزوة بُواط:

(ربيع الأول[3] لـ ١٣ شهرًا هـ):

خرج ﷺ في مائتين من المهاجرين ليعترض ألفين وخمسمائة بعير لقريش، حتى بلغ بُواط إلى الغرب من المدينة ناحية الساحل على بعد ثمانية وأربعين ميلاً، ففاتته العير وكان فيها أمية بن خلف ومائة من قريش. حمل اللواء سعد بن أبي وقاص ولونه أبيض، واستعمل على المدينة السائب بن مظعون، وقيل: سعد بن معاذ[4].

---

(١) ابن هشام ٥٩١/١. الطبري ٤٠٣/٢. الواقدي ١٢/١. والطبقات ٨/٢.

(٢) ابن هشام ٦٠١/١، الطبقات ٩/٢، الواقدي١٢/٢، وفاء الوافاء ٢٧٥/١. وفي خليفة ٥٧. والطبري ٤٠٦/٢. في جمادى الآخرة.

(٣) ابن هشام ٥٩٨/١ . وقيل: في ربيع الآخر. والطبري ٤٠٥/٢. والطبقات ٨٠/٢. والواقدي ١٢/١

(٤) ابن كثير ٣٦١/٢. وتأريخ خليفة ٥٧. الطبري ٤٠٧/٢. مغلطاي ١٩١.

٧ - غزوة العُشيرة:

(جمادى الآخرة لـ ١٦ شهرًا هـ).

خرج في مائة وخمسين، وقيل: مائتين من المهاجرين، يحمل اللواء حمزة، يريد ألف بعير لقريش ذاهبة إلى الشام، جمعت كل أموال قريش في ثروة تقدر بخمسين ألف دينار، فبلغ العُشَيرةَ من بطن ينبع، فوجد العير قد مضت منذ أيام، فأقام بها جمادى الأولى وليالي من الثانية، ووادع فيها بني مُدلج وحلفاءهم من بني ضَمرة. وفيها كنَّى عليًا كرم الله وجهه أبا تراب. روى عمار بن ياسر رضي الله عنه، قال: كنت أنا وعليٌ رفيقين في غزوة العشيرة؛ فرآنا رسول الله ﷺ نائمين في دقعاء من التراب، فقال: "قم أبا تراب"، ثم قال: "ألا أخبرك بأشقى الناس أجمعين"، قلنا: بلى يا رسول الله، قال: "أحيمر ثمود الذي عقر الناقة، والذي يضربك على هذا"، ووضع يده على قرنه، "حتى يبل منها هذه"، وأخذ على لحيته[1].

٨ - سرية عبدالله بن جحش:

(سرية نخلة) في رجب سنة٢هـ

---

(١) الخصائص ١٣٠. والمسند ١٨٣٤٩. والطحاوي مشكل الآثار ٢١٨/٢. والبيهقي في الدلائل ١٢/٣. وصححه الحاكم على شرط مسلم ١٤١/٣. ووافقه الذهبي. و ابن هشام ٦٠٠/١. والحلبية ١٢٦/٢. وعيون الأثر ٣٥٧/١ وما بعدها. وابن كثير ٣٦٣/٢. وتأريخ خليفة ٥٧. الطبقات ٩/٢.

بعثه رسول الله ﷺ ومعه ثمانية من المهاجرين[١]، وقيل: اثنا عشر[٢] وكتب له كتابًا، وأمره ألا ينظر فيه حتى يسير يومين ثم ينظر فيه، فيمضي لما أمره به، ولا يستكره من أصحابه أحدًا. ففتح الكتاب بعد يومين فإذا فيه: إذا نظرت في كتابي هذا فامض حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف فترصَّدْ بها قريشًا وتعلَّم لنا من أخبارهم.

فقال بعد قراءته: سمعًا وطاعة، وأخبر أصحابه بما في الكتاب، ثم قال لهم: من كان منكم يريد الشهادة ويرغب فيها فلينطلق، ومن كره ذلك فليرجع. فمضى ومضى معه أصحابه لم يتخلف منهم أحد.

وفي الطريق أضلَّ سعد بن أبي وقاص وعُتبة بن غزوان بَعيرًا لهما كانا يعتقبانه، فتخلفا في طلبه، ومضى ابن جحش وبقية أصحابه حتى نزل بنخلة، فمرت به عير لقريش تحمل زبيبًا وجلودًا وتجارة لقريش جاءوا بها من الطائف، فيها عمرو بن الحضرمي، وعثمان بن عبدالله بن المغيرة، وأخوه نوفل بن عبدالله، والحكم بن كَيْسان، فلما رآهم القوم قريبًا منهم هابوهم، فأشرف لهم عكاشة بن محصن وكان قد حلق رأسه، فلما رأوه أمنوا وقالوا: عُمّارٌ لا بأس عليكم منهم. وتشاور القوم فيهم، وذلك في آخر يوم من رجب، فقال القوم: والله لئن تركتم القوم هذه الليلة ليدخُلن الحرم فليمتَنِعُنَّ منكم به، ولئن قتلتموهم لتقتلُنَّهم في الشهر الحرام، فتردد القوم وهابوا الإقدام عليهم، ثم شجَّعوا أنفسهم عليهم وأجمعوا على قتل من قدَروا عليه منهم وأخْذِ ما معهم، فرمى واقدُ ابن عبدالله

---

(١) ابن هشام ٦٠١/١ . ابن الوردي ١٠٩/١.

(٢) الطبقات ١٠/٢، الواقدي ١٧/١ الطبري ٤١٠/٢ .

التميمي عمرًا بن الحضرمي بسهم فقتَله، واستأسر عثمان بن عبدالله والحكمُ بن كيسَان، وفرّ نوفلُ بن عبدالله.

ولما قدموا على رسول الله ﷺ بالعير والأسيرين، قال: ما أمرتُكم بقتال في الشهر الحرَام، فأوقفَ العيرَ والأسيرين، ولم يأخذ شيئًا، فسقط في أيدي القوم وظنوا أنهم هَلكوا، وعنفهم المسلمون، وقالت قريش: قد استحل محمد وأصحابه الشهرَ الحرام، فقال من يردُّ عليهم من المسلمين ممن كان بمكة: إنما أصابوا ما أصابوا في شعبان.

فلما أكثر الناس في ذلك نزل قول الله ﷻ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢١٧] أي إن كنتم قتلتم في الشهر الحرام فقد صدوكم عن سبيل الله مع الكفر به، وعن المسجد الحرام. وإخراجُكم - منه وأنتم أهله - أكبرُ عند الله من قتل من قتلتم منهم. ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾، أي قد كانوا يفتنون المسلم في دينه حتى يردوه إلى الكفر بعد إيمانه، وذلك أكبر عند الله من القتل ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَـٰعُوا۟﴾ أي ثم هم مقيمون على أخبث ذلك وأعظمه غير تائبين ولا نازعين.

فلما نزل القرآن بهذا، وفرج الله عن المسلمين ما كانوا فيه من الخوف - قبَضَ رسول الله ﷺ العير والأسيرين، وقيل: قد كان عبدالله بن جحش أخرج الخمس لرسول الله ﷺ وقسم الباقي بين أصحابه، فهو أول خمس في الإسلام

وأول غنيمة[١]. وابن الحضرمي أول قتيل بسيف المسملين، وعثمان بن الحكم والحكم بن كيسان أول أسيرين[٢].

قال ابن سعد: سُمِّيَ ابن جحش في هذه السرية بأمير المؤمنين[٣] وبعثت قريش في فداء الأسيرين، فقال ﷺ: لا، حتى يقدم سعد وعتبة فإنا نخشاكم عليهما، فإن تقتلوهما نقتل صاحبيكم، فقدم سعد وعتبة، فأفداهما رسول الله ﷺ منهم. فأما الحكم بن كَيَسان فأسلم وحسن إسلامه، وأقام عند رسول الله ﷺ – حتى استشهد يوم بئر مَعُونة، وأما عثمانُ بن عبدالله فلحق بمكة فمات بها كافرًا.

صرف القبلة إلى الكعبة:

حدث ذلك في النصف من شعبان على رأس ثمانية عشر شهرًا من الهجرة[٤]. وقت صلاة الظهر، صلى نصفها إلى بيت المقدس، والنصف الثاني للكعبة، وقد استدار النبي ﷺ، واستدار النساء مكان الرجال، والرجال مكان النساء، وتحول من في المقدم إلى المؤخر؛ لأن من استقبل الكعبة من المدينة يلزم أن يستدبر بيت المقدس. فمر عباد بن بشر، وقد صلى مع النبي على قوم من الأنصار راكعين في صلاة العصر، فقال: أشهد لقد صليت مع رسول الله ﷺ قِبَلَ البيت؛ فاستداروا. ومرَّ عباد إلى أهل قباء فألفاهم في صلاة الصبح من اليوم

---

(١) الطبري ٢/٤١٢ وهو مشكل، فلم يكن قد فرض الخمس في الغنائم.

(٢) سبل الهدى ٦/٣٠. والطبري ٢٥/٤١٤.

(٣) الطبقات ٢/١١، الواقدي ١/١٩، وقال الطبري: إن أول راية رفعت راية ابن جحش .

(٤)ابن هشام ١/٦٠٦. وابن الوردي ١/١٠٩.

الثاني فأخبرهم فاستداروا[1]. وقال البخاري: إن تحويل القبلة على رأس ستة عشر، أو سبعة عشر شهرًا من الهجرة[2]. وكان صرف القبلة سببًا لارتداد ضعفاء الإيمان. وقد أثار اليهود زوبعة عنيفة عند تحويل القبلة تولى الرد عليهم القرآن الكريم في مستهل الجزء الثاني من سورة البقرة.

٩ - غزوة بدر الكبرى:

(١٧ رمضان لـ٢هـ - يناير ٦٢٤م)[3]

سمع رسول الله ﷺ بأن قافلة من ألف بعير قادمة من الشام تحمل ثروة هائلة يقودها أبو سفيان ومعه ثلاثون أو أربعون من قريش. فقال للمسلمين: هذه عير قريش فيها أموالهم فاخرجوا إليها لعل الله يُنفلُكُموها؛ فخف بعض الناس وثقُل بعضُهم، وذلك أنهم لم يظنوا أن رسول الله ﷺ يلقى حربًا.

وكان أبو سفيان حين دنا من الحجاز يتحسس الأخبار، ويسأل من لقي من الركبان، تخوفًا على أمر الناس، حتى أصاب خبرًا من بعض الركبان: أن محمدًا

---

(١) البخاري رقم ٣٩٥. والطبري ٤١٦/٢. والثعالبي ١٦٨.

(٢) رقم ٣٩٠. وقال في السبل ٥٤١/٣: من قال: ١٦ شهرًا لفَّق من شهر القدوم وشهر التحويل شهرًا، وألغى الأيام الباقية. ومن قال ١٧ شهرًا حسب شهر القدوم وشهر التحويل؛ لأن القدوم في شهر ربيع الأول والتحويل في نصف شهر رجب على الصحيح، لكن الحساب على هذا يكون التحويل على رأس ١٨ شهرًا، وهو ما جاء في الطبري وقال: إنه قول الجمهور. ٤١٦/٢.

(٣) الطبقات ١١/٢. ابن هشام ٦١٢/١. ومغلطاي ص١٩٧. ابن الوردي ١١٠/١. وقيل: ١٩ رمضان. الطبري ٤١٩/٢. البداية والنهاية ٣١٣/٣. الواقدي ١٩/١. خليفة ص٥٧. والمنتظم ٩١/٣. وزاد المعاد ٨٥/٢.

ﷺ قد استنفر أصحابه لك ولعيرك، فحذر عند ذلك فاستأجر ضمضم بنَ عمرو الغفاري فبعثه إلى مكة، وأمره أن يأتي قريشًا فيستنفرَهم إلى أموالهم، ويخبرهم بأن محمدًا ﷺ قد عرض لها، فخرج ضمضمُ سريعًا إلى مكة فوصلها صارخًا وقد جَدَّع أنف بعيره وحول رحله وشق قميصه وهو يقول: يا معشرَ قريش: اللطيمةَ اللطيمة[1] أموالكم مع أبي سفيان قد عرض لها محمد في أصحابه لا أرى أن تدركوها، الغوث الغوثَ[2].

وتجهز الناس سراعًا وقالوا: أيظن محمد وأصحابه أن تكون كعير ابن الحضرمي (الذي قتل في سرية عبدالله بن جحش)، كلا والله لَيعلمَن غير ذلك، فكانوا بين رجلين: إما خارج وإما باعث مكانَه رجلاً، و لم يتخلف من أشراف قريش أحد إلا أبو لهب تخلف واستأجر مكانه العاصي ابن هشام بن المغيرة بأربعة ألاف درهم كانت دينًا عنده.

وأجمع أمية بن خلف على القعود، وكان شيخًا جليلاً جسيمًا ثقيلاً، فأتاه عقبة بن أبي معيط وهو جالس في المسجد بين ظهراني قومه بمجمرة وقال: يا أبا علي

---

(١) اللطيمة: الإبل التي تحمل البُرَّ والطيب.

(٢) الطبري ٢/٤٣٠. الواقدي ١/٣١. ابن هشام ١/٦٠٩.

استجمر فإنما أنت من النساء. فقال: قبحك الله وقبح ما جئت به، ثم تجهز فخرج مع الناس.

فلما أجمعوا على المسير ذكروا ما كان بينهم وبين بني بكر من الحرب فقالوا: إنا نخشى أن يأتونا من خلفنا، فكاد ذلك يثنيهم، فتبدى إبليس في صورة سراقة بن مالك المدلجي وكان من أشراف كنانة فقال لهم: أنا جار لكم من أن تأتيكم كنانة من خلفكم بشيء تكرهونه، فخرجوا سراعًا.

استخلف النبي ﷺ على المدينة أبا لبابة، رده من الطريق، واستخلف على الصلاة ابن أم مكتوم، ودفع اللواء إلى مصعب بن عمير، وكان أبيض، ودفع رايتين سوداوين، إحداهما لعلي بن أبي طالب كرم الله وجهه، يقال لها العُقاب، والأخرى لبعض الأنصار (سعد بن معاذ رضي الله عنه). وكان مع أصحابه سبعون من الإبل يعتقبونها، وكان عددهم ثلاثمائة أو يزيدون قليلاً. وكان علي ومرثد بن أبي مرثد الغنوي زميلا رسول الله ﷺ على بعيره، يحاولان عبثًا أن يتنازلا عن حصتهما في الركوب لرسول الله ﷺ، فيأبى ويقول: "**ما أنتما بأقوى مني على المشي، وما أنا بأغنى منكما عن الأجر**"[1]. فيتقاسم معهما الركوب أثلاثًا.

بعث رجلين إلى بدر يتحسسان له الأخبار؛ فأتاه خبر مسير قريش.

الرسول ﷺ يستشير أصحابه في القتال:

نَقَلَ ﷺ لأصحابه خبر مسير قريش، وحجم قوتها، وقال: أشيروا عليَّ أيها الناس فقام أبو بكر رضي الله عنه فقال: وأحسن، ثم قام عمر فقال وأحسن، ثم قام المقداد فقال: يا رسول الله امض لما أمرك الله فنحن معك، والله لا نقول

---

(١) مسند أحمد رقم ٤٠٢٩. والمستدرك ٢٠/٣. البداية والنهاية ٣١٩/٣.

كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ﴾ [٢٤: المائدة]، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد[١] لجالدنا معك مَنْ دونه حتى تبلغه. فقال له رسول الله ﷺ
خيرًا ودعا له به.
ثم قال ﷺ: "أشيروا علي أيها الناس"، وإنما يريد الأنصار، وذلك أنهم عدد الناس، وأنهم حين بايعوه بالعقبة قالوا: يا رسول الله إنا برآء من ذمامك حتى تصل إلى ديارنا، فإذا وصلت إلينا فأنت في ذمتنا نمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا. وكان ﷺ يتخوف ألا تكون الأنصار ترى عليها نصرة إلا ممن دهمه بالمدينة من عدوه، وأن ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدو خارج بلادهم، فلما قال ذلك قال له سعد بن معاذ: والله لكأنك تريدنا يا رسول الله؟ . قال: أجل. قال: فقد آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة؛ فامض يا رسول الله لما أردت فنحن معك، فوالذي بعثك بالحق، لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدًا، إنا لَصُبُرٌ في الحرب، صُدُقٌ عند اللقاء، لعل الله يريك منا ما تقر به عينك، فَسِرْ بنا على بركة الله، فَسُرَّ رسول الله ﷺ بقول سعد رضي الله عنه، ونشَّطَهُ، ثم قال:

---

(١) موضع باليمن.

سيروا وأبشروا فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين[1]. والله لكأني الآن أنظر إلى مصارع القوم.

استطلاع أخبار قريش:

نزل رسول الله ﷺ قريبًا من بدر، فركب هو وأبو بكر رضي الله عنه حتى وقف على شيخ من العرب فسأله عن قريش، وعن محمد ﷺ وأصحابه وما بلغه عنهم، فقال الشيخ: لا أخبركما حتى تخبراني ممن أنتما؟ فقال رسول الله ﷺ: إذا أخبرتنا أخبرناك. قال: أذاك بذاك؟ قال: نعم. قال الشيخ: فإنه بلغني أن محمدًا وأصحابه خرجوا يوم كذا وكذا، فإن كان صدق الذي أخبرني فهم اليوم بمكان كذا وكذا، للمكان الذي به رسول الله ﷺ. وبلغني أن قريشًا خرجوا يوم كذا وكذا، فإن كان الذي أخبرني صدقني فهم اليوم بمكان كذا وكذا، للمكان الذي فيه قريش فلما فرغ من خبره قال: ممن أنتما؟ فقال رسول الله ﷺ: نحن من ماء! ثم انصرف عنه، فقال الشيخ: من ماء! أمن ماء العراق؟.

ثم رجع رسول الله ﷺ إلى أصحابه، فلما أمسى بعث علي بن أبي طالب والزبير بن العوام، وسعد بن أبي وقاص، في نفر من أصحابه إلى ماء بدر يلتمسون الخبر، فأصابوا غلامين، فأتوا بهما فسألوهما ورسول الله ﷺ قائم يصلي، فقالا: نحن سقاة قريش بعثونا نسقيهم من الماء، فكره القوم خبرهما ورجوا أن يكونا لأبي سفيان، فضربوهما، فلما أذلقوهما[2] قالا: نحن لأبي سفيان.

---

(١) العير: وفيها الغنيمة. أو النفير: وفيها الشوكة والعدة والعدد، وهم لها كارهون.

(٢) اذلقوهما: بالغوا في ضربهما حتى أجهدوهما.

فتركوهما، فلما سلم النبي ﷺ من صلاته قال: إذا صدقاكم ضربتموهما. وإذا كذباكم تركتموهما، صدقا والله إنهما لقريش، أخبراني عن قريش قالا: هم والله وراء هذا الكثيب الذي ترى بالعدوة القصوى، فقال لهما رسول الله ﷺ: كم القوم؟ قالا: لا ندري . قال: كم ينحرون كل يوم؟ قالا: يومًا تسعًا ويومًا عشرًا، فقال رسول الله ﷺ: القوم فيما بين التسعمائة والألف، ثم قال لهما: فمن فيهم من أشراف قريش؟ قالا: عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة. وأبو البختري بن هشام، وحكيم بن حزام، ونوفل بن خويلد، والحارث ابن عامر بن نوفل، وطعيمة بن عدي بن نوفل، والنضر بن الحارث، وزمعة بن الأسود، وأبو جهل بن هشام، وأمية بن خلف، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج، وسهيل بن عمرو، وعمرو بن عبد ود. فأقبل رسول الله ﷺ على الناس فقال: هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كَبِدها[1].

وكان بَسْبَس بن عمرو، وعدي بن أبي الزَّغباءَ اللذان أرسلهما رسول الله ﷺ لتحسس الأخبار قد مضيا حتى نزلا بدرًا فأناخا إلى تل قريب من الماء، ثم أخذا شنًا[2] لهما يستقيان فيه – ومجدي بن عمرو الجهني على الماء – فسمعا جاريتين تقول أحدهما لصاحبتها: إنما تأتي العير غدًا أو بعد غد فأعمل لهم ثم أقضيك الذي لك، قال مجدي: صدقتِ. فأخبرا رسول الله ﷺ بما سمعا.

وأقبل أبو سفيان بن حرب يقدم العير حذرًا حتى ورد الماء، فقال لمجدي: هل أحسست أحدًا؟ قال: ما رأيت أحدًا أنكره إلا راكبين أناخا إلى هذا التل، ثم انطلقا، فأتى أبو سفيان مُناخَهما فأخذ من أبعار بعيريهما ففته فإذا فيه النوى،

---

(١) جمع فلذة، وهي القطعة.

(٢) جمع فلذة، وهي القطعة.

فقال: هذه والله علائف يثرب، فرجع إلى أصحابه سريعًا فضرب وجه العير عن الطريق. فساحل بها وترك بدرًا على يساره.

عناد أبي جهل وشؤمه:

ولما أحرز أبو سفيان القافلة أرسل إلى قريش: إنكم إنما خرجتم لتمنعوا أموالكم، فقد نجاها الله فارجعوا، فقال أبو جهل: والله لا نرجع حتى نرد بدرًا– وكان بدر موسمًا من مواسم العرب، يجتمع لهم به سوق كل عام – فنقيم عليه ثلاثًا، فننحر الجزور ونُطعم الطعام، ونُسقى الخمر وتعزف علينا القيِان[1]، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا فلا يزالون يهابوننا أبدًا بعدها، فاستخف قومه فأطاعوه.

---

(١) القيان: الجواري المغنيات.

الجمعان في بدر، ومشورة الحباب بن المنذر:

نزلت قريش بالعدوة القُصوى من الوادي، وبعث الله السماء، وكان الوادي دهسًا[(١)]، فأصاب رسول الله ﷺ وأصحابه منها ما لَبَّدَ لهم الأرض و لم يمنعهم عن السير، وأصاب قريشًا منها ما لم يقدروا على أن يرتحلوا معه، فنزل رسول الله ﷺ بمكان في بدر. فقال الحُبَاب: يا رسول الله، أرأيتَ هذا المنزل أمنزلاً أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمَه ولا نتأخر عنه، أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟، قال: بل هو الرأي والحرب والمكيدة، فقال: يا رسول الله، فإن هذا ليس بمنزل، فانهض بالناس حتى نأتي أدنى ماء من القوم فننزله، ثم نغور[(٢)] ما وراءه من القُلُب، ثم نبني عليه حوضًا فنملؤه ماء، ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون، فقال رسول الله ﷺ: لقد أشرت بالرأي؛ فنهض بالناس حتى نزل على أدنى ماء من القوم، ثم أمر بالقُلب فغُوِّرت، وبنى حوضًا على القَلِيب الذي نزل عليه، فمُلئ ماءً، ثم قذفوا فيه الآنية.

بناء العريش:

قال سعد بن معاذ: يا نبي الله، ألا نبني لك عريشًا تكون فيه، ونُعِدُّ عندك ركائبَك، ثم نلقى عدونا، فإن أعزنا الله وأظهرنا على عدونا كان ذلك ما أحببنا، وإن كانت الأخرى جلستَ على ركائبك فلحقت بمن وراءنا من قومنا، فقد تخلف عنك أقوام يا نبي الله ما نحن بأشد لك حبًا منهم، ولو ظنوا أنك

---

(١) الدهس: اللين الذي لم يبلغ أن يكون رملاً.

(٢) التغوير: الدفن والطمس.

تلقى حربًا ما تخلفوا عنك يمنعك الله بهم، يناصحونك ويجاهدون معك. فأثنى عليه خيرًا ودعا له، ثم بُنِيَ عريش فكان فيه.

وفي الصباح رأى ﷺ قريشًا منحدرة إلى الوادي، فقال: اللهم هذه قريش قد أقبلت بـخُيَلائها وفخرها، تحادُّك وتكذب رسولك. اللهم فنصرَك الذي وعدتني، اللهم أحنهُم الغَداةَ[1].

فلما نزَل الناسُ أقبلَ نفرٌ من قريش حتى وردوا حوضَ رسول الله ﷺ، فيهم حكيم بنُ حزام، فقال رسول الله ﷺ: دَعُوهم فما شرب منه رجل يومئذ إلا قتل، إلا ما كان من حكيمِ بن حزام، فإنه لم يقتَل، ثم أسلم بعد ذلك فحسن إسلامه، فكان إذا اجتهدَ في يمينه قال: لا، والذي نجاني يوم بدر.

السعي في تفادي القتال:

ولما اطمأن القوم بعثوا عميرَ بن وَهب الجُمَحي فقالوا: احزُر[2]. لنا أصحابَ محمد، فجال بفرسه حول العسكر ثم رجع إليهم فقال: ثلاثمائة رجل يزيدون قليلاً أو ينقصون، ولكن أمهلوني حتى أنظر أَلِلْقَومِ كمينٌ أو مَدَدٌ؟ فضرب في الوادي حتى أبعد، فلم ير شيئًا فرجع إليهم فقال: ما وجدت شيئًا ولكني رأيت البَلايَا[3] تحمل المنايا، نواضحَ يثرب تحمل الموت الناقع[4]؛ قوم ليس معهم مَنَعة ولا ملجأ إلا سيوفهم، والله ما أرى أن يُقتَلَ رجلٌ منهم حتى يَقْتُلَ رجلاً منكم،

---

(١) أحنهم: أهلكهم. حان : هلك.

(٢) أحزر: أي قدر بالحدس والظن.

(٣) البلايا: جمع بلية، وهي الناقة أو الدابة تربط إلى قبر الميت فلا تعلف ولا تسقى حتى تموت.

(٤) النواضح: الإبل يستقى عليها. الناقع: الثابت، البالغ في الإفناء.

فإذا أصابوا منكم أعدادَهم فما خيرُ العيش بعد ذلك فرَوا رأيكم؛ فلما سمع حكيمُ بنُ حزام ذلك مشى في الناس، فأتى عتبةَ بن ربيعةَ فقال: يا أبا الوليد، إنك كبيرُ قريش وسيدها والمطاع فيها، هل لك ألا تزال تذكر فيها بخير إلى آخر الدهر؟ قال: وماذاك يا حكيم؟ قال: ترجع بالناس وتحمل أمرَ حليفك عمرو بن الحضرمي[1] قال: قد فعلتُ، أنتَ عليَّ بذلك، إنما هو حليفي فَعَلَيَّ عقلُه (أي ديته)، وما أصيب من ماله، فأت ابنَ الحنظلية فإني لا أخشى أن يشجُرَ أمرَ الناس غيره[2].

ثم قام عتبة بن ربيعة خطيبًا فقال: يا معشر قريش، إنكم والله ما تصنعون بأن تلقوا محمدًا وأصحابه شيئًا، والله لئن أصبتموه لا يزال الرجل ينظر في وجه رجل يكره النظر إليه، قتل ابن عمه أو ابن خاله أو رجلاً من عشيرته، فارجعوا وخلوا بين محمد وسائر العرب، فإن أصابوه فذاك الذي أردتم، وإن كان غير ذلك ألفاكم و لم تعرضوا منه ما تريدون.

صَلَف أبي جهل:

قال حكيم: فانطلقت حتى جئتُ أبا جهل فوجدته قد نَثَل[3] درعًا له من جِرابِها، فقلت له: إن عُتبة أرسلني إليك بكذا وكذا للذي قال. فقال: انتفخ والله سَحْره[4] حين رأى محمدًا وأصحابه، كلا والله لا نرجع حتى يحكم الله بيننا وبين محمد، ثم قال: إن عتبة لما رأى أن محمدًا وأصحابه أَكَلَه جزور[5] وفيهم

---

(١) انظر ما مضى في سرية عبدالله بن جحش ص١٣٢.

(٢) هو أبو جهل، أمه من بني حنظلة بن مالك. ويشجر: يخالف بينهم.

(٣) نثل: أخرج.

(٤) السحر: الرئة. وهذا كناية عن الجبن.

(٥) أي قليلوا العدد. وأكلة الجزور نحو المائة.

ابنه (أبو حذيفة). فقد تخوَّفكم عليه، ثم بعث إلى عامر بن الحضرمي فقال: هذا حليفُك يريد أن يرجع بالناس، وقد رأيت ثأرك بعينك، فقم فأنشُدْ خُفْرَتَك[1] ومقتل أخيك.

فقام عامر فكشف سوأته وصرخ واعمراه (يندب أخاه عمرًا) فحميت الحرب، وحَقِبَ أمرُ الناس، واستوسقوا[2] على ما هم عليه من الشر، وخابت محاولة عتبة.

وخرج الأسود بن عبدالأسد المخزومي – وكان شرسًا سيء الخلق – فقال: أعاهد الله لأشربن من حوضهم أو لأهدمنه، أو لأموتن دونه، فلما خرج، خرج إليه حمزة بن عبدالمطلب فضربه فأطار قدمَه بنصف ساقه وهو دون الحوض، فوقع على ظهره تشخُب[3] رجله دمًا نحو أصحابه، ثم حبَا إلى الحوضِ حتى اقتحم فيه، يريد أن يُبِرَّ بيمينِه فضربه حمزة حتى قتله في الحوض.

بداية المعركة:

غضب عتبة من كلام أبي جهل وقال: سيعلم غدًا من الجبان، فخرج مع أخيه شيبةَ وابنه الوليد بن عُتبة، فدعا إلى المبارزة، وقد تعمم إذ لم تجد مغفرًا لضخامة هامته كما قيل، فخرج إليه عوف ومعوَّذ ابنا الحارث، وآخر يقال: إنه عبدالله بن رواحة، فقالوا: من أنتم؟ فقالوا: رهط من الأنصار، قالوا: ما لنا بكم من حاجة، ثم نادى مناديهم: يا محمد، أخرج إلينا أكفاءنا من قومنا. فقال ﷺ:

---

(١) أي اطلب من قريش الوفاء بخفرتهم لك أي عهدهم، فقد كان جارًا لهم وحليفًا.

(٢) حقب الأمر تعسر. استوسقوا: اجتمعوا.

(٣) تشخب: تسيل بصوت.

قم يا عبيدة بن الحارث، وقم يا حمزة، وقم يا علي، فلما دنوا منهم قالوا: من أنتم؟ فانتسبوا، فقالوا: نعم أكفاء كرام.

وبارز عبيدةُ - وكان أسنَّ القوم - عتبةَ بنَ ربيعة فأثبت كلاهما صاحبه، وبارز حمزةُ شيبةَ فقتله، وبارز عليٌّ الوليد فقتله، وكرَّ حمزةُ وعلي على عتبةَ فذفَّفا عليه[1] واحتملا صاحبَهما.

ثم تزاحف الناس ودنا بعضهم من بعض، وقد أمَرَ ﷺ أصحابَه ألا يحملوا حتى يأمرهم، وقال: إن اكتنفكم القومُ فانضَحوهم عنكم بالنبل، ثم خرج رسول الله من العريش إلى الصفوف يُعَدِّلُها، تاليًا قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنۡيَـٰنٌ مَّرۡصُوصٌ﴾ [الصف: ٤]

وقال ﷺ لأصحابه محرضًا لهم ملهبًا حماسهم: "والذي نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابرًا محتسبًا مقبلاً غير مدبر إلا أدخله الله الجنة"[2]، فقال عُمير بن الحُمام، أخو بني سلمة، وفي يده تمرات يأكلهن: بخ بخ[3]. أفما بيني وبين الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء! ثم قذف التمرات من يده وأخذ سيفه فقاتل القوم حتى قتل[4].

ثم مَرَّ ﷺ وهو يسوِّي الصفوف وسَوَّاد بن غَزِيَّة منفتلاً عن الصف، فطعن في بطنه بالقدح، وقال: استوِ يا سوَّاد، فقال: يا رسول الله أوجعتني وقد بعثك الله

---

(١) ذفف عليه: أجهز وأسرع.

(٢) البداية والنهاية ٣/٣٣٧.

(٣) كلمة تقال عند الاعجاب.

(٤) البداية والنهاية ٣/٣٣٧.

بالحق والعدل، فأقدْني؛ فكشف ﷺ عن بطنه، وقال: "اسْتَقِدْ"؛ فاعتنقه فقبَّل بطنه، فقال ﷺ: ما حملك على هذا؟، قال: قد حضر ما ترى فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمس جلدي جلدك؛ فدعا له بخير.

رجع رسول الله ﷺ إلى العريش رافعًا كفيه داعيًا ربه، قائلا: "اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد". وأبو بكر رضي الله عنه ملازم له في العريش يقول: بعضَ مناشدتك ربّك فإنه منجز لك ما وعدك. فنعس ﷺ ثم انتبه فقال: أبشر يا أبا بكر أتى نصر الله، هذا جبريل آخذ بعنان فرسه يقوده على ثنايا النقع.

وفي المقابل أبو جهل يدعو على محمد ﷺ قائلاً: اللهم إنه قطع الرحم، وآتانا بما لا نعرف فأحنه الغداة. فكان هو المستفتح.

ثم إن رسول الله ﷺ أخذ حفنة من الحصباء فرمى بها قريشا وقال: شاهتِ الوجوه، وأمر أصحابه فقال: شدوا، فكانت الهزيمة فقُتل من صناديد قريش وأشرافهم سبعون وأسر مثلهم.

عن ابن عباس[1] أن النبي ﷺ قال لأصحابه يومئذ: إن رجالاً من بني هاشم وغيرهم أخرجوا كرهًا، لا حاجة لهم بقتالنا، فمن لقي منكم أحدًا من بني هاشم فلا يقتله ومن لقي أبا البختري فلا يقتله[2]، ومن لقي العباس بن

---

(١) الدلائل للبيهقي ٣/١٤٠.

(٢) لأنه كان لا يؤذي رسول الله ﷺ بمكة، ولا يبلغه عنه شيء يكرهه، وكان ممن قام بنقض الصحيفة. فلقيه المجذر بن زياد البلوي وأخبره أن رسول الله ﷺ نهى عن قتله ومع أبي البختري زميل له فقال: أنا وزميلي قال: لا والله ما نحن بتاركي زميلك، فقال: إذن نموت جميعًا. لا تتحدث نساء مكة أني تركت زميلي حرصًا على الحياة. فقال المجذر لرسول الله ﷺ: والذي بعثك بالحق لقد جهدت أن يستأسر فأبى إلا أن يقاتلني فقتلته.

عبدالمطلب فلا يقتله، فقال أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة: أنقتل آباءنا وأبناءنا وإخواننا وعشيرتنا ونترك العباس؟، والله لئن لقيتُه لألحِمَنَّه السيف[1]، فبلغت رسول الله ﷺ فقال لعمر بن الخطاب: يا أبا حفص، أيُضرَب وجه عم رسول الله بالسيف؟ فقال عمر: يا رسول الله دعني فلأضرب عنقه بالسيف فوالله لقد نافق، فكان أبو حذيفة يقول: ما أنا بآمنٍ من تلك الكلمة التي قلت يومئذ، ولا أزال منها خائفًا إلا أن تكفرها عني الشهادة، فقتل رحمه الله يوم اليمامة شهيدًا.
و لم تقاتل الملائكةُ في يومٍ سوى بدر، وإنما يكونون عددًا ومددًا لا يقاتلون.

مصرع أبي جهل:

فلما فرغ رسول الله ﷺ من عدوه أمر أن يُلتَمَسَ أبو جهل في القتلى قال ابنُ مسعود: فاحتززتُ رأسه ثم جئت به رسول الله ﷺ؛ فحمد الله. وأمر بالقتلى فطرحوا في القليب، إلا أمية بن خلف فغيبوه مكانه لأنه قد انتفخ في درعه فملأها.

ثم وقف الرسول ﷺ على أهل القليب ونادى رجالا بأسمائهم فقال: هل وجدتم ما وعد ربكم حقًا، فإني قد وجدت ما وعدني ربي حقًا؟ فقال المسلمون: يا رسول الله، أتنادي قومًا قد جيَّفوا؟ قال: ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكنهم لا يستطيعون أن يجيبوني[2].

---

(١) أي لأمكنن منه السيف. ويروى "لألجمنه" أي لأضربنه به في وجهه
(٢) مسلم ٤/٢٢٠٣. والبداية والنهاية ٣/٣٥٩ . وابن هشام ١/٦٢٩.

اختلاف المسلمين حول المغنم:

جْمعت الغنائم، واختلف المسلمون فقال منْ جمعها: لنا، وقال المقاتلون: لنا، وقال الحارسون لرسول الله ﷺ: لنا. قال بعض الصحابة: حتى ساءت أخلاقنا، فنزلت سورة الأنفال، فأخرج رسول الله ﷺ الخمس فقسمه على المسلمين بالسواء.

وفي طريقه إلى المدينة ومعه الأسرى أمر عليًا كرم الله وجهه بقتل النَّضر بن الحارث، ثم أمر عاصم بن ثابت بقتل عقبة بن أبي معيط(١)، فقال عقبة: فمن للصبية يا محمد؟ قال: النار. ثم فرق الأسارى بين أصحابه وقال: استوصوا بهم خيرًا. وقد أكثر المستشرقون الطعن على رسول الله لقتله الأسيرين، وتناسوا مذابح الصليبيين عبر تأريخهم الأسود، وظلوا يتباكون على أسيرين مجرمين قد ارتكبا كل الفظائع(٢).

قريش تفدي أسراها:

وافق النبي ﷺ على فداء الأسرى، وقدره أربعة آلاف درهم إلى ألف، إلا مَنْ أطلِقَ بدون فداء ممن لا مال له، فإن كان يجيد القراءة والكتابة كُلِّفَ بتعليم عشرة من غلمان المدينة. وقد عاتبه القرآن على هذا: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ [٦٧: الأنفال] وقد كان الصواب قتلهم؛ لأنهم شياطين قريش، وينبغي أن لا تضيع فرصة ثمينة ساقها الله لنبيه، والذي يظهر أن الله سبحانه

(١) قال ابن هشام: ويقال قتله علي بن أبي طالب كرم الله وجهه.

(٢) هيكل ص٢٧٣.

وتعالى ترك لنبيه أن يجتهد حتى وإن عاتبه في كتابه، وقد كان رأي عمر رضي الله عنه أن يقتلوا، وطلب من الرسول ﷺ أن تنزع ثنايا سهيل بن عمرو، ويدلع لسانه، فلا يقوم خطيبًا في أذية رسول الله ﷺ، فقال ﷺ: "لا أمثل به فيمثل الله بي وإن كنت نبيًا، وسيقوم مقامًا تحمده يا عمر"[1].

زينب رضي الله عنها تفدي زوجها العاص:

كان في الأسرى أبو العاص بن الربيع بن عبدالعزى زوج زينب بنت رسول الله ﷺ، وقد أقامت معه على إسلامها وهو على شركه حتى هاجرت، ولما فدى أهل مكة أسراهم بعثت زينب في فداء زوجها بمال، وبعثت فيه بقلادة لها كانت خديجة رضي الله عنها أدخلتها بها على أبي العاص حين بنى عليها، فلما رآها رسول الله ﷺ رقَّ لها رقة شديدة وقال: إن رأيتم أن تُطلقوا لها أسيرها وتردُوا عليها ما لها فافعلوا، فقالوا: نعم يا رسول الله. فاطلقوه وردوا عليها الذي لها، لكنه ﷺ اشترط على أبي العاص أن يترك زينب تهاجر إلى المدينة. ففعل. ولما أسلم ردها عليه بنكاحها الأول[2].

الدروس والعبر:

كانت قوة المسلمين في بدر قليلة العدد والعدَّة قياسًا بقوة قريش التي تفوقهم ثلاثة أضعاف مسلحين تسليحًا كاملاً، فلا أمل للنصر بالمقياس المادي، ولكن هناك اعتبارات أخرى:

---

(١) الطبري ٢/٤٦٥. والاستيعاب ٢/٢٣٠. وقد قام سهيل خطيبًا في قريش ومنعها من الردة بعد موت النبي (ص).

(٢) وقيل: بعقد جديد.

١- المسلمون تحرِّكهم مشاعر العقيدة، وتحفزهم الجنة لاعتناق الشهادة، وهذه الشحنات الإيمانية عامل تفوُّقٍ لدى المقاتل المسلم.
٢- النبي ﷺ والمهاجرون أخرجوا من ديارهم، ونُكِّلَ بهم؛ فهم موتورون مظلومون، سُلِبُوا كل شيء، فليس وراءهم ما يخافون عليه، وقريش ظالمة، ومن سلَّ سيف البغي قتل به، وعلى الباغي تدور الدوائر.
٣- الأنصار وجدوا أنفسهم أمام أول تجربة في حماية رسول الله ﷺ ونصرته، فكان قتالهم شديد الضراوة.
٤- النبي ﷺ ومن معه يذكرون الله تعالى ويسألونه العون بأدب جم، ويسعون لإصلاح الفساد في الأرض، وعبادة الله وحده، وأبو جهل وقومه يخطرون خيلاء، ويقول لهم: لا نرجع حتى نشرب الخمر ببدر، وتعزف علينا القيان، فالفارق كبير بين اللهو والجد.
٥- النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم يقاتلون قتال المستميت فإما النصر وإما الشهادة؛ فهي أول مواجهة لهم، إن انهزموا فيها فقد حكموا على أنفسهم بالإعدام، فلا فرق بين الموت والبقاء؛ لذا فقتالهم مختلف عن قتال قريش.
٦- المسلمون موصولون بالله، واثقون بنصره؛ فمعنوياتهم عالية.
٧- النبي ﷺ أدار المعركة إدارة بارعة، وراعى كل العوامل المادية والمعنوية لكسب المعركة، فقد عبأ أصحابه تعبئة إيمانية فائقة، فأحس بهم وأحسوا به وامتزج بهم، وأصبح أغلى من أنفسهم، كما أنه استشارهم وطَّيب خواطرهم، وجعلهم هم الذين يقررون الإقدام على القتال، ثم إن الرسول ﷺ وأصحابه سبقوا إلى الميدان فسيطروا على أرض القتال المناسبة، وتحكموا في الماء، وامتلكوا زمام المبادرة. هذه العوامل كلها عجَّلت بالنصر، ووراء ذلك كله عناية الله بهم:

﴿وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [١٠: الأنفال]، ﴿وَلَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدۡرٖ وَأَنتُمۡ أَذِلَّةٞ﴾ [١٢٣: آل عمران].

٧- كان بالمسلمين أبطال ضرباتهم فتاكة لا تقوم لهم قائمة. فقد قتل علي وحده إثنين وعشرين من كبار المشركين[1].

٨- الشورى أمان من الخطأ وحرز من الخطر وما سبب الكوارث عبر التأريخ أكثر من الإستبداد، ولا حوت القواميس أشأم منه، ﴿إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلَ أَهۡلَهَا شِيَعٗا يَسۡتَضۡعِفُ طَآئِفَةٗ مِّنۡهُمۡ يُذَبِّحُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَيَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ [القصص: ٤] إن فساده هو استبداده والشعوب قد تصنع المستبد، فالفراعنة أنجبتها الطاعة العمياء ﴿فَٱسۡتَخَفَّ قَوۡمَهُۥ فَأَطَاعُوهُۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ﴾ [الزخرف: ٥٤] وقد لاحقت لعنة الإستبداد قوم فرعون إلى يوم القيامة ﴿يَقۡدُمُ قَوۡمَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَأَوۡرَدَهُمُ ٱلنَّارَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡوِرۡدُ ٱلۡمَوۡرُودُ ۝٩٨ وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِۦ لَعۡنَةٗ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ بِئۡسَ ٱلرِّفۡدُ ٱلۡمَرۡفُودُ﴾ [هود: ٩٨-٩٩] هذا العرض القرآني يحذر من سلوك الفراعنة ويزري على أتباعهم ويسجل في نفس الوقت موقف الإسلام الرافض لسلوك يجلب اللعنة ويوجب النقمة.

---

(١) الواقدي ١/١٥٢، وذكر ابن هشام ٢١ قتلهم واشترك في قتلهم، وذكر في الإرشاد ٣٩، والبحار ١٩/٤٥٦ أن الذي قتلهم الإمام علي ٣٥.

وحين يتحدث القرآن الكريم عن سلوك الملكة اليمنية بلقيس الشوروي يعرضه في صورة يخلب جمالها العقول، فالسيدة بلقيس جمعت قومها الأشداء وجندها الأبطال وأخبرهم بكتاب نبي الله سليمان الصارم ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَـٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعۡلُواْ عَلَيَّ وَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ﴾ [النمل:٣١] فقالت وهي تدرك أن دولتها ستذهب أدراج الرياح إن ارتكبت أي حماقة ولذلك أشركت شعبها في القرار الخطير ﴿قَالَتۡ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَفۡتُونِي فِيٓ أَمۡرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمۡرًا حَتَّىٰ تَشۡهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُواْ نَحۡنُ أُوْلُواْ قُوَّةٖ وَأُوْلُواْ بَأۡسٖ شَدِيدٖ وَٱلۡأَمۡرُ إِلَيۡكِ فَٱنظُرِي مَاذَا تَأۡمُرِينَ﴾ [النمل: ٣٢- ٣٣] فأخبرهم بطبائع الملوك الإستبدادية، ﴿قَالَتۡ إِنَّ ٱلۡمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرۡيَةً أَفۡسَدُوهَا وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهۡلِهَآ أَذِلَّةٗۚ وَكَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ﴾ [النمل:٣٤] وإزاء هذا الامتحان الصعب بارك الله للملكة العظيمة توجهها الشورى واستشارة قومها، ولما أجابوها بالطاعة وأخبروها عن الشدة والبأس لم تنتفخ غرورا وقد أسند إليها صلاحية القرار وحرية التصرف بل ازدادت شعورا بالمسؤلية إزاء هؤلاء الرجال الكرام المتحضرين فوفقها الله إلى الإسلام وصيانة قومها وأرضها.

والسياق القرآني لا يتوقف عند السرد التأريخي بل يدعو أتباعه إلى اعتناق هذه المبادئ وممارستها عملا يجنبهم الزلل والخوف والظلم ويحفظ لهم الإستقرار والعدل، وقد أمر الله نبيه ﷺ بمشاورة أصحابه رغم تأييده بالوحي وعدم الخوف من الخطأ لكنه المبدأ الذي ينبغي أن يرشح بجوار كلمة التوحيد. قال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [آل

عمران:١٥٩]، وها هو النبي ﷺ يكرر قوله لجيشه قبل معركة بدر أشيروا علي أيها الناس فما دخل ساحة المعركة حتى اطمأن إلى إجماع جيشه المبارك.

وقد استمع لرأي جندي مسلم طلب من النبي ﷺ تغيير المكان إن لم يكن بأمر من الله واستصوب رأيه وبادر فورا للعمل بمشورته. وفي أُحُد ظل يشاور أصحابه حول البقاء في المدينة أو قتال المشركين خارجها فانصاع لرأي الأغلبية، وكان مخالفا لرأيه صلوات الله عليه وآله وسلم.

١٠- غزوة بني قينقاع [(١)]:

يوم السبت ١٥ شوال على رأس ٢٠ شهرًا هـ

وبنو قينقاع هم: قوم عبدالله بن سلام حلفاء عبدالله بن أبيّ وعبادة بن الصامت كانوا أشجع اليهود، حرفتهم الصياغة، وقد كانوا وادعوا النبي ﷺ مع اليهود كلها، وجعل بينه وبينهم أمانًا، وشرط عليهم شروطًا منها: ألا يظاهروا عليه عدوًا، فلما كان يوم بدر كانوا أول من نقض العهد وأظهروا البغي والحسد، فجمعهم ﷺ فقال: يا معشر يهود، أسلموا، فوالله إنكم لتعلمون أني رسول الله، يا معشر يهود، احذروا من الله مثل ما نزل بقريش من النقمة فأسْلِموا، فإنكم قد عرفتم أني مرسل، تجدون ذلك في كتابكم وعهد الله إليكم، فقالوا: يا محمد، إنك ترى أنّا مثل قومك، لا يَغُرّنّك أنك لقيت قومًا لا علم لهم بالحرب، فأصبت منهم فرصة، إنا والله لئن حاربتنا لتعلمنَّ أنا نحن الناس.

---

(١) ابن هشام ٤٧/٢، الطبقات ٢٨/٢، الواقدي ١٧٦/١. والطبري ٤٧٩/٢. وابن سيد الناس ٤٤٣/١. وأسباب النزول ١٦٧.

حدث بعد ذلك أن امرأة من المسلمين دخلت إلى صائغ من بني قينقاع فجعلوا يراودونها على كشف وجهها فلم تفعل، فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها من ورائها فحله وهي لا تشعر، فلما قامت بدت عورتها فضحكوا منها، فصاحت، فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله، وقتلت اليهود المسلم، ونبذوا العهد، واستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود، وغضب المسلمون فوقع الشر بينهم وبين بني قينقاع.

وأنزل الله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذۡ إِلَيۡهِمۡ عَلَىٰ سَوَآءٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡخَآئِنِينَ﴾ [٥٨: الأنفال] فقال ﷺ: إنما أخاف من بني قينقاع، فغزاهم، وحمل لواءه حمزة، وكان أبيض. واستخلف أبا لبابة بن عبد المنذر، فحاصرهم نصف شهر وقذف الله في قلوبهم الرعب، فنزلوا على حكم رسول الله، ومعنى ذلك: أن يقتل مقاتلتهم ويسبى ذراريهم ويأخذ أموالهم.

وبعد أن مكَّنه الله منهم تبرأ عبادة بن الصامت رضي الله عنه من حلفهم وقال: أتولى الله ورسوله والمؤمنين، وأما ابن أبيّ فقد أدخل يده في جيب درع رسول الله ﷺ من خلفه، وقال: يا محمد، أحسن في موالي، فأعرض عنه فكرر طلبه، فغضب رسول الله ﷺ وقال: ويحك أرسلني، قال: والله لا أرسلك حتى تحسن في مواليّ: أربعمائة حاسر وثلاثمائة دارع قد منعوني من الأحمر والأسود تحصدهم في غداة واحدة، إني والله امرؤ أخشى الدوائر، فقال ﷺ: خلوهم لعنهم الله ولعنه معهم، فأمر بهم أن يُجْلوا من المدينة بعد ثلاث مع ذراريهم تاركين أموالهم، فخرجوا إلى أذرعات بالشام فهلكوا بها. فنزل في ابن أبيّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٥١

فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ﴾ [المائدة:٥١-٥٢].

١١ - غزوة السويق: في (ذي الحجة ٢هـ)

نَذَرَ أبو سفيان بعد نكبة قريش أن لا يمسَّ رأسه ماءٌ من جنابة[١] حتى يغزو محمدًا ﷺ، فخرج في مائتي رجل حتى وصل المدينة، فضرب باب حُيَيِّ بن أخطَب اليهودي فأبى أن يفتح له، فانصرف إلى سلاّم بن مِشْكَمٍ سيد بني النضير في زمانه، وصاحب كنزهم[٢]؛ فأخبر أبا سفيان بأحوال المدينة، فبعث أبو سفيان رجالاً من أصحابه فحرقوا نخلاً، ووجدوا بها رجلاً من الأنصار وحليفًا له في حرث لهما فقتلوهما ثم انصرفوا راجعين، فعلم بهم النبي ﷺ فخرج في طلبهم، واستعمل على المدينة بشير بن عبدالمنذر، حتى بلغ "قرقرة الكُدر" ثم رجع وقد فاته أبو سفيان هاربًا ملقيًا جُربَ السويق[٣] يتخففون منها للنجاء. فسميت الغزوة بذلك؛ فقال المسلمون: يا رسول الله، أتطمع لنا أن تكون غزوة؟ قال: نعم[٤].

الدرس:

(١) كان الغسل من الجنابة معمولاً به في الجاهلية، كالحج والنكاح.

(٢) يراد بالكنز ما كانوا يجمعونه من مال بينهم، لنوائبهم وما يعرض لهم.

(٣) قمح أو شعير يقلى ثم يطحن فيؤكل ملتوتًا بلبن أو سمن أو عسل .

(٤) ابن هشام ٢/٢٤. والطبقات ٢/٣٠. والواقدي ١/١٨١.

سلام بن مشكم من رعايا الدولة الإسلامية، وقد ارتكب الخيانة العظمى باستضافته الغزاة وتجسس لصالح العدو، وعقوبة هذا المجرم الإعدام؛ فلا لوم على المسلمين أن يستأصلوا هؤلاء الخونة فيما بعد.

١٢ - غزوة بني سُلَيم بالكُدر: (سنة ٢ هـ) [١]:

لم يُقِم عليه السلام بالمدينة إلا سبع ليال حتى غزا بني سُليم فبلغ ماء من مياههم يقال له "الكُدْر" ناحية الحجاز؛ فأقام عليه ثلاث ليال، ثم رجع ولم يلق كيدًا، وقد ظفر من غنائمهم بخمسمائة بعير، وكان حامل لواءه علي عليه السلام، وأفدى لما رجع إلى المدينة جُل الأسارى من قريش. واستعمل على المدينة سباع بن عرفطة الغفاري، وقيل: ابن أم مكتوم.

١٣ - مقتل كعب بن الأشرف:

في ١٤ ربيع أول على رأس ٢٥ شهرًا هـ [٢]:

وسبب قتله أنه كان شاعرًا يهجو النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه ويحرض عليهم في شعره ويؤذيهم، ويتعرض في شعره لنسائهم، فلما كانت وقعة بدر كُبتَ وذل، وقال: بطن الأرض خير من ظهرها، فخرج حتى قدم مكة فبكى قتلى قريش وحرضهم بالشعر، فلما قدم المدينة وبلغ النبي صلى الله عليه وآله وسلم قدومه قال: اللهم اكفني ابن الأشرف بما شئت في إعلانه الشر وقوله الأشعار، ثم قال صلى الله عليه وآله وسلم: من لي بابن الأشرف فقد آذاني؟ فقال محمد بن مسلمة: أنا به يا رسول الله وأنا أقتله، قال: فافعل، فاجتمع محمد بن مسلمة ونفر من الأوس منهم: عبّاد ابن بشر، وأبو نائلة

---

(١) ذكر ابن هشام ٤٣/٢، وذكر الواقدي ١٨٢/٢. والطبقات ٣١/٢. والطبري ٤٨٤/٢ أنها في ١٥ محرم.

(٢) الطبقات ٣١/٢. والواقدي ١٨٤/١. وابن هشام ٥١/٢. والطبري ٤٨٧/٢.

سلكان بن سلامة، والحارث بن أوس، وأبو عبس ابن جبر، فقالوا: يا رسول الله: نحن نقتله، فأذنْ لنا أن نقول ما لا بد لنا منه، فأذن لهم.

ثم قدموا إلى عدو الله، فحادثه أبو نائلة قائلاً: إني قد جئتك لحاجة أريد ذكرها لك فاكتم عني، قال: أفعل، قال: كان قدوم هذا الرجل[1] علينا بلاء من البلاء، عادتنا به العرب، ورمتنا عن قوسٍ واحدة، وقطعت عنا السبل حتى ضاع العيال، وجهدت الأنفس، وأصبحنا في جُهْدٍ، وجهدَ عيالُنا، فقال كعب: أنا ابن الأشرف، أما والله لقد كنتُ أخبرك يا بن سلامةَ أن الأمر سيصير إلى ما أقول، فقال له سلكان: إني قد أردتُ أن تبيعَنا طعامًا ونَرهنَك ونوثقَ لك ونحسن في ذلك فقال: أترهنوني أبناءكم؟ قال: لقد أردتَ أن تفضحنا، إن معي أصحابًا لي على مثل رأيي، وقد أردت أن آتيك بهم فتبيعَهم وتحسن في ذلك ونَرْهنَك من الحلقة[2] ما فيه وفاء، وأراد سلكانُ أن لا ينكرَ السلاح إذا جاءوا بها قال: إن في الحلقة لَوفاءً. فرجع سِلكانُ إلى أصحابه فأخبرهم خبره وأمرهم أن يأخذوا السلاح، ثم ينطلقوا فيجتمعوا إليه، فاجتمعوا عند الرسول ﷺ.

قال ابن إسحاق: فمشى معهم رسولُ الله ﷺ إلى بَقيعِ الغَرقدِ ثم وجههم فقال: انطلقوا على اسمِ الله، اللهم أعنهم، ثم رجع رسول الله ﷺ إلى بيته.

وأقبلوا حتى انتهوا إلى حصنه، فهتف به أبو نائلة وكان كعب حديث عهد بعُرس، فوثب في ملحفته فأخذت امرأته بناحيتها، وقالت إنك امرؤ محارب، وإن أصحاب الحرب لا ينزلون في هذه الساعة، قال: إنه أبو نائلة، لو وجدني نائمًا لما أيقظني، فقالت: والله إني لأعرف في صوتِه الشرَّ. قال لها كعبٌ: لو يُدعَى الفتى لطعنة لأجاب، فنزل فتحدثوا ساعة، ثم قال: هل لك أن نَتَماشى إلى

(١) يعني رسول الله ﷺ يخادعه بذلك.

(٢) الدروع والسلاح عامة.

شِعبِ العَجُوز، فنتحدث به بقية ليلتنا هذه قال: إن شئتم، فخرجوا يتماشَون فمَشوا ساعة ثم إنَّ أبا نائلة أدخل يدَه في رأس كعب، ثم شم يده فقال: ما رأيت طيبًا أعطر منه، ثم مشى ساعة، ثم عاد لمثلها حتى اطمأن ثم مشى ساعة، ثم عاد لمثلها، فأخذ بفَوْدِ رأسه[1]، ثم قال: اضربوا عدو الله فضربوه، فاختلفت عليه أسيافهم فلم تغن شيئًا، ولصق بأبي نائلة.

قال محمد بن مَسلمة: فذكرتُ مِغْوَلاً (سكينًا) في سيفي حين رأيت أسيافَنا لا تُغني شيئًا فأخذتُه، وقد صاح عدوُّ الله صيحة لم يبق حولنَا حصنٌ إلا وقد أوقدتْ عليه نارٌ، قال: فوضعتُه في سرته ثم تحاملتُ عليه حتى بلغتُ عانَتَه فوقع عدوُّ الله. فجئنا رسول الله ﷺ آخر الليل وهو قائم يصلي فسلمنا عليه فخرج إلينا فأخبرناه بقتل عدوِّ الله. فأصبحنا وقد خافت يهود لوقعتِنا بعدو الله فليس بها يهوديٌّ إلا وهو يخافُ على نفسه.

١٤ – غزوة ذي أمَر أو أنمار: (في محرم ٣هـ)[2]:

بلغ النبي ﷺ أن جمعًا من بني ثعلبة ومحارب من غطفان تجمعوا بذي أمر يريدون الغارة على المدينة، فخرج إليهم في أربعمائة وخمسين من المهاجرين والأنصار، ولقيه رجل يقال له: جبار فأسلم وقال لرسول الله ﷺ: إنهم لن يلاقوك، ولو سمعوا بمجيئك لهربوا، ولكني سأدلك على عورتهم، لكن القوم أحسوا برسول الله ﷺ فهربوا في رؤوس الجبال.

---

(١) مقدم رأسه.

(٢) ابن هشام ٢/٤٦. وفي الطبقات ٢/٣٤ والواقدي ١/١٩٣: وقعت في ١٢ من ربيع الأول ٣هـ. ومغلطاي ٢٢٤. وفتح الباري ٧/٤٢٩.

وعسكر المسلمون على ماء يقال له: أمر، فأصابهم مطر، فنزع رسول الله ﷺ ثيابه ونشرها على شجرة؛ واستلقى منتظرًا جفافها، والمشركون يراقبونه، والمسلمون منشغلون بشئونهم، فتسلل من المشركين دعثور (وقيل اسمه غورث)، وهو سيد القوم وأشجعهم والـمُجَمِّعُ لهم، وفي يده سيف حتى قام على رأسه وقال: من يمنعك مني اليوم؟ قال: الله، فدفعه جبريل فوقع السيف من يده. فأخذه رسول الله ﷺ وقال: "من يمنعك مني"، قال: لا أحد، فعفى عنه وأسلم، وجعل يدعو قومه للإسلام[1].

غاب ﷺ عن المدينة ١١ أو ١٥ يومًا، وقيل: صفرًا كله. واستخلف عثمان بن عفان. ورجع و لم يلق كيدًا.

١٥ – غزوة الفُرُع من بُحران:

٦ جمادى الأولى لـ ٢٧ شهرًا هـ.

غزا رسول الله ﷺ يريد قريشًا وبني سُلَيم، ومعه ثلاثمائة،
واستخلف ابن أم مكتوم وكتم وجهته، حتى بلغ بَحْران، ناحية الفُرع على بعد ٣٢ فرسخًا من المدينة. فأقام بها شهر ربيع الآخر وجمادى الأولى، ثم رجع و لم يلق كيداً[2].

١٦ – سرية زيد بن حارثة إلي القرْدة[1] :ماء من مياه نجد.

---

(١) مسند أحمد ٥١٩٢. والحاكم في المستدرك ٢٩/٣ وصححه ووافقه الذهبي، وأسد الغابة ٢٠٠/٢ وفيها ودفعه جبريل. وفتح الباري ٤٢٧/٧. وسبل الهدى ٢٦١/٤. ووفاء الوفاء ٢٨٠/١. ومغلطاي ٢٢٤. والحلبية ٢١٢. ونور اليقين ١٣٢. وابن هشام ٤٤/٢. والطبقات ٣٠/٢.

(٢) ابن هشام ٤٦/٢، والطبقات:٥٣/٢، والواقدي ١٩٦/١.

غرة جمادى الآخرة لـ ٢٧ شهرًا هـ.

وكان من حديثها أن قريشًا خافوا طريقهم الذين كانوا يسلكون إلى الشام، حين كان من وقعة بدر ما كان، فسلكوا طريق العراق فخرج منهم تجار فيهم أبو سفيان، ومعه فضَّة كثيرة وهي عُظم تجارتهم، فعلم النبي ﷺ بخبر القافلة، وذلك أن نعيم ابن مسعود الأشجعي قدم المدينة، وهو على دين قومه، فنزل على كنانة بن أبي الحقيق فشرب معه، وشرب معهم سليط بن النعمان بن أسلم–ولم تكن الخمر قد حرمت – فذكر نعيم خروج القافلة فخرج سليط من ساعته فأبلغ النبي ﷺ؛ فبعث زيد بن حارثة في مائة راكب؛ فلقيهم على ذلك الماء، فأصاب تلك العير وما فيها وأسر (فرات بن حيان) وكان دليلهم فأسلم، وأفلت الرجال، فقدم بها على رسول الله ﷺ. وكان خُمُسُها عشرين ألف درهم[2].

أحداث أخرى في سنة ٢ هـ:

١ – بنى النبي ﷺ بعائشة رضي الله عنها في شوال.

٢–توفيت رقية رضي الله عنها بنت رسول الله ﷺ. وضرب ﷺ سهمًا لزوجها من غنائم بدر.

---

(١) والقردة:من أرض نجد بين الربذة والغمرة ناحية ذات عرق،الطبقات٢/٣٦. وقيل: بالفاء .

(٢) الطبقات ٢/٣٦، الواقدي ١/١٩٧. والطبري٢/٤٩٢. وابن هشام ٢/٥١. ومغلطاي٢٢٦.

٣- تزوج علي كرم الله وجهه بفاطمة عليها السلام في ذي الحجة. ٤-زِيْدَ في صلاة الحضر. ٥- فرض صيام رمضان. ٦-فرضت الزكاة ذات النُّصُب، وزكاة الفطر، وفيها صلى العيد وأمر بالأضحية.

غزوة أحد:

(السبت ٧ شوال ٣هـ - يناير ٦٢٥م)[1]:

وقعت المعركة جنوب المدينة جوار جبل أحد من الغرب، وسببها الثأر لقتلى بدر. والثأر طبيعة عربية راسخة؛ لذلك احتشدت قريش برئاسة أبي سفيان. وكانت عدهم ثلاثة آلاف مقاتل، فيهم سبعمائة دارع، ومئتا فرس، وثلاثة آلاف بعير، وخمس عشرة امرأة على رأسهن هند بنت عتبة. ومن الأموال ما يزيد على خمسة وعشرين ألف دينار من أرباح التجارة التي نجت يوم بدر وحدها ناهيك عن غيرها.

وقد كان وصل الخبر إلى النبي ﷺ بكتاب بعثه العباس بن عبدالمطلب رضي الله عنه.

فجمع النبي ﷺ أصحابه وتشاور معهم وقال: إني رأيت في منامي رؤيا: كأني في درع حصينة، ورأيت في سيفي ثَلْمًا، ورأيت بقرًا تذبح، ورأيت كأني مردف كبشًا، فقال الناس: يا رسول الله فما أوَّلتها؟ قال: أما الدرع فالمدينة، وأما الثلم

---

(١) الكامل ١٠٣/٢. والطبقات ٣٦/٢. والبداية والنهاية ١١/٤. والطبري ٤٩٩/٢. وابن هشام ٦٠/٢. وخليفة ٦٧. وسيد المرسلين ١٣٢/٢. وابن الوردي ١١٢/١. وسبل الهدى ٢٧١/٤. وهيكل ٢٧٧. ودلائل النبوة ٢٠١/٣. ومغلطاي ٢٣٠. والاكتفاء ٦٦٠/٢. والروض الأنف ١٥٨/٣. والبخاري ٤ كتاب المغازي ١٤٨٥. ومحمد رسول الله ص١٨٨.

فمصيبة في نفسي، وأما البقر فقتلى في أصحابي، وأما الكبش فكبش الكتيبة[1] يُقتَلُ إن شاء الله. وأشار عليهم أن يتحصنوا بالمدينة، وكان كارهًا للخروج. وعزز رأيه ابن أبي حين قال: أقم يا رسول الله بالمدينة، ولا تخرج فوالله ما خرجنا إلى عدو إلا أصاب منا، وما دخل علينا إلا أصبنا منه فَدَعْهُمْ فإن أقاموا فبشر محبس، وإن دخلوا قاتلهم الرجال في وجوههم، ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم. وكان هذا رأي الكبار من أهل المدينة.

لكن الفِتيان ومن أراد الله لهم الشهادة ممن لم يحضروا بدرًا كانوا متحمسين للخروج، وأيد حماسهم حمزة رضي الله عنه، وقالوا: يا رسول الله لا يرى عدونا أنا جَبُنَّا، وأبدوا حرصًا شديدًا على الخروج حتى قال الحمزة: يا رسول الله، والذي أنزل عليك الكتاب لا أطعم اليوم طعامًا حتى أجالدهم بسيفي خارج المدينة. وكان رحمه الله يوم الجمعة صائمًا ويوم السبت صائمًا فلاقاهم وهو صائم.

النبي ﷺ يحسم الأمر:

صلى النبي ﷺ بالناس العصر، وقد احتشدوا ولبسوا السلاح، فدخل بيته ولبس آلة حربه، والناس مصطفون ما بين حجرته ومنبره ينتظرون خروجه، فجاء سعد بن معاذ وأسيد بن حضير رضي الله عنهما فقالا: قد استكرهتم رسول الله على الخروج، والوحيُ ينزل عليه، فرُدُّوا الأمر إليه وافعلوا ما أمركم، وندموا جميعًا على ما صنعوا. ولما خرج رسول الله ﷺ لابسًا آلة حربه قالوا: ما كان لنا أن نخالفك فاصنع ما بدالك، فقال: قد دعوتكم إلى هذا فأبيتم، وما كان لنبي إذا لبس لأمَتَهُ أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين أعدائه، وحثهم على الجهاد والصبر.

---

(١) أي حامل راية المشركين ، وقد قتل عدد منهم بيد علي وشاركه حمزة.

فخرج النبي ﷺ في ألف مقاتل، وقيل: تسعمائة. فانخزل عبدالله ابن أبي في ثلاثمائة من أهل النفاق، وقال: عَلاَمَ نقتل أنفسنا؟ وتعلل بأن الرسول ﷺ ترك رأيه. فلم يبق مع النبي ﷺ إلا سبعمائة.

حاول عبدالله بن حرام والد جابر عبثًا أن يثني ابن أبي عن تراجعه، فنزل قول الله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ قَـٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُواْ ۖ قَالُواْ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لَّٱتَّبَعْنَـٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَـٰنِ﴾ [١٦٧: آل عمران].

وقال الأنصار يومَ أحد: يا رسول الله، ألا نستعينُ بحلفائنا من يهود؟ فقال: لا حاجة لنا فيهم.

وأطبق المشركون على المدينة من ناحية أحد، وأكلت إبلهم الأخضر واليابس، ولاحظ النبي ﷺ شجعان أصحابه يخطرون في سلاحهم كالفحول، يقومون بحراسة النبي متشوقين للخروج، وإن هي إلا إحدى الحسنيين: الظفر أو الشهادة كما قال مالك بن سنان والد أبي سعيد الخدري رضي الله عنهما.

الرسول يرسم خطة المعركة:

رسم النبي ﷺ خطة المعركة ببراعة فائقة؛ وكانت كالاتي:

١- جعل ﷺ جبل أحد وراء ظهره وهو مانع طبيعي يكفي لحراسته بضعة رجال يذبون المتسللين.

٢- انتدب خمسين راميًا، وأمَّر عليهم عبدالله بن جُبَير، وقال: "لا تبرحوا إن رأيتمونا ظهرنا عليهم فلا تبرحوا، وإن رأيتموهم ظهروا علينا فلا تعينونا"[١]؛

---

(١) البخاري رقم ٣٨١٧. .

هكذا شدد عليهم وهو يدرك أن حماية الظهر من عَدْوَةِ الخيل من أخطر المهام، والمباغتة من الخلف طعنة قاتلة لا تشفى؛ فكان موقع الرماة بمثابة صمام الأمان.

٣- عبأ أصحابه تعبئة محكمة، وحرّضهم ورغّبهم في القتال، وذكرهم بما لهم من الأجر، وبمنازل الشهداء؛ حتى أضحوا كالقنابل وشيكة الإنفجار، وقد وضع الأبطال علامات على رؤسهم مُعْلمين، وهي عادة للأبطال الكبار مثل: الحمزة وعلي والزبير وأبي دجانة ونحوهم.

ومن مظاهر التعبئة التي أتقن النبي ﷺ صنعها، أن أخذ سيفًا وهزه بيده وقال: من يأخذه بحقه، فقال أبو دجانة رضي الله عنه: أنا، وكان شجاعًا، فأخذ السيف ومشى مختالاً بين الصفوف، فقال الرسول ﷺ: "إن هذه لمشية يبغضها الله إلا في مثل هذا الموطن"[(١)].

(١) ابن هشام ٢/٦٦.

بداية المعركة:

دنا القوم بعضهم من بعض والرماة يرشقون خيل المشركين بالنبل فصاح طلحة بن أبي طلحة من يبارز، فبرز له علي فقتله، وهو كبش الكتيبة فكبر الرسول وكبر المسلمون، وهجموا على كتائب المشركين يضربوهم حتى تفككت صفوفهم.

ثم حمل اللواء عثمان بن أبي طلحة وهو يرتجز:

إن علــى أهــل اللــواء حقــا   أن تخضـــب الصـــعدة أو تنـــدقا

فشدخه علي بالسيف وأجهز عليه الحمزة.

ثم حمله أبو سعد بن أبي طلحة، فرماه سعد بن أبي وقاص في حنجرته فقتله، وقيل: قتله علي بن أبي طالب، ثم حمله مسافع بن طلحة ابن أبي طلحة، فرماه عاصم بن ثابت فقتله، ثم حمله الحارث بن طلحة ابن أبي طلحة فقتله الزبير، ثم حمله الجلاس بن طلحة بن أبي طلحة فقتله طلحة بن عبيدالله ، ثم حمله أرطأة بن شرحبيل فقتله علي بن أبي طالب، ثم حمله شريح بن قارظ فقتل. ثم حمله صؤاب غلامهم، فقتله علي، وقيل: سعد، وقيل: قزمان، وبعد أن قتل أصحاب الألوية اندفع المسلمون كحمم البركان فزلزلوا أركان المشركين الذين لم يستطيعوا الثبات أمام طلاب الشهادة، وولوا الأدبار، ولم ينفع ضرب الدفوف والتحريض الذي كانت تتغنى به هند وزميلاتها:

ضربا بني عبد الدارْ ❁ ضربا بكل بتار ❁ ضربًا حماة الأدبار

ولا نشيدهن:

إن تقبلوا نعانق ❁ ونفرش النمارق

أو تدبروا نفارق ❁ فراق غير وامق.

وولت هند مولولة لا يوجد مانع من أسرها.

عصيان الرماة لوصية رسول الله يغير سير المعركة:

فرح المسلمون بالنصر، واستهوتهم الغنائم المتناثرة في ساحة المعركة فتسابقوا لجمعها، وسرت العدوى إلى الرماة، وقالوا: الغنيمة الغنيمة[1]، وتخلوا عن موقعهم، وتناسوا وصية الرسول ﷺ، ولم يلتفتوا إلى تذكير أميرهم عبدالله بن جبير رضي الله عنه بتشديد رسول الله ﷺ على عدم تركهم موقعهم، فبقي في عشرة. وهنا بدأت الفاجعة؛ إذ لمح خالد بن الوليد قائد خيالة المشركين موقع الرماة شاغرًا فالتفَّ من وراء الجبل فسحق بقية الرماة، وباغت المسلمين من وراء ظهورهم، فاختلط الحابل بالنابل، وفرَّ المسلمون لا يلوون على شيء، وثبت مع النبي ﷺ عدد قليل.

فداء وحب وبطولات نادرة:

ثبات النبي ﷺ: هو المحور الذي أبقى على الدعوة الإسلامية مِنْ أن تذهب أدراج الرياح، ودفع عن المدينة والمسلمين خطر الاجتياح رغم ما تعرض له من خطر شديد. وسنسوق شيئًا من ذلك:

اشتد الهجوم على رسول الله وتفاقم الخطر فقد وصلت أسنة الكفار إليه، وشقت سيوفهم فمه الطاهر، فكُسِرَت رباعيته، وجَرَحَ شفتَه عتبةُ ابن أبي وقاص، وشَجّهُ عبدالله بن شهاب الزهري في جبهته، وجرح ابنُ قميئة وجنته، فانغرزت حلقة المغفر فيها، ووقع ﷺ في حفرة من الحفر التي عملها أبو عامر الفاسق ليقع فيها المسلمون وهم لا يعلمون[2]؛ فجحشت ركبتاه، فأخذ علي بن أبي طالب كرم الله وجهه بيده، ورفعه طلحة بن عبيدالله حتى استوى قائمًا.

---

(١) البخاري ٣٨١٧.

(٢) أبو عامر هو والد حنظلة غسيل الملائكة كما سيأتي.

وبادر مالك بن سنان فلحس الدم من وجهه وازدرده، وفي هذا الموقف الصعب ارتصَّ أهل البصائر من أصحابه وباعوا أرواحهم لله، وتواصوا ألا يُجْهَزَ على النبي وفيهم عين تطرف. ومن حسن الحظ أنه لم يقتل منهم أحد، وهم: علي، والزبير، وطلحة، وأبو طلحة، وأبو دجانة، والحباب بن المنذر، والحارث بن الصمة، وعاصم بن ثابت، وسهل بن حنيف، وسعد بن أبي وقاص، ونسيبة بنت كعب.

وقد اضطر النبي ﷺ للقتال بنفسه، فكان يَرْمِي ويُنَبِّل للرماة، وتصدى لأبي بن خلف الذي جاء صارخًا بجوار ابن قميئة: أين محمد لا نجوت إن نجا؟؛ فاستقبله مصعب يقي رسول الله، فقتله ابن قميئة. فاعترض له رجال من المدافعين عن رسول الله فقال رسول الله ﷺ: دعوه وخلوا طريقه، فلما دنا من رسول الله قال: يا كذاب أين تفر؟ فتناول رسول الله ﷺ حربة من الحارث بن الصمة وانتفض انتفاضة تطاير عنه أصحابه تطاير الذباب من ظهر البعير، ثم استقبل أبيًا فطعنه في عنقه طعنة تدحرج مرارًا على إثرها عن فرسه، وجعل يخور كالثور: قتلني محمد، فقال أصحابه: ذهب فؤادك ، إنما هو خدش، ولو كان هذا الذي بك بعين أحدنا ما ضره، فيقول: لا واللات والعزى لو كان هذا الذي بي بأهل ذي المجاز[1] لماتوا أجمعون، إنه قد كان قال لي بمكة: أنا أقتلك، فوالله لو بصق عليَّ لقتلني؛ فمات عدو الله بسرفٍ قرب مكة وهم عائدون.

الأبطال يرون النبي ﷺ في موقف حرج ، والإسلام يتعرض للخطر؛ فلم يبق في ساحة القتال من المسلمين إلا نفر قليل.

(١)كان ذو المجاز سوقًا من أسواق العرب، عن يمين الموقف بعرفة. معجم ما استعجم ١١٨٥.

فكانت المسئولية على هؤلاء ضخمة وثقيلة كالجبال، فتقاسموا الأدوار بينهم متناوبين على الكر والفر، فشكل سعد بن أبي وقاص وطلحة بن عبيدالله وأبو طلحة رضي الله عنهم درعًا بشريًا على الرسول وكانوا رماة، فكانوا يطلقون سهامهم في الحدقة وفوق القلب، وقد هوى سهم سعد على حنجرة واحد من حملة الألوية فدلع لسانه كالكلب؛ والنبي يقول له: ارم سعد فداك أبي وأمي. وكانت السهام تنثل بين يدي أبي طلحة وكان راميًا قوي الصوت يزأر كالأسد فقال الرسول ﷺ: صوت أبي طلحة في الجيش خير من أربعين رجلاً، وكان النبي ﷺ ينظر إلى موقع سهامه التي لا تخطئ، وأبو طلحة يقول: يا نبي الله بأبي أنت وأمي لا تنظر لئلا تصاب بسهام القوم، نحري دون نحرك. وشاركهم خمسة فتية من الأنصار سقطوا فداء لرسول الله، ولفظ أحدهم أنفاسه على فخذ الرسول.

ومن مشاهير الرماة سهل بن حنيف، وكان أيضًا بجوار النبي ينضح عنه بالنبل، ويضرب بالسيف لا يشبهه إلا سِمَاكُ بن خَرَشَةَ. وهما وأبو دجانة وعاصم بن ثابت من الأبطال الذين خُلِّدُوا في لوحة الشرف والمجد التي فاز بها الأنصار.

أما أم عمارة (نسيبة بنت كعب) فكانت قابضة على خنجرها معتجرة، تقول للنبي: لئن اقترب منك مشرك بعجت بطنه، فقال : لمقام نسيبة اليوم خير من مقام فلان وفلان. وهناك مواقف رُسمت على جبهة الزمان لأبطال عظام لابد لنا من ذكر أبرزهم بصورة خاصة.

١ - **حمزة بن عبدالمطلب**:

كان حمزة من الأبطال الذين لا يقف أمامهم أحد، يقاتل كالأسد لا يرى إلا أمامه، وظل يهدُّ الناس بسيفه. وقد كان في صفوف المشركين عبدٌ حبشي لجبير

بن مطعم يقال له: وحشي، يرمي بالحربة لا يخطئ، فقال له جبير: إن أنت قتلت حمزة عم محمد بعمي (طعيمة بن عدي قتله الحمزة يوم بدر) فأنت حر.

وحرَّضته هند أيضًا فترصد لحمزة؛ فبينما هو يقاتل كالجمل الأورق لا يرده شيء أطلق عليه العبد حربته فلم تخطئ بطنه، فسقط أبو الشهداء وسيدهم، وبادرت هندٌ زوج أبي سفيان كالضبع فبقرت بطنه، ولاكَتْ كبده، وجدعت أنفه وأذنيه، ومثلت به أقبح تمثيل، وقد سُمِّيتْ بآكلة الأكباد، إن هندًا جعلت أشلاء حمزة قلادة في عنقها، ومسكتين في عضدها، وقرطين في أذنيها. وقد مر الحُلَيسُ سيدُ الأحابيش وأبو سفيان يضرب شدق حمزة بزجِّ الرمح، ويقول: ذُقْ عُقَقُ. فقال الحليس: يا بني كنانة، هذا سيد قريش يصنع بابن عمه ما ترون لحمًا. فقال: ويحك اكتمها عليَّ فإنها كانت زلة.

وقف النبي ﷺ وهاله منظر عمه الحمزة وقال - وقلبه يتقطع ألـمًا وحسرة لفقدان عمه الحبيب، وما نال جسده الشريف من التشويه والتمزيق -: ما وقفت موقفًا قط أغيظ إليَّ من هذا، ولن أصاب بمثلك أبدا، ولئن أظهرني الله لأمثلنَّ بسبعين منهم[1]. لكن القرآن نزل على هذا القلب الكبير المحزون الذي يسع الدنيا بكل همومها فقال الله له:﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ﴾ [النحل: ١٢٦]. فعفى و لم يمثل بأحد، وقال: بل سأصبر.

ولما رأى المسلمون غيظ رسول الله على من فعل بعمه ما فعل، وحزنه الشديد عليه أقسموا جميعًا لئن ظفروا لينتقُمنَّ شرَّ انتقام لولا أن النبي ﷺ عفى.

---

(١) أسباب النزول ٢٣٩. وفي الواقدي ١/٢٩٠: لأمثلن بثلاثين.

٢ – مصعب بن عمير:

صرع بجوار حمزة سبعون شهيدًا، فيهم: سفير الإسلام الأول مصعب بن عمير، الذي كان أنضر وأعطر فتى بمكة، فباع لله نفسه وشبابه وقد رآه النبي يومًا داخلاً المسجد شاحب اللون، فرثى له، وقال: أما والله لقد رأيت مصعبًا وما بمكة أنضر منه، فصنع به إيمانه ما ترون[1]. بحثوا له عن كفن فلم يجدوا إلا شملته إن غطوا بها رأسه ظهرت رجلاه، وإن وضعوها على رجليه بدا رأسه، فأمرهم النبي ﷺ أن يغطوا رأسه وأن يغطوا رجليه بالشجر[2]، فيرحم الله مصعبًا.

٣ – حنظلة (غسيل الملائكة):

حنظلة بن أبي عامر الذي وَدَّعَ حبيبته ليلة عرسها، و لم يهنأ بعناقها وجمالها، و لم يجد فرصة ليغتسل من الجنابة؛ لأن هاتف الجهاد ألهاه عن ذلك فألقى بنفسه في ساحة الوغى يضرب بسيفه يمينًا وشمالاً مستعجلاً عناق الحور العين، وقد رفع هذا الشاب المغوار سيفه ليشدخ أبا سفيان، فعاجله شداد بن الأسود فصرعه، فقال أبو سفيان: حنظلة بحنظلة. ومن المفارقات أن والد حنظلة أبا عامر الفاسق من أخبث المعادين للإسلام، لم يطق البقاء في المدينة فذهب إلى مكة وقدم مع قريش وحفر الحفر في أحد ليقع فيها المسلمون، ولما فتحت مكة هرب إلى هرقل، فسبحان من يخرج الحي من الميت، وإكرامًا لحنظلة فقد غسلته الملائكة

(١) أسد الغابة ٥/١٧٦.

(٢)البخاري رقم ٣٨٢١.

فوق أطباق الجنة، ومناشف الحرير، إنه غسيل الملائكة ، وقد عَلِقَت امرأته ببطل مبارك هو : عبدالله بن حنظلة.

٤ – عبدالله بن جحش:

قد كان سأل الله أن يلقى رجلاً شديدًا بأسُه ليقتله ويجدع أنفه وأذنه، فإذا لقي الله وقال: يا عبدي فيم قُتلت وجُدعت أنفك وأذنك؟ فأقول: فيك وفي رسولك. فيقول الله: صدقت. وقد تقبل الله منه سؤاله، وقُتِلَ وجُدعَ ودفن مع خاله الحمزة في قبر واحد فهنيئًا لهما.

٥ – أبو دجانة:

هذا الفارس الأنصاري الذي لبس عمامة حمراء معلمًا بها، وقد عرف حين يلبسها أنه سيقاتل، وهو الذي أخذ السيف من رسول الله ﷺ بحقه، فسالت على ظباه من أعداء الله دماء غزيرة، وقد كان هذا البطل تارة يَنْحني على رسول الله ﷺ يرد عنه السهام بظهره، وتارة يقف بجوار علي في حومة الميدان، وقد أبلى رضي الله عنه بلاء حسنًا.

٦- علي بن أبي طالب عليه السلام:

كان على كاهله مهام كثيرة، فقد حمل اللواء بعد أن استشهد مصعب رضي الله عنه فوجد نفسه مسئولاً عن التصدي لكتائب المشركين المتجهة
صوب الرسول ﷺ، فاصطدم بكتيبة فيها عكرمة بن أبي جهل، فبدد شملها.
أما ابن إسحاق فقد قال: لما اشتد القتال يوم أحد جلس رسول الله ﷺ تحت راية الأنصار، وطلب من علي بن أبي طالب أن يقدم الراية، فتقدم علي فقال: أنا أبو القُصَم فناداه أبو سعد بن أبي طلحة، صاحب لواء المشركين: هل لك يا أبا القُصَم في البِراز من حاجة؟ قال: نعم. فبرزا بين الصفين فاختلفا ضربتين فضربه عليٌّ فصرعه، ثم انصرف عنه ولم يجهز عليه فقال له أصحابه: أفلا

أجهزت عليه؟ قال: إنه استقبلني بعورته فعطفتني عنه الرحم، وعرفت أن الله عزوجل قد قتله[1].

وما زالت الكتائب تزحف نحو النبي ﷺ وعلي يدافع في الخط الأمامي قريبًا منه؛ لأنه كرم الله وجهه لو ابتعد لفتح ثغرة إلى النبي لا يسدها غيره، فجعل النبي كلما رأى كتيبة مندفعة قال لعلي: احمل عليهم، وكأنه مدفع عملاق في يد الرسول تترك قذائفه خسائر فادحة؛ فمعظم قتلاه قادة الألوية وكباش القوم، وفرسانهم، كعمرو بن عبدالله الجمحي، وشيبة بن مالك أحد بني عامر بن لؤي، وطلحة بن أبي طلحة، وأرطأة بن شرحبيل، وغيرهم يتجاوزون العشرة.

قال الطبري: ولما قتل علي أصحاب الألوية قال جبريل: يا رسول الله إن هذه للمواساة، فقال ﷺ: إنه مني وأنا منه، فقال جبريل: وأنا منكما. قال: فسمعوا صوتًا: "لا سيف إلا ذو الفقار ولا فتى إلا علي"[2].

والتجأ رسول الله ﷺ إلى فم الشِّعب وخرج علي بن أبي طالب فملأ درقتَه[3] ماء من المهراس[4] فجاء به رسول الله ﷺ ليشرب منه،

---

(١) ابن هشام ٢/٧٤.

(٢) الطبري ٢/٥١٤. وابن هشام ٢/١٠٠. والأمير الصنعاني في الروضة الندية ٣٨، ٤٣. والكامل لابن الأثير ٢/١٠٧. وبحار الأنوار ٢٠/٥٤٩. وابن أبي الحديد ٤/٤٥٣. وقال: إن كلام جبريل موجود ببعض نسخ ابن إسحاق وبعضها خاليًا عنه.

(٣) الدرقة: ترس من جلود.

(٤) المهراس: ماء بأحد، أو حجر ينقر ويجعل إلى جانب البئر ويودع فيه الماء.

فوجد له ريحًا، فعافه فلم يشرب منه، وغسل عن وجهه الدم، وصب على رأسه وهو يقول: اشتد غضب الله على من أدمى وجه نبيِّه. وبعد قليل قال: اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون.

مواقف طريفة:

١- لما كان يوم أحد قال مخيريق: يا معشر يهود، والله لقد علمتم أن نصر محمد عليكم لحق. قالوا: إن اليوم يوم السبت. قال: لا سبتَ لكم فأخذ سيفه وعُدَّته، وقال: إن أصبتْ فمالي لمحمد يصنع فيه ما شاء، ثم غدا إلى رسول الله ﷺ فقاتل معه حتى قتل، فقال رسول الله ﷺ: **مخيريقُ خير يهود**[1].

٢- وكان أبو هريرة يقول: حدثوني عن رجل دخل الجنة لم يُصلّ قط، فإذا لم يعرفه الناس سألوه: من هو؟ فيقول: أصيرم بني عبدالأشهل: عمرو بن ثابت بن وقش، وكان يأبى الإسلام على قومه، فلما كان يوم أحد بدا له في الإسلام فأسلم، ثم أخذ سيفه فعدا حتى دخل في عرض الناس فقاتل حتى أثبتته الجراحة[2] فبينا رجالٌ من بني عبدالأشهل يلتمسون قتلاهم في المعركة إذا هم به، فقالوا: والله إن هذا للأصيرم، ما جاء به؟ لقد تركناه وإنه لمنكر لهذا الحديث فاسألوه: ماجاء به؟ فقالوا: ما جاء بك يا عمرو؟ أحَدَبٌ على قومِك أم رغبة في الإسلام؟ قال: بل رغبة في الإسلام، آمنت بالله وبرسوله وأسلمت، ثم أخذت سيفي فغدوت على رسول الله ثم قاتلت حتى أصابني ما أصابني. ثم لم يلبث أن مات في أيديهم، فذكروه لرسول الله ﷺ فقال: إنه من أهل الجنة.

---

(١) ابن هشام ٢/٨٨.

(٢) أثبتته: أثقلته فلم يتحرك.

٣ –كان عمرو بن الجموح شديدَ العرج، وكان له بنون أربعة كالأسود، يشهدون مع رسول الله ﷺ المشاهد، فلما كان يوم أحد أرادوا حبسه وقالوا له: إن الله عزوجل قد عذرك، فأتى رسول الله ﷺ فقال: إنّ بنيّ يريدون أن يحبسوني عن هذا الوجه والخروج معك فيه، فوالله إني لأرجو أن أطأ بعرجتي هذه في الجنة. فقال رسول الله ﷺ: أما أنت فقد عذرك الله فلا جهاد عليك، وقال لبنيه: ما عليكم ألا تمنعوه، لعل الله أن يرزقه الشهادة، فخرج معه فقتل[١] .

رجوع أبي سفيان بالناس:

يتساءل المرؤ عن سبب رجوع المشركين وعدم مواصلة استئصال المسلمين والفرصة سانحة بعد هزيمة المسلمين؟ فيأتي الجواب في ثبات رسول الله وصلابة المدافعين؛ فإن ذلك رسالة درسها أبو سفيان جيدًا ، ثم إنَّ الفارين سيعودون، والمدينة قريبة، وجرح المسلمين غائر، وقتالُ الجريح مر المذاق، ثم إن المشركين أدركوا ثأرهم كما قال شاعرهم ابن الزِّبعرى:

قد قتلنا النصف من ساداتهم   وعدلنا ميل بدر فاعتدل

لذلك اكتفى بالنصر الذي أحرزه خشية العواقب، فصرخ بأعلى صوته: إن الحربَ سجالِ[٢] يوم بيوم، أعْلُ هُبل[٣]: أي أظهر دينكَ. فقال رسول الله ﷺ لعمر: أجبه: الله أعلى وأجل لا سَواء[٤]، قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار، فلما

---

(١) ابن هشام ٢/٩٠ .

(٢) أي مداولة، مرة لهذا الفريق ومرة لذاك.

(٣) هبل: اسم صنم.

(٤) أي لا نحن سواء، لسنا مستوين.

أجاب عمر أبا سفيان قال له أبو سفيان: هلم إلي يا عمر، فقال رسول الله ﷺ لعمر: انظر ما شأنه؟ فجاءه فقال له: أنشدك الله يا عمر أقتلنا محمدًا؟ قال عمر: اللهم لا، وإنه ليسمع كلامك الآن، قال: أنت أصدق عندي من ابنِ قَمِئَةَ وأبر، لقول ابن قَمئة لهم: إني قد قتلت محمدًا.

ثم نادى أبو سفيان: إنه قد كان في قتلاكم مُثَل[1] والله ما رضيتُ وما سخطتُ، وما نهيتُ وما أمرتُ.

ثم نادى: إن موعدكم بدر للعام القابل، فقال رسول الله ﷺ لرجل من أصحابه، قل: نعم، هو بيننا وبينكم موعد.

ثم بعث رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب فقال: اخرج في آثار القوم فانظر ماذا يصنعون وما يريدون، فإن كانوا قد جَنَّبُوا الخيل[2] وامتطوا الإبل فإنهم يريدون مكة، وإن ركبوا الخيل وساقوا الإبل فإنهم يريدون المدينة، والذي نفسي بيده لئن أرادوها لأسيرن إليهم فيها ثم لأناجزنهم، قال علي: فخرجت في آثارهم أنظر ماذا يصنعون؛ فجنبوا الخيل، وامتطوا الإبل، وتوجهوا إلى مكة[3].

حصاد المعركة:

فرغ الناس لقتلاهم فقال رسول الله ﷺ: من رجل ينظر لي ما فعل سعد بن الربيع أفي الأحياء هو أم في الأموات؟ فقال رجل من الأنصار[4]: أنا أنظر لك يا رسول الله ما فعل سعد، فنظر فوجده جريحًا في القتلى وبه رَمَق. فقال له: إن

---

(١) المثل: التمثيل بالقتيل.

(٢) جنبوا الخيل: قادوها و لم يركبوها.

(٣) ابن هشام ٢/٩٤.

(٤) هو محمد بن مسلمة الأنصاري.

رسول الله ﷺ أمرني أن أنظر أفي الأحياء أنت أم الأموات؟ قال: أنا في الأموات فأبلغ رسول الله ﷺ عني السلام، وقل له : إن سعد بن الربيع يقول لك : جزاك الله عنا خير ما جزى نبيًا عن أمته، وأبلغ قومك عني السلام وقل لهم: إن سعد بن الربيع يقول لكم: إنه لا عذر لكم عند الله إن خُلِص إلى نبيكم ﷺ ومنكم عين تطرف[1]. قال: ثم لم أبرح حتى مات، فجئتُ رسول الله ﷺ فأخبرتُه خبره. فقال النبي ﷺ: "**يرحمه الله لقد نصح حيًا وميتًا**"[2].

وكان قد احتمل ناس من المسلمين قتلاهم إلى المدينة فدفنوهم بها ثم نهى رسول الله ﷺ عن ذلك وقال: ادفنوهم حيث صرعوا.

عن عبدالله بن ثعلبة أن رسول الله ﷺ لما أشرف على قتلى أحد قال: أنا شهيد على هؤلاء أنه ما من جريح يُجرَح في الله إلا ويبعثه الله يوم القيامة يدمَى جرحه. اللونُ لونُ دم والريح ريح مسك، انظروا أكثر هؤلاء جمعًا للقرآن فاجعلوه أمامَ أصحابه في القبر. وكان يدفنون الاثنين والثلاثة في القبر الواحد.

وكان عدد قتلى المسلمين سبعين وقيل: خمسة وستين. أربعة من المهاجرين: حمزة وعبدالله بن جحش ومصعب بن عمير وشماس بن عثمان بن الشريد رضي الله عنهم، وكان عدد قتلى المشركين اثنين وعشرين قتيلاً.

ثم انصرف ﷺ إلى المدينة فلقيته حمنة بنت جحش فنعي إليها أخوها عبدالله فاسترجعت واستغفرت له، ثم نعي لها خالها حمزة فاسترجعت واستغفرت له، ثم نعي لها زوجها مصعب بن عمير فصاحت وولولت، فقال رسول الله ﷺ: إن

---

(١) تطرف: تضرب بجفنها الأعلى على الأسفل.

(٢) أسد الغابة ٢/٤٣٣.

زوج المرأة منها لَبِمكان؛ لِمَا رأى من تثبتها عند أخيها وخالها وصياحها على زوجها.

ومرَّ رسول الله ﷺ بدار من دور الأنصار من بني عبدالأشهل وظَفَر فسمع البكاء والنوائح على قتلاهم فذرفت عيناه، ثم قال: "ولكن حمزة لا بواكي له". فلما رجع سعد بن معاذ وأسيد بن حضير رضي الله عنهما إلى دار بني عبدالأشهل أمروا نساءهم أن يتحزمن ثم يذهبن فيبكين على عم رسول الله ﷺ، ولما سمع ﷺ بكاءهن على حمزة خرج عليهن وهن على باب مسجده يبكين عليه، فقال: ارجعن يرحمكن الله، فقد آسيتُن بأنفسكن[1].

حبٌ خالدٌ:

ومر رسول الله ﷺ بامرأة من بني دينار وقد أصيب زوجُها وأخوها وأبوها مع رسول الله ﷺ بأحد، فلما نُعوا لها قالت: فما فعل رسول الله ﷺ؟ قالوا: هو بحمد الله كما تحبين، قالت: **أروني حتى أنظرَ إليه**، فأشير لها إليه حتى إذا رأته قالت: **كل مصيبة بعدك جَلَل**، تريد صغيرة.

فلما انتهى رسول الله ﷺ إلى أهله ناولَ ابنتَه فاطمةَ سيفه فقال: اغسلي عن هذا دمَه يا بنية، فوالله لقد صدقني اليوم، وناولها علي بن أبي طالب سيفه فقال: وهذا أيضًا فاغسلي عنه دمه فوالله لقد صدقني اليوم، فقال رسول الله ﷺ مشيدًا بموقف علي وبرجال معه: لئن كنت صدقتَ القتال لقد صدق معك سهلُ بن حنيف وأبو دُجانة.

فأنشد علي حين ناول فاطمة السيف[2] :

---

(١) آسيته: عزيته وعاونته. والمؤاساة: التعزية والمعاونة.

(٢) المستدرك ٢٤/٣. والطبري ٥٣٥/٢.

أفــاطمَ هــاك السـيفَ غـيرَ ذمـيم   فلســــت برِعْديــــدٍ ولا بلُئـــيم
لعمري لقد أعذرت في نصر أحمد   ومرضـــاة رب بالعبـــاد رحـــيم

العبر والدروس:

١- شئوم المعصية هو الذي سبب النكبة، وعصيان الرماة غفر الله لهم كاد أن يقوض ما بناه الرسول، ويمسح نصر بدر، ولحق بالنبي من الألم ما لا تقوم به الجبال؛ إذ خسر سبعين شهيدًا من خيرة أصحابه، على رأسهم عمه الحمزة، ولم يَسْلَمِ النبيُّ نفسه من الجراح.

٢- المسلمون هم المؤهلون للدفاع عن عقيدتهم؛ لذلك امتنع عن الاستنصار باليهود ولولا أن المنافقين اعتصموا بالإسلام ما قبلهم النبي ﷺ في غزوة قط، لكن عظمة الإسلام في العمل بالظاهر غطت سوأتهم.

٣- الأزمات تفرز الرجال، وتمحص العقائد الراسخة، فقد صرخ صارخ أن محمدًا قد قتل، وأمام هذه الفاجعة برز بين القلة الباقية حول النبي ﷺ من يقول [أنس بن النضر]: لئن كان قد قتل فإن الله حي لا يموت، اللهم إني أبرأ إليك من هؤلاء وهؤلاء وأشار إلى الفارين والمشركين، وغاص بسيفه حتى قتل، ووجد في بعض الشهداء أكثر من سبعين ضربة وطعنة ، فما عرفته أخته إلا ببنانه.

٤ -كانت مصيبةُ أحُدٍ ضارةً نافعةً فهي ابتلاء وتمحيص لئلا يركن المسلمون إلى أن النصر حليفهم والملائكة معهم؛ فتفتر عزائمهم، فأراد الله سبحانه أن يعيشوا السراء والضراء، وأن لا يفرطوا في تعاليم الله ورسوله والنواميس الكونية.

علينـــا ويـــوم لنـــا   ويـــوم نُسَـــآء ويـــوم نُسَـــر

٥- علمنا النبي ﷺ قوة التحمل، وصلابة الإرادة، ومواجهة الصعاب، واستئناف السير، وعدم الاستسلام؛ فلكل ليل صبح، ولكل طريق نهاية، وهو ما فعله ﷺ بعد أحد.

٦- من الأحكام الفقهية: أن صلاة الجنازة تكفي لجماعة، ويندب أن يقدم من جهة الإمام الأفضل فالأفضل[١]، حيث قدم النبي الحمزة، ثم الذي يليه. ولا يغسل الشهيد، ويكفن بما قتل فيه، ما عدا آلة الحرب.

ويجوز دفن جماعة في قبر ، ويقدم إلى القبلة أفضلهم[٢].

٧- يندب صنع الطعام لأهل الميت، لقول النبي: "**اصنعوا لآل جعفر طعامًا**"[٣]، وليس كما يُصنع اليوم؛ إذ يقوم المصابون وعيونهم تقطر من الدمع بإطعام غير المصابين.

٨- قال ابن إسحاق: كان يوم أحد يوم بلاء ومصيبة وتمحيص، اختبر الله به المؤمنين وامتحن به المنافقين، ممن كان يظهر الإيمان بلسانه، وهو مستخف بالكفر في قلبه ويومًا أكرم الله فيه من أراد كرامته بالشهادة من أهل ولايته.

١٨ - غزوة حمراء الأسد[١]: (الأحد ١٦ شوال على رأس ٣٢ شهرًا هـ - موضع على ثمانية أميال من المدينة):

---

(١) شرح الأزهار ٤٣٦/١.

(٢) شرح الأزهار ٤٤٠/١. ومعرفة السنن للبيهقي ١٦٢/٣.

(٣) الترمذي ٣٢٣/٣ رقم ٩٩٨. وسنن أبي داود ٤٩٩/٣ رقم ٣١٣٢.

بات النبي ﷺ بعد أحد في بيته وباتت وجوه الأنصار على بابه تحرسه، ولما صلى الفجر أسرَّ إليه رجل أنه سمع قريشًا تتهامس بالرجوع لاستئصال المسلمين، فنادى المسلمين أن يخرجوا في طلب العدو، وأن لا يخرج إلا من شهد أحُدًا ما عدا جابر بن عبدالله فقال: يا رسول الله، إن أبي كان خلفني على سبع أخوات، وقال: إنه لا ينبغي لي ولا لك أن نترك هؤلاء النسوة لا رجل فيهن، ولا أوثرك بالجهاد مع رسول الله ﷺ على نفسي، فتخلفتُ عليهن. فأذن له رسول الله ﷺ فخرج معه.

أراد النبي ﷺ ببعد نظره وثاقب رأيه أن يستعيد شيئًا من هيبة المسلمين التي اهتزت، والمعنويات التي انهارت، ثم إنه يريد أن يصنع شيئًا يخفف من شماتة المنافقين واليهود، وليوجه رسالة إلى قريش بأن المسلمين ما زالوا أقوياء، ويغلب على ظني أنه كان سيخرج إلى حمراء الأسد ولو لم يبلغه أن قريشًا تنوي أن تعود؛ لأنه ﷺ يدرك حجم النكبة التي لحقت بهيبته ومركزه القوي، ولا بد من محاولة محو آثارها بأي وسيلة.

فخرج، واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم، وبعث ﷺ من أسلم طليعة في آثار القوم: سليطا ونعمان بني سفيان بن طلق بن عوف ومعهما ثالث، فلحق اثنان منهم بالقوم بحمراء الأسد، وللقوم زجل وهم يأتمرون بالرجوع، وصفوان بن أمية ينهاهم عن ذلك، فبصروا بالرجلين فعطفوا عليهما فقتلوهما، ومضوا ومضى رسول الله ﷺ بأصحابه حتى عسكر بحمراء الأسد، فدفن الرجلين في قبر واحد وهما القرينان، فأقام بحمراء الأسد ثلاثة أيام يوقد النيران، وفي هذه

---

(١) ابن هشام ١٠١/٢. الطبقات ١٤٨/٢. والواقدي ٣٣٤/١. والطبري ٥٣٤/٢. والسبل ٤٣٨/٤.

الأثناء مر به مَعبَد الخُزَاعي وهو مشرك، وكانت خزاعة مُسلمهم ومشركهم يحبون رسول الله ولا يخفون عنه شيئًا يحدث بتهامة، فقال: يا محمد لقد عز علينا ما أصابك، ثم ودعه ومضى حتى لقي أبا سفيان وقريشًا بالرُّوحاء[1]، وهم يقولون: لا محمدًا أصبتم، ولا الكواعب أردفتم، فبئس ما صنعتم، وقد أجمعوا الرجعة.

فلما رأى أبو سفيان معْبدًا قال: ما وراءك يا معبد؟ قال: محمد قد خرج في أصحابه يطلبُكم في جمع لم أر مثله قط، يتحرقون عليكم بمثل النيران[2]، قد اجتمع معه من كان تخلف عنه في يومكم وندموا على ما صنعوا. فيهم من الحنق[3] عليكم شيء لم أر مثله قط، وتعاهدوا أن لا يرجعوا حتى يلحقوكم ويثأروا منكم، قال: ويحك ما تقول ؟ قال: والله ما أراك ترتحل حتى ترى نواصي الخيل، قال: فوالله لقد أجمعنا الكرة عليهم لنستأصل بقيتهم، قال: فإني أنهاك عن ذلك، فوالله لقد حملني ما رأيت على أن قلت فيهم أبياتا من شعر، قال: وما قلت؟ قال: قلت:

كادت تُهَدُّ من الأصوات راحلتي	إذ سالت الأرض بالجرد الأبابيل[4]
تعــدو بأسْــدٍ كــرام لا تنابلــة	عنــد اللقــاء ولا ميــلٍ معازيــل[1]
ويــل ابــن حــرب مــن لقــائكم	إذا تغطمطــت البطحــاء بالجيــل[2]

(١) الروحاء: قرية لمزينة على ليلتين من المدينة.

(٢) التحرق: الغيظ.

(٣) الحنق: شدة الغيظ.

(٤) تهد: تسقط لهول ما رأت. والجرد: جمع أجرد، وهو الفرس القصير الشعر. الأبابيل: الجماعات.

فثنى ذلك أبا سفيان ومن معه. وكان رأي صفوان بن أمية أن يكتفوا بالنصر الذي حققوه.

ومر به ركب من عبدالقيس فقال: أين تريدون؟ قالوا: نريد المدينة. قال: ولِمَ؟ قالوا: نريد الميرة[3]، قال: فهل أنتم مبلغون عني محمدًا رسالة أرسلكم بها إليه، وأحمل لكم هذه غدًا زبيبًا بعكاظ إذا وافيتموها؟ قالوا: نعم، قال: فإذا وافيتموه فأخبروه أنا قد أجمعنا السير إليه وإلى أصحابه لنستأصل بقيتَهم، فمر الركب برسول الله ﷺ وهو بحمراء الأسد فأخبروه بالذي قال أبو سفيان، فقال:﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣][4].

الدرس والعبرة:

١-هذه الغزوة تبرز حنكة القائد، والدهاء الذي يجب أن يستخدمه، وقد لاحظنا كيف قام الرسول ﷺ بمناورة بارعة، واستخدم سلاح الحرب النفسية، فقد شحذ لسان معبد الخزاعي الذي قيل: إنه أسلم[5] وأمره أن يكتم

---

(١) تردي: تسرع. التنابلة: القصار. الأميل: الذي لا يثبت على السرج. المعزال: الذي لا سلاح معه.

(٢) تغطمطت: اهتزت. الجيل: الصنف من الناس.

(٣) الميرة: الطعام يجلب من بلد إلى آخر.

(٤) قيل: إن هذه الآية نزلت في هذه الغزوة، وقال مجاهد وعكرمة: نزلت الآية وما قبلها في غزوة بدر الصغرى. ينظر مجمع البيان ١/٤٤٩. والسبل ٤/٤٤٤.

(٥) زاد المعاد ٢/١٠٨.

إسلامه، وعلمه قبل أن يودعه كيف يخذل أبا سفيان، وقال لأبي سفيان ذلك الكلام الذي أصابه بالهزيمة النفسية وهو لا يعلم بإسلامه، وأبو سفيان من الدهاة، ولعله اكتشف بعد فوات الأوان أن محمدًا ﷺ قد تفوق عليه في حرب المناورات، فحاول يائسًا أن يبلغ محمدًا ﷺ رسالة بأنه عائد، لكن الله كفى المؤمنين القتال .

٢–أظهر المسلمون الذين اشتركوا في معركة أحد وذهبوا لحمراء الأسد صبرًا وجلدًا يعجز عنه الوصف، إذ كان الأخ يحمل أخاه على ظهره، والصاحب يضمد جراح صاحبه غير مكترثين بجراحهم النازفة، وعظامهم المهشمة ما دام ذلك في سبيل الله، وطاعة رسول الله وما أجدرهم بقول الله: ﴿ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡقَرۡحُۚ لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ مِنۡهُمۡ وَٱتَّقَوۡاْ أَجۡرٌ عَظِيمٌ﴾ [١٧٢: آل عمران].

٣– كان النبي ﷺ حكيمًا حين منع المنافقين من شرف المشاركة في هذه الغزوة؛ لئلا يدّعوا شرفًا على حساب الشرفاء، وليعرفوا أن النبي والمؤمنين قادرون على تجاوز المصاعب .

٤–ومن المواقف الحازمة التي يتطلبها موقف المسلمين الحرج: إعدام أبا عَزَّةَ الجُمَحيِّ الذي قبض عليه في الطريق وقد سبق للنبي ﷺ أنْ مَنَّ عليه حين أسرَ ببدر[1]، فقال: يا رسول الله أقِلني، فقال رسول الله ﷺ: والله لا تمسح

---

(١) ومدح الرسول ﷺ وعاهده أن لا يعين عليه ، ثم لـمَّا كان يوم أحد دعاه صفوان بن أمية للخروج فقال: إن محمدًا قد منَّ عليَّ وعاهدته أن لا أعين عليه، فلم يزل به يطمعه حتى خرج وسار في بني كنانة واشترك مع عمرو بن العاص في تحريض القبائل ونظم شعر يحرض به على قتال المسلمين.

عارضيك بمكة بعدها وتقول: خدعت محمدًا مرتين. اضرب عنقه يا زبير. فضرب عنقه[1].

وألقي القبض على جاسوس لقريش هو معاوية بن المغيرة بن أبي العاص لجأ إلى عثمان بن عفان، فاستأمن له رسولَ الله فأمّنه على أنه إن وجد بعد ثلاث قتل، فأقام بعدها متواريًا يجمع الأخبار، لكن النبي ﷺ ليس غافلاً فكانت عيونه مفتوحة تلتقط له كل شاردة وواردة ، فبعث زيد ابن حارثة وعمار بن ياسر، وقال: ستجدانه في موضع كذا، فوجداه فقتلاه.

٥- عدم التهاون في شأن المنافقين؛ فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة، وكان عبدالله بن أَبَي له مقام يقومه كل جمعة لا يُنكَرُ شرف له في نفسه وفي قومه وكان فيهم شريفًا، إذا جلس رسول الله ﷺ يوم الجمعة وهو يخطب الناس، قام فقال: "أيها الناس هذا رسول الله ﷺ بين أظهركم، أكرمكم الله وأعزكم به؛ فانصرُوه وعزِّروه[2]، واسمعوا له وأطيعوا" ثم يجلس، حتى إذا صنع يوم أحد ما صنعَ ورجع بالناس قام يفعل ذلك كما كان يفعله، فأخذ المسلمون بثيابه من نواحيه وقالوا: اجلس يا عدوَّ الله لست لذلك بأهل وقد صنعتَ ما صنعت؛ فخرج يتخطى رقاب الناس وهو يقول: والله لكأنما قلت بُجرًا[3] أن قمت أشدد أمره. فلقيه رجلٌ من الأنصار بباب المسجد فقال: مالك ويلك، قال: قمت أشدد أمره فوثب عليَّ رجالٌ من أصحابه يجذبونني ويعنفونني لكأنما قلت بُجْرًا

---

(١) وقيل: قال له: إن المؤمن لا يلدغ من جحر مرتين! اضرب عنقه يا عاصم بن ثابت فضرب عنقه.

(٢) التعزير: النصر.

(٣) البُجر: الشر والأمر العظيم.

أن قمت أشدد أمره. قال: ويلك ارجع يستغفر لك رسولُ الله ﷺ. قال: والله ما أبتغي أن يستغفر لي.

١٩ - سرية أبي سلمة بن عبد الأسد المخزومي[1]:

في محرم على رأس ٣٥ شهرًا هـ

ما زالت نشوة قريش بنصرها يوم أحد تلقي بظلالها على الجزيرة، وجرّأت أعراب البادية: طليحة وسلمة ابني خويلد على تحريض بني أسد وحلفائهم للهجوم على المدينة، فجاء رجل من بني أسد كان في زيارة رحم له في المدينة، فأخبر النبي ﷺ بالأمر، فكافأه على نصيحته.

وبعث النبي ﷺ أبا سلمة في مائة وخمسين وأمره أن يسير ليلاً ويكمن نهارًا؛ ليباغت العدو على غِرة، ونفَّذ ما أمره به فأحاط بهم في غبش الصبح فولوا الأدبار، فساق المسلمون ما غنموه ورجعوا ظافرين. واستعاد المسلمون شيئًا من هيبتهم، وعلى إثر ذلك توفي أبو سلمة فقد كان جرح بأحُد ولم يكن شفي فنغر جرحه فمات لثلاث بقين من جمادى الأولى. ولعل في اختياره - رغم جرحه - كفاءة وبراعة لوحظت فيه فكان مناسبًا لتنفيذ المهمة، ولا يبعد - وأبو سلمة من المسلمين الأول - أن يكون أبدى رغبته في قيادة هذه السرية طالبًا الشهادة، وهذا لا يستبعد من هؤلاء الرجال الذين كانت الشهادة أعذب لديهم من الماء البارد في اليوم الصائف.

الزواج بأم سلمة رضي الله عنها:

---

(١) الواقدي ١/٣٤٠، الطبقات ٢/٥٠، عيون الأثر ٢/٥٩ عن ابن سعد.وابن كثير في البداية ٤/٧٠، ومغلطاي ٢٣٨ .

وقد أكرم النبي أسرة أبي سلمة بأن تزوج أم سلمة بعد تمام العدة في ليال بقين لأربعة أشهر وعشر، وضم أولادها إليه، فدخلت في عالم الخلود من بابه العريض، وصارت أم سلمة رضي الله عنها غُرّةً في نساء النبي ﷺ.

٢٠ – سرية عبدالله بن أنيس الجهني: [١]

(٥ محرم ل– ٣٥ شهرًا هـ)

بلغ النبي ﷺ أن سفيان بن خالد الهذلي يحشد الجموع بنخلة من ناحية نجد، فبعث عبدالله بن أنيس وكان جريئًا ليستطلع الخبر، وأوعز إليه أن يقتله إن سنحت له فرصة، فلقي سفيان فأوهمه أنه جاء لينصره على محمد، وخدَّره بحديث ساحر، فلما خلى به أجهز عليه .

٢١ – يوم الرجيع:

(صفر على رأس ٣٦ شهرًا هـ ٦٣٥ م):

لما قُتِلَ سفيان الهذلي مشى قومه إلى قبائل عُضَل والقارة وبذلوا لهم مالاً على أن يذهبوا إلى رسول الله؛ لاستدراج نفر من أصحابه للثأر منهم بصاحبهم؛ فطاوعوهم ووفد على رسول الله ﷺ رهطٌ من عُضَل والقَارَة[٢]، فقالوا: إن فينا إسلامًا فابعث معنا من يفقهنا في الدين.

وكان النبي ﷺ يبعث أصحابه لهذه المهمات المقدسة، فبعث مرثَد بن أبي مرثد الغنوي، وخالد بن البُكَير الليثي، وعاصم بن ثابت ابن أبي الأقلح، وخُبيب بن

---

(١) طبقات ابن سعد ٢/٥٠، مغلطاي ٢٣٩ . وابن هشام ٢/٦١٩.

(٢) قبيلتان من الهون بن خزيمة بن مدركة.

عَدِي، وزيد بن الدِّثِنّة، وعبدالله بن طارق. وأمّر عليهم مرثَدًا، وقيل: عاصمًا. فلما بلغوا ماءً لهذيل يقال له: الرجيع غدر بهم بنو لحيان من هذيل[(١)].

وقيل في سبب الغزوة: إن الرسول بعثهم عيونًا إلى مكة.

روى البخاري: أنه بعث سرية عينًا، وأمر عليهم عاصم بن ثابت، فانطلقوا حتى إذا كان بين عسفان ومكة ذُكِرُوا لحي من هذيل يقال لهم: بنو لحيان، فتبعوهم بقريب من مائة رام ، فاقتصوا آثارهم حتى أتوا منزلا نزلوه فوجدوا فيه نوى تمر تزودوه من المدينة، فقالوا: هذا تمر يثرب، فتبعوا آثارهم حتى لحقوهم، فلما انتهى عاصمٌ وأصحابه لجؤوا إلى فَدْفَدٍ[(٢)]، وجاء القوم فأحاطوا بهم، فقالوا: لكم العهد والميثاق إن نزلتم إلينا أن لا نقتل منكم رجلاً، فقال عاصم: أما أنا فلا أنزل في ذمة كافر، اللهم أخبر عنا نبيك،فرموهم حتى قتلوا عاصمًا في سبعة نفر بالنبل، وبقي خُبيب وزيد ورجل آخر، فأعطوهم العهد والميثاق، فلما أعطوهم العهد والميثاق نزلوا إليهم، فلما استمكنوا منهم حلوا أوتار قسيهم فربطوهم بها، فقال الرجل الثالث الذي معهما: هذا أول الغدر، فأبى أن يصحبهم فجَّرَرُوه وعالجوه على أن يصحبهم فلم يفعل فقتلوه، وانطلقوا بخبيب وزيد حتى باعوهما بمكة، فاشترى خبيبًا بنو الحارث بن عامر ابن نوفل، وكان خبيب هو قتل الحارث يوم بدر، فمكث عندهم أسيرًا، حتى إذا أجمعوا على قتله استعار مُوسىً من بعض بنات الحارث ليستحد بها فأعارته، قالت: فغفلتُ عن صبي لي، فدرج

---

(١) ابن هشام ١٦٩/٢، سيرة ابن كثير ١٢٣/٣، الطبقات ٥٥/٢، البداية ٧٣/٤ .

(٢) قيل: الموضع المرتفع، وقيل: الأرض المستوية، وقيل: الرابة المشرفة. فتح الباري ٣٨١/٧.

إليه حتى أتاه فوضعه على فخذه، فلما رأيته فزعت فزعة عرف ذلك مني وفي يده الموسى، فقال: أتخشين أن أقتله؟ ما كنت لأفعل ذلك إن شاء الله، وكانت تقول: ما رأيت أسيرًا قط خيرًا من خبيب، لقد رأيته يأكل من قطف عنب وما بمكة يومئذ ثمرة، وإنه لموثق في الحديد، وما كان إلا رزق رزقه الله، فخرجوا به من الحرم ليقتلوه، فقال: دعوني أصلي ركعتين، ثم انصرف إليهم فقال: لولا أن تروا أن ما بي جزع من الموت لزدت، فكان أول من سن الركعتين عند القتل هو، ثم قال: اللهم أحصهم عددًا، ثم قال:

ولست أبالي حين أقتل مسلمًا ... على أي شق كان لله مصرعي

وذلك في ذات الإله وإن يشأ ... يبارك على أوصال شلو ممزع

ثم قام إليه عقبة بن الحارث فقتله، وبعثت قريش إلى عاصم لِيُؤْتَوا بشيء من جسده يعرفونه، وكان عاصم قتل عظيمًا من عظمائهم يوم بدر، فبعث الله عليه مثل الظلة من الدَّبْر، فحمته من رُسُلِهم، فلم يقدروا منه على شيء[1].

حزن النبي والمسلمون لهذا المصاب حزنًا عظيمًا، وأطلق حسان رثاءه فيهم وفي قتلى أحد، وقلق النبي ﷺ من هذه الحوادث التي تُسَبِّبُ في استخفاف العرب به وبالمسلمين، وانطلقت ألسنة المنافقين بالسخرية فكانوا يقولون: يا ويح هؤلاء المفتونين هلكوا هكذا، لا هم قعدوا في أهليهم ولا هم أدوا رسالة صاحبهم، فأنزل الله تعالى في ذلك من قول المنافقين: وما أصاب أولئك النفر من الخير بالذي أصابهم: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ﴾ [٢٠٤: البقرة].

وبينما هو عليه السلام يبحث عن مخرج إذ ابتلي بنكبة أعظم .

---

(١) البخاري ٣٨٥٨.

٢٢ – سرية بئر مَعُونة[١]: (صفر سنة أربع – ٦٢٠م):

فقد قدم أبو بَرَاء عامر بن مالك بن جعفر ملاعبُ الأسنة على رسول الله ﷺ، فدعاه إلى الإسلام و لم يسلم و لم يبعد من الإسلام،

وقال: يا محمد، لو بعثت رجالاً من أصحابك إلى أهل نجد فدَعوهم إلى أمرك رجوتُ أن يستجيبوا لك. فقال رسول الله ﷺ: إني أخشى عليهم أهل نجد، قال أبو براء: أنا لهم جار، وكان مسموع الكلمة، لا خوف على من أجاره؛ لذلك بعث رسول الله ﷺ المنذر بن عمرٍو في سبعين من خيار المسلمين، وقيل: أربعين، حتى إذا نزلوا بئر معونة، ماء لبني سليم وبني عامر– بعثوا حَرام بن مِلحان بكتاب رسول الله ﷺ إلى عدو الله عامر بن الطُّفَيل، فلم ينظر إلى الكتاب وقتل الرسول، ثم استصرخ بني عامر لقتل المسلمين، فأبوا أن يخفروا ذمة أبي براء. فاستصرخ عُصَيَّةَ، ورِعْلاً، وذكوان قبائل من بني سُليم فأجابوه وأحاطوا بالمسلمين، فلما رأوهم أخذوا سيوفهم وقاتلوهم حتى قُتِلوا عن آخِرهم، إلا كعب بن زيد فإنهم تركوه وبه رَمَق، فاندس بين القتلى، فعاش حتى قتل يوم الخندق شهيدًا.

وأما عمرو بن أمية الضمري والمنذر بن أحيحة الأنصاري[٢]، فلم ينبئهما بمصاب أصحابهما إلا الطير يحوم حول العسكر، فقالا: والله إن لهذه الطير لشأنًا، فأقبلا لينظرا فإذا القوم في دمائهم، وإذا الخيل التي أصابتهم واقفة، فقال

---

(١) ابن هشام ١٨٢/٢، ابن سعد ٥١/٢، البداية ٨٢/٤، تأريخ خليفة ٧٦، الاكتفاء ١٠٦/٢. والواقدي ٣٤٦/١.

(٢) ذكر في الواقدي أنه الحارث بن الصمة، وكانا في سرح القوم.

الأنصاري لعمرو بن أمية: ما ترى؟ قال: أرى أن نلحق برسول الله ﷺ فنخبره الخبر، فقال الأنصاري: ما كنت لأرغب بنفسي عن موطن قتل فيه المنذر بن عمرو، وقاتل القوم حتى قُتل .

وأخذوا عَمْرًا أسيرًا، فلما أخبرهم أنه من مضر أعتقه عامر بن الطفيل وجز ناصيته، وفي الطريق لقي عمرو رجلين من بني عامر نزلا معه في ظل هو فيه فقتلهما ثأرا لأصحابه غير عالم بما بينهما وبين رسول الله من عقد وجوار، فوداهما رسول الله ﷺ.

كان وقْعُ الحادث مؤلما على رسول الله ﷺ جعله يدعو على الغادرين شهرًا في صلاة الصبح، وقال: هذا عمل أبي براء، قد كنت لهذا كارهًا متخوفًا[1] .

العبرة والدرس:

١-لا شك أنها نكبة فادحة، لكن دعوة خاتمة كدعوة الإسلام ليس كثيرًا عليها التضحيات الجسام، وأي هدف لا بد له من ثمن .

٢-كان نشر الدعوة وتعاليم الإسلام محل عناية الرسول الكريم، رغم الخسارة التي مني بها بقتل خيرة رجاله، الذين كانوا من قراء المسلمين، ولولا تلك التضحيات ما ارتفعت راية لا إله إلا الله.

٣-ما من حَدَثٍ إلا ويبدي الصحابة الكرام آياتٍ من الفداء والحب؛ فقد عرض عامر بن الطفيل أن يُؤَمِّنَ المنذر بن عمرو، لكنه بصق أمانه في وجهه، وأعنق إلى الشهادة، فسماه النبي ﷺ: المعنق، أي: المسرع إلى الجنة.

٥-ذُكر أن هؤلاء الشهداء لما أحاط بهم الموت طلبوا من الله أن يبلغ نبيهم منهم السلام، فأداه عنهم جبريل عليه السلام.

---

(١) مجمع الزوائد ١٢٩/٦.

٢٣- إجلاء بني النضير (سنة أربع) [1]:

بعد مقتل سبعين من القراء، وستة قبلهم، وسبعين في أحد وجد النبي ﷺ وَضْعَهُ والمؤمنين معه يتعرَّض لابتلاء وتمحيص، ووصل الدق إلى العظم، والحز إلى العصب، وأخطر ما يتحسسه من المخاطر غدر اليهود حوله، فأراد أن يختبر يهود بني النضير وهم حلفاء بني عامر أصحاب الرجلين الذين قتلهما عمرو بن أمية، فذهب مع عشرة من كبار أصحابه مثل: علي وأبي بكر وعمر، يستعينهم في دية القتيلين، قالوا: نعم، يا أبا القاسم، نعينُك على ما أحببت، ثم خلا بعضُهم ببعضٍ فقالوا: إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه – ورسولُ الله ﷺ إلى جنب جدارٍ من بيوتهم – فمَنْ رجل يعلو هذا البيت فيلقي عليه صخرة فيريحنا منه؟ فانتدب عمرو بن جحاش بن كعب وصعد ليلقي عليه صخرة، فأتاه الوحي فقام راجعا إلى المدينة. فلما استبطأه أصحابه قاموا في طلبه، حتى انتهوا إليه ﷺ فأخبرهم بما أرادت به اليهود من الغدر، وأمر بالتهيؤ لحربهم، واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم. ثم سار بالناس حتى نزل بهم فتحصنوا منه في الحصون، فأرسل إليهم أن اخرجوا من بلادي، فأَبَوْا.

وأرسل إليهم عبدُالله بنُ أبي يشجعهم على البقاء، ووعدهم بألفين من أنصاره يموتون عن آخرهم دفاعًا عنهم، فقال كبيرهم حيي بن أخطب: لن نخرج من ديارنا يا محمد فاصنع ما بدالك. فحاصرهم نصف شهر، وأمر ﷺ بقطع النخيل والتحريق فيها، فنادوه: أن يا محمد قد كنت تنهَى عن الفساد وتَعيبه على من صنعه، فما بال قطع النخيل وتحريقها؟. فنزل قوله الله: ﴿مَا قَطَعْتُم

---

(١) الطبقات ٥٧/٢. والطبري ٥٥٠/٢. وابن هشام ١٩٩/٢. والواقدي ٣٦٣/١.

مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾[٥: الحشر][1].

الأمر كما قلت يقتضي الصرامة والحسم بسرعة، ولما وجد اليهود وعود ابن أبَيِّ سرابًا أيقنوا بالهلكة، وطلبوا الأمان على أنفسهم وأموالهم، فصالحهم على أن يخرجوا بأنفسهم وجعل لكل ثلاثة منهم بعيرًا يحملون عليه ما شاءوا من مال وطعام ما عدا السلاح.

فتركوا مغانم كثيرة من غلال وسلاح بلغ خمسين درعًا وثلاثمائة وخمسين سيفًا. وكانت الراية مع علي، وتولى إجلاءهم محمد بن مسلمة. وكانت غنائم بني النضير خاصة بالنبي ﷺ لئن المسلمين لم يُوجفوا عليها بخيل ولا ركاب، بل هو حصار بالمدينة لقوله تعالى: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾. [٧: الحشر]. وقد وسَّع بها على المهاجرين؛ لأنهم غرباء في بيوت الأنصار، بعد أن شاور الأنصار في حكمة إعطاء المهاجرين، ليكون هناك توازن اجتماعي.

وقد نزل في بني النضير قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مِن دِيَـٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ﴾ الآيات [٢: الحشر][2].

---

(١) أسباب النزول ٣٤٣. والطبري ١٤/٢٨/٤٤.

(٢) الطبري ١٤/٢٨/٣٧. وأسباب النزول ٤٢.

وبهذا النصر المؤزر تنفس المسلمون الصعداء، واستعادوا شيئًا من هيبتهم، وغرز ابن أبي رأسه في الأرض متواريًا؛ فالنبي ﷺ والمسلمون ليسوا لقمة سائغة يسهل ابتلاعها.

٢٤ – غزوة ذات الرّقاع[١] :

(في ربيع الآخر سنة أربع)

لم يطرب ﷺ كثيرًا للنصر على بني النضير، فالمخاطر جمة؛ إذ ظل ناشرًا عيونه، راصدًا التحركات في الجزيرة قاطبة، فبلغه أن قبائل نجد تتجمع، فتحرك لغزوهم، فخرج في أربعمائة، وقيل: سبعمائة أو ثمانمائة، وبث السرايا يتتبع الأعداء، فوجد ديارهم بلاقع قد هربوا مع الوعول في رؤوس الجبال ينظرون إلى المسلمين، فخاف الناس بعضهم بعضًا. الأعراب خائفون أن لا يبرح النبي ﷺ حتى يستأصلهم، والمسلمون خائفون أن يغيروا عليهم من الجبال؛ فصلى بأصحابه صلاة الخوف. وحينما زال خطرهم وتفرقوا رجع النبي ﷺ سالمًا[٢].

الدروس:

---

(١) إنما قيل لها ذات الرقاع لأنهم رقعوا فيها راياتهم. وقيل: ذات الرقاع شجرة بذلك الموضع يقال لها ذات الرقاع. وقيل: لأن الحجارة أوهنت أقدامهم رقاعًا. وقيل: لأنه جبل فيه بقع حمر وسواد وبياض، فقيل لها، ذات الرقاع. وقيل: إنها وقعت في محرم.

(٢) الواقدي ١/٣٩٥. وابن هشام ٢/٢٠٣. والطبري ٢/٥٥٥. والطبقات ٢/٦١. ومغلطاي ٢٤٥.

١- يضيق أحدنا بمفتاح الكهرباء إن كان بعيدًا عن سرير نومه كسلاً وعجزًا، وهذا سيد الخلق يركض في الفيافي مع خير القرون ذهابًا وإيابًا، فجزاه الله خيرًا ما جزى نبيًا عن أمته، وجزى أصحابه خير الجزاء.

٢- نقلت كتب السير صورة للإيمان الذي مس شغاف القلوب. فقد روى عمار بن ياسر أنه وزميل له [عباد بن بشر] تكفلا بحراسة المسلمين، فنام عمار أول الليل وصاحبه قائم يصلي، فأصيب بثلاثة سهام متتابعة ولم يتحرك حتى نزل للسجود ينزف دمًا، فحرَّك عمارًا يحذره من خطر العدو، فلامه عمار على عدم إيقاظه من أول سهم، فقال: كنتُ في آية أتلوها ما أحببت أن أقطعها، ولولا خشية أن أضيع الثغر ما أيقظتك ولو أتى على نفسي[١].

٢٥ - غزوة بدر الآخرة[٢]:

(في شعبان سنة أربع)

خرج ﷺ للموعد الذي ذكره أبو سفيان في أحد، واستخلف على المدينة عبدالله بن عبدالله بن أبي، وحمل اللواء علي بن أبي طالب. فأقام ببدر ثمانية أيام؛ غير أن أبي سفيان بدا له الرجوع من الظهران، متعللاً بالقَحْطِ فسماهم أهل مكة "جيش السويق"، وقيل: لم يخرج[٣].

الدرس:

(١) سيرة ابن هشام ٢/٢٠٩. وزاد المعاد ٢/١١٢.

(٢) ابن هشام ٢/٢٠٩. والواقدي ١/٣٨٤. والبداية والنهاية ٤/١٠٠. والسيرة النبوية لابن كثير ٣/١٦٩. والطبقات ٢/٥٩. وقيل: في ذي القعدة.

(٣) الواقدي ١/٣٨٥.

١-يظهر من مبادرة النبي ﷺ للموعد، وإقامته الطويلة في بدر حرصه الشديد على مسح آثار أحد، وإعادة معنويات المسلمين كما كانت، يدل على ذلك أن أبا سفيان أرسل نعيم بن مسعود إلى المدينة يثبط الناس، ويرجف بما جمع أبو سفيان من الجموع العظيمة، فقال النبي ﷺ بنبرة حازمة: والذي نفسي بيده لأخرجن وإن لم يخرج معي أحد.

٢-كم كان قرار النبي ﷺ حكيمًا حين خرج، فقد خذل الله قريشًا فلم تخرج، وصادف موسم بدر، وهي سوق عظيمة للعرب، وكم هي فرصة ثمينة، ودعاية ضخمة أن يكون النبي ﷺ مسيطرًا على الساحة، يتحدى أبا سفيان فلم يأت.

٣- لم يغب على بال النبي ﷺ أن يأمر أصحابه بأخذ تجارتهم معهم؛ ليستفيدوا من موسم السوق، وليعلّم أصحابه وأمته أهمية الجانب الاقتصادي، وأنه مع الجهاد في خطين متوازيين، وقد ربحوا في الدينار دينارًا ، كما يريد أن يظهر للعرب أنه غير مكترث بعدوه.

٢٦ - غزوة دُومة الجَندل[1]:

(في ربيع الأول على رأس ٤٩ شهرًا هـ)

خرج في ألف من المسلمين، يسير ليلاً ويكمن نهارًا، ودليله رجل من بني عذرة، وسبب هذه الغزوة: أن جماعة بها كانوا يظلمون الناس، ويقطعون الطريق،

(١) وهي بلدة على بعد خمس أو ست عشرة ليلة من المدينة قرب تبوك، بينها وبين دمشق خمس ليال.

ويريدون أن يقتربوا من المدينة، فهجم على ماشيتهم ورعاهم، فأصاب منها، وهرب أولئك، وعاد ظافرًا مسرورًا بنعمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والنفوذ الواسع الذي حققه لدولة الإسلام.

٢٧ - غزوة الخندق:

(في شوال سنة خمس هجرية - ٦٢٧م)[١]

كان من حديث الخندق أن نفرًا من اليهود الموتورين: منهم سَلاَّم ابن أبي الحقيق، وحيي بن أخطب في نفر من بني النضير وبني وائل قدموا على قريش فدعوهم إلى حرب رسول الله ﷺ وقالوا: إنا سنكون معكم حتى نستأصله، فقالت لهم قريش: يا معشر يهود، إنكم أهل الكتاب الأول، والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد، أفَدينُنَا خير أم دينُه؟ قالوا: بل دينكم خير من دينه، وأنتم أولى بالحق منه. وفيهم نزل قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا﴾[٥١-٥٢: النساء][٢] .

فلما قالوا ذلك لقريش سَرَّهم ونشطوا لما دعوهم إليه من حرب رسول الله ﷺ، فاجتمعوا واتّعدوا له، ثم خرج اليهود إلى غَطَفَان، فدعوهم كما دعوا

---

(١) الواقدي ٢/٤٤٠. وابن سعد ٢/٦٥. وابن هشام ٢/٢١٤. وسبل الهدى ٤/٥١٢.

(٢) الطبري ٤/٥/١٨٨. وأسباب النزول ١٣٢.

قريشًا، وأخبروهم باستجابتهم فاستجابوا. ولعل من الأسباب في استجابة قريش إحساسهم بالهزيمة حيث لم يوفوا بموعد بدر الثانية .

فخرجت قريش يقودها أبو سفيان. وغطفان يقودها عيينة بن حصن في بني فزارة، والحارث بن عوف في بني مرة، ومسعر بن رخيلة فيمن تابعه من أشجع. وكان جيش الأحزاب عشرة آلاف: قريشٌ وأحابيشها أربعة آلاف: معهم ثلاثمائة فرس، وألف وخمسمائة بعير. والبقية من غطفان.

سمع رسول الله ﷺ بخبرهم، وفي المدينة جدب، فشاور أصحابه، فأشار سلمان الفارسي بحفر الخندق، وهو عمل لم تكن العرب تعرفه، فوافق النبي ﷺ والمسلمون على هذه الفكرة، فقد علمتهم التجارب أخذ الحيطة، فضُرب الخندق على المدينة من الجهة الشمالية من الحرة الشرقية إلى الحرة الغربية، وهي العورة التي تؤتى منها المدينة، أما بقية الجهات فلا يتمكن العدو من اختراقها .

وعمل رسول الله ﷺ في حفر الخندق ترغيبًا للمسلمين في الأجر، وعمل معه المسلمون، فدأب فيه ودأبوا، وأبطأ رجال من المنافقين، وجعلوا يتعللون بالأعذار ويتسللون إلى أهليهم بغير إذن النبي ﷺ[1]، ولما فُرغ من الخندق أقبلت الأحزاب، ونزلت في ثلاثة معسكرات . وخرج رسول الله ﷺ في ثلاثة آلاف من المسلمين، وأمر بالذراري والنساء فتحصنوا في الحصون المنيعة.

وجاء حيي بن أخطب إلى كعب بن أسد القرظي صاحب عقد بني قريظة وعهدهم، وكان قد وادع رسول الله ﷺ وعاقده على قومه، فأبى أن يفتح لحيي وقال: إنك امرؤ مشؤوم، وإني قد عاهدت محمدًا فلست بناقض ما بيني وبينه، و لم أرَ مِنْهُ إلا وفاء وصدقًا، فما زال به حتى فتح، وأخبره بقوة الأحزاب

---

(١) وقد نزل في هذا آيتان ٦٢ –٦٣ من سورة النور .

الهائلة، فلم يزل حيي يفتله في الذروة والغارب[1] حتى وافق على نقض العهد وموآزرة الأحزاب.

فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ الخبر، بعث سعدَ بن معاذ سيد الأوس، وسعد بن عبادة سيد الخزرج، وعبدَ الله بن رواحة وخَوَّات بن جُبير لاستجلاء الخبر، وقال لهم: إن كان حقًا فالحنوا[2] لي لحنًا أعرفه، ولا تَفُتوا في أعضاد الناس[3]، وإن كانوا على الوفاء فاجهروا به للناس، فخرجوا فوجدوهم على أخبث ما بلغهم عنهم وتشاتموا معهم لما نالوا من رسول الله ﷺ، فرجعوا إلى رسول الله ﷺ وقالوا: عضَل والقارَة، فقال رسول الله ﷺ: الله أكبر، أبشروا يا معشر المسلمين.

إرجاف المنافقين:

دبت عقارب النفاق تبث سمومها، وعظم البلاء واشتد الخوف، وكانت شائعة المنافقين تقول: كان محمد يَعِدُنا بكنوز كسرى وقيصر، وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط، قال أوس بن قيظي: يا رسول الله، إن بيوتنا عورة من العدو – وذلك عن ملأ من رجال قومه – فَأْذَنْ لنا أن نخرج فنرجع إلى دارنا فإنها خارج المدينة. فأقام رسول الله ﷺ وأقام المشركون قريبًا من

---

(١) أي يخاتله ويراوضه. وأصل المثل في البعير، يفعل به ذلك ليسكن ويأنس. الذروة: أعلى السنام. والغارب: الكاهل وهو ما بين السنام إلى العنق.

(٢) اللحن: اللغز: وهو أن يخالف ظاهر الكلام معناه.

(٣) فت في عضده: أوهنه وأضعفه.

شهر، لم تكن بينهم حرب إلا الرِّميا[1] بالنبل والحصار. وقد تحدث القرآن عن هذا فقال: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ۝١٠ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ [١٠-١١: الأحزاب].

وقد هَمَّ النبي ﷺ أن يجعل ثلث ثمار المدينة لقادة غطفان على أن يرجعوا، واستشار في ذلك سعد بن معاذ وسعد بن عبادة، فقالا: إن كان بأمر الله أمضيناه، وإن كان رأيًا رأيته فليس لهم عندنا إلا الرماح، فما كانوا في الجاهلية يطمعون في تمرة إلا بحقها، أفنعطيهم ثلث أموالنا وقد أعزنا الله بك؟ فاستصوب النبي ﷺ هذا الرأي .

المبارزة[2]:

(١) الرميا: المراماة بالسهام.

(٢) البداية والنهاية ١٢٢/٤، السبل ٥٣٤/٤ الحلبية ٣٢٠/٢. والواقدي ٤٧١/٢. والاكتفاء ١٢٥/١. ودلائل البيهقي ٤٣٨/٣. والمستدرك ٣٢/٣.

في أثناء الحصار جال عمرو بن عبدود العامري، وعكرمة بن أبي جهل، وضرار بن الخطاب، وهبيرة بن أبي وهب، ونوفل بن عبدالله- بخيولهم فوجدوا مكانًا ضيقًا بالخندق أغفله المسلمون فعَبروا إلى ساحة المسلمين، فطلب عمرو المبارزة ثلاث مرات، فلم يجبه من المسلمين أحد سوى علي بن أبي طالب كرم الله وجهه الذي كان يقول للنبي ﷺ – في كل مرة –: أنا أبارزه يا رسول الله، ولما سمع النبي ﷺ عَمْرًا يقول:

ولقد بحَحت من النداء ... لجمعهم هل من مبارزْ
فوقفت إذ جَبُنَ الْمُشَــ ... ـجّعُ موقفَ القِرْنِ المناجزْ
إني كذلك لم أزل ... متسرعًا نحو الهزائزْ
إن الشجاعة في الفتى ... والجود من خير الغرائزْ

وأردف قوله: أتزعمون أن قتلاكم في الجنة وقتلانا في النار، فما لكم لا تخرجون إليّ، فأذِنَ لعلي وعممه بعمامته وقلده سيفه، وقال: اللهم إن هذا أخي وابن عمي فلا تذرني فردًا وأنت خير الوارثين . فخرج يرتجز:

لا تعجلن فقد أتا ... ك مجيبُ صوتِك غير عاجز
ذو نيّة وبصيرة ... والصدق مُنجِي كل فائز
إني لأرجو أن أقيـ ... ـم عليك نائحة الجنائز
من ضربة نجلاء يبـ ... ـقى ذكرها عند الهزاهز

فقال عمرو: من أنت؟ فانتسب له، فقال: يا ابن أخي، كان أبوك نديمي وصديقي، فارجع فلا أحب أن أقتلك، فقال علي كرم الله وجهه: لكني أحب أن أقتلك، فقال عمرو: إني لأكره أن أقتل الرجل الكريم مثلك فارجع، فقال

علي كرم الله وجهه: إن قريشًا تحدث عنك أنك لا تُدعى إلى ثلاث إلا أجبت ولو إلى واحدة منها، قال: أجل، فقال: أدعوك إلى الإسلام، قال: دع عنك هذه، قال: أدعوك أن ترجع بمن معك، قال: إذن تتحدث نساء قريش أن غلامًا خدعني، قال: فإني أدعوك إلى البراز؛ فحمي عمرو وقال: ما كنت أظن أن أحدًا من العرب يرومها، فترجل عن فرسه فعقره، فتجاولا وحجبهما الغبار عن الناس إلى أن سمعوا تكبير عليٍّ كرم الله وجهه، وانجلت الغبرة وعليٌّ راكب صدرَه يحز رأسه، ففر أصحابه إلا نوفل وقع في الخندق فنزل عليٌّ كرم الله وجهه فقتله.

وكانت لعمرو درع من نسج داوود، فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: هلا سلبته درعه فإنه ليس للعرب درع خير منها، فقال: ضربته فاتقاني بسوأته، فاستحييت أن أسلب ابن عمي. وأنشد:

نصر الحجارة من سفاهة رأيه	ونصرت رب محمد بصواب
فصددت حين تركته متجدلاً	كالجذع بين دكادك وروابي
وعففت عن أثوابه ولو انني	كنت المقطَّرَ بزّني أثوابي
لا تحسبن الله خاذل دينه	ونبيه يا معشر الأحزاب

ومن حسن الحظ أن نعيم بن مسعود جاء إلى رسول الله ﷺ فأسلم سرًا، وقال: اكتم إسلامي ومرني بأمرك، فقال: إنما أنت فينا رجلٌ واحد فخَذِّلْ عنا إن استطعت فإن الحرب خدعة.

فخرج حتى أتى بني قُريظة، وكان لهم نديمًا، فقال: قد عرفتم ودي إياكم، وخاصةَ ما بيني وبينكم. قالوا: صدقت لست عندنا بمتهم، فقال لهم: إن قريشًا وغطفان ليسوا كأنتم، البلد بلدكم، فيه أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم لا تقدرون على أن تتحولوا منه إلى غيره، وإنهم قد جاؤوا لحرب محمد، وقد

ظاهرتموهم عليه، وبلدُهم وأموالهم ونساؤهم بغيره، فليسوا كأنتم، فإن رأوا نهزة أصابوها، وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلَّوا بينَكم وبين الرجل ولا طاقة لكم به إن خلا بكم، فلا تقاتلوا مع القوم حتى تأخذوا منهم رُهُنًا من أشرافهم يكونون بأيديكم ثقةً لكم على أن تقاتلوا معهم محمدًا حتى تناجزوه، فقالوا له: لقد أشرتَ بالرأي.

ثم أتى قريشًا، وقال: قد عرفتم ودي لكم وفراقي محمدًا، وإنه قد بلغني أمرٌ قد رأيتُ عليَّ حقًا أن أبلغكموه نصحًا لكم فاكتموا عني، فقالوا: نفعل. قال: إن معشر يهود قد ندموا على ما صنعوا فيما بينهم وبين محمد، وقد أرسلوا إليه: إنا قد ندمنا على ما فعلنا، فهل يرضيك أن نأخذ لك من القبيلتين من قريش وغطفان رجالاً من أشرافهم فنعطيكهم فتضرب أعناقهم، ثم نكون معك على من بقي منهم حتى نستأصلهم؟ فأرسل إليهم: أن نعم، فإن بَعَثَتْ إليكم يهود يلتمسون منكم رُهنًا من رجالكم فلا تدفعوا إليهم منكم رجلاً واحدًا.

ثم أتى غطفان فقال: إنكم أصلي وعشيرتي وأحب الناس إلي ولا أراكم تتهمونني. قالوا: صدقت ما أنت عندنا بمتهم، قال: فاكتموا عني، قالوا: نفعل. ثم قال لهم مثل ما قال لقريش، وحذرهم ما حذرهم.

فلما كانت ليلة السبت من شوال سنة خمس وكان من صنع الله لرسوله ﷺ أن أرسل أبو سفيان بن حرب ورؤس غطفان إلى بني قريظة عكرمةَ بن أبي جهل، في نفر من قريش وغطفان، فقالوا لهم: إنا لسنا بدار مقام، قد هلك الخفُّ والحافر[1]، فاغدُوا للقتال حتى نناجز محمدًا ونفرغ مما بيننا وبينه، فقالوا: إن اليوم السبت لا نعمل فيه شيئًا، ولسنا مع ذلك بالذين نقاتل معكم محمدًا حتى تعطونا رُهُنًا من رجالكم يكونون بأيدينا ثقة لنا حتى نناجز محمدًا؛ فإنا

---

(١) الخف: الإبل، والحافر: الخيل.

نخشى إن ضرستكم[1] الحرب واشتد عليكم القتال أن تنشمروا[2] إلى بلادكم وتتركونا والرجل في بلدنا ولا طاقة لنا بذلك منه.

فلما رجعت إليهم الرسل بما قالت بنو قريظة قالت قريش وغطفان: صدق نُعَيم، فأرسلوا إلى بني قريظة: إنا والله لا ندفع إليكم رجلاً واحدًا، فإن كنتم تريدون القتال فاخرجوا؛ فقالت بنو قريظة حين بلغتهم الرسالة: صدق نعيم، وخذل الله بينهم. وبعث الله عليهم الريحَ في ليالٍ شاتية باردة شديدة البرد فجعلت تكفأ قدورَهم وتطرح آنيتهم. قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَا﴾ [٩: الأحزاب] [3].

دروس وعبر:

١-من دلائل النبوة ثلاث حوادث وقعت في الخندق:

الأولى: أن صخرة استعصت على المسلمين فلجئوا إلى رسول الله ﷺ فأخذ المعول من يد سلمان فضربها ثلاث ضربات، يكبر في كل ضربة وتلمع الحجر كالبرقة ويذهب ثلثها، وبَشَّر بفتح اليمن والشام والمشرق. وتحقق ذلك.

الثانية: أن جابر بن عبدالله رضي الله عنه عَزَّ عليه أن يرى النبي ﷺ عاصبًا على بطنه من الجوع، وكانت لديه عَنَاقٌ، فأسَرَّ إلى النبي ﷺ أن يتغدى عنده

---

(١) ضرستكم: نالت منكم.

(٢) انشمروا: انقبضوا وأسرعوا إلى بلادهم.

(٣) تفسير الطبري ١٥٣/٢١/١١. ومجمع البيان ١٢٤/٨.

وحده، فأقبل النبي ﷺ بأهل الخندق، فوضع يديه في الطعام ودعا بالبركة، فأكلوا جميعًا وشبعوا والطعام بحاله.

الثالثة: أنه ﷺ قال للمسلمين: لن تغزوكم قريش بعد اليوم، بل نغزوهم، وتحقق ذلك.

٢- رب ضارة نافعة، فالضيق يعقبه فرج، وغدر بني قريظة رغم أنه طعنة في الخاصرة، وإجهاد كبير للمدافعين الذين كانوا يواجهون قريشًا بالنبل والحجارة على امتداد الخندق، ويدورون بالتكبير والتهليل في أزقة المدينة وأطرافها إرهابًا لبني قريظة، وتحسبًا لمكرهم؛ لكنه تسبب في تدميرهم، وتطهير الساحة من خبثهم وغدرهم.

٣- أظهر عليٌّ كرم الله وجهه نوعية المقاتل المسلم الذي يصلح قدوة في شجاعته وفي حسن عرضه للدين الذي يقاتل من أجله وفي إخلاصه، فما أجمل أدبه وتواضعه مع عنفوانه وشجاعته حين قال لعمرو: أدعوك إلى الإسلام فإن لم فارجع بمن معك، فإن لم فالمبارزة؛ لأنها الوسيلة الأخيرة لدين السِّلم والتسامح. وما أجمل ما يروى أن عليًا كرم الله وجهه لَـمَّا صرعه تفل نحوه فتركه، ثم صرعه مرة أخرى وقتله، فسئل عن تركه وقد تمكن منه، فقال: لـمَّا تفل نحوي غضبت فأحببت أن أقتله لله، فأي ارتباط بالله وصل إليه هذا الإمام ! وأي شجاعة لدى عمرو الذي لم يجف ريقه والسيف فوق رقبته!.

٢٨ - غزوة بني قريظة:

(في سنة خمس) [1]

---

(١) ابن سعد ٢/٧٤. وابن هشام ٢/٢٣٣. والواقدي ٢/٤٩٦. وسبل الهدى ٥/٧. والطبري ٢/٥٨١. والبداية والنهاية ٤/١٣٣.

ما كاد النبي ﷺ يلقي سلاحه عند الظهيرة حتى أتاه جبريلُ عليه السلام معتجرًا بعمامة من إستبرق[1]، فقال: أوَ قد وضعتَ السلاح يا رسول الله ؟ قال: نعم. قال: فما وضعت الملائكة السلاح بعد، وما رجعتُ الآن إلا من طلب القوم. إن الله عزوجل يأمرك بالمسير إلى بني قريظة، فإني عامد إليهم فمزلزل بهم[2]؛ فأمر رسول الله ﷺ مؤذنًا فأذن في الناس: **من كان سامعًا مطيعًا فلا يصلين العصر إلا ببني قريظة**[3].

وقدَّم عليًا كرم الله وجهه برايته إلى بني قريظة وابتدرها الناسُ، فسار عليٌّ حتى إذا دنا من الحصون سمع منها مقالة قبيحة لرسول الله ﷺ، فرجع حتى لَقي رسولَ الله ﷺ بالطريق فقال: لا عليك أن لا تدنو من هؤلاء الأخابث، قال: لِمَ؟ أظنك سمعت منهم لي أذى، قال: نعم يا رسول الله. قال: لو رأوني لم يقولوا من ذلك شيئًا، فلما دنا ﷺ من حصونهم قال: يا إخوان القردة، هل أخزاكم الله وأنزل بكم نقمته؟.

---

(١) الاستبرق: ضرب من الديباج الغليظ.

(٢) موقع في قلوبهم الخوف.

(٣) لفظ البخاري: لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة. فأدرك بعضهم العصر في الطريق، فقال بعضهم: لا نصلي حتى نأتيها، وقال بعضهم: بل نصلي، ولم يرد منا ذلك، فذكر ذلك للنبي فلم يعنف واحدًا منهم. رقم (٣٨٩١).

قالوا: يا أبا القاسم، ما كنت جهولاً، فنزل على بئر من آبارهم وتلاحق به الناس، وكان الجيش المسلم ثلاثة آلاف، فأتى رجال منهم بعد العشاء الآخرة ولم يصلوا العصر؛ لقول رسول الله ﷺ: "لا يصلين أحد العصر إلا ببني قريظة" فشغلهم ما لم يكن لهم منه بد في حرثهم، وأبو أن يصلوا حتى أتوا بني قريظة فصلوا العصر بها بعد العشاء الآخرة، فما عابهم الله ولا رسوله. وحاصرهم رسول الله ﷺ خمسًا وعشرين ليلة حتى أجهدهم الحصار، وقذف الله في قلوبهم الرعب.

وقد كان حيي بن أخطب دخل مع بني قريظة في حصنهم حين رجعت عنهم قريش وغطفان؛ وفاءً لكعب بن أسد بما كان عاهده عليه. فلما أيقنوا بأن رسول الله ﷺ غير منصرف عنهم حتى يناجزهم قال كعب بن أسد: يا معشر يهود قد نزلَ بكم من الأمر ما ترون، وإني عارض عليكم خِلالاً ثلاثًا فخذوا أيها شئتم. قالوا: وما هي؟ قال: نتابعُ هذا الرجل ونصدقُه فوالله لقد تبين لكم أنه نبي مرسل وأنه للذي تجدونه في كتابكم؛ فتأمنون على دمائكم وأموالكم وأبنائكم ونسائكم، قالوا: لا نفارق حكم التوراة أبدًا ولا نستبدل به غيره، قال: فإذا أبيتم عَلَيَّ هذه فهلمّ فَلْنَقْتُلْ أبناءنا ونساءنا، ثم نخرج إلى محمد وأصحابه رجالاً مصلتين السيوف لم نترك وراءنا ثقلاً حتى يحكم الله بيننا وبينه، فإن نَهلِك نَهلِك ولم نترك وراءنا نسلاً نخشى عليه، وإن نظهر فلعمري لنجدن النساء والأبناء، قالوا: نقتل هؤلاء المساكين فما خير العيش بعدهم؟ قال: فإن أبيتم علي هذه فإن الليلة ليلة السبت، وإنه عسى أن يكون محمد وأصحابه قد أمِنُونا فيها، فانزلوا لعلنا نصيب من محمد وأصحابه غرةً. قالوا: نفسد سبتنا علينا، ونحدثُ فيه ما لم يحدث من كان قبلنا إلا من قد علمت فأصابَه ما لم يَخفَ

عليك من المسخ، قال: ما بات رجل منكم منذ ولدته أمه ليلة واحدة من الدهر حازمًا.

ثم إنهم بعثوا إلى رسول الله ﷺ: أن ابعث إلينا أبا لبابة بن عبدالمنذر لنستشيره في أمرنا[1]، فأرسله رسول الله ﷺ إليهم، فلما رأوه قام إليه الرجال، وجَهش إليه النساء والصبيانُ يبكون في وجهه، فرَقَّ لهم وقالوا له: أترى أن ننزل على حكم محمد؟ قال: نعم، وأشار بيده إلى حلقه إنه الذبح[2].

قال أبو لبابة: فوالله ما زالت قدماي عن مكانها حتى عرفت أني قد خنتُ الله ورسوله ﷺ، ثم انطلق أبو لبابة على وجهه، ولم يأت رسول الله ﷺ حتى ارتبط في المسجد إلى عمود من عُمدِه، وقال: لا أبرح مكاني هذا حتى يتوب الله علي مما صنعت، وأعاهد الله: ألا أطأ بني قريظة أبدًا، ولا أرى في بلد خنت الله ورسوله فيه أبدًا، فلما بلغ رسول الله ﷺ خبره، وكان قد استبطأه قال: أما إنه لو جاءني لاستغفرت له، فأما إذ فعل ما فعل فما أنا بالذي أطلقه من مكانه حتى يتوب الله عليه.

---

(١) قال في شرح المواهب ٢/١٣١: وذلك أنهم لما حوصروا حتى أيقنوا بالهلكة، أنزلوا شاس ابن قيس، فكلم رسول الله ﷺ أن ينزلوا على ما نزل عليه بنو النضير مِنْ ترك الأموال والحلقة، والخروج بالنساء والذراري وما حملت الإبل إلا الحلقة. [فأبى رسول الله ﷺ. فقال: تحقن دماءنا وتسلم لنا النساء والذرية ولا حاجة لنا فيما حملت الإبل، فأبى رسول الله ﷺ إلا أن ينزلوا على حكمه، فعاد شاس إليهم بذلك].

(٢) في شرح المواهب: كأن أبا لبابة فهم ذلك من عدم إجابة الرسول ﷺ لهم بحقن دمائهم، وعرف أن رسول الله سيذبحهم إن نزلوا على حكمه. وبهذا أشار إلى بني قريظة.

عن أم سلمة أن رسول الله ﷺ قال: تبتُ على أبي لبابة، فقلت: أفلا أبشره يا رسول الله ؟ قال: بلى إن شئت، فقامت على باب حجرتِها – وذلك قبل أن يضرب عليهن الحجاب – فقالت: يا أبا لبابة، أبشر فقد تاب الله عليك.

قالت: فثار الناس إليه ليطلقوه فقال: لا والله حتى يكون رسول الله ﷺ هو الذي يطلقني بيده، فمر عليه في صلاة الصبح فأطلقه.

– قال ابن هشام: أقام أبو لبابة مرتبطًا بالجذع ست ليال، تأتيه امرأته في كل وقت صلاة فتحله للصلاة ثم يعود فيرتبط بالجذع[1].

لما ضاق الخناق على بني قريظة، وسمعوا عليًا كرم الله وجهه يصرخ وبجواره الزبير: يا كتيبة الإيمان لأذوقن ما ذاق حمزة أو لأفتحن حصنهم فقالوا: يا محمد، ننزل على حكم سعد بن معاذ، وكانوا حلفاء الأوس، وطلبت الأوس من رسول الله ﷺ أن يطلقهم كما أطلق لابن أبيّ يهودَ بني قينقاع، فقال: ألا يرضيكم حكم سعد فقد حكمته؟ وأكثرت الأوس على سعد أن يحسن إليهم، فقال رحمه الله: لقد آن لسعد أن لا تأخذَه في الله لومةُ لائم.

وكان سعدٌ جريحًا من سهم أصابه في الخندق ، فأمر به النبي ﷺ أن يعالج في خيمة امرأة من أسلم كانت تداوي الجرحى في مسجده، وتحتسب بنفسها على خدمة من كانت به ضيعة من المسلمين، وكان رسول الله ﷺ قد قال لقومه حين أصابه السهمُ بالخندق: اجعلوه في خيمةِ رفيدة حتى أعودَه من قريب.

---

(١) الاستيعاب ٣٠٤/٤، وعبدالرزاق ٤٠٦/٥ عن الزهري.

فلما حكَّمه رسول الله ﷺ أتاه قومه فحملوه على حمار قد وطؤوا له بوسادة من أدَم، وكان رجلاً جسيمًا جميلاً، ثم أقبلوا معه وهم يقولون: يا أبا عمرو، أحسن في مواليك .

فلما انتهى سعد إلى رسول الله ﷺ والمسلمين، قال رسول الله ﷺ قوموا إلى سيدكم[1] فقاموا إليه وطلبوا منه أن يحكم، فقال: عليكم بذلك عهد الله وميثاقه أنَّ الحكم فيهم لَـمَا حكمت؟ قالوا: نعم. قال: وعلى مَنْ هاهنا؟ – في الناحية التي فيها رسولُ الله ﷺ. وهو معرض عنه إجلالاً له – فقال رسول الله ﷺ: نعم، قال سعد: فإني أحكم فيهم أن تقتلَ المقاتلة، وأن تسبى النساء والذرية، وأن تقسم أموالهم، فقال رسول الله ﷺ: " قضيت بحكم الله "[2].

وكان سعد رحمه الله من المقربين عند الله مجاب الدعوة، له من رسول الله ﷺ مكانة متميزة، ونكهة خاصة، وقُرْبٌ من قلب رسول الله ﷺ، وقد سأل اللهَ سعدٌ قائلاً–[3]: اللهم إنك تعلم أنه ليس أحد أحب إلي أن أجاهدهم فيك من قوم كذبوا رسولك وأخرجوه، اللهم فإني أظن أنك قد وضعت الحرب بيننا وبينهم، فإن كان بقي من حرب قريش شيء فأبقني له حتى أجاهدهم فيك، وإنك كنت وضعت الحرب فافجرها واجعل موتتي فيها، ولا تمتني حتى تقر عيني

---

(١) البخاري رقم ٣٨٩٥ .

(٢) ابن هشام ٢/٢٤٠، الروض الأنف ٣/٢٦٧ .

(٣) كما روت عائشة. البخاري ٣٨٦٩.

في بني قريظة[1]، فانفجرت من لبّته فلم يرعهم إلا الدم يسيل إليهم، فإذا سعد ينزف دمًا فمات بعد أن أشرف بنفسه على تنفيذ الحكم بيد عليٍّ والزبير، وقد حفرت لهم خنادق فكانوا يخرجون واحدًا واحدًا بحيث لا يدري الثاني ما مصير الأول، وكان النبي ﷺ يوصي بإطعامهم وسقيهم، وأن لا يضربوا في الحر، وقال: ألا يكفيهم السيف، وكان عدد من قُتل ستمائة، وقيل: سبعمائة[2]. والمكثر يقول: مابين ثمانمائة وتسعمائة[3].

الدروس والعبر:

١- الحكم على بني قريظة يبدو قاسيًا لأول وهلة، لكن خيانتهم أقسى، فهي خيانة عظمى وعقوبتها الإعدام، فقد قَدَّموا النبي ﷺ وأصحابه والمدينة بحذافيرها لقمة سائغة لذئاب العرب، والنتيجة أن نساء المسلمين ستسبى، وعلى رأسهن أمهات المؤمنين والعياذ بالله، وسيقطع رأس النبي ﷺ، وهذا هو معنى الخيانة ونتيجتها، وبنو قريظة موافقون عليها، بل يريدون القتال لتحقيقها، فلو كانت هناك عقوبة أشد مما حكم به سعد لاستحقوها، لكن جهنم لهم بالمرصاد، وعلى الباغي تدور الدوائر.

ولو تُرِكوا لانتشروا في العرب وجمعوهم مرة ثانية حتى يستأصلوا المسلمين، فهذا حيي بن أخطب لما قُدِّمَ للقتل قال له النبي ﷺ: ألم يخزك الله يا حيي؟، فقال: والله ما لمت نفسي على عداوتك، ولكنه من يَخذل الله يُخذل .

---

(١) الواقدي ٢/٥١٢.

(٢) الواقدي ٢/٥١٧.

(٣) الاكتفاء ٢/١٣٦.

وقد قتلت امرأةٌ قصاصًا بمسلم طَرَحَتْ عليه الرحا فقتلته، فقدمت للقتل وهي تضحك. ولم يسلم من بني قريظة إلا أربعة.

ومع أنهم وجهوا للمسلمين طعنة من الخلف، فلم يأمر النبي ﷺ بقلع أظافرهم وسمل عيونهم قبل الموت، بل كان يأمر بالرفق بهم وسقيهم، وتجنيبهم الحر، وإخفاء القتل عن بعضهم البعض، وهي لمسة إنسانية، صدَّق بها فعلُه قولَه: إذا قتلتم فأحسنوا القتلة[1].

٢- أظهر سعد بحكمه أن الإسلام ربى رجالاً قَلَّ أن يجود بمثلهم الزمان، واستحقوا بجدارة أن يدقوا أبواب الصين في أقل من نصف قرن.

٣-انتهت الخندق وبنو قريظة؛ لصالح الدولة الفتية؛ فأذل الله المنافقين وأخزاهم، وكبت المشركين وقمعهم، وكسر شوكة اليهود واذهب ريحهم، وانطلقت هيبة المسلمين شرقًا وغربًا. وقد أفاء الله على المسلمين غنائم وافرة: ألفًا وخمسمائة سيف، وثلاثمائة درع، وألفَ رمح، وخمسمائة تُرس وجحفة، وألفًا من النساء والصبية، وآنية كثيرة، وإبلاً ونخيلاً وغير ذلك، فأخرجَ الخمس وقُسِمَ الباقي بين ثلاثة آلاف مقاتل وستة وثلاثين فرسًا، للراجل سهم وللفارس سهمان، وأسهم للنساء اللآئي يداوين الجرحى.

---

(١) مسلم ١٥٤٨/٣ ولفظه: إن الله كتب الإحسان على كل شيء فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبح، وليُحِد أحدكم شفرته، فليُرِح ذبيحته. والدارمي ٨٢/٢.

٢٩ – غزوة بني المصطلق[١]:

(يوم الإثنين ٢ شعبان سنة ٥، وقيل: ٦، وقيل: ٤)

بلغ النبي ﷺ أن الحارث بن أبي ضرار سيد بني المصطلق يجمع الناس لحربه، فبعث بريدة ليستطلع خبرهم، فجاء إلى الحارث وأوهمه أنه من المناصرين له، فأتى النبي ﷺ بمعلومات كافية عن العدو وتحركه.

استخلف النبي ﷺ زيد بن حارثة وقيل: أبا ذر، وخرج معه من نسائه: عائشة وأم سلمة رضي الله عنهما.

وخرج في جيشه كثير من المنافقين يريدون الدنيا، وفي الطريق ألقي القبض على جاسوس للمشركين فقتل.

وصل النبأ لجموع المشركين بمسير النبي ﷺ وقَتْلِ الجاسوس؛ فتفرق العرب عن الحارث وبقي في قومه.

انتهى النبي ﷺ إلى المريسيع، وأمر بندائهم أن يقولوا: لا إله إلا الله، فأبوا فتراموا ساعة، فحمل عليهم المسلمون حملة رجل واحد، فقتل من المشركين عشرة، قَتَلَ عليٌّ فارسين، وعبدالرحمن بن عوف فارسًا، وأسِرُوا جميعًا، وسبيت النساء والذرية، وأخذت كل أموالهم، ألفا بعير و خمسة آلاف شاة وسبيت مائتا أسرة.

زواجه ﷺ بجويرية رضي الله عنها:

---

(١) وتسمى أيضًا غزوة المريسيع ماء لخزاعة على ثمانية برد من المدينة، نحو الساحل. ينظر حول الغزوة: البداية والنهاية ٤/١٧٨. وتأريخ خليفة ٨٠. ومحمد رضا ٢٢١. وسبل الهدى ٤/٤٨٦.

كان في السبايا بَرِيرَة بنت الحارث وقعت في سهم أحد الأنصار فكاتبته على نفسها، فجاءت النبي ﷺ تستعينه، وشكت له ما نزل بها وبأهلها، فقال: هل لك في خير من ذلك؟ أدفع عنك وأتزوجك، فرحبت بذلك وتزوجها، وسماها جويرية فلما علم الناس بذلك أطلقوا ما في أيديهم، وقالوا: أصهار رسول الله ﷺ؛ فلقد أعتق من قومها مائة أسرة، فما كان أبرك منها على قومها.

وأصيب من المسلمين هشام بن صُبابة ، أصابه رجل من الأنصار عن طريق الخطأ. وقد قدم أخوه مقيس من مكة مظهرًا للإسلام وأخذ دية أخيه، ثم عدا على قاتل أخيه فقتله وفرَّ مرتدًا[1] .

وقد وقع في هذه الغزوة حوادث خطيرة، كان للمنافقين إثم إشعالها.

الحدث الأول: أن جهجاه بن مسعود أجير عمر بن الخطاب وسنان بن وبر الجهني حليف الخزرج اقتتلا على الماء؛ فصرخ الجهني: يا معشر الأنصار، وصرخ جهجاه: يا معشر المهاجرين. فغضب عبدالله بن أبي وعنده رهط من قومه فيهم زيد بن أرقم غلام حَدَثٌ، وقال: أقد فعلوها؟ نافرونا وكاثرونا في بلادنا، والله ما أعدُّنا وجلابيب قريش إلا كما قيل: سَمِّن كلبك يأكلكَ، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، ثم أقبل على من عنده وقال: هذا ما فعلتم بأنفسكم، أحللتموهم بلادكم، وقاسمتموهم أموالكم، أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير داركم. فمشى زيد بن أرقم

---

(١) أسد الغابة ٥/٣٧٥.

إلى رسول الله ﷺ فأخبره، وقد فرغ من عدوه، وعنده عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقال:

مر عبَّاد بن بشر فليقتله. فقال: يا عمر لا يتحدَّث الناس بأن محمدًا يقتل أصحابه، ولكن ناد في الناس بالرحيل - في ساعة لم يكن رسول الله ﷺ يرتحل فيها - فارتحل الناس، ومشى عبدالله بن أبي إلى رسول الله ﷺ حين بلغه أن زيد بن أرقم قد بلغه، فحلف بالله ما قلت ولا تكلمت، وكان في قومه شريفًا عظيمًا، فقال من حضر من الأنصار من أصحابه: يا رسول الله عسى أن يكون الغلام قد وهم في حديثه و لم يحفظ ما قال الرجل؛ حَدَبًا على ابن أبَيّ ودَفْعًا عنه، فلما استقل رسول الله ﷺ وسار لقيه أسيد بن حضير، فحيَّاه بتحية النبوة، وقال: يا رسول الله ما كنت تروح في مثل هذه الساعة، فأخبره بما قال ابن أبي، قال: فأنت يا رسول الله تخرجه منها إن شئت، وهو والله الذليل وأنت العزيز، ثم قال: يا رسول الله ارفق به، فوالله لقد جاءنا الله بك وإن قومه لينظمون له الخرزَ ليتوجوه، فإنه ليرى أنك قد استلبته ملكًا.

ثم مشى رسول الله ﷺ بالناس يومهم ذلك حتى أمسى، وليلتهم حتى أصبح، وصَدْرَ يومهم ذلك حتى آذهم الشمس، ثم نزَل بالناس فما وجدوا مس الأرض حتى وقعوا نيامًا، وإنما فعل ذلك ليشغل الناس عن حديث عبدالله بن أبي.

وأثناء السير هبت على الناس ريح آذهم وتخوفوها. فقال رسول الله ﷺ: لا تخافوها، فإنما هبت لموت عظيم من عظماء الكفار، فلما قدموا المدينة وجدوا رِفاعة بن زيد بن التابوت أحد بني قينقاع وكان عظيمًا من عظماء يهود وكهفًا للمنافقين مات في ذلك اليوم.

ونزلت سورة المنافقين مصدِّقة ما قال زيد بن أرقم. وجاء عبدالله بن عبدالله بن أبي رضي الله عنه فقال: يا رسول الله، بلغني أنك تريد قتل أبي، فإن كنت لابد

فاعلاً فمرني به فأنا أحمل إليك رأسه، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل أبرَّ بوالده مني، وإني أخشى أن تأمر غيري بقتله فلا تَدَعُنِي نفسي أنظر إلى قاتل عبدالله بن أبي يمشي في الناس فأقتله؛ فأقتل مؤمنًا بكافر فأدخل النار. فقال رسول الله ﷺ: بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا[1].

وجعل بعد ذلك إذا أحدث الحدث كان قومه هم الذين يعاتبونه ويأخذونه ويعنفونه. فقال رسول الله ﷺ لعمر بن الخطاب رضي الله عنه حين بلغه ذلك من شأنهم: كيف ترى يا عمر؟ أما والله لو قتلتُه يوم قلت لي أقتله لأرعدت له آنفٌ لو أمرتُها اليوم بقتله لقتلته، فقال عمر: قد والله علمت لأمرُ رسول الله ﷺ أعظم بركة من أمري.

وبعد أن أخذ الناس قسطًا من الراحة ارتحلوا حتى كانوا قريبًا من المدينة، حطوا قليلاً للراحة ثم ارتحلوا وحملوا هودج عائشة، ولم تكن فيه.

الحدث الثاني: حديث الإفك:

قالت عائشة رضي الله عنها: كنت إذا رُحِّل لي بعيري جلستُ في هودجي، ثم يأتي الموكلون بي فيحملونني، فيأخذون بأسفل الهودج فيرفعونه وينطلقون به، فلما قرب النبي ﷺ من المدينة استراح في مكان بعض الليل، ثم أذن في الناس بالرحيل فارتحل الناس، وخرجت لقضاء حاجتي وفي عنقي عقد فسقط مني، فبقيت أبحث عنه حتى وجدته، واحتمل القوم الهودج يظنونني فيه وانطلقوا،

---

(١) البداية والنهاية ٤/١٨١. والطبري ٢/٦٠٨. وابن هشام ٢/٢٩٢.

فرجعت إلى العسكر وما فيه من داع ولا مجيب، فتلففت بجلبابي ثم اضطجعت في مكاني، وعرفت أن لو قد افتُقِدُت لرُجِعَ إليّ، فوالله إني لمضطجعة إذ مر بي صفوان بن المُعَطَّل السلمي[1]، وقد كان تخلف عن العسكر لبعض حاجته فلم يبت مع الناس، فرأى سوادي فأقبل حتى وقف عليَّ، وكان يراني قبل أن يضرب علينا الحجاب، فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون، ظعينة رسول الله ﷺ، وأنا متلففة في ثيابي، وقال: ما خَلَّفَك يرحمك الله؟ فما كلمته، ثم قرَّب البعير وقال: اركبي، واستأخر عني، فركبت وأخذ برأس البعير فانطلق سريعًا يطلب الناس فما أدركناهم وما افتُقِدتُ حتى أصبحت، ونزل الناس فلما اطمأنوا طلع الرجل يقود بي، فقال أهل الإفك ما قالوا؛ فارتَّج العسكر، ووالله ما أعلم بشيء من ذلك.

وفي المدينة لم ألبث أن مرضت مرضًا شديدًا، ولا يبلغني من ذلك شيء، وقد انتهى الحديث إلى رسول الله ﷺ وإلى أبويَّ، ولا يذكرون لي منه قليلاً ولا كثيرًا، إلا أني قد أنكرت من رسول الله ﷺ بعض لطفه بي، كنت إذا اشتكيت رحمني ولطف بي، ولم يفعل ذلك بي في شكواي تلك، فوجدت في نفسي لجفائه واستأذنت أن أنتقل لأمي تمرضني، فقال: لا عليك، وكان إذا زارني عند أمي لا يزيد على: كيف تِيكُم؟ حتى نَقِهْتُ من وجعي بعد بضع وعشرين ليلة.

فخرجتُ ليلة لبعض حاجتي ومعي أم مسطَح بنت أبي رُهْمٍ بن المطلب بن عبدمناف، فعثرتْ في كسائها، فقالت: تَعِس مِسطح، قلت: بئس ما قلت

---

(١) أسد الغابة ٣/٣١. وسير أعلام النبلاء ٢/٥٤٥.

لمهاجر شهد بدرًا، قالت: أوما بلغك الخبر؟ قلت: وما الخبر؟ فأخبرتني بقول أهل الإفك، فما قدرت أن أقضي حاجتي، ورجعت، وما زلت أبكي حتى ظننت أن البكاء سيصدع كبدي، وعاتبت أمي لعدم إخباري، فهدَّأتْ من رَوْعِي. وقام رسول الله ﷺ في الناس يخطبهم – ولا أعلم بذلك – فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: " أيها الناس، ما بال رجال يؤذونني في أهلي، ويقولون عليهم غير الحق، والله ما علمت منهم إلا خيرًا، ويقولون ذلك لرجل والله ما علمت منه إلا خيرًا، وما يدخل بيتًا من بيوتي إلا وهو معي".

وكان الذي تولى كبره وأشعل قصة الإفك عبدالله بن أبي وتناقلها الناس، ووقع في الإفك مسْطَحُ وحمْنةُ بنت جحش؛ لأن أختها زينب زوج النبي ﷺ كانت المنافس–ة الوحيدة لعائشة رضي الله عنها في جمالها. فأما زينب فعصمها الله بدينها فلم تقل إلا خيرًا.

فأجاب رسول الله ﷺ أسيدُ بنُ حضير وهو من الأوس: يا رسول الله إن كان القائل من الأوس كفيناك إياه، وإن كان من الخزرج فهم أهل لأن تضرب أعناقهم، فقال سعد بن عبادة: كذبت لا تضرب أعناقهم، وما قلت هذه المقالة إلا لأنك قد عرفت أنهم من الخزرج ، ولو كانوا من قومك ما قلت هذا، فقال أسيد: كذبت لعمر الله، ولكنك منافق تجادل عن المنافقين.

وكاد يتفاقم الشر بين الأوس والخزرج، ونزل رسول الله ﷺ من المنبر فدخل عليّ، فدعا علي بن أبي طالب، وأسامة بن زيد حين استلبث الوحي يستشيرهما في فراق أهله، فأما أسامة فأثنى خيرًا، وأشار بالذي يعلم من براءتي، وأما علي فقال: يا رسول الله لم يضيّق الله عليك، والنساء سواها كثير، وسل الجارية

تَصْدُقكَ[1]؛ فدعا رسول الله ﷺ بَرِيَرة فقال: أي بَريرة هل رأيت من شيء يَرِيبُك؟. قالت له: والذي بعثك بالحق ما رأيت عليها أمرًا قط أكثر من أنها جارية حديثة السن تنام عن عجين أهلها فتأتي الداجن فتأكله.

قالت: ثم دخل عليَّ رسول الله ﷺ وعندي أبواي وامرأة من الأنصار، وأنا أبكي وهي تبكي معي، فجلس فحمد الله، ثم قال: يا عائشة إنه قد كان ما بلغك من قول الناس فاتقي الله، فإن كنت قد قارفت سوءًا مما يقول الناس فتوبي إلى الله؛ فإن الله يقبل التوبة عن عباده، فوالله ما هو إلا أن قال لي ذلك فقَلص دمعي[2] حتى ما أحس منه شيئًا، وانتظرت أبوي أن يجيبا عني رسول الله ﷺ فلم يتكلما، وأيم الله لأنا كنت أحقر في نفسي وأصغر شأنا من أن ينزل الله في قرآنًا يقرأ به في المساجد ويصلى به، ولكن قد كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ في نومه شيئًا يكذب الله به عني، أو يخبر خبرًا.

---

(١) ذكرت بعض كتب السير أن عليّا ضرب الجارية ضربًا شديدًا يقول لها: اصدقي رسول الله. وهو كلام غير صحيح، فلا يعقل أن يسكت النبي ﷺ على ضرب الجارية ظلمًا، ثم إن عليًا معروف بالورع، وهو وإن كان يعيش ألما وعارا لأنه من لحم رسول الله ودمه، إلا أنه ليس بجلاد، وما عرف عنه إلا كظم الغيظ، وتحري الحق، وهو الذي أوصى أهله أن يعاملوا ابن ملجم الذي اغتاله معاملة كريمة، ونهاهم عن المثلة به.

(٢) قلص: ارتفع وأمسك.

فلما لم أر أبوي تكلما قلت: ألا تجيبان رسولَ الله؟ فقالا: والله ما ندري بماذا نجيبه؟ ووالله ما أعلم أهل بيت دخل عليهم ما دخل على آل أبي بكر في تلك الأيام.

فاستعبرت وقلت: والله لا أتوب مما ذكرتَ أبدًا، والله إني لأعلم لئن أقررت بما يقول الناس والله يعلم أني منه بريئة لأقولن ما لم يكن، ولئن أنا أنكرت ما يقولون لا تصدقوني، ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [١٨: يوسف]. فلم يبرح رسول الله ﷺ مجلسه حتى نزل عليه الوحي، ثم سُرِّي عنه فجلس وإنه ليتحدرُ منه مثل الجُمَان[١] في يوم شات فجعل يمسح العرقَ عن جبينه ويقول أبشري يا عائشة، فقد أنزل الله براءَتك، قلت: بحمدِ الله.

ثم خرج إلى الناس فخطبهم، وتلا عليهم ما أنزل الله عليه من القرآن في ذلك، ثم أمر بمسطَح بن أثاثة، وحسانَ بن ثابت، وحمنةَ بنت جحش وكانوا ممن أفصح بالفاحشة فَجَلَدَهُم حد القذف.

قال ابن إسحاق عن بعض رجال بني النجار: إن أبا أيوب خالد ابن زيد قالت له امرأته أم أيوب: يا أبا أيوب أتسمع ما يقول الناس في عائشة؟ قال: بلى وذلك لكذب، أكنت يا أم أيوب فاعلة؟ قالت: والله ما كنت لأفعله، قال فعائشة والله خير منك[٢].

---

(١) الجمان: حب كالدر يصنع من الفضة. ينظر المختار ١١٢.

(٢) ابن هشام ٢/٣٠٢. والاكتفاء ٢/١٧٠.

ومما نزل من القرآن:﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡۚ لَا تَحۡسَبُوهُ شَرّٗا لَّكُمۖ بَلۡ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُم مَّا ٱكۡتَسَبَ مِنَ ٱلۡإِثۡمِۚ وَٱلَّذِي تَوَلَّىٰ كِبۡرَهُۥ مِنۡهُمۡ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿١١﴾ لَّوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ ظَنَّ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمۡ خَيۡرٗا وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفۡكٞ مُّبِينٞ ﴿١٢﴾ لَّوۡلَا جَآءُو عَلَيۡهِ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَۚ فَإِذۡ لَمۡ يَأۡتُواْ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُوْلَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ لَمَسَّكُمۡ فِي مَآ أَفَضۡتُمۡ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذۡ تَلَقَّوۡنَهُۥ بِأَلۡسِنَتِكُمۡ وَتَقُولُونَ بِأَفۡوَاهِكُم مَّا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ وَتَحۡسَبُونَهُۥ هَيِّنٗا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٞ ﴿١٥﴾ وَلَوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ قُلۡتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبۡحَٰنَكَ هَٰذَا بُهۡتَٰنٌ عَظِيمٞ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثۡلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلۡفَٰحِشَةُ فِي ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾[١١-٢٠: النور].

فقال أبو بكر: والله لا أنفق على مسطح لقوله في عائشة ما قال، وكان ينفق عليه. فأنزل الله في ذلك : ﴿وَلَا يَأۡتَلِ أُوْلُواْ ٱلۡفَضۡلِ مِنكُمۡ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤۡتُوٓاْ أُوْلِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلۡيَعۡفُواْ وَلۡيَصۡفَحُوٓاْۗ

﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [٢٢: النور]. فقال أبو بكر: بلى والله إني لأحب أن يغفر الله لي؛ فأنفق على مسطح[1].

الدروس والعبر:

١-لم يبلغ المشركون من أذية رسول الله ﷺ ما بلغ المنافق ابن أبي، فما أدمى قلبَ رسول الله مصيبةٌ كحديث الإفك؛ لأنه تعرض فيه للمساس بشرفه، والطعن في رجولته، ثم لا يقدر أن يفعل شيئًا؛ لأن الذي بث السم غارز بذنبه في الأرض. وما جعل الله الدرك الأسفل في جهنم للمنافق إلا لخطورته؛ فالمنافق يتلون ويتبدل: يبكي وهو كاذب، ويضحك وهو كاذب. إن النفاق وباء فتاك عانى منه النبي ﷺ ما عانى، وتحدث عنه القرآن طويلاً، ورغم ذلك احترم النبي ﷺ إيمان المنافقين الظاهر، وعوملوا معاملة المسلمين؛ فأيُّ دين هذا ما أجمله؟! وأي نبي ما أكمله؟!. يقول في شأن رأس النفاق: لا، **بل نحسن صحبته.**

٢- أي مدرسة تعلم فيها الحي بن الميت، عبدالله بن عبدالله بن أبي؟ الذي استعد أن يقطع رأس أبيه؛ إرضاء لله ورسوله، وقد وقف هذا الفتى على باب

---

(١) البخاري رقم ٣٩١٠ بتصرف يسير . وتفسير الطبري ١١٨/١٨/١٠. وتفسير الرازي ١٧٥/٢٣/٢. والقرطبي ١٣٢/٢/٦. وأسباب النزول ٢٦٥. ومجمع البيان ٢٢٨/٧. وابن هشام ٢٩٧/٢. والاكتفاء ١٦٥/٢.

المدينة ومنع أباه من الدخول قائلاً: والله لا تدخل إلا بأمر رسول الله، فهو الأعز وأنت الأذل.

٣-جماع الدنايا في التعيير بالرزق ، فابن أبي لم يُنفِقْ على أحد يُعيِّر به، فالذين تبوأوا الدار والإيمان هم السابقون من الأنصار؛ لكنه عيَّر بمكارم غيره، وهو لؤم اشترك فيه مع المشركين الذين حصروا الرسول في الشعب، وهو السلاح الذي أصيب به المستكبرون في عالم اليوم، ويحصدون به ملايين الضعفاء في الشعوب المنكوبة.

٤-نزلت سورة النور تفصِّل نظام الأسرة تفصيلاً يبهر العقول، ويدهش الألباب، وأنَّى لأرقى الأنظمة المهتمة بالقضايا الاجتماعية أن تداني وحي السماء، ومن أين للبعر أن يُضاهى بالجوهر؟ .

٥-بنى الإسلام قاعدة صلبة في شأن الأسرة، ألا وهي الستر والحمل على الظاهر، و لم يقبل الشكوك ولا الظن، ومن تقوَّل ورمى غيره بالزنى فعليه أن يأتي بأربعة شهود عدول أنهم رأوا الميل في المكحلة، وإلا ألهب ظهره بثمانين جلدة هي حد القذف.

٦- يريد الإسلام للأسرة أن تستقر بعيدًا عن الشكوك والوسوسة، والمطلع على الضمائر هو الله. والحساب يوم القيامة، **فالولد للفراش وللعاهر الحجر**[1] .

٧- ما أحسن معالجة النبي ﷺ للأزمات حين رحل بالناس حتى أتعبهم ليمنع القيل والقال.

---

(١) البخاري رقم ٢١٠٥، ٢٢٨٩. والنسائي ٦/١٨٠ رقم ٣٤٨٢ إلى ٣٤٨٦. وابن ماجة رقم ٢٠٠٦. وأحمد بن حنبل رقم ٨٢٠ . وأبو داود رقم ٢٢٧٣.

٨- القرآن قاطع ببرآءة عائشة رضي الله عنها فمن اتهمها بالفاحشة بعد نزول القرآن فهو كافر، فقد صان الله نساء الأنبياء عليهم السلام من ارتكاب الفاحشة، وما بغت امرأة نبي قط. أما خيانة امرأتي نوح ولوط عليهما السلام فخيانة في الدين[1].

٩- ما أجمل دين النبي ﷺ، وما أكرم خلقه وهو يمتثل لقاعدة التوبة: يا عائشة إن كنت قارفت ذنبًا فتوبي. نعم إنها التوبة هبة الله العظمى لعباده العصاة.

١٠- لم يُشِرْ عليٌّ كرم الله وجهه بطلاق عائشة بغضًا لها، حاشاه من ذلك، ولكنه يتجرع مع النبي ﷺ علقم العار الذي تبلبلت به المدينة؛ فهو من طينة النبي ﷺ عرضُهُمَا واحد، والمرأة مهما عزَّ مكانها لا تساوي ضجر النبي ﷺ هذه المدة، فإذا كان في الطلاق إنهاء المشكلة فليكن.

١١- رأس الدين الورع، وقد رُزِقَه أبو أيوب وأم أيوب حين ظنا بأنفسهما خيرًا، وقالا: هذا إفك مبين. وقد حمد الله لهما طهارة ألسنتهما، ومتانة ورعهما.

١٢- زواج النبي ﷺ بجويرية إقالة لذوي المروءات، وإنزال الناس منازلهم، ومداواة للجراح، وخدمة للدعوة، وكان زواج خير وبركة.

٣٠ - غزوة بني لحيان:

(١) مجمع البيان ١٠/٢٤.

خرج ﷺ في مائتي رجل معهم عشرون فرسًا - واستعمل ابن أم مكتوم؛ لينتقم لأصحاب عاصم بن أبي الأقلح، ففر منه بنو لحيان ورجع، وبعث السرايا في تلك البلاد، ووصل إلى عسفان قريب مكة ليذعر قريشًا، ورجع لم يلق كيدًا؛ مرددًا: آيبون تائبون إنشاء الله حامدون لربنا عابدون، أعوذ بالله من وعثاء السفر، وكآبة المنقلب، وسوء المنظر في الأهل والمال[1].

٣١ غزوة ذي قَرَد[2] وتسمى (الغابة):

(ربيع الأول سنة ٦ هـ):

سببها أن عُيينة بن حصن الفَزَاري أغار في خيل من غطفان على عشرين ناقة حلوب لرسول الله ﷺ كانت ترعى بالغابة على بريد من المدينة، وفيها ابن أبي ذر وامرأته، فقتلوا الرجل واحتملوا المرأة في اللقاح. وكان أول من علم بهم سلمة بن الأكوع، غدا يريد الغابة متوشحًا قوسه ونبله، فخرج يشتد في آثار القوم مثل السبُع حتى لحق بهم، فجعل يَرُدُّهم بالنبل، ويقول إذا رمى: "خذها وأنا ابن الأكوع، اليوم يوم الرُّضَّع[3]". فإذا وجهت الخيل نحوه انطلق هاربًا ثم عارضهم، فإذا أمكنه الرمي رمى. وبلغ رسول الله ﷺ صياح ابن الأكوع،

---

(١) الطبقات ٧٨/٢.والواقدي ٥٣٥/٢. وسبل الهدى والرشاد ٥٠/٥. والسيرة الحلبية ١/٣. وزاد المعاد ١١٩/٢.

(٢) اسم ماء على بريد من المدينة. وقيل: إنه من ناحية خيبر.ذ

(٣) جمع راضع، والراضع: اللئيم. والمعنى: اليوم يهلك اللئام.

فصرخ بالمدينة: الفَزَع الفزع، فترامت إليه الخيول. وكان أول الفرسان الواصلين المقداد بن عمرو، ثم عباد بن بشر، وسعد بن زيد، وأسَيد بن حضير، وعكاشة بن محصن، ومحرز بن نضلة، وأبو قتادة الحارث بن ربعي، وأبو عياش عبيد بن زيد، فلما اجتمعوا إلى رسول الله ﷺ أمَّرَ عليهم سعد بن زيد، وقيل: المقداد، ثم قال: اخرج في طلب القوم حتى ألحقك بالناس.

ولما لحقوا بالقوم قتل أبو قتادة رجلاً وغشاه ببردِه ثم لحق بالناس. وأقبل رسول الله ﷺ في المسلمين، فإذا القتيل مسجى، فاسترجع الناس وقالوا: قُتِلَ أبو قتادة، فقال رسول الله ﷺ: إنما هو قتيل أبي قتادة لتعرفوا أنه صاحبه، فأعطاه رسول الله ﷺ فرسه وسلاحه.

وأدرك عُكاشة رجلين، فقتلهما بطعنة واحدة، واستنقذوا بعضَ اللقاح، وسار رسولُ الله ﷺ حتى نزل بالجبل من ذي قَرَد، وتلاحق به الناس، فأقام عليه يومًا وليلة، وقال سَلمة بن الأكوع: يا رسولَ الله لو سرَّحتني في مئة رجل لاستنقذت بقية السرح وأخذتُ بأعناق القوم، فقال رسول الله ﷺ: إنهم الآن ليُغبقون في غطَفان[1]. فأعطى كل مائة من أصحابه جزورًا ، وعاد إلى المدينة.

وأقبلت امرأة أبي ذر إلى رسول الله ﷺ على ناقة من إبله، وقالت: إني قد نذرت أن أنحرها إن نجاني الله عليها، فتبسم ثم قال: " بئس ما جزيتها أن حملك الله ونجاك بها ثم تنحرينها، إنه لا نذر في معصية الله، ولا فيما لا تملكين، إنما هي ناقة من إبلي، فارجعي إلى أهلك على بركة الله "[2].

---

(١) يغبقون: يسقون الغبوق: وهو اللبن يشرب في العشي .

(٢) الطبقات ٢/ ٨٠. والواقدي ٢/٥٣٧. والطبري ٥٦٩. وابن كثير ٣/٢٨٨. وابن هشام ٢/٢٨٥.

٣٢ – سرية عكاشة إلي الغمْر[١]:

(ربيع الأول سنة ٦هـ):

كان بنو أسد يؤذون من مر بهم من المسلمين فأرسل النبي ﷺ إليهم عكاشة في أربعين رجلاً، فوجدوا القوم قد هربوا، ووجدوا رجلاً نائمًا فدَّلهم على مائتي بعير فأخذوها ورجعوا[٢].

٣٣ – سرية محمد بن مسلمة :

(ربيع الثاني سنة ٦هـ):

أرسله النبي ﷺ في عشرة من المهاجرين إلى بني ثعلبة، على بعد ٢٤ ميلاً من المدينة كانوا يريدون الإغارة على نعم المسلمين قرب المدينة. فأحاط بالمهاجرين مائة رجل فقُتِلُوا وجُرِحَ ابن مسلمة حتى مرَّ به رجل من المسلمين فحمله وأتى به المدينة[٣].

٣٤ – سرية أبي عبيدة:

أرسل النبي ﷺ أبا عبيدة في أربعين رجلاً إلى مصارع أصحاب ابن مسلمة، فأغاروا عليهم فأعجزوهم هربًا، وأخذوا رجلاً فأسلم، واستاقوا نعمًا[٤].

---

(١) بئر قديمة بمكة.

(٢) الطبقات ٢/٨٤. والواقدي ٢/٥٥٠.

(٣) الطبقات ٢/٨٥. والواقدي ٢/٥٥١. والسيرة الحلبية ٣/١٧٦.

(٤) الطبقات ٢/٨٥. والواقدي ٢/٥٥١. ومغلطاي ٢٦٨. والسيرة الحلبية ٣/١٧٦.

سرايا زيد بن حارثة[1]: سنة ٦هـ:

٣٥- **الأولى:** في ربيع الآخر إلى الجموم[2] فأسر امرأة ودلته على نِعَمٍ وشاء وأسرى.

٣٦- **الثانية:** في جمادى الأولى إلى العيص[3]، وهو في مائة وسبعين من المسلمين يعترض عيرًا لقريش، فأصابها، وفيها فضة كثيرة، وأسروا أناسًا منهم العاص بن الربيع، فاستجار بزينب بنت رسول الله زوجته، فأجارته ورد عليه المسلمون القافلة دون إكراه من النبي ﷺ، فردها أبو العاص إلى أصحابها فأسلم وقدم إلى المدينة، ورد النبي عليه زوجته بالعقد الأول؛ فآية تحريم المسلمات على الكفار لم تكن نزلت.

٣٧- **الثالثة:** في جمادى الآخرة إلى الطَّرِف[4]، في خمسة عشر رجلاً لغزو بني ثعلبة: انتقامًا لأصحاب محمد بن مسلمة، فأصابوا عشرين بعيرًا وشاءً، وهربت الأعراب.

٣٨- **الرابعة:** في جمادى الآخرة إلى حِسْمَى[5]، وسببها أن الهنيد وابنه من قبيلة جذام تعرَّضوا لدحية الكلبي وهو قادم من عند القيصر، فسلبوه ما أهداه له إلا

---

(١) الطبقات ٢/٨٦. والسيرة الحلبية ٣/١٧٦.

(٢) ماء لبني سليم على بعد ٤ برد من المدينة.

(٣) على أربع ليال من المدينة.

(٤) ماء على بعد ٣٦ ميلاً من المدينة.

(٥) وراء وادي القرى.

ثوبًا خلقا، واستنقذه قومٌ من بني الضبيب، فقدم على النبي ﷺ فأخبره فأرسل زيدًا في خمسمائة معهم دحية، فكان يسيرون ليلاً ويكمنون نهارًا، يدلهم رجل من بني عذرة، فهجموا في الصبح فأوجعوهم قتلاً، وقتل الهنيد وابنه، وغنموا مائة من النساء والصبيان، وألف بعير، وخمسة آلاف شاة. وقد رد النبي ﷺ ما غنم زيد؛ لـمّا جاءه زيد بن رفاعة الجذامي في نفر من قومه وأسلموا.

٣٩- الخامسة: في رجب إلى وادي القرى، خرج في اثني عشر رجلاً، وقاتل بني فزارة فقتل منهم قتلى، وقتل من المسلمين تسعة وأفلت ثلاثة منهم زيد وقد جرح. وسببها تأديب العدو أو استكشاف خبره.

٤٠ - سرية عبدالرحمن بن عوف إلي دومة الجندل:

(شعبان ٦هـ):

دعاه رسول الله ﷺ فعممه وقال: اغز باسم الله، وفي سبيل الله فقاتل من كفر بالله، لا تغل ولا تغدر ولا تقتل وليدًا، وبعثه إلى بني كلب، وقال: إن استجابوا لك فتزوجْ ابنة ملكهم، فمكث ثلاثة أيام يدعوهم إلى الإسلام ومعه سبعمائة من المسلمين، فأسلم رئيسهم الأصبغ بن عمرو الكلبي وكان نصرانيًا، وأسلم معه ناس كثير، وتزوج عبدالرحمن تماضر ابنة الأصبغ[1].

٤١ - سرية علي بن أبي طالب كرم الله وجهه إلي بني سعد بفدك (شعبان ٦ هـ)

(١) الطبقات ٢/٨٩. والواقدي ٢/٥٦٠. ودحلان ٢/١٥٠.

بعثه رسول الله ﷺ في مائة رجل، وقد بلغه أنهم يريدون إمداد يهود خيبر بالمقاتلين. فأغار عليهم وأخذ خمسمائة بعير، وألفي شاة، وهرب القوم مع نسائهم وأولادهم[1].

٤٢ – سرية زيد بن حارثة: (رمضان ٦ هـ)[2]:

وسببها أن زيدًا خرج في تجارة إلى الشام فلقيه ناس من فزارة بوادي القرى فضربوه وأصحابه وأخذوا ما كان معهم، فقدم المدينة فأرسله النبي ﷺ في جيش، وأمرهم بأن يسيروا بالليل ويكمنوا بالنهار، وكان الفزاريون يراقبون الطريق، لكنَّ زيدًا أخطأ الطريق فأدَّاه خطأه في غبش الصبح إلى وسط القوم، فأحاط بهم وقتلهم، وقتلوا أم قِرْفة[3].

---

(١) الطبقات ٨٩/٢. والواقدي ٥٦٢/٢. والسيرة الحلبية ١٨٣/٣.

(٢) الطبقات ٩٢/٢. والواقدي ٥٦٤/٢. ومغلطاي ٢٧٢. وعيون الأثر ١٥٦/٢.

(٣) وكانت عجوزًا ذات شرف ومنعة، واختلف في سبب قتلها، فقيل: لِسَبِّها رسول الله ﷺ، وقيل: جهَّزت من ولدها وولد ولدها ثلاثين راكبًا لقتل النبي ﷺ، وقيل: كانت تؤلب عليه. قيل: عمد قيس بن المحسر، فربطها في جملين وزجرهما فشقت نصفين. ولا أظن أحدًا من الصحابة يفعل هذا، وقد نهى النبي ﷺعن المثلة، وقال: إذا قتلتم فأحسنوا القتلة. ولو صح ذلك لأنكره النبي ﷺ أشد الإنكار. و لم ينقل ذلك عنه.

٤٣ – سرية عبدالله بن عتيك: (رمضان ٦ هـ)[1]:

أرسل ابن عتيك وعبدالله بن أنيس وأبا قتادة والأسود بن خزاعي ومسعود بن سنان لقتل سلام بن أبي الحقيق اليهودي، لأنه كان يحرِّض على النبي ﷺ قبائل غطفان؛ فهجموا على منزله في خيبر ليلاً، ورطن له ابن عتيك بالعبرية ففتح له فقتلوه. فصاحت امرأته : وإله يهود لقد لفظ أنفاسه، فخرج اليهود في طلبهم، واختبأوا في ساقية ماء. ولما وصلوا إلى رسول الله ﷺ قال: أفلحت الوجوه، قالوا: أفلح وجهك يا رسول الله، واختلفوا فيمن قتله، فقال: أروني أسيافكم، فوجد في سيف عبدالله بن أنيس أثر الطعام فقال: هذا قتله.

٤٤ – سرية عبدالله بن رواحة: (شوال ٦ هـ)[2]:

بعثه ﷺ في ثلاثة نفر إلى أسير بن زارم اليهودي لكي يطلع على خبره، لأنه بلغ رسول الله ﷺ أن أسير بن زارم سار إلى غطفان وغيرهم، يجمعهم لحرب رسول الله ﷺ انتقامًا لسلام بن أبي الحقيق، فأكد بن رواحة لرسول الله ﷺ صدق ما بلغه، فبعث معه ثلاثين رجلاً، فذهبوا إلى أسير وطلبوا منه الأمان حتى يعرضوا عليه ما جاءوا به، وطلبه منهم كذلك، ودعوه إلى النبي ﷺ ليوليه على خيبر ويحسن إليه، فطمع في ذلك وذهب معهم في ثلاثين رجلاً من اليهود، وفي الطريق ندم أسير وأراد الغدر وأخذ سيفه؛ فهجم عليه عبدالله ابن رواحة بعد أن ساق القوم فضربه بالسيف فقتله وقتلوا أصحابه، وبقي رجل واحد، و لم يصب من المسلمين أحد، ورجعوا إلى رسول الله ﷺ فقال لهم: قد نجاكم الله من القوم الظالمين.

---

(١) الطبقات ٢/٩١. ومغلطاي ٢٧٣.

(٢) الطبقات ٢/٩٢. والواقدي ٢/٥٦٦. ومغلطاي ٢٧٤.

٤٥ – سرية كرز بن جابر الفهري:

(شوال ٦ هـ) [(١)]:

وسببها أن ثمانية أنفار أو سبعة من عُرينة وعُكْل، قدموا على النبي ﷺ فأسلموا واستوبؤا المدينة فأرسلهم إلى لقاحه، وكانت ترعى ناحية قباء، فشربوا منها حتى صَحُّوا فسرقوا اللقاح وقتلوا يسارًا مولى رسول الله ﷺ، فقطعوا يده ورجله وغرزوا الشوك في لسانه وعينيه حتى مات. وبلغ الرسول ﷺ ذلك فبعث كرز بن جابر في عشرين فارسًا، وقيل: سعيد بن جابر. فلحقوا بهم وأسروهم فأمر رسول الله ﷺ بقطع أيديهم وأرجلهم وسمل أعينهم فصلبوا. وأنزل الله:﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [٣٣: المائدة]. و لم يسمل بعد ذلك عينًا[(٢)] .

٤٦ – سرية عمرو بن أمية الضمري:

(شوال ٦ هـ) [(٣)]:

---

(١) الطبقات ٢/٩٢. والواقدي ٢/٥٦٤. ومغلطاي ٢٧٢. وعيون الأثر ٢/١٥٦.

(٢) أسباب النزول ١٦٤.

(٣) الطبقات ٢/٩٣. سبل الهدى٦/١٩٤. مغلطاي٢٧٥، زيني دحلان ٢/٥٩ .

أرسل أبو سفيان من يقتل النبي ﷺ فرد النبي ﷺ بإرسال عمرو وسلمة بن أسلم بن حريس ليقتلا أبا سفيان فرآهما معاوية يطوفان بالبيت، فأخبر قريشًا فهرب عمرو وصاحبه ولقيا في الطريق رجلين فقتلاهما ثم رسولين لقريش فقتلا واحدًا وأسرا الثاني، فأخبرا النبي ﷺ فجعل يضحك.

صلح الحديبية [1]:

---

(١) وقيل: إن السبب أنه بلغ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن تحالفًا عقد بين قريش – جنوب المدينة – واليهود في خيبر – شمالي المدينة – الغاية منه جَعْلُ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم – في المدينة – بين طرفي الكماشة و لم يكن عنده من القوة ما يستطيع أن يكسر به هذا الحصار عسكريًا، ولذلك فكر بكسره سلميًا – دبلوماسيًا – فاستنفر الناس لزيارة الكعبة في مكة. وهناك استطاع أن يعقد صلح الحديبية مع قريش، وبذلك تم له ما أراد ، فما أن عاد

(في آخر سنة ٦هـ ٦٢٨م)[١]

خرج ﷺ يريد العمرة واستنفر العرب ليخرجوا معه، وهو يخشى من قريش أن يعرضوا له بحرب أو يصدوه عن البيت، فأبطأ عليه كثير من الأعراب، وساق معه الهديَ سبعين بَدَنة، وأحرم بالعمرة ليأمن الناسُ ويعلموا أنه خرج زائرًا معظمًا للبيت، حتى إذا كان بعسفان أخبِرَ بأن قريشًا قد لبسوا جُلود النُّمور، ونزلوا بذي طُوى[٢]، يعاهدون الله أن لا يدخلها عليهم أبدًا، فقال: يا ويحَ قريش، لقد أكلتهم الحرب، ماذا عليهم لو خلوا بيني وبين سائر العرب، فإن هم أصابوني كان ذلك الذي أرادوا، وإن أظهرني الله عليهم دخلوا في الإسلام وافرين، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة، فما تظن قريش؟ فوالله لا أزال أجاهد على الذي بعثني الله به حتى يُظهره الله أو تنفرد هذه السالفة[٣].

فطلب من يدله على طريق غير طريقهم، فانتدب رجل من أسلم، فسلك بهم طريقًا وعرًا شقت على المسلمين؛ فأفضوا إلى أرض سهلة عند منقطع الوادي، فقال ﷺ للناس: قولوا: نستغفر الله ونتوب إليه، فقالوا ذلك، فقال: والله إنها للحِطَّةُ[٤] التي عُرِضت على بني إسرائيل فلم يقولوها؛ فهبطوا إلى الحديبية أسفلَ

إلى المدينة حتى هاجم خيبر وكسر أحد فكي الكماشة ثم لم يلبث أن هاجم قريشًا فكسر بذلك الفك الآخر.

(١) المنتظم ٢٦٧/٣. والطبري ٦٢٠/٢. والاكتفاء ٢٣٣/٢. والبداية والنهاية ١٦٤/٤. والطبقات ٦٩/٢. والواقدي ٥١٧/٢. وابن هشام ٣٠٨/٢.

(٢) ذو طُوى: موضع قرب مكة.

(٣) السالفة: صفحة العنق.

(٤) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَقُولُواْ حِطَّةٌ﴾، ومعناه: اللهم حطَّ عنا ذنوبنا.

مكة، ونذرت بهم قريش فركضوا راجعين، وسدوا الطريق أمام رسول الله ﷺ. وخرج ﷺ حتى إذا سلك في ثنية المُرار بركت ناقته، فقال الناس: خلأت[1] الناقة، فقال ﷺ: ما خلأت وما هو لها بخُلقٍ ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة، لا تدعوني قريش اليوم إلى خطة يسألونني فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها، ثم قال للناس: انزلوا، قيل له: ما بالوادي ماء ننزل عليه، فأخرج سهمًا من كنانته فأعطاه رجلاً من أصحابه فنزل به في قَلِيب من تلك القُلُب[2] فغرزه في جوفه فجاش بالماء.

فلما اطمأن رسول الله ﷺ اختلفت بينه وبين قريش الرسل والوسطاء وأخبرهم أنه جاء معتمرًا، لكن قريشًا أمعنت في تعنتها، فأرسل عثمان بن عفان رضي الله عنه ليخبر قريشًا بالذي جاء له، فأشيع أن عثمان قُتل، فطلب النبي ﷺ من المسلمين أن يبايعوه بيعة الموت، وعزم على مناجزة قريش حتى النهاية، وقعد تحت شجرة وبويع بيعة الرضوان لم يتخلف عنها أحد إلا الجد بن قيس من المنافقين فقد اختبأ وراء ناقته؛ فأنزل الله تعالى: ﴿لَّقَدۡ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ يُبَايِعُونَكَ تَحۡتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيۡهِمۡ وَأَثَٰبَهُمۡ فَتۡحٗا قَرِيبٗا﴾ [١٨: الفتح]؛ فأدركت قريش أن العواقب وخيمة فأرسلت سهيل بن عمرو، فلما رآه النبي ﷺ قال: أرادت قريش الصلح فصالح النبي ﷺ.

بنود الصلح:

(١) خلأت: بركت و لم تنهض.

(٢) القليب: البئر.

دعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب رضوان الله عليه فقال: اكتب " بسم الله الرحمن الرحيم " فقال سهيل: لا أعرف هذا ولكن اكتب "باسمك اللهم" فكتبها، ثم قال: اكتب: " هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو". فقال سهيل: لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك، فقال رسول الله ﷺ: أكتب : " هذا ما صالح عليه محمد بن عبدالله سهيلَ بن عمرو، اصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين، يأمن فيهن الناس ويكف بعضهم عن بعض، وعلى أنه من أتى محمدًا من قريش بغير إذن وليه رده عليهم، ومن جاء قريشًا ممن مع محمد لم يرده عليه، وأن بيننا عيبةً مكفوفة[1]، وأنه لا إسلال ولا إغلال[2]، وأنه من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه".

فتواثبت خزاعة فقالوا: نحن في عقد محمد وعهده، وتواثبت بنو بكر فقالوا: نحن في عقد قريش وعهدهم، " وأنك ترجع عنا عامَك هذا فلا تدخل علينا مكة، وأنه إذا كان عامٌ قابلٌ خرجنا عنك فدَخلتَها بأصحابِك فأقمتَ بها ثلاثًا، معك سلاحُ الراكبِ: السيوفُ في القُرُب، لا تدخلها بغيرها".

وفي أثناء كتابة الكتاب جاء أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف في الحديد، قد انفلت إلى رسول الله ﷺ، وقد كان أصحاب رسول الله ﷺ خرجوا، وهم لا يَشكُّون في الفتح، لرؤيا رآها رسول الله ﷺ، فلما سمعوا بنود الصلح دخل على الناس من ذلك أمر عظيم حتى كادوا يهلكون. فلما رأى سهيل أبا

---

(١) أصل العيبة وعاء من جلد يكون فيه المتاع. مكفوفة: أشرجت على ما فيها وأقفلت. ضرب ذلك مثلاً للقلوب التي طويت على ما تعاقدوا عليه.

(٢) الإسلال السرقة الخفية. والإغلال: الخيانة.

جندل قام إليه فضرب وجهه وأخذ بتْلبيبه[1]، ثم قال: يا محمد قد لجّت القضية[2] بيني وبينك قبل أن يأتيك هذا، قال: صدقت، فجعل يجر إبنه ليرده إلى قريش، وهو يصرخ بأعلى صوته: يا معشر المسلمين أأردُّ إلى المشركين يفتنوني في ديني؟ فازداد غم المسلمين، فقال رسول الله ﷺ: يا أبا جندل اصبر واحتسب فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجًا ومخرجًا؛ إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحًا، وأعطيناهم على ذلك وأعطونا عهد الله، وإنا لا نغدر بهم.

فوثب عمر بن الخطاب رضي الله عنه مع أبي جندل يمشي إلى جنبه ويقول: اصبر يا أبا جندل، فإنهم المشركون، وإنما دمُ أحدهم دمُ كلب، ويدني عمر قائم السيف منه رجاء أن يأخذ السيف فيضربَ به أباه، فضن الرجل بأبيه، ونَفَذت القضية.

وشهد على الصلح رجال من المسلمين والمشركين: أبو بكر، وعمر، وعبدالرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، ومحمود بن مسلمة، وعبدالله بن سهيل بن عمرو، ومكرز بن حفص وهو يومئذ مشرك، وشهد عليٌّ وكتب الصحيفة .

فلما فرغ رسول الله ﷺ من الصلح قام إلى هديه فنحرَه، ثم جلس فحلق رأسه، فلما رأى الناس أن رسول الله ﷺ قد نحر وحلق تواثبوا ينحرون

(١) التلبيب: مجمع الثياب عند الصدر والنحر، أخذ بتلبيبه: جمع عليه ثوبه عند صدره وقبض عليه يجره.

(٢) لجت القضية: تمت.

ويحلقون. وقيل: أمرهم بذلك وهم واجمون، فشكى لأم سلمة رضي الله عنها، فقالت: اعذرهم يا رسول الله وادع حالقك فإذا رأوك حلقت استجابوا، فلما رآه المسلمون يحلق ثابوا إلى رشدهم وقاموا يحلقون ويقصرون، ويكاد بعضهم يقتل بعضًا من الهم. وروي أن النبي ﷺ قال: رحم الله المحلقين ثلاثًا. وفي الرابعة قال: والمقصرين، فسئل ؟ فقال: إن المحلقين لم يشُكُّوا[1]. وبين مكة والمدينة نزلت سورة الفتح حال رجوعه ص‍ﷺ[2]. وكان صلح الحديبية فتحًا حقيقيًا؛ لما تحقق بعده من انتصارات للمسلمين لم تخطر على بال.

الدروس والعبر:

١- غاب عن المسلمين حكمةُ النبي ﷺ وبُعْدُ نظره، فعَقْدُ الصلح يعني أن قريشًا تعترف بالنبي ﷺ ندًا لها، كالدولة تتفاوض مع دولة أخرى.

٢- لـمَّا أمن الناس واختلطوا، تفرغ المسلمون لنشر دعوة الإسلام وهم آمنون، فما عُرِضَتْ مبادئُ الإسلام على أحد يعقل إلا وأسلم، فدخل في دين الله الألوف المؤلفة، وقريش لاهية في تجارتها ولهوها .

٣- تفرغ النبي ﷺ لتصفية المشاغبين وقطاع الطرق ولصوص الصحراء، وخضعت القبائل للإسلام خضوعًا تامًا.

٤- في هذه الفترة فتحت خيبر، وعاد جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه. وفَتْحُ خيبر أهم نصر أحرزه المسلمون مكن لدولتهم وبسط نفوذهم وكسر طوق الحصار الشمالي.

---

(١) مجمع الزوائد ٣/٢٦٢. والطبقات ٢/٩٨.

(٢) أسباب النزول ٣١٥.

٥- موافقة النبي ﷺ على رد من أتاه مسلمًا، وعدم رد من ذهب من أصحابه مرتدًا يدل على ذكاء خارق؛ لأن من ارتد من المسلمين لا حاجة في استرجاعه، ومن أتى مسلمًا ورُدّ كان امتحانًا لصلابته في دينه.

وقد ظهرت الحكمة في قصة أبي بصير حين جاء مسلمًا فرده النبي ﷺ معتذرًا بالعهد الذي بينه وبين قريش، وفي الطريق باغت أبو بصير صاحبيه فقتل أحدهما وولى الثاني فزعًا إلى النبي ﷺ، وقال: قتل صاحبُكم صاحبي، وأقبل أبو بصير في إثره متوشحًا سيفه فقال: وفت ذمتك يا رسول الله وأدى الله عنك، أسلمتني بيد القوم وقد امتنعت بديني أن أفتن فيه أو يُعبَثَ بي، قال: فقال رسول الله ﷺ: ويلُ امِّه مـحَشِّ[1] حرب، لو كان معه رجال.

وبقي مصلتًا سيفه يقطع الطريق على قريش، وبلغت كلمةُ النبي ﷺ مسلمي مكة فتسلل سبعون إلى أبي بصير، فإذا هم قوة ضاربة ذاقت قريش منها العناء، وأرغمتهم على رجاء محمد ﷺ أن يضمهم إليه، فوافق على ذلك، إلا أن أبا بصير رحمه الله- توفي قبل أن يصله أمرُ رسول الله ﷺ بالوصول إليه.

٦-لم يرد النبي ﷺ من جاء من النساء مسلمات لقول الله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ مُهَـٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَـٰنِهِنَّ ۖ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَـٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ ۖ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ [الممتحنة: ١٠].

٧- من دلائل النبوة أنَّ عليًا كرم الله وجهه اعترض على شطب محمد رسول الله كما طلب سهيل بن عمرو فقال النبي ﷺ: امحها أما إنك لتبتلنَّ بمثلها،

---

(١) وفي الصحيح: ويل أمه " مسعَرَ حرب " أي موقدها ومهيجها.

وحدث لعلي ذلك حين طلب عمرو بن العاص شطب أمير المؤمنين علي في وثيقة الصلح بينه وبين معاوية بعد حرب صفين[1].

مكاتبة الملوك[2]:

تفرغ النبي ﷺ بعد الهدنة مع قريش لارساء دعائم الدولة، فأكثر من السرايا والبعوث والمرشدين، ولم يهدأ ليلاً ولا نهارًا فهو ﷺ القائل: " **لأن يهدي الله على يديك رجلاً خير لك من حمر النعم** "[3]، وخطا ﷺ خطوة بعيدة المدى، وأراد أن ينقل رسالته من إطارها المحلي والإقليمي إلى المحيط العالمي الدولي، فهو رسول الله إلى الناس كافة، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا﴾ [١٥٨: الأعراف]، بل هو رسول إلى الجن والإنس، ولابد لاقتحام ميدان العلاقات الدولية أن يدِّرب أصحابه فنَّ الدبلوماسية الراقية، وحسن مخاطبة الملوك والرؤساء.

في أواخر سنة ست كاتب ﷺ ملوك الأرض يدعوهم إلى الإسلام، واتخذ خاتمًا من فضة يختم به خطاباته، وكان نقشه: محمد رسول الله.

كتاب قيصر ملك الروم:

(١) دلائل النبوة ٤/١٤٧. والكامل ٢/١٣٨.
(٢) الطبقات ١/١٦. وتأريخ الطبري ٢/٦٤٥. والبداية والنهاية ٤/٢٥٥. والكامل ٢/١٩٥. والمنتظم ٣/٢٧٤.
(٣) مجمع الزوائد ٥/٣٣٤.

وجه ﷺ دِحْيَةَ الكلبي بكتاب إلى قيصر الروم، وأمره أن يدفعه إلى عظيم بصرى ليوصله إلى الملك، وكان الكتاب: بسم الله الرحمن الرحيم من محمد بن عبدالله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى أما بعد: فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تَسْلَمْ يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإنما عليك إثم الأرِيسِيِّينَ ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [٦٤: آل عمران].

ولما وصل الكتاب إلى قيصر قال: انظروا لنا من قومه أحدًا نسأله عنه، وكان أبو سفيان بالشام مع رجال من قريش في تجارة، فجاءت رسل قيصر لأبي سفيان ودعوه لمقابلة الملك في القدس، فقال لترجمانه: سلهم أيهم أقرب نسبًا بهذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟ فقال أبو سفيان: أنا، فقال قيصر: ادنُ مني ، ثم أمر بأصحابه فجعلوا وراء ظهره، ثم قال لترجمانه: قل لأصحابه إنما قدمت هذا أمامكم لأسأله عن هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي وقد جعلتم خلفه كيلا تخجلوا من رد كذبه عليه إذا كذب.

ثم سأله كيف نسب هذا الرجل فيكم؟ قال: هو فينا ذو نسب، قال: هل تكلم بهذا القول أحد منكم قبله؟ قال: لا، قال: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال: لا، قال: فهل كان من آبائه من مَلِك؟ قال: لا، قال: فأشرافُ الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم؟ قال: بل ضعفاؤهم، قال: فهل يزيدون أم ينقصون؟ قال: بل يزيدون، قال: هل يرتد أحدمنهم سخطة لدينه؟ قال: لا، قال: هل يغدر إذا عاهد؟ قال: لا- ونحن الآن منه في ذمة لا ندري ما هو فاعل فيها، قال أبو سفيان: ولم يمكني إدخال شيء غير هذه اللفظة، قال: فهل

قاتلتموه؟ قال: نعم، قال: فكيف حربكم وحربه؟ قال: الحرب بيننا وبينه سجال، مرة لنا ومرة علينا، قال: فبم يأمركم؟ قال: يقول: اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئًا، وينهى عما كان يعبد آباؤنا، ويأمر بالصلاة، والصدق، والعفاف، والوفاء بالعهد، وأداء الأمانة.

فقال الملك: إني سألتك عن نسبه فزعمت أنه فيكم ذو نسب، وكذلك الرسل تبعث في نسب قومها، وسألتك هل قال أحد منكم هذا القول قبله؟ فزعمتَ أن لا، فلو كان أحد قال هذا القول قبله لقلت: رجل يأتم بقول قيل قبله، وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فزعمت أن لا، فقلتً: ما كان ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله، وسألتك هل كان من آبائه من ملك؟ فقلتَ: لا، فلو كان من آبائه ملك لقلت: رجل يطلب ملك أبيه، وسألتك أشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم؟ فقلت: ضعفاؤهم، وهم أتباع الرسل، وسألتك هل يزيدون أم ينقصون؟ فقلت: بل يزيدون، وكذلك الإيمان حتى يتم، وسألتك هل يرتد أحد منهم سخطة لدينه؟ فقلت: لا، وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب، وسألتك هل قاتلتموه؟ فقلت: نعم، وإن الحرب بينكم وبينه سجال، وكذلك الرسل تبتلى ثم تكون لهم العاقبة، وسألتك بماذا يأمر؟ فزعمت أنه يأمر بالصلاة، والصدق، والعفاف، والوفاء بالعهد، وأداء الأمانة. وسألتك هل يغدر؟ فذكرت أن لا، وكذلك الرسل لا تغدر، فعلمت أنه نبي، وقد علمت أنه مبعوث، و لم أظن أنه فيكم، وإن كان ما كلمتني به حقًا فسيملك موضع قدمي هاتين، ولو أعلم أني أخلص إليه لتكلفت ذلك، قال أبو سفيان: فَعَلَت أصوات الذين عنده وكثر لغطهم، فلا أدري ما قالوا، وأمر بنا فأخرجنا.

فلما خرج أبو سفيان مع أصحابه، قال: لقد بلغ أَمْرُ ابن أبي كبشة أن يخافه ملك بني الأصفر. ولما سار قيصر إلى حمص أذن لعظماء الروم في دسكرة له ثم أمر بأبوابها فأغلقت، ثم قال: يا معشر الروم ، هل لكم في الفلاح والرشد، وأن يثبت ملككم فتبايعوا هذا النبي؟ فحاصوا حيصة حمر الوحوش إلى الأبواب فوجدوها مغلقة، فلما رأى قيصر نفرهم، قال: ردوهم عليّ ، فقال لهم: إني قلت مقالتي أختبر بها شدتكم على دينكم، فسكتوا له ورضوا عنه، فغلبه حب ملكه على الإسلام، فذهب بإثمه وإثم رعيته كما قال ﷺ، ولكنه رد دحية ردًا جميلاً[1] .

كتاب أمير بصرى:

وأرسل ﷺ الحارث بن عمير الأزدي بكتاب إلى أمير بصرى، فلما بلغ مؤتة: وهي قرية من عمل البلقاء بالشام: تعرض له شرحبيل بن عمرو الغساني، فقال له: أين تريد؟ قال: الشام، قال: لعلك من رسل محمد؟ قال: نعم، فأمر به فضربت عنقه. ولم يقتل لرسول الله ﷺ رسول غيره، وقد وَجِدَ رسول الله ﷺ لذلك وَجْدًا شديدًا.

كتاب الحارث بن أبي شمر:

ووجه ﷺ شجاع بن وهب إلى أمير دِمَشْق من قِبَل هِرَقْل الحارث بن أبي شمر، وكان يقيم بغوطتها، وفيه: بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى الحارث بن أبي شمر، سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله وصدق. وإني أدعوك أن تؤمن بالله وحده لا شريك له يبق ملكك. فلما قرأ الكتاب رمى به وقال: من ينزع ملكي مني؟ واستعد ليرسل جيشًا لحرب المسلمين، وقال لشجاع: أخبر صاحبك بما ترى. ثم أرسل إلى قيصر يستأذنه في ذلك وصادف

(١) البخاري رقم ٧. ومسلم ١٧٧٣. والطبقات ٢٥٩/١. والطبري ٧٧/٢.

أن كان عنده دحية فكتب قيصر إليه يثنيه عن هذا العزم ويأمره أن يهيء بإيليا [القدس] ما يلزم لزيارته، فإنه بعد أن قهر الفرس نظر لزيارتها[1]. فلما رأى الحارث كتاب قيصر صرف شجاعًا بالحسنى ووصله بنفقة وكسوة[2].

كتاب المقوقس[3]:

ووجه ﷺ حاطب بن أبي بلتعة بكتاب إلى المقوقس أمير مصر من جهة قيصر، وكان فيه: بسم الله الرحمن الرحيم: من محمد رسول الله إلى المقوقس عظيم القبط، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد:

فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين، وإن توليت فإنما عليك إثم القبط، ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [٦٤: آل عمران].

فلما قرأه وكان بالاسكندرية، قال: ما منعه إن كان نبيًا أن يدعو على من خالفه وأخرجه من بلده؟ فقال حاطب: ألست تشهد أن عيسى بن مريم رسول الله، فما له حيث أخذه قومه فأرادوا أن يقتلوه ألا يكون دعا عليهم أن يهلكهم الله حتى رفعه الله إليه؟ قال: أحسنت، أنت حكيم جاء من عند حكيم، وأردف حاطب يقول: إن هذا النبي دعا الناس، فكان أشدهم عليه قريش، وأعداهم له اليهود، وأقربهم منه النصارى، ولعمري ما بشارة موسى بعيسى إلا كبشارة عيسى بمحمد، وما دعاؤنا إياك إلى القرآن إلا كدعائك أهل التوراة إلى الإنجيل،

---

(١) أنظر لزيارتها: طلب زيارتها.

(٢) الطبقات ١/٢٦١. والاكتفاء ٢/٤٠٦. والطبري ٣/٦٤٤.

(٣) الطبقات ١/٢٦٠. والطبري ٣/٦٤٤. ومروج الذهب ٢/٢٨٩.

وكل نبي أدرك أمةً فهم أمته، حَقَّ عليهم أن يطيعوه، وأنت ممن أدرك هذا النبي، ولسنا ننهاك عن دين المسيح، ولكننا نأمرك به.
فكان لهذا الكلام الرائع الذي يدل على المدى البعيد الذي وصل إليه طلاب المدرسة النبوية من الديبلوماسية والفقه والفصاحة والحصافة أثره على الملك؛ إذْ قال: إني قد نظرت في أمر هذا النبي، فوجدتُ أنه لا يأمر بمزهود فيه، ولا ينهى عن مرغوب فيه، و لم أجده بالساحر الضال ولا الكاهن الكذاب، ووجدت معه آلة النبوة: إخراج الغائب المستور، والإخبار بالنجوى، وسأنظر.
ثم كتب رد الجواب يقول فيه: بسم الله الرحمن الرحيم لمحمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط، سلام عليكم، أما بعد: فقد قرأت كتابك، وفهمت ما ذكرت فيه وما تدعو إليه، وقد علمت أن نبيًا قد بقي، وكنت أظنه يخرج بالشام، وقد أكرمت رسولك، وبعثت لك بجاريتين لهما مكان عظيم في القبط وبثياب وأهديت إليك بغلة تركبها والسلام.
وإحدى الجاريتين مارية التي تسرّى بها ﷺ وولدت له إبراهيم، والأخرى أعطاها لحسان بن ثابت، و لم يسلم المقوقس.

كتاب النجاشي[1]:

ووجه ﷺ عمرو بن أمية الضمري إلى النجاشي ملك الحبشة بكتاب جاء فيه: بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى النجاشي عظيم الحبشة سلام، أما بعد: فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن، وأشهد أن عيسى بن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم الطيبة الحصينة، فحملت عيسى من روحه ونفخه كما خلق آدم بيده، وإني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له والموالاة على طاعته، وأن تتبعني وتوقن بالذي جاءني،

(١) الطبقات ٢٥٨/١. والطبري ٦٤٤/٣. ودلائل النبوة ٤١٠/٤.

فإني رسول الله، وإني أدعوك وجنودك إلى الله عزوجل، وقد بلغت ونصحت فاقبلوا نصيحتي والسلام على من اتبع الهدى.

ولما وصله الكتاب أكرمه غاية الإكرام، وقال لعمرو : إني أعلم والله أن عيسى بشّر به ، ولكنَّ أعواني بالحبشة قليل، فأنظرني حتى أكثر الأعوان وألين القلوب. وقد عرض عمرو على من بقي من مهاجري الحبشة الرجوع إلى رسول الله بالمدينة، وكان من المهاجرين أم حبيبة بنت أبي سفيان زوج عبيدالله بن جحش، الذي كان أسلم وهاجر بها، ولكن قد غلبت عليه الشقاوة فتنصر.

زواجه ﷺ بأم حبيبة رضي الله عنها:

تزوج ﷺ أم حبيبة وهي بالحبشة، والذي زوَّجَها له النجاشي بتوكيل منه ﷺ، وساق النجاشي مهرها.

كتاب كسرى[1]:

ووجه ﷺ عبدالله بن حذافة السّهْمي بكتاب إلى كسرى ملك الفرس وفيه: بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم الفرس، سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله، وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدًا عبده ورسوله، أدعوك بدعاية الله فإني أنا رسول الله إلى الناس كافة لأنذر من كان حيًا ويحق القول على الكافرين، أسلم تسلم، فإن أبيت فإنما عليك إثم المجوس.

فلما وصله الكتاب مزقه استكبارًا، ولما بلغه ﷺ ذلك قال: مزق الله ملكه. وقد فعل؛ إذ سقطت دولة الفرس بيد المسلمين زمن عمر. وقد أمر كسرى

---

(١) الكامل ٢/١٤٦. والسيرة الحلبية ٣/٢٤٦. والبداية والنهاية ٤/٣٠٦. والاكتفاء ٢/٣٨٦.

عامله باليمن أن يوجه إلى الرسول من يأتي به إليه لكن الله سلط عليه ابنه شيرويه فقتله، ثم أرسل لعامله باليمن ينهاه عما أمره به أبوه.

كتاب المنذر بن ساوي[1]:

ووجه ﷺ العلاء بن الحضرمي بكتاب إلى المنذر بن ساوي ملك البحرين، قال فيه: بسم الله الرحمن الرحيم سلم أنت، فإني أحمد الله إليك الذي لا إله إلا هو، أما بعد: فإن من صلى صلاتنا واستقبل قبلتنا وأكل ذبيحتنا فذلك المسلم، له ذمة الله وذمة الرسول، مَنْ أحب ذلك من المجوس فإنه آمن، ومن أبى فإن عليه الجزية؛ فأسْلَم وحسن إسلامه.

وكان المنذر رشيدًا موفقًا، وكان على دين المجوس.

ومن التوفيق أن رسول النبي ﷺ كان عالي المستوى من الفصاحة فلنسمع لهذا الكلام الرائع: يا منذر، إنك عظيم العقل في الدنيا فلا تصغرن عن الآخرة، إن هذه المجوسية شر دين: ليس فيها تَكَرُّم العرب، ولا علم الكتاب، ينكحون ما يُستحيى من نكاحه، ويأكلون ما يتنزه عن أكله، ويعبدون في الدنيا نارًا تأكلهم يوم القيامة، ولست بعديم عقل ولا رأي، فانظر هل ينبغي لمن لا يكذب في الدنيا ألا نصدقه؟ ولمن لا يخون ألا نأمنه؟ ولمن لا يخلف ألا نثق به؟ هذا والله هو النبي الأمي الذي لا يستطيع ذو عقل أن يقول: ليت ما أمر به نهى عنه، أو ما نهى عنه أمر به، أو ليت زاد من عفوه أو نقص من عقابه؛ إذ كل ذلك منه على أمنية أهل العقل وفكر أهل النظر.

---

(١) الكامل ١٤٦/٢. والسيرة الحلبية ٢٥٢/٣. والطبقات ٢٦٣/١. والاكتفاء ٣٩٦/٢.

وكتب المنذر في رد الجواب: أما بعد: يا رسول الله، فإني قرأت كتابك على أهل البحرين، فمنهم من أحب الإسلام وأعجبه ودخل فيه، ومنهم من كرهه، وبأرضي مجوس ويهود، فأحْدِثْ إليّ في ذلك أمْرَك.

فكتب إليه ﷺ بسم الله الرحمن الرحيم: من محمد رسول الله إلى المنذر بن ساوى، سلام عليك فإني أحمد الله إليك الذي لا إله هو وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله. أما بعد:

أذَكّرك الله عزوجل، إن رسلي قد أثنوا عليك خيرًا، وإني شفعتك في قومك فاترك للمسلمين ما أسلموا عليه، وعفوت عن أهل الذنوب فاقبل منهم، وإنك مهما تصلح فلن نغيرك عن عملك، ومن أقام على يهوديته أو مجوسيته فعليه الجزية.

كتاب مَلِكَيْ عُمَان[1] :

ووجه ﷺ عمرو بن العاص بكتاب إلى جيفر وعبد ابني الجَلَندي ملكي عمان، فيه: بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى جيفر وعبد ابني الجلندي، سلام على من اتبع الهدى أما بعد: فإني أدعوكما بدعاية الإسلام، أسلما تسلما، فإني رسول الله إلى الناس كافة؛ لأنذر من كان حيًا ويحق القول على الكافرين، وإنكما إن أقررتما بالإسلام وَلّيتُكما، وإن أبيتما فإنَّ مُلكَكُما زائل، وخَيْل تحل بساحتكما وتظهر نبوتي على ملككما.

فلما دخل عمرو بناديهما سأله عبد بن الجلندي عما يأمر به الرسول وينهى، فقال: يأمر بطاعة الله عزوجل وينهى عن معصيته، ويأمر بالبر وصلة الرحم، وينهى عن الظلم والعدوان والزنا وشرب الخمر وعن عبادة الحجر والوثن

---

(١) الطبقات ٢٦٢/١. والطبري ٦٤٥/٣. والاكتفاء ٣٩٨/٢.

والصليب، فقال: ما أحسن هذا الذي يدعو إليه، ولو كان أخي يتابعني لركبنا حتى نؤمن بمحمد ونصدق به، ولكن أخي أضَنُّ بملكه من أن يدعه ويصير تابعًا. قال عمرو: إن أسلم أخوك ملّكه رسول الله على قومه فأخذ الصدقة من غنيهم فردها على فقيرهم، فقال عبد: إن هذا الخُلُقَ لحسن، وما الصدقة؟ فأخبره بما فرض الله من الصدقات في الأموال، ولما ذكر المواشي، قال: يا عمرو، يؤخذ من سوائم مواشينا التي ترعى في الشجر وترد المياه؟ قال: نعم، فقال عبد: والله ما أرى قومي على بُعْدِ دراهم وكثرة عددهم يرضون بهذا. ثم إن عبدًا أوصل عمرًا لأخيه جيفر، فتكلم معه عمرو بما ألانَ قلبه حتى أسلم هو وأخوه، ومكناه من الصدقة.

كتاب هَوْذَةَ بن علي[1]:

ووجه ﷺ سليط بن عمرو العامري بكتاب إلى هوذة ملك اليمامة وفيه: بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى هوذة ابن علي: سلام على من اتبع الهدى، واعلم أن ديني سيظهر إلى منتهى الخف والحافر فأسلم تسلم، وأجعل لك ما تحت يديك.

فلما جاء الكتاب؛ كَتَبَ في رده: ما أحسن ما تدعو إليه وأجمله، وأنا شاعر قومي وخطيبهم والعرب تهاب مكاني، فاجعل لي بعض الأرض أتبعك، ولما بلغ ذلك رسول الله ﷺ قال: لو سألني قطعة من الأرض ما فعلت، بَادَ وباد ما في يديه، فلم يلبث أن مات منصرف الرسول ﷺ من فتح مكة.

---

(١) الكامل ٢/١٤٦. والطبقات ١/٢٦٢. والطبري ٣/٦٤٤. والاكتفاء ٢/٤٠٢.

٤٧ – غزوة خيبر[١]: (سنة ٧ هـ – ٦٢٨م)[٢]:

يزعم اليهود أن النبوة حكر عليهم، وأن العرب طبقة دونهم، فهم لا يتركون حقدهم وتآمرهم حتى تترك الحيات لدغها. والدائرة الآن على خيبر أقوى قلاع اليهود في الجزيرة، وقد راحوا يؤلبون غطفان وذؤبان العرب؛ لاستئصال رسول الله ﷺ، وقد مر علينا الكرب الذي سببه غدر بني قريظة، وتحالفهم مع الأحزاب في قصة الخندق. وليس لدى النبي ﷺ وقت يضيعه، فخرج في ألف وأربعمائة راجل ومائتي فارس، واستخلف على المدينة نميلة الليثي، وقيل: سباع بن عُرْفطة.

وقام بمناورة بارعة لتفكيك الجبهة بين يهود خيبر وغطفان ،فأوهم غطفان أنه يريد مهاجمتهم، فقد كانوا عازمين للقتال مع اليهود لما سمعوا بخروج النبي ﷺ، فعادوا أدراجهم، فوصل صباحًا إلى خيبر وهم غافلون ، فتبادروا إلى حصونهم يتصايحون: محمد والخميس أي: الجيش، فأرعبهم النبي ﷺ

---

(١) ابن هشام ٢/٣٢٨-٣٥٨. والبداية والنهاية ٤/٢٠٦. وطبقات ابن سعد ٢/١٠٦. والواقدي ٢/٦٣٣ وما بعدها. والطبري ٣/٩-١٦.

(٢) اختلف فيها بين محرم وصفر وربيع الأولي وجمادى الأولى ورمضان . وسببها : أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان قد عقد معاهدة معهم تقضي بالحياد ولكنهم لم يلزموا أنفسهم بهذه المعاهدة بل أخذوا يخرقونها المرة بعد المرة، وخاصة عندما عقدوا حلفًا مع قريش يعتبر ضد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ويهدف إلى تطويقه من الشمال والجنوب، ولذلك فإن الرسول توجه إليهم وأجلاهم عن المنطقة عندما سنحت له أول فرصة تخلصًا من شرهم ومؤامراتهم. وتقع خيبر شمال المدينة المنورة على بعد أربعة أيام منها.

والمسلمون بالتكبير: الله أكبر خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين.

وأحدق المسلمون بالحصون على بعد مرمى النبل. وحاصروهم ثماني عشرة ليلة.

وخيبر ثلاثة أقسام :

١- حصن النطاة وفيه: ناعم، والصعب، وفلة.

٢- والكتيبة وفيه: القموص، والوطيح، وسلالم.

٣- والشِّق وفيه: أبي، والبري.

بدأ ﷺ بحصن النطاة، وأمر بقطع نخلهم فقطع المسلمون نحو أربعمائة نخلة، فنهى عن القطع لَـمَّا رآهم مصممين على القتال.

ولما طال الحصار واستعصت الحصون، بعث رسول الله ﷺ أبا بكر رضي الله عنه برايته إلى بعض حصون خيبر، فقاتل فرجع ولم يك فتح وقد جُهد، ثم بعث من الغدِ عمَر بن الخطاب رضي الله عنه فقاتل ثم رجع ولم يك فتح وقد جُهد[١]، فقال رسول الله ﷺ: **لأعطين الراية غدًا رجلاً يحبُّ الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله، يفتح الله على يديه، كرار ليس بفرار**، فدعا رسول الله ﷺ عليًا، وهو أرمدُ، فتفَلَ في عينه ثم أعطاه الراية، فقال يا رسول: أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا؟ فقال ﷺ: انفذ على رِسْلكَ، وادعهم إلى الإسلام ، فإن أبوا فقاتلهم، **فلأن يهدي الله على يديك رجلاً واحدًا خير لك من حمر النعم**[٢] .

---

(١) ابن هشام ٣٤٣/٣. والبداية ٢١٢/٤. والطبري ١٢/٤. وابن أبي شيبة ٣٩٤/٧. ومحمد رضا ٢٨٠.والثعالبي ٤٢٣.

(٢) البخاري رقم ٣٩٧٣. ورقم ٣٤٩٨. ٣٤٩٩. وابن هشام ٣٤٣/٢. والنسائي ٣٦.

قال سَلمة بن الأكوع: فخرج والله بها يهرول هرولة، وإنا لخلفه نتبع أثره، حتى ركز رايته في رَضْمٍ من حجارة تحت الحصن، فاطلع إليه يهودي من رأس الحصن فقال: من أنت؟ قال: أنا علي بن أبي طالب. يقول اليهودي: علوتم وما أنزِل على موسى[1]، فما رجع حتى فتح الله على يديه، قال أبو رافع مولى رسول الله: خرجنا مع علي ، فلما دنا من الحصن خرج أهله فقاتلهم فضربه يهودي فأطاح ترسه من يده، فتناول علي بابًا كان عند الحصن فترَّس به عن نفسه، فلم يزل في يده وهو يقاتل حتى فتح الله عليه، ثم ألقاه حين فرغ، فلقد رأيتني في نفر سبعة أنا ثامنهم نجهد أن نقلب ذلك الباب فما نقلبه[2]. ثم ابتدأ القتال مع حصن ناعم.

---

(١) تشائم من اسمه.

(٢) ابن هشام ٣/٣٣٥. والطبري ٣/١٣. والبداية ٤/٢١٦. والروضة الندية للأمير الصنعاني ٤٩: وقد نظم ذلك وقال:

وانشر الأخبار عن خيبر يا	حبذا فتح بها كان بهيا
وأبو السبطين يشكو جفنه	وبريق المصطفى عاد بريا
ثم أعطاه بها رايته	بعد أن بشر بالفتح عشيا
ذاكرًا أوصاف من يحملها	فتمنى الكل لو كان عليا
فدحا الباب وأردى مرحبًا	بعد أن صارع منه قسوريا
ثم كان الفتح والفيء بها	واصطفى المختار من تلك صفيا

فتح حصون خيبر:

كان أول حصن فتح حصن ناعم، وعنده قتل محمود بن مسلَمة، ألقيت عليه رحى، ثم القَموص حصن أبي الحُقَيق، وأصيب منه سبايا منهن صفيةُ بنت حيي بن أخطب من سبط هارون -عليه السلام- وكانت عند كِنانَة بن الربيعِ بن أبي الحُقيق- فرأت في نومها أن في حجرها قمرًا، فأخبرت زوجها فلطمها وقال: تتمنين ملك الحجاز، وكانت حسناء، عُمْرُها سبعة عشر عامًا؛ تَنَافَسَ الناسُ عليها، وقيل: وقعت من نصيب دحية الكلبي، فقال رجل للنبي صلى الله عليه وآله وسلم: إن صفية لا تصلح إلا لك. فاصطفاها صلى الله عليه وآله وسلم لنفسه[1]. وأعطى دحية غيرها.

وعند حصن الوَطيح والسُّلالم آخر حصون خيبر افتتاحًا وأصعبها منالاً. خرج مَرْحَبُ اليهودي في سلاحَه يرتجز:

قد عَلمت خيبرُ أني مَرحَبُ   شاكي السلاح بَطَلٌ مُجَرَّبُ[2]

---

(١) البخاري ٣٤٩٩.

(٢) الشاكي السلاح: التام السلاح.

إذا الحروب أقبلت تلهَّب

وطلب البراز، فبرز له علي يرتجز:

أنا الذي سمتني أمي حيدرة كليث غابات شديدٍ قسورة

أكيلهم بالسيف كيل السندرة

فاختلفا ضربتين، فسبقت ضربة علي على هامته فَقَدَّتِ الحَجَر والـمِغْفَر، وفلق رأسه حتى وصلت الضربة إلى أضراسه، وسمع العسكر صوت ضربته، فما تتام آخر الناس مع علي حتى فتح الله له[1].

ثم خرج ياسر أخو مرحب للمبارزة، فقتله الزبير.

وحاصر الرسول الله ﷺ أهل خيبر في حصنيهم الوَطِيح والسُّلالم، حتى إذا أيقنوا بالهلكة سألوه أن يجليهم، وأن يحقن لهم دماءهم فَفَعَلَ، وكان رسول الله ﷺ قد حاز أموال الحصون كلها ما عدا هذين الحصنين، فلما سمع بهم أهل فَدَك قد صنعوا ما صنعوا بعثوا إلى رسول الله ﷺ أن يحقن دماءهم ويخلوا له الأموال فَفَعَلَ.

فصالح أهل خيبر على أن يعاملهم في الأموال على النصف - أي نصف الثمر، وقالوا: نحن أعلم بها منكم وأعْمرُ لها؛ فصالحهم رسول الله ﷺ على النصف على أنا إن شئنا أن نخرجكم أخرجناكم. وصالحه أهل فَدَك على مثل ذلك،

(١) مسلم ٣/١٤٤١. رقم ١٨٠٧. والنسائي في الخصائص رقم ١٤، ١٥. و الطبقات ٢/١١١. وابن كثير ٣/٣٥٥. والطبري ٣/١١. والاستيعاب ٢/١١٢ في ترجمة عامر بن الأكوع. ومسند أحمد ٥/٥٥٦ رقم ١٦٥٣٨. قال الألباني في تخريج فقه السيرة للغزالي: وهو الصحيح المتواتر ص٣٧٢.

فكانت خيبر فيئًا بين المسلمين، وكانت فدك خالصة لرسول الله ﷺ؛ لأنهم لم يجلبوا بخيل ولا ركاب.

فلما اطمأن رسول الله ﷺ أهدت له زينبُ بنت الحارث امرأة سلام بن مشكَم شاةً مشوية، وقد سألت: أي عضو من الشاة أحبُّ إلى رسول الله ﷺ؟ فقيل لها: الذراع، فأكثرت فيها السم ثم سمّتْ سائر الشاةِ، فلما وضعتها بين يدي رسول الله تناول الذراع فلاك منها مضغة فلم يُسِغْها، وقال: إن هذا العظم يخبرني أنه مسموم، ومعه بشْرُ بن البَراء بن مَعرور، أخذ منها فأساغها فمات، ثم دعا بالمرأة وقال: ما حملك على ذلك؟ قالت: بلغت من قومي ما لم يخفَ عليك، فقلت: إن كان ملكًا استرحت منه، وإن كان نبيًا فسيُخبرَ، فتجاوز عنها، وقيل: قتلها قصاصًا ببشر. وقد روي أن النبي ﷺ قال لأم بشر في مرضه الذي مات فيه: يا أم بشر، إن هذا الأوان وجدت انقطاع أبهري من الأكلة التي أكلت مع ابنك يوم خيبر[1]؛ فكان المسلمون يرون أن النبي ﷺ مات شهيدًا مع ما أكرمه الله بالنبوة[2].

وقد قتل في هذه الغزوة من اليهود ثلاثة وتسعون، ومن المسلمين خمسة عشر.

وأُخِذَ كنزُ آل أبي الحقيق بقيمة عشرة آلاف دينار.

حوادث ملحقة بغزوة خيبر[3]:

١- قدوم جعفر ﷺ مع ستة عشر من مهاجري الحبشة رضي الله عنهم؛ ففرح به رسول الله ﷺ فرحًا شديدًا، ولما وقعت عين جعفر على رسول الله

---

(١) ابن هشام ٣٣٨/١. والبداية ٢٤٠/٤. وتنبيه الأشراف للمسعودي ص٢٤٠.

(٢) ابن كثير ٢٤٠/٤. وابن هشام ٣٣٧/٢.

(٣) ابن هشام ٣٣٨/٢.

ﷺ أقبل يحجل يمشي على رجل واحدة إعظامًا لرسول الله ﷺ، فقبّله النبي ﷺ بين عينيه وقال: ما أدري بأيهما أسَرُّ: بفتح خيبر، أم بقدوم جعفر؟ [1] .

وأدخله وأصحابه في غنائم خيبر. وقدم ثلاثة وخمسون من الأشعريين معهم أبو موسى وأبو هريرة، ركبوا سفينة فألقت بهم الريح إلى الحبشة فجاءوا مع جعفر، فأعطاهم النبي ﷺ شيئًا من الغنائم.

وقد انخرط جعفر وأصحابه في صفوف المجاهدين، واستوعبوا ما فاتهم من القرآن النازل، وروي أن أسماء بنت عميس زوج جعفر كانت عند حفصة فدخل عمر فقال: من هذه؟ قالت: أسماء، فقال: الحبشية؟ البحرية؟ قالت: نعم، قال: سبقناكم بالهجرة فنحن أحق برسول الله منكم، فغضبت وقالت: كلا والله، كنتم مع رسول الله يطعم جائعكم، ويعظ جاهلكم، وكنا في دار البعداء البغضاء في الحبشة، وذلك في الله ورسوله، وايم الله لا أطعم ولا أشرب حتى أذكر ما قلت للنبي. فذكرت ذلك للنبي ﷺ، فقال: ما قلت له؟ قالت: كذا وكذا، قال: ليس بأحق بي منكم. له ولأصحابه هجرة واحدة، ولكم أنتم أهل السفينة هجرتان[2] .

٢- حرِّمت لحوم الحمر الأهلية، وأذن في لحوم الخيل .

٣- حرمت المتعة .

---

(١) ورد بألفاظ كثيرة، انظر الطبراني في الأوسط رقم ٢٠٠٣. وفي الكبير رقم ١٤٦٩ ، ١٤٧٠. والحاكم ٦٦٤/٢. وابن أبي شيبة ٣٨٠/٦ وغيرهم.

(٢) البخاري رقم ٣٩٩٠. ومسلم رقم ٢٥٠٢، ٢٥٠٣٠. وابن أبي شيبة بما يوافق ذلك ٣٨١/٦.

٤- أعرس بصفية رضي الله عنها في قبة ضربت له، وجمَّلتها له أم سليم بنت ملحان أم أنس بن مالك، وبات أبو أيوب رضي الله عنه متوشحًا سيفه يحرس رسول الله ﷺ ويطيف بالقبة ولما رآه رسول الله ﷺ في الصباح، قال: ما لك يا أبا أيوب؟ قال: خفت عليك من هذه المرأة، وقد قتلتَ أباها وزوجَها وقومها، وكانت حديثة عهد بكفر، فخفتُها عليك. فزعموا أن رسول الله ﷺ قال: اللهم احفظ أبا أيوب كما بات يحفظني[١].

٥- حاصر النبي عند عودته وادي القرى ليالي ثم انصرف.

٦- أثناء هذا الحصار أصيب غلام لرسول الله ﷺ بسهم غرب، فقتله. فقال الناس: هنيئًا له الجنة، فقال النبي ﷺ: كلا **والذي نفس محمد بيده إنّ شملته الآن لتحترق عليه في النار**، كان غلَّها من فيء المسلمين يوم خيبر. فسمعها رجل من الصحابة فقال: يا رسول الله أصبت شراكين لنعلين لي، قال: يُقَدُّ لك مثلهما من النار[٢].

٧- في الطريق إلى المدينة، قال ﷺ: من يحفظ علينا الفجرَ لعلنا ننام؟ قال بلال : أنا. فنام الرسول والناس، وقام بلالٌ يصلي، ثم استند إلى بعيره واستقبل الفجر يرمُقه فغلبته عينه فنام فلم يوقظهم إلا مسُّ الشمس، فهب رسول الله ﷺ قبل أصحابه، وقال: ما صنعت بنا يا بلال؟ قال: أخذ بنفسي الذي أخذ بنفسك، قال: صدقت. ثم سافر النبي ﷺ غير كثير، فنزل فتوضأ فأمر بلالاً

---

(١) ابن هشام ٢/٣٤.

(٢) الحاكم في المستدرك ٣/٤٠.

فأقام الصلاة، فلما سلم أقبل على الناس وقال: إذا نسيتم الصلاة فصلُّوها إذا ذكرتموها، فإن الله تعالى يقول: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ [١٤: طه] [1].

العبر والدروس:

١- رسَّخ فتح خيبر جذور الدولة الإسلامية، فقد قُطِعَتْ رأس الأفعى، واستراح النبي ﷺ من دسائس اليهود.

٢- الدفاع عن النفس مشروع، ولو لم يتغد بهم ﷺ لتعشوا به.

٣- علَّمَنا النبي ﷺ في هذه الغزوة ضرورة اختيار أهل الكفاءة حين دعى عليًا كرم الله وجهه لاقتحام الحصون الحصينة؛ فهو رجل نادر في الشجاعة والخبرة، موصول بمحبة الله ورسوله له، ومحبته لهما، وما أجدر بالرايات الإسلامية أن يحملها رجال أمثاله.

٤- تنزيل الناس منازلهم، فقد أكرم النبي ﷺ صفية أم المؤمنين بأن ضمها إلى بيته الطاهر، فهي ابنة ملك القوم ولا يليق بها أن تذل.

٥- أجاد ﷺ توزيع الغنائم؛ فأوجد للمهاجرين مناخًا ملائمًا وخفف عن كاهل الأنصار الكرام بعض نفقاتهم على المهاجرين، وذلك من نعمة الله عليه وتوفيقه له.

سرايا قبل عمرة القضاء:

---

(١) الترمذي رقم ٣١٦٣. وابن ماجة رقم ٦٩٧.

رجع النبي ﷺ من خيبر إلى المدينة فأقام بها من ربيع أول إلى شوال يبعث فيما بين ذلك سرايا أشبه ما تكون بالشرطة لتثبيت الأمن، وفرض هيبة الدولة[١].

والسرايا هي:

٤٨- سرية عمر بن الخطاب رضي الله عنه في ثلاثين رجلاً إلى هوازن بتربة[٢] (بنو نصر بن معاوية، وبنو جشم بن بكر)، فهربوا قبل مجيئه.

٤٩- سرية أبي بكر الصديق رضي الله عنه إلى قبيلة بني كلاب بنجد بناحية ضرية، فسبى جماعة وقتل آخرين.

٥٠- سرية بشير بن سعد الأنصاري في ثلاثين رجلاً إلى بني مرة بفدك، فساقوا نعمًا وشاء، ثم أدركهم عدد كثير من بني مرة فرموهم بالنبل حتى فنيت، فولّى من ولى، وأصيب من أصيب، وجرح بشير وعاد إلى المدينة بعد مشقة. وكانت هذه السرايا الثلاث في شعبان.

٥١- سرية غالب بن عبدالله الليثي في رمضان في مائة وثلاثين رجلاً إلى أهل الميفعة بنجد على ثمان مراحل من المدينة، فهجموا عليهم وقتلوا كثيرًا واستاقوا نعمًا وشاء، وفي هذه السرية قَتَلَ أسامة بن زيد رجلاً بعد أن قال: لا إله إلا الله محمد رسول الله، فقال له النبي ﷺ: مَنْ لك بلا إله إلا الله؟ ، قال: إنما قالها

---

(١) ابن سعد ٢/١١٧-١٢٠. والواقدي ج٢/٧٢٢ وما بعدها. والتنبيه والأشراف ٢٤٣. والبداية ٤/٣٥٠.

(٢) وتربة: موضع بناحية العبلاء على أربع ليال من مكة على طريق صنعاء ونجران.

اتقاء للقتل، قال: هلا شققت عن قلبه، أين تذهب بلا إله إلا الله؟. قال أسامة: فما زال يكررها حتى تمنيت أني ما أسلمت إلا يومئذ[١].

٥٢- في شوال خرج بشير بن سعد في ثلاثمائة إلى غطفان لقوم جمعهم عيينة بن حصن للإغارة على المدينة، فبلغهم مسير بشير وهربوا، وغنم نعمًا كثيرة.

٥٣ - عمرة القضاء:

(في ذي القعدة سنة سبع) [٢]

خرج في الشهر الذي صده فيه المشركون معتمرًا عمرة القضاء مكان عمرته التي صُدَّ عنها، ومعه أصحاب الحديبية. فلما سمع به أهل مكة خرجوا، وتحدثت قريش أن محمدًا وأصحابَه في عسرة وجهد وصَفُّوا له عند دار الندوة لينظروا إليه وإلى أصحابه، فلما دخل رسول الله ﷺ المسجد اضطبع بردائه[٣] وأخرج عضده اليُمنى، ثم استلم الركن، وخرج يهرول ويهرول أصحابه معه؛ ليبطل زعم قريش أنه وصحبه في جهد، حتى إذا واراه البيتُ منهم واستلم الركن اليماني، مشى حتى يستلم الركن الأسود، ثم هرول كذلك ثلاثة أشواط ومشى سائرها؛ فقالت قريش: ما نراهم إلا كالغزلان، وثبتت بعد ذلك سُنَّة.

زواج الرسول بميمونة بنت الحارث بن عبدالمطلب[٤]:

---

(١) أحمد بن حنبل ٢١٨٦١. وأبو داود رقم ٢٦٤٣. وفي البخاري ما يوافق ذلك رقم ٤٠٢١، ٦٤٧٨. ومسلم رقم ١٨١٥.

(٢) الطبقات ١٢٠/٢. وابن هشام ٣٧٠/٢. والواقدي ٧٣١/٢. وابن كثير ٢٥٨/٤.

(٣) اضطبع: أدخل بعضه تحت عضده اليمنى، وجعل طرفه على منكبه الأيسر.

(٤) ابن هشام ٣٧٢/٢.

في سفر هذه العمرة تزوج ﷺ بميمونة رضي الله عنها أخت أم الفضل زوج العباس رضي الله عنه، عقد بها العباس ودفع عنه مهرها أربعمائة درهم، وكانت قبله عند أبي رُهم بن عبدالعزى. وهي آخر امرأة تزوجها، ودخل بها بسَرَفٍ قرب التنعيم خارج مكة؛ لأن قريشًا استعجلته بعد انتهاء المدة وطلبت منه الخروج. وقد عرض عليهم مازحًا أو جادًا: ما عليكم لو تركتموني فأعرست بين أظهركم وصنعت لكم طعامًا فحضرتموه، قالوا: لا حاجة لنا في طعامِك، فاخرج عنا[(١)].

الحكمة من الزواج بميمونة:

كانت رضي الله عنها أرملة عمرها إحدى وخمسين سنة؛ وكان النبي ﷺ يهدف من الزواج بها استمالة رجلين قويين: خالد بن الوليد ابن أختها، وصديقه عمرو بن العاص فإنهما أسلما بعد زواجها بفترة يسيرة.

قال ابن هشام: وأنزل الله في هذه العمرة: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [٢٧: الفتح].

حوادث ما بين عمرة القضاء وغزوة مؤتة[(٢)]:

٥٤ – سرية الأخرم بن أبي العوجاء السلمي:

---

(١) الحاكم ٣١/٤. وقال: صحيح على شرط مسلم.

(٢) ينظر ابن سعد ١٢٣/٢-١٢٧. والواقي ٧٤١/٢. والتنبيه والأشراف ٢٤٥ وما بعدها. وابن سيد الناس ٢٠٤/١.

(في ذي الحجة سنة سبع):

خرج في خمسين رجلاً إلى بني سليم يدعوهم إلى الإسلام، فقابلوه وأصحابه بوابل من النبل، فقتل عامة أصحابه وجرح. ثم تحامل حتى بلغ المدينة في أول صفر.

٥٥ - سرية غالب بن عبدالله الليثي:

(في صفر سنة ثمان):

إلى بني الملوح بالكديد في بضعة عشر رجلاً، فاستاقوا نعمًا، وأسروا مالكًا الليثي، فأسلم، وله حديث واحد: **لا تغزى مكة بعد اليوم إلى يوم القيامة**[١].

٥٦ - سرية أخرى لغالب الليثي:

(في صفر سنة ثمان)

خرج في مائتي رجل، أرسلهم النبي ﷺ للثأر لأصحاب بشير بن سعد[٢] فقاتل المسلمون ساعة ووضعوا السيف في أعدائهم فقتلوا وأصابوا نعمًا وشاء وذرية، وعادوا إلى المدينة.

٥٧ - سرية شجاع بن وهب الأسدي:

(في ربيع الأول سنة ثمان)

خرج في أربعة وعشرين رجلاً إلى بن عامر من هوازن، فأصابوا نعمًا كثيرة وشاء، وقدموا بها المدينة بعد غيبة خمس عشرة ليلة.

٥٨ - سرية كعب بن عمير الغفاري:

(١) الحاكم في المستدرك ٣/٦٢٧.

(٢) الذين ذهبوا إلى فدك في شعبان سنة سبع.

(في ربيع الأول سنة ثمان)

خرج في خمسة عشر رجلاً إلى ذات أطلاح من أرض الشام، فوجدوا جمعًا كثيرًا جاءوا على الخيل فدعاهم المسلون إلى الإسلام فأبوا ورشقوهم بالنبل، فقاتل الصحابة رضي الله عنهم أشد قتال حتى قتلوا و لم ينج غير واحد اندس في القتلى، يقال: إنه أميرهم. فتحامل في الليل حتى أتى النبي ﷺ فأخبره وشق عليه ذلك، وهَمَّ بالبعث عليهم فبلغه أنهم ساروا إلى موضع آخر فتركهم.

٥٩ – غزوة مؤتة[(١)] :

(في جمادى الأولى سنة ثمان)[(٢)]:

جهَّز النبي ﷺ جيشًا قوامه ثلاثة آلاف إلى الشام لتأديب شرحبيل بن عمرو الغساني الذي قتل رسول النبي إلى ملك بصرى، وأمَّرَ على الجيش زيد بن حارثة، وقال: إن قتل زيد فجعفر بن أبي طالب، فإن قتل فعبدالله بن رَواحة. وودع رسول الله ﷺ والمسلمون الجيش فبكى ابن رواحة، فقيل: ما يُبكيك؟ قال: ما بي حب الدنيا، ولا صَبابة بكم، ولكني سمعت رسول الله ﷺ يقرأ: ﴿وَإِن مِّنكُمۡ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتۡمًا مَّقۡضِيًّا﴾ [٧١: مريم]. فلست

---

(١) مؤتة: قرية من أرض البلقاء، كورة من أعمال دمشق بين الشام ووادي القرى . وسبب الغزوة أن النبي ﷺ بعث الحارث بن عمير رسولاً إلى ملك بصرى، فلما نزل الحارث مؤتة عرض له عمرو بن شرحبيل الغساني فقتله. و لم يقتل لرسول الله ﷺ رسول غيره. كما تقدم. وتسمى عند البعض سرية كالبلاذري في أنساب الأشراف ٤٥٩/١، وسبل الهدى والرشاد ٢٤٨/٦.

(٢) الطبقات ١٢٨/٢. والواقدي ٧٥٥/٢. وابن هشام ٣٧٣/٢. والبداية ٢٧٥/٤. والطبري ٣٦/٣. والمواهب ٣٠٠/١.

أدري كيف لي بالصدَر بعد الورود، فقال المسلمون: صحبكم الله ودفع عنكم، وردكم إلينا صالحين. فقال عبدالله بن رواحة:

لكنني أسألُ الرحمن مغفرة ... وضربة ذات فرْغٍ تقذفْ الزَّبدا[1]

أو طعنةً بيدي حَرَّانَ مُجْهِزةَ ... بحربة تنفذُ الأحشاء والكبدا[2]

حتى يقال إذا مروا على جدثي ... أرشده الله من غاز وقد رَشَدا[3]

وصل الجيش الإسلامي إلى معان جنوب الأردن فبلغ الناسَ أن هِرَقْلَ قد نزل مآبَ من أرض البلقاء في مائة ألف من الروم، وانضم إليهم من عرب الشام مثلهم، وسبب جمع هذا الجيش الضخم ما طار إلى هرقل وأعوانه من انتصارات المسلمين وشدة بأسهم.

بقي المسلمون في معان ليلتين يفكرون في أمرهم، فهم أمام جيش يفوقهم سبعين ضعفًا، مسلحًا أكمل تسليح، والواقع يقول: أن لا أمل للنصر، لكنهم بما فعلوا ضربوا أروع الأمثلة في الشجاعة وحب الشهادة، بل إنهم بُلُغَة اليوم تحوَّلوا إلى فرقة انتحارية، وأثناء تشاورهم قالوا: نكتب لرسول الله ﷺ فنخبره بعدد عدونا، فإما أن يمدنا بالرجال وإما أن يأمرنا بأمره فنمضي له. فقال ابن رواحة: إن الذي تكرهون هو ما خرجتم له، وهو الشهادة، وما نقاتل الناس بقوة ولا كثرة، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا اللهُ به، فانطلِقُوا فإنما هي إحدى الحسنيين: إما ظهورٌ وإما شهادة. فقال الناس: صدق ابن رواحة. وانحازوا إلى قرية يقال لها: مؤتة، فالتقى الناس عندها، فتعبأ لهم المسلمون والتقوا بالعدو، فقاتل زيد رضي الله عنه براية رسول الله ﷺ حتى قتل. ثم أخذها جعفر رضي

---

(١) الفرغ: السعة. والزبد: رغوة الدم.

(٢) مجهزة: سريعة القتل . تنفذها: تخترقها.

(٣) الجدث: القبر، ويروى: " يا أرشد الله". شرح المواهب ٢/٢٧٠.

الله عنه فقاتل بها حتى إذا كان في لجة القوم اقتحم عن فرسه فعقرها، ثم قاتل وهو يرتجز:

يـا حبـذا الجنـةُ واقترابُهـا ... طيبـةً وبـاردًا شـرابُها

والـرومُ رومٌ قـد دنـا عـذابُها ... كـافرةٌ بعيـدةٌ أنسـابُها

عليّ إذ لاقيتُها ضرابُها

وكان اللواء بيمينه فقطعت، فأخذه بشماله فقطعت، فاحتضنه بعضديه حتى قتل وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة، فأثابه الله بذلك جناحين في الجنة يطير بهما حيث شاء، وسمي جعفر الطيار، ويقال: إن رجلاً من الروم ضربه فقطعه نصفين. فأخذ الراية عبدالله بن رواحة رضي الله عنه ثم تقدم بها وهو على فرسه فجعل يستنزل نفسه ويتردد بعض التردد، ثم قال:

أقسـمتُ يـا نفـسُ لَتَنْزِلَنَّـهْ ... لـتنزلنَّ أو لتُكرِهنَّـهُ

إن أجلبَ الناس وشَدُّوا الرَّنه[1]قد ... مـالي أراك تكـرهينَ الجنـه

طـال مـا قـد كنـتِ مطمئنـة ... هـل أنـت إلا نُطفـةٌ في شـنَّه[2]

وقال أيضًا:

يـا نفـسُ إلاَّ تُقتَلـي تمـوتي ... هـذا حِمـامُ المـوت قـد صَـليت

ومـا تمنيـتِ فقـد أعطيـتِ ... إن تفعلـي فعلـهما هُـديتِ

ثم نزل. فأتاه ابنُ عم له بعرق من لحم[3] فقال: شد بهذا صُلبك، فإنك قد لقيت في أيامك هذه ما لقيت، فأخذه من يده ثم انتهس منه نهسةً[4]، ثم سمع الحَطْمَة[1]

---

(١) أجلبوا : صاحوا واجتمعوا. الرنة: صوت فيه ترجيع شبيه بالبكاء.

(٢) النطفة: الماء القليل الصافي. الشنة: السقاء البالي.

(٣) العرق: بالفتح: العظم عليه بعض اللحم.

(٤) انتهس: أخذ منه بفمه يسيرًا.

في ناحية الناس، فقال: وأنتَ في الدنيا؟ ثم ألقاه من يده ثم أخذ سيفه فتقدم، فقاتل حتى قتل.

ثم أخذ الراية ثابتُ بن أقرم أخو بني العجلان، فقال: يا معشر المسلمين اصطلحوا على رجل منكم، قالوا: أنت، قال: ما أنا بفاعل، فاصطلح الناس على خالد بن الوليد. فلما أخذ الراية دافع القومَ، ثم انحاز وانحيز عنه حتى انصرف بالناس.والموقف حرج يحتاج إلى موهبة خالد العسكرية وشجاعته المعروفة، فقد روى البخاري عن خالد قوله: لقد اندق في يدي تسعة أسياف، وصَبَرَتْ في يدي صفيحة لي يمانية[٢].

نزل الوحي على رسول الله ﷺ بتفاصيل الوقعة، وأخبر الناس بذلك. فلما دنا المجاهدون من المدينة تلقاهم الرسول ﷺ والمسلمون، ولقيهم الصبيان يشتدون[٣]، فحمل عبدالله بن جعفر بين يديه، وجعل الناس يحثون على الجيش التراب، ويقولون: يا فرار فُرَّتم في سبيل الله، فيقول رسول الله ﷺ: ليسوا بالفرار ولكنهم الكُرار إن شاء الله.

ورثا قتلى مؤتة حسانُ بن ثابت بأبيات منها:

---

(١) الحطمة: زحام الناس وحطم بعضهم بعضًا.

(٢) البخاري رقم ٤٠١٨.

(٣) يشتدون: يسرعون في العدو.

فــلا يُبعــدن اللهُ قتلــى تتــابعوا ... بمؤتَــة منــهم ذو الجنــاحين جعفــرُ

وزيــد وعبــدالله حــين تتــابعوا ... جميعًــا وأســبابُ المنيــة تَخطــرُ[1]

غــداة مضــوا بــالمؤمنين يقــودُهم ... إلى المــوت ميمــونُ النقيبــة أزهــرُ[2]

أغــرُّ كضــوء البــدر مــن آل هاشــم ... أبيٌّ إذا ســيم الظُّلامــةَ مُجســرُ[3]

فطــاعَنَ حــتى مــالَ غــيرَ موســد ... بمعتــرك فيــه قنًــا متكسِّــرُ[4]

فصــار مــع المستشــهدين. ثوابُــه ... جنَــانٌ وملتــفُ الحــدائق أخضــرُ

وكنــا نــرى في جعفــرٍ مــن محمــدٍ ... وفــاءً وأمــرًا حازمًــا حــين يــأمرُ

فما زال في الإسلام من آل هاشم ... دعــائم عِــزِّ لا يــزلنَ مفخَــرُ

هــمُ جبــلُ الإســلام والنــاس حــولهم ... رضــامٌ إلى طَــود يَــروقُ ويبَهــرُ[5]

بهاليــلُ منــهم جعفــرٌ وابــنُ أمِّــه ... علــيٌّ ومنــهم أحمــد المتخيَّــرُ[6]

---

(١) تخطر: أصل معناه تختال وتهتز.

(٢) ميمون النقيبة: مسعود الجد. أزهر: أبيض.

(٣) سيم الظلامة: حمل على قبول الظلم. المجسر: المقدام الجسور.

(٤) المعترك : موضع الحرب.

(٥) الرضام: الحجارة. الطود: الجبل. يروق: يعلو.

(٦) البهلول: السيد الوضيء الوجه.

وحمـــزة والعبـــاس منـــهم ومنـــهمُ		عقيلٌ وماء العود من حيث يُعصَرُ[(١)]
هـم تُفـرج الـلأواءُ في كـل مـأزق		عَماس إذا ما ضاق بالناس مصدرُ[(٢)]
هـــم أوليـــاءُ الله أنـــزلَ حكمـــه		علـيهم وفـيهم ذا الكتـــاب المطهـــرُ

العبر والدروس:

١- جيش مؤتة أول جيش إسلامي يواجه جيشًا مسيحيًا ضخمًا، وهو وإن لم يحقق إنتصارًا ماديًا لكنه وجَّه رسالة تحدٍّ تؤذن بمستقبل لصالح المسلمين، فالواحد منهم قد تجرأ على مواجهة سبعين من الروم.

٢- أظهر قادة الجيش بسالة، جعلت جعفر يتقطَّع إربًا إربًا لئلا تسقط الراية، وكلما سقط بطل تناولها بطلٌ آخر؛ لأنها رمز الإسلام، ومن المستحيل أن تداس راية حَمَلَتُهَا خير القرون، وسادات الشهداء.

٣- ميَّز الله آل البيت إكرامًا لهم ولدورهم العظيم وريادتهم في نشر دين الله بأن عوَّض جعفرًا جناحين في الجنة، وجعل حمزة سيد الشهداء.﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ [٢١: الحديد].

وقد روي أن النبي ﷺ دخل على آل جعفر فشمَّ أولاده وذرفت عيناه، وجعل يقول لأسماء امرأة جعفر رضي الله عنهما: لا تقولي هُجْرا ولا تضربي خدًا، : اللهم قدِّمْ جعفرًا إلى أحسن الثواب، واخلفه في ذريته بأحسن ما خلفت أحدًا من عبادك في ذريته. وقال لأهله: **لا تغفلوا عن آل جعفر، اصنعوا لهم**

---

(١) يعصر: يمطر.

(٢) اللأواء الشدة. العماس: المظلم. يريد الظلام من كثرة النقع المثار في الحرب.

طعامًا، فقد شغلوا بأمر صاحبهم، ودخل على ابنته فاطمة عليها السلام وهي تقول: واعماه، فقال: على مثل جعفر فلتبكِ البواكي[1].

٤-لم يرفض ثابت بن أقرم حمل الراية عجزًا أو جبنًا فإنه من أبطال الله، ولولا ذلك ما التقطها وعرَّض نفسه للخطر؛ لكنه من أمة تحترم نفسها وتُقَدِّم صاحب الكفاءة ، وكان اختيارهم لخالد موفقًا؛ فهو من شجعان قريش، وقد أحسن صنعًا وأظهر براعة في المناورة حين سبَحَ بالمسلمين وسط بحر من السيوف والرماح، ووصل بهم إلى بر الأمان. وهي مهمة شاقة، ولعلَّ بسالة المسلمين أقنعت الروم بعدم تتبعهم.

٥- ما أثار دهشتي أن يُوَاجَهَ الخارجون من بين أنياب الموت بالحصباء من مجتمع المدينة، وتعييرهم بأنهم الفُرَّار؛ إنها بركة رسول الله ﷺ، فهو وحده بعون الله ربَّى أمة ترى في الشهادة مجدها وشرفها وأصلها وفرعها.

٦- ربَّى النبي ﷺ أصحابه على الكرامة، فإذا أصيب عضو منهم تداعى له سائرهم حتى ينتصفوا أو يعفوا عن قدرة.

٧- ما من جيش يذهب من عند رسول الله ﷺ إلا وقال لهم: أوصيكم بتقوى الله، وبمن معكم من المسلمين خيرًا، اغزوا باسم الله في سبيل الله من كفر بالله، لا تغدروا، ولا تغلوا، ولا تقتلوا وليدًا، ولا امرأة، ولا كبيرًا فانيًا، ولا

---

(١) ابن سعد ٢٨٢/١.الترمذي ٣٢٣/٢ رقم ٩٩٨، وسنن أبي داود ٣/ ٤٩٩ رقم ٣١٣٢.

منعزلا بصومعة، ولا تَقْرَبُوا نخلاً، ولا تقطعوا شجرًا، ولا تهدموا بناء. وهي وصية لا نفسدها بالتعليق[1].

٦٠- سرية ذات السلاسل[2] (عمرو بن العاص):

(في جمادى الآخرة سنة ثمان):

أرسل النبي ﷺ عمرو بن العاص في ثلاثمائة، معهم ثلاثون فرسًا؛ وأمره أن يستعين بقبائل بَلِي وعُذْرة؛ لأن أم العاص منهم، فلما كان بأرض جذام خاف وطلب من النبي ﷺ المدد، فبعث أبا عبيدة في مائتين من سراة المهاجرين والأنصار فيهم أبو بكر وعمر رضي الله عنهم أجميعن. وأمره أن يلحق بعمرو ولا يختلفا، فأراد أبو عبيدة أن يقود الجيش فرفض عمرو وقال: أنت مدد وأنا الأمير فأطاعه أبو عبيدة وكان سهلاً هينًا عليه أمر الدنيا. فهجم المسلمون على العدو ففرقوهم مذعورين بعد أن اقتتلوا ساعة و لم يغنموا شيئًا سوى ما التقطته خيولهم وأكلوه[3].

٦١- سرية أبي عبيدة (سيف البحر أو الخبط)

(في رجب سنة ثمان)[4]:

---

(١) يقال: قد قطع النبي صلى الله عليه وآله وسلم بعض النخيل لليهود، فكيف يتواءم مع وصيته. والجواب: بأن النادر لا حكم له، ثم إن الظرف كان يستدعي السرعة والحسم والضغط على العدو بكل وسيلة.

(٢) سميت بذلك؛ لأن الأعداء ربط بعضهم بعضًا بالسلاسل لئلا يفروا، أو نسبة لماء يقال له: السلسل.

(٣) الطبقات ٢/١٣١. والواقدي ٢/٧٦٩. والطبري ٣/٣٢. والبداية ٤/٣١٤.

(٤) ابن سعد ٢/١٣٢. والواقدي ٢/٧٧٥.

بعث النبي ﷺ أبا عبيدة في ثلاثمائة فيهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى أرض جهينة، فنفد ما معهم من الزاد وجاعوا فأكلوا الخبط وهو ورق السَّلَم، ثم أخرج الله لهم دابة من البحر[1] فأكلوا منها.

وكان فيهم الكريم بن الكريم قيس بن سعد فنحر لهم تسع جمال، فقال النبي ﷺ: إن الجود من شيمة أهل ذلك البيت رضي الله عنهم[2].

٦٢- سرية أبي قتادة:

(في شعبان سنة ثمان)[3]:

أرسله النبي ﷺ في خمسة عشر رجلاً إلى خَضِرة أرض محارب بنجد؛ لشن غارة على غطفان فقاتلهم وسبى سبيًا كثيرًا، واستاق مائتي بعير، وألفي شاة.

٦٣- سرية أخرى لأبي قتادة:

(في رمضان سنة ثمان)[4]:

أرسله في ثمانية رجال إلى إضم على ثلاث مراحل من المدينة؛ ليوهم قريشًا بعد أن نقضوا عهد الحديبية أنه لا يريدهم ليفاجئهم على غِرَّة، ولقوا عامر بن الأضبط الأشجعي فسلم عليهم بتحية الإسلام، فقتله مُحلِّم ابن جثامة لشيء كان بينه وبينه وأخذ بعيره ومتاعه، فنزل قول الله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا

(١) حوت عظيم يقال له: العنبر. ينظر: اللآلي المضيئة ١/١٢٦.
(٢) الطبقات ٢/١٣٢. والواقدي ٢/٧٧٧. ومحمد رسول الله (ص) ٣٠٢.
(٣) ابن سعد ٢/١٣٢. والواقدي ٢/٧٧٧. وعيون الأثر ٢/٢١٩.

(٤) ابن هشام ٢/٦٢٦. والطبقات ١/١٣٣.

ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾ [٩٤: النساء]. وقيل: نزلت في المقداد. ولم يلق أبو قتادة كيدًا، وسأل محلّم رسول الله ﷺ أن يغفر له، فقال: لا غفر الله لك[1].

٦٤- فتح مكة[2]:

(في شهر رمضان سنة ثمان هـ، يناير ٦٣٠م):

كانت خزاعة في حلف النبي ﷺ وأمانه كما سبق في صلح الحديبية، وبنو بكر مع قريش، وكان بين خزاعة وبكر ثارات، فدبَّر بنو بكر غلامًا رفع صوته متغنيًا بهجاء النبي ﷺ صانه الله فشجَّه رجل من خزاعة، فطلب بنو بكر من أشراف قريش أن يعينوهم بالرجال والسلاح فأمدوهم فأغاروا على خزاعة ليلاً وهم آمنون على ماء يسمى الوتير، وقتلوا منهم عشرين أو يزيدون، وقاتل معهم جمع من قريش مثل: سهيل بن عمرو، وصفوان بن أمية، وعكرمة بن أبي جهل وغيرهم حتى ألجؤوهم إلى الحرم. وبادر سيد خزاعة عمرو بن سالم في أربعين راكبًا إلى المدينة والنبي ﷺ في المسجد بين الناس فأنشده:

---

(١) أسباب النزول ١٤٦. وتفسير الطبري ٣٠١/٥/٤.

(٢) ابن هشام ٣٨٩/٢. والطبقات ١٤٣/٢. وعيون الأثر ٢٢٣/٢. والواقدي ٧٨١/٢. وابن كثير ٥٢٦/٣. وشرح المواهب ٢٨٨/٢.

يــــاربِّ إني ناشــــدٌ محمـــــدًا   حلـفَ أبينـا وأبيـهِ الأتلَـدا[2]
قـد كنـتم وُلْـدًا وكنـا والِـدا   ثُمَّـت أسـلمنا فلـم نـنزع يَـدا
فانصر هداك الله نصرًا أعتَدا[1]   وادعُ عبـادَ الله يـأتوا مَـدَدا
فـيهم رسـولُ الله قـد تَجَـردَّا   إن سيمَ خسفًا وجهُهُ ترَبدا[3]
في فيلـق كـالبحر يجـري مزبـدا   إن قريشًـا أخلفـوك الموعـدا
ونقضــوا ميثاقَــك المؤكـــدا   وجعلـوا لي في كَـدَاء رُصَّـدا[4]
وزعمـوا أن لسـتُ أدعـو أحـدًا   وهــم أذلُّ وأقـــلُّ عــــددًا
هــم بَيَّتونــا بــالوتير هُجَّــدًا   وقتلونـــا رُكعًـــا وسُـــجدًا

فقال رسول الله ﷺ: نُصرت يا عمرو بن سالم، وقام يجر رداءه وهو يقول: لا نصرتُ إن لم أنصر بني كعب مما أنصر به نفسي، وعرض له عَنان من السماء فقال إن هذه السحابة لتستهل بنصر بني كعب. وأمر الناس بالجهاز، وسأل الله أن يُعمي على قريش حتى يبغتهم في بلادهم، وقال: كأنكم بأبي سفيان قد جاء ليشد العقد ويزيد في المدة.

ندمت قريش فأرسلت أبا سفيان. وذكر الواقدي أن رسولا جاء إلى قريش من قبل النبي ﷺ يطلب دية القتلى وإصلاح ما أفسدوا فرجع بخفي حنين، فندمت قريش وبادرت بإرسال أبي سفيان. فقدم على رسول الله ﷺ المدينة، ودخل على ابنته أم حبيبة رضي الله عنها فطوت حصيرة أراد أن يقعد عليها،

---

(١) أعتد: من العتيد، وهو الحاضر.

(٢) ناشد: طالب ومذكر. الأتلد: القديم.

(٣) سيم الخسف: كلف الذل. تربد: تغير إلى السواد.

(٤) كذاء موضع بأعلى مكة. رصدا: جمع راصد، وهو المرتقب.

فقال: يا بنية، أرغبت بي عن هذا أم رغبت به عني؟ قالت: بل هو فراش رسول الله ﷺ، وأنت رجل مشرك نجس ولم أحب أن تجلس على فراش رسول الله قال: والله لقد أصابك يا بنية بعدي شر، فكلم النبي ﷺ أن يطيل المدة، فقال: هل حدث منكم حدث؟ قال: لا، قال: فنحن على صلح الحديبية، فأعاد عليه، فلم يرد عليه شيئًا، وأدرك خطورة الوضع فاستشفع بأبي بكر رضي الله عنه إلى رسول الله ﷺ فلم يستجب له، ثم كلم عمر فقال: أأنا أشفع لكم إلى رسول الله؟ فوالله لو لم أجد إلا الذّر لجاهدتكم به. فاستشفع بعلي بن أبي طالب كرم الله وجهه، وكلم فاطمة أن تُجير بين الناس أو تأمر أحد ابنيها، فأجابوه بأن لا أحد يجير على رسول الله ﷺ، فشكى لعلي ضيق أمره فقال: إنك سيد بني كنانة فقم فأجر بين الناس والحق بأرضك ففعل ورجع خائبًا، فأخبر قريشًا فقالوا: أما علي فما زاد أن لعب بك.

رسالة حاطب بن أبي بلتعة:

احتشد بالمدينة عشرة آلاف مقاتل لبَّوا دعوة النبي ﷺ، ولما أجمع رسول الله ﷺ المسير إلى مكة كتب حاطبٌ كتابًا إلى قريش يخبرهم، ثم أعطاه امرأة، فدسته بين شعر رأسها.

نزل الوحي بما صنع حاطب، فدعى النبي ﷺ عليًا والزبير، وقيل: معهما المقداد، فقال: انطلقوا إلى روضة خاخ[1] فإنّ بها ظعينة معها كتاب من حاطب إلى قريش يُحذّرهم. فأدرَكَاها وأنكرتِ الكتاب، وفتَّشا رحلها فلم يجدا شيئًا،

---

(١) على بريد من المدينة.

فقال لها علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: إني أحلف بالله ما كذب رسول الله ﷺ ولا كذبنا، ولتخرِجنَّ الكتاب أو لأكشفنك.

فلما رأت الجد منه قالت: أعرِضْ، فأعرَضَ، فحلت قرونها فاستخرجته وناولته، فأتى به رسول الله ﷺ، فقال: يا حاطب ما هذا؟ فقال: إني لمؤمن بالله ورسوله ما غيرت ولا بدلت، ولكني ملصق بقريش لا عشيرة لي، ولي بين أظهرهم ولد وأهل فصانعتهم عليهم، فقال رسول الله ﷺ: إنه قد صدقكم، فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: دعني أضرب عنق هذا المنافق، فقال ﷺ: وما يدريك؟ لعل الله قد اطلع على من شهد بدرًا، فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم[1].

فأنزل الله في حاطب أول سورة الممتحنة: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ ۙ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى ۚ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم

---

(١) البخاري رقم ٢٩١٥، ٣٧٦٢، ٤٠٢٥، ٤٦٠٨، ٥٩٠٤، ٦٥٤٠. ومسلم رقم ٢٤٩٤ وغيرهما. قال العاملي: إن حديث المغفرة لأهل بدر - لو صح - فالمغفرة هي لما سبق لهم من الذنوب وليستأنفوا العمل، فسوف يجازون بحسب ما يعملون، وليس المراد: " اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم " المغفرة للذنوب الآتية، وإلا لم يحد عمر قدامةَ بن مظعون على شرب الخمر وهو بدري [أسد الغابة ٣٧٦/٤] أعلم بالنص النبوي، ولما أتعب الصحابة أنفسهم في الدنيا. [الصحيح من سيرة النبي ١٣٩/٥ بتصرف].

بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ ۚ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ۝١ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا۟ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ ۝٢ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُمْ ۚ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٣ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾

استخلف على المدينة أبا رُهم –كلثوم بن الحصين الغفاري. وخرج لعشر من رمضان، فصام وصام الناس معه، حتى إذا كانوا بكُدَيد أفطر وخيَّر الناس في الإفطار، وفي مرِّ الظهران اكتمل عدد بني سليم سبعمائة وقيل: ألفًا، ومزينة ألفا، وفي كل القبائل عدد وإسلام، وأوعب مع رسول الله ﷺ المهاجرون والأنصار فلم يتخلف عنه منهم أحد. وقريش لا تعلم شيئًا.

وقد كان العباس لقي النبي ﷺ بالجحفة مهاجرًا، وجاء أبو سفيان ابن الحارث بن عبدالمطلب، وعبدالله بن أبي أمية بن المغيرة أخو أم سلمة في إثره فالتمسا الدخول على رسول الله ﷺ، فكلمته أم سلمة فيهما فقالت: يا رسولَ الله ابن عمك وابن عمتك وصهرُك، قال: لا حاجة لي بهما: أما ابنُ عمي فهتك عرضي– وكان شديد الأذية له – وأما ابنُ عمتي وصهري فهو الذي قال بمكة ما قال – يريد قوله: والله لا أؤمن بك حتى تتخذ سلمًا إلى السماء فتصعد فيه وأنا أنظر فتأتي بِصَكٍّ وأربعة من الملائكة يشهدون أن الله قد أرسلك.

فلما خرج الخبر إليهما بذلك ومع أبي سفيان بُنَيٌّ له قال: والله ليأذَنَنَّ لي أو لآخذن بُنَّي هذا ثم لنذهبن في الأرض حتى نموت جوعًا وعطشًا، فلما بلغ ذلك رسول الله ﷺ رقَّ لهما ثم أذن لهما فدخلا، فأسلما وأنشد أبو سفيان أبياتًا يعتذر فيها مما كان مضى منه:

لعمــرك إني يــومَ أحمــلُ رايــةً ... لتغلـب خيـلُ الـلات خيـلَ محمـد[1]

لكالمـدلجِ الحَـيران أظلـمَ ليلـه ... فهـذا أواني حـين أهـدَى أهتـدي[2]

هـداني هـادٍ غـيرُ نفسـي ونـالني ... مـع الله مـن طَـرَّدتُ كـلَّ مُطَـرد

فزعموا أنه حين أنشد رسول الله ﷺ قوله: " ونالني مع الله من طرَّدت كل مطرد " ضرب النبي ﷺ صدره وقال: أنتَ طردتني كل مطرِّد؟.

وإليه وجَّه حسان بن ثابت قصيدته الرائعة بمناسبة الفتح:

عَفَــت ذاتُ الأصـابعفالجواءُ ... إلى عــذراءَ منزلُــها خَــلاءُ[3]

ديـارٌ مـن بـني الحَسـحَاس قَفـرٌ ... تُعَفِّيهـا الـرَّوامِسُ والسـماءُ[4]

---

(١) أحمل راية: أي أقود الناس للحرب. خيل اللات: يعني جيوش الكفر والوثنية.

(٢) المدلج: الذي يسير ليلاً

(٣) عفت: تغيرت ودرست . ذات الأصابع والجواء: موضعان بالشام، وبالجواء كان منزل الحارث بن أبي شمر الغساني ممدوح النابغة. وعذراء: قرية على بريد من دمشق.

(٤) بنو الحسحاس: حي من بني أسد. الروامس: الرياح تطمس الآثار. السماء: المطر.

وكانت لا يزالُ بها أنيسٌ — خِلالَ مروجِها نَعَمٌ وشاءُ[(١)]

فدَع هذا ولكن مَنْ لِطَيفٍ — يؤرِّقُني إذا ذهبَ العشاءُ

لشعثاءَ التي قد تيَّمَتْهُ — فليس لقلبه منها شِفاءُ

كأن خَبِيئَةً من بيت رأس إذا — يكون مزاجَها عسلٌ وماءُ[(٢)]

ما الأشرباتُ ذُكِرْنَ يومًا — فهن لطيِّبِ الراحِ الفداءُ

نُوَلِّيهَا المَلامةَ إن — إذا ما كان مَغْثٌ أو لِحاءُ[(٣)]

أَلَمْنَاونشربُها فتتركنا ملوكًا — وأسْدًا ما يُنَهنِهُنا اللقاءُ[(٤)]

عَدِمْنَا خيلَنا إن لم تروها — تثيرُ النقعَ موعدُها كَداءُ[(٥)]

---

(١) النعم: المال الراعي، وأكثر ما يطلق على الإبل، والشاء جمع شاة.

(٢) الخبيئة: الخمر المصونة المضنون بها، بيت رأس: موضع بالأردن مشهور بالخمر الجيدة.

(٣) ألمنا: فعلنا ما نستحق عليه اللوم. المغث: الضرب باليد. اللحاء: السباب.

(٤) ينهنهنا : يزجرنا ويردنا.

(٥) النقع: الغبار. كداء: تثنية بأعلى مكة.

ينـــازعنَ الأعنـــةَ مصـــغيات على أكتافِهـا الأسَـلُ الظِّمـاءُ[2]

تظـــل جيادُنـــا مـــتمط رات يُلَطِّمُهُـــنَّ بـــالخُمُر النســـاءُ[3]

فإمــا تُعرضــوا عنــا اعتمرنــا وكــان الفــتحُ وانكشــف الغطــاءُ

وإلا فاصـــبروا لجـــلاد يـــوم يُعـــز الله فيـــه مـــن يشـــاءُ

وجبريـــلٌ رســـولُ الله فينـــا وروحُ القــدس لــيس لــه كِفَــاءُ[4]

وقــال الله قــد أرسـلت عبـدًا يقـــولُ الحـــقَّ إن نفـــع الـــبلاءُ

شهدتُ به فقوموا صدقوه وقـال فقلـــتم لا نقـــومُ ولا نَشـــاءُ

اللهُ قـــد ســـيرتُ جنـــدًا هــم الأنصــارُ عُرضَــتُها اللقــاءُ[5]

لنــا في كــل يــوم مــن معَــدٍّ سِـــبَابٌ أو قتـــالٌ أو هِجـــاءُ

فنُحكُم بـالقوافي مـن هجانـا ألا ونضــربُ حــين تخـتلطُ الـدماءُ[6]

أبلـــغ أبـــا ســـفيان[1] عـــني مغلغَلـــةً فقـــد بَـــرِحَ الخَفـــاء

بأن سيوفنا تركتك عبدًا وعبـــدُ الـــدار ســـادتها الإمـــاءُ

---

(١) يعني المغيرة بن الحارث بن عبدالمطلب ابن عم النبي صلى الله عليه وآله وسلم الذي أسلم وكان هجا النبي قبل أن يسلم. ومغلغلة: أي رسالة محمولة من بلد إلى بلد.

(٢) الأعنة: جمع عنان، وهو اللجام. الأسل: الرماح. الظمأ: العِطاش.

(٣) متمطرات: مسرعات. الخمر: جمع خمار.

(٤) ليس له كفاء: الكفء النظير والمثيل.

(٥) عرضتها اللقاء: أي عادتها أن تتعرض للقاء، فهي قادرة عليه.

(٦) نحكم: نمنع ونكف.

هجــوتَ محمــدًا وأجبــتُ عنــه وعنــــــــد الله في ذاك الجــــــــزاءُ

أتهجــوه ولســـتَ لــه بكُــفء فشـــــرُّكما لخيرِكمـــــا الفِــــداء

هجــوتُ مباركًــا بــرًا حنيفًــا[1] أمـــين الله شــــيمتُه الوفـــاء[1]

أمــن يهجــو رســولَ الله مــنكم ويمدحُـــــه وينصـــــرُه ســــــواءُ؟

فـــإن أبي ووالـــدَه وعرضــــي لعــــرضِ محمـــد مـــنكم وِقـــاءُ

لســـاني صـــارمٌ لا عيـــبَ فيـــه وبحــــري لا تُكــــدرُه الـــدلاءُ

فلما نزل رسول الله ﷺ مرَّ الظهران قال العباس: واصباح قريش، لئن دخلَ رسول الله ﷺ مكة عَنْوةً قبل أن يستأمنوه إنه لهلاك قريش إلى آخر الدهر، قال: فخرجت على بغلة رسول الله ﷺ لعلي أجد أحدا يأتي مكة فيخبرهم بمكان رسول الله ﷺ، فيستأمنوه. فإذا أبو سفيان وبُديل بن ورَقاءَ قد خرجا يتحسسان الأخبار، وأبو سفيان يقول: ما رأيت كالليلة نيرانًا قط ولا عسكرًا، ويقول بديل: هذه والله خُزاعة حمشتها الحرب[2]، ويقول أبو سفيان: خزاعةُ أذل وأقل من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها.

قال: فعرفت صوته، فقلت: يا أبا حنظلة، فعرف صوتي فقال: أبو الفضل؟ قلت: نعم. قال: مالك فداك أبي وأمي؟ قلت: ويحك هذا رسول الله ﷺ في الناس، واصباح قريش، قال: فما الحيلة؟. قلت: لئن ظفر بك ليضربن عنقك، فاركب في عجز هذه البغلة حتى آتي بك رسول الله ﷺ فأستأمنه لك.

فركب خلفي ورجع صاحبه، فجئت به، كلما مررت بنار من نيران المسلمين قالوا: من هذا؟ فإذا رأوا بغلة رسول الله ﷺ وأنا عليها قالوا؟ عم رسول الله

---

(١) الحنيف: المسلم، سمي حنيفًا لأنه مال عن الباطل إلى الحق. الشيمة: الطبيعة.

(٢) حمشتها الحرب: أحرقتها وصليت بنارها.

ﷺ على بلغته، حتى مررت بعمر بن الخطاب، فلما رأى أبا سفيان قال: عدو الله؟ الحمد لله الذي أمكن منك بغير عقد ولا عهد.

ثم خرج يشتد نحو رسول الله ﷺ، فسبقته فدخلت على رسول الله ﷺ، ودخل عليه عمر فقال: هذا أبو سفيان أمكن الله منه بغير عقد ولا عهد، فدعني فلأضرب عنقه، قلت: يا رسول الله، إني قد أجرته، ثم جلست إلى رسول الله ﷺ فأخذت برأسه فقلت: لا يناجيه الليلة دوني رجل، فلما أكثر عمر في شأنه قلت: مهلاً يا عمر، فوالله أن لو كان من بني عدي بن كعب[1] ما قلت هذا، ولكنه من بني عبدمناف.

فقال: مهلاً يا عباس، فلإسلامُكَ يوم أسلمتَ كان أحبَّ إلي من إسلام الخطاب لو أسلم، فقال رسول الله ﷺ: اذهبْ به يا عباس إلى رَحِلك فإذا أصبحتَ فأتني به.

فغدوت به إلى رسول الله ﷺ، فلما رآه قال: ويحك يا أبا سفيان، ألم يأن لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله؟ قال: بأبي أنت وأمي، ما أحملك وأكرمك وأوصلك والله لقد ظننت أن لو كان مع الله إلهٌ غيره لقد أغنى عني شيئًا بعد، قال: ويحك يا أبا سفيان، ألم يأن لك أن تعلم أني رسولُ الله؟ قال: بأبي أنت وأمي، ما أحلمك وأكرمَك وأوصلك، أما هذه فوالله إن في النفس منها حتى الآن شيئًا! فقال له العباس: ويحك! أسلم واشْهَدْ أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسولُ الله قبل أن تضربَ عنقُك، قال: فأسلم.

وقال العباس: يا رسول الله، إن أبا سفيان رجلٌ يحب الفخر فاجعل له شيئًا، قال: " نعم، من دخل دارَ أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن، ومن

---

(١) عدي بن كعب أسرة عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

دخل المسجدَ فهو آمن ". وأوعز للعباس أن يحبسه بمضيق الوادي حتى تمرَّ جنودُ الله فيراها. فمرت القبائلُ على راياتها كلما مرت قبيلة قال: يا عباسُ من هذه؟ فأقول: سُلَيم، مزينة، حتى نفدت القبائل، ما تمر به قبيلة إلا يسألني عنها، فإذا أخبرته بهم قال: ما لي ولبني فلان، حتى مر به رسول الله ﷺ في كتيبته الخضراء[1]، فيها المهاجرون والأنصار رضي الله عنهم، لا يرى منهم إلا الحَدَق من الحديد، فقال: سبحان الله يا عباسُ، من هؤلاء؟ قلتُ: هذا رسولُ الله ﷺ في المهاجرين والأنصار، قال ما لأحد بهؤلاء قِبَلٌ ولا طاقة، والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداةَ عظيمًا، قلت: يا أبا سفيان إنها النبوة. قال: فنعم إذن. قلت: النَّجاءَ إلى قومِك.

صرخ أبو سفيان بقريش: هذا محمد قد جاءكم فيما لا قبلَ لكم به، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن؛ فقامت إليه امرأته هند بنت عتبة فأخذت بشاربِه فقالت: اقتلوا الحَميتَ الدَّسِم الأحمَس[2]، قُبِّح من طليعة قوم، قال: ويلكم لا تغرنكم هذه من أنفسكم فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن، قالوا: قاتلك الله وما تغني عنا دارُك؟ قال: ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن، فتفرق الناس إلى دورهم وإلى المسجد. ولما انتهى ﷺ إلى ذي طُوى

---

(١) ابن هشام: إنما قيل لها الخضراء لكثرة الحديد وظهوره فيها.

(٢) الحميت: زق السمن. الدسم: الكثير الشحم. الأحمس: الشديد اللحم شبهته بالزق.

وقف على راحلته معتجرًا[١] بشقةِ بُردٍ حِبَرَة[٢] حمراء ، وإنه ليضع رأسه على رحله تواضعًا لله لما أكرمه به من الفتح.

نُقِلَ إلى النبي ﷺ قول سعد بن عبادة رضي الله عنه: اليوم يوم الملحمة اليوم تستحل الحرمة، فقال لعلي كرم الله وجهه: أدركه وخذ الراية منه، فأخذها وغرزها عند ركن البيت، وقيل: أمره أن يدفعها لابنه قيس بن سعد رضي الله عنه.

وقد كان ﷺ عهد إلى قادة الجيش ألا يقاتلوا إلا من قاتلهم، وأمر بقتل أشخاص وإن وجدوا تحت أستار الكعبة، فدخل مكة بسلام إلا خالد بن الوليد فقد واجهته بعض المقاومة برئاسة عكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أمية سرعان ما أجهز عليها؛ وقُتل من أصحاب خالد اثنان.

توجه النبي ﷺ إلى الكعبة المشرفة ودعا بمفتاحها من عثمان بن طلحة، ودخل الكعبة وأمر بثلاثمائة وستين صنمًا وصورًا للملائكة ولإبراهيم عليه السلام وهو

---

(١) الاعتجار: التعمم بغير ذؤابة.

(٢) الشقة: النصف. والحبَرَة: ضرب من برود اليمن.

يستقسم بالأزلام فأزيلت من جوفها ومما حولها، وهو يردد: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [١٨١: الإسراء].

وخرج إلى الناس آخذًا بحلقة الباب وتحته اثنا عشر ألفًا، منهم ألفان من أهل مكة، فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، ألا كل مأثَرة أو دم أو مال يُدَّعى فهو تحت قدمي هاتين إلا سدانة البيت[١] وسقاية الحاج.

ألا وقتيلُ الخطأ شبهِ العمدِ بالسوطِ والعصا ففيه الديةُ مغلظةً، مائة من الإبل أربعون منها في بطونها أولادها، يا معشر قريش، إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء؛ الناس من آدم وآدم من تراب.: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾.[١٣: الحجرات]، ثم قال: يا معشر قريش، ما ترون أني فاعل بكم؟ قالوا: خيرًا، أخ كريم وابن أخ كريم وقد قدرت، قال: اذهبوا فأنتم الطلقاء، ثم جلس ومفتاح الكعبة في يده، فقام إليه علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، فقال: يا رسول الله اجمع لنا الحجابة مع السقاية، فقال ﷺ: أين عثمان بن طلحة؟ فدعي له. فقال: هاك مفتاحك، **اليوم يومُ بر ووفاء.**

بلال رضي الله عنه يؤذن على ظهر الكعبة:

أمر ﷺ بلالاً أن يؤذن من فوق ظهر الكعبة، وأبو سفيان بن حرب وعَتابُ بن أسِيد والحارث بن هشام جلوس بفناء الكعبة، فقال عَتابُ بن أسيد: لقد

---

(١) سدانة البيت: خدمته.

أكرم الله أسيدًا ألا يكون سمع هذا فيسمع منه ما يَغيظه، فقال الحارث بن هشام: لو أعلم أنه محق لاتبعته، فقال أبو سفيان: لا أقول شيئًا، لو تكلمت لأخبرته عني هذه الحصى. فخرج عليهم رسول الله ﷺ فقال: قد علمت الذي قلتم، فقال الحارث وعتاب: نشهد أنك رسول الله، ما اطلع على هذا أحد كان معنا فنقول أخبرك.

فَضَالَةُ يريد اغتيال الرسول ﷺ:

أراد فضالة قتل النبي ﷺ وهو يطوف بالبيت عام الفتح، فلما دنا منه قال ﷺ: أفَضَالةُ؟ قال: نعم، فضالةُ. قال: ماذا كنت تحدث به نفسك؟ قال: لا شيء، كنت أذكر الله، فضحك النبي ﷺ ثم قال: استغفرِ الله، ثم وضع يده على صدره فسكن قلبه، فكان فَضالة يقول: والله ما رفع يده من صدري حتى ما من خلق الله شيءٌ أحبَّ إلي منه، قال فَضالةُ : فرجعتُ إلى أهلي فمررتُ بامرأة كنت أتحدث إليها فقالت: هلم إلى الحديث، فقلت: لا، ثم قلت:

قالت هلمَّ إلى الحديث قلتُ: لا ... يـأبى عليـك اللهُ والإسـلامُ
لـو مـا رأيـت محمـدًا وقبيلَـه ... بـالفتح يـومَ تُكَسَّـرُ الأصـنامُ
لرأيـتِ ديـنَ الله أضـحى بينًـا ... والشـركُ يغشـى وجهـهُ الإظـلامُ

الدروس والعبر:

١- بكلمة واحدة حذف النبي ﷺ تأريخًا قاتمًا ارتكبه جهلاء مكة الذين أزرى عليهم الشاعر سلوكهم الشائن تجاه الرحمة المهداة:

ويـح قـوم جفـوا نبيًـا بـأرض ... ألِفَتْـهُ ضِـبَابُها والظِّبَـاءُ
وسـلوه وَحَـنَّ جِـذعٌ إليـه ... وقلـوه وَوَدَّهُ الغربَـاءُ

(**اذهبُوا فأنتم الطلقاء**)، كلمة لا يقدر أن يقولها بدون تردد إلا سليل بني هاشم، فهو وحده الذي يستطيع أن يُحَوِّلَ القتلة والمجرمين إلى حملة رسالة، أليس هو

المنزل عليه: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [٣٤-٣٥ فصلت]. بلى إنه هو، وله ولآل هاشم يقول الشاعر:

ملكنا فكان الصفح منا سجية   فلما ملكتم سال بالدم أبطح

٢- قيل: إن زنجيًا في أمريكا دخل كنيسة للبيض فهرع إليه الكاهن يطلب منه أن يخرج، وأعطاه بطاقة فيها عنوان كنيسة السود. وهذا محمد ﷺ يأمر بلالاً الحبشي الأسود أن يطأ ظهر الكعبة بقدميه الشريفتين وأن يصدح بالأذان في أعظم محفل إسلامي، وأطهر بقعة على الأرض، ويؤكد بعد ذلك وهو آخذ بحلقة باب الكعبة ليسمع أصحاب العنصرية، والمنفوخون من بقايا الجاهلية: "**كلكم لآدم وآدم من تراب لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى**".

٣- أثر العفو الشامل تأثيرًا بليغًا في نفوس أعداء الأمس وكان شافيًا للجراح الغائرة. ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [١٩٩: الأعراف].

٤- صرخ في وجه الاحتكار، وسلب لقمة المستضعفين فقال: "كُلُّ ربى الجاهلية موضوع"[1].

٥- استخلف عَتَّابًا بن أسيد وعمرُه بضع وعشرون سنة، ليضع الشباب الموهوبين بجوار الشيوخ المجرَّبين.

السرايا تطهر ضواحي مكة من الأصنام

(١) البخاري في التأريخ الكبير ٦/٣٠٦.

ولم تؤمر بقتال:

٦٥- بعث ﷺ خالد بن الوليد في ثلاثين فارسًا ليهدم العزى، وكانت بنخلة على بعد ليلة من مكة لقريش وبني كنانة، وهي من أعظم أصنامهم، وقيل: شجرة عندها وثن تعبده غطفان. فقطع الشجرة وهدم البيت وكسر الوثن(١).

٦٦- بعث خالدًا أيضًا إلى أسفلِ تهامة داعيًا و لم يبعثه مقاتلاً فوطئ بني جَذِيمة فأصاب منهم. فلما رآه القوم أخذوا السلاح فقال خالد: ضعوا السلاح فإن الناس قد أسلموا، فلما وضعوه أمر بهم فكتفوا ثم عرضهم على السيف فقتل من قتل منهم، فقال رسول الله ﷺ: اللهم إني ابرأ إليك مما صنع خالد.

فدعا عليًا وقال: اخرج إلى هؤلاء القوم فانظر في أمرهم، واجعل أمر الجاهلية تحت قدميك، فخرج ومعه مال من النبي ﷺ فودى قتلاهم، وعوَّضهم عمَّا أصيب من أموالهم حتى مَيْلَغةِ الكلب، وبقي معه مال فقال لهم كرم الله وجهه: هل بقي لكم بقية من دم أو مال لم يُودَ لكم؟. قالوا: لا، قال: فإني أعطيكم هذه البقية احتياطًا لرسول الله ﷺ مما يَعَلمُ ولا تعلمون. ثم رجع إلى النبي ﷺ فأخبره الخبر فقال: أصبت وأحسنت ورفع يده حتى رؤي ما تحت منكبيه، وقال: اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد. قالها ثلاثَ مرات(٢).

وقال عبدالرحمن بن عوف لخالد: عَمِلْتَ بأمر الجاهلية في الإسلام فقال: إنما ثأرتُ بأبيك، فقال: كذبت قد قتَلتُ قاتل أبي، ولكنك ثأرت بعمك الفاكه بن

---

(١) الواقدي ٨٧٣/٣. والطبقات ١٤٥/٢.

(٢) البخاري رقم ٤٠٨٤. والنسائي ٢٣٧/٨.وابن هشام ٤٢٨/٢ وما بعدها. والطبقات ١٤٧/٢.

المغيرة[1]، وكاد أن يقع بينهما شر. فبلغ النبي ﷺ وقال: مهلاً يا خالد، دع عنك أصحابي فوالله لو كان لك أحدٌ ذهبًا ثم أنفقته في سبيل الله ما أدركتَ غدوةَ رجلٍ من أصحابي ولا روحته.

٦٧- وبعث ﷺ سعد بن زيد الأشهلي في عشرين فارسًا إلى مناة[2] في شهر رمضان وهي من أقدم الأصنام للأوس والخزرج وغسان فهدمها. أما ابن هشام فقال: إن قائد السرية علي بن أبي طالب[3].

٦٨- وبعث عمرو بن العاص لهدم سواع صنم لهذيل[4]، فهدمه[5].

٦٩ - بَعْثُ علي كرم الله وجهه إلي اليمن سنة ٨ هـ[6]:

بعث ﷺ عليًا إلى اليمن وهو أول بَعْثٍ إلى اليمن بعد فتح مكة، وأسلمت همدان عن بكرة أبيها، فكتب علي إلى رسول الله ﷺ بإسلامهم، فلما قُرِءَ الكتاب خرَّ ساجدًا، ثم رفع رأسه وقال: السلام على همدان. وأنا أروي عن

---

(١) إشارة إلى أن بني جذيمة قتلوا في الجاهلية والد عبدالرحمن بن عوف بن عبدعوف والفاكه بن المغيرة عم خالد، وذلك عندما أقبلا من اليمن تاجرين حتى إذا نزلوا بهم قتلوهما وأخذوا أموالهما، وقتل عبدالرحمن بن عوف قاتل أبيه، وهمت قريش بني جذيمة فاعتذرت لهم وعرضوا عليهم الدية فقبلت قريش.

(٢) بالمشلل جبل على ساحل البحر على سبعة أميال من المدينة.

(٣) ابن سعد ٢/١٤٦.

(٤) على ثلاثة أميال من مكة. في بطن نخلة.

(٥) محمد رسول الله ص٣٢٢ وما بعدها.

(٦) البخاري رقم ٤٠٩٢. ومحمد رسول الله ٣٤٧. والسبل ٦/٣٥٨.

مفتي اليمن السيد أحمد محمد زبارة عن أبيه المؤرخ الشهير[١] بصنعاء أن عليًا كرم الله وجهه قام خطيبًا في قبائل همدان في مكان يسمى اليوم "سوق الحَلَقَة"؛ لأنهم تحلقوا عليه، والمكان مجاور للجامع الكبير بصنعاء من الشمال، وقد بَنَتِ امرأة مسجدًا سمي "مسجد علي" مكان البيت الذي نزل فيه، وهو بجوار سوق الحَلَقَة معروف مشهور، وما زال قائمًا، فتأثروا بخطبته فأسلموا.

٧٠ – غزوة حُنَين[٢]:

(في ١٠ شوال ٨ ه‍ فبراير ٦٣٠م[٣])

لما سمعت هَوَازِنُ بفتح مكة اجتمعت مع ثقيف وغيرها من القبائل تحت قيادة مالك بن عوف النضري ومعهم دُرَيدُ بن الصِّمةِ شيخ كبير أحضروه لخبرته بالحرب وجودة رأيه.

فلما نزلوا بأوطاس وادٍ في ديار هوازن قال دُرَيْدُ: بأي واد أنتم؟ قالوا: بأوطاس. قال: نعمَ مَجال الخيل، لا حَزْنٌ ضرسٌ[٤] ولا سهلٌ دَهسٌ[٥]، مالي أسمعُ رغاء البعير، ونُهاق الحمير، وبكاءَ الصغير، ويعارَ الشاء[٦]؟ قالوا: ساق مالك بن

(١) خلاصة المتون في أبناء ونبلاء اليمن الميمون لمحمد بن محمد زباره ٥٢/١.

(٢) حنين: ماء بينه وبين مكة ثلاث ليال قرب الطائف.

(٣) ابن هشام ٤٣٧/٢. والطبقات ١٤٩/٢. والواقدي ٨٨٥/٣. ومغلطاي ٣١٧.

(٤) الحزن: المرتفع من الأرض. الضرس: الذي فيه حجارة محددة.

(٥) الدهس: اللين الكثير التراب.

(٦) يعار الشاء: صوتها.

عوف مع الناس أموالهم ونساءهم وأبناءهم فقال: أين مالك؟ فدعي له، فقال له: إنك قد أصبحت رئيس قومك، وإن هذا يوم كائنٌ له ما بعده من الأيام، مالي أسمع رُغاء البعير...؟ قال: سُقْتُ مع الناس أموالهم ونساءهم، قال: ولِمَ ذاك؟ قال: أردت أن أجعل خلف كل رجل منهم أهلَه وماله ليقاتل عنهم.

فأنقَض به[1] ثم قال: راعي ضأن والله، وهل يرد المنهزم شيء؟ إنها
إن كانت لك لم ينفعك إلا رجل بسيفه ورمحه، وإن كانت عليك فُضحت في أهلك ومالك، ثم قال: ما فَعَلَتْ كَعب وكِلاب؟ قالوا: لم يشهدها منهم أحد، قال: غاب الحدُّ والجِدُّ، ولو كان يوم علاء ورفعه لم تغب عنه كعب ولا كلاب، ولوددتُ أنكم فعلتم فعلهم، فمن شهدها منكم؟ قالوا: عمرو بن عامر وعوف بن عامر. قال: ذانِك الجَذَعان[2] من عامر، لا ينفعان ولا يضران، يا مالك، إنك لم تصنع بتقديم بيضةِ[3] هوَازنَ إلى نُحور الخيل شيئًا، ارفعهم إلى متمنع بلادهم وعليا قومهم، ثم القَ الصُّباء[4] على متون الخيل، فإن كانت لك

---

(١) أنقض به، من الإنقضاض، وهو أن يلصق لسانه بالحنك ثم يصوت في حافتيه، ويفعلون ذلك عند إنكار القول أو العمل.

(٢) الجذع: الضعيف في الحرب، كأنه الجَذَع من الإل. والجذَع الصغير.

(٣) البَيضة: الجماعة.

(٤) جمع صابئ ، كانوا يسمون المسلمين بذلك لأنهم خرجوا عن دين الوثنية إلى الإسلام.

لحق بك من وراءك، وإن كانت عليك فقد أحرزت أهلك ومالك. قال: والله لا أفعل ذلك، إنك قد كبرت وكبر عقلك، والله لتطيعُنِّي يا معشر هوازن أو لأتكئنَّ على هذا السيفِ حتى يخرجَ من ظهري- وكره أن يكون لدُريدِ بن الصِّمةِ فيها ذكرٌ أو رأي - فقالوا: أطعناك. فقال دريد بن الصمة: هذا يوم لم أشهده و لم يَفُتني وأنشد:

يا ليتني فيها جذع ... أخب فيها وأضع
أقود وطفاء الزمع ... كأنها شاة صدع

وقال بعد المعركة:

أمرتهم أمري بمنعرج اللوى ... فلم يستبينوا الرشد إلا ضحى الغدِ
فلما عصوني كنت منهم وقد أرى ... غَوايتهم وأنني غير مهتدَ
وهل أنا إلا من غَزِيَّة إن غوت ... غويت وإن تَرشُدْ غزيةُ أرشَدِ[1]

ثم قال مالك للناس: إذا رأيتموهم فاكسِروا جفونَ سيوفكم، ثم شدوا شدة رجل واحد.

---

(١) الشعر والشعراء لابن قتيبة ٢/٧٥٠.

ولما سمع بهم نبي الله ﷺ بعث إليهم عبدالله بن أبي حَدرَد الأسلَمي وأمره أن يدخل في الناس حتى يعلم علمهم فدخل فيهم وعلم ما قد أجمعوا له من حرب رسول الله ﷺ، فأخبره به.

فلما أجمع ﷺ على السير إلى هوازِن ذُكِرَ له أن عند صفوانَ بن أميةَ أدراعًا له وسلاحًا فأرسل إليه وهو يومئذ مشرك فقال: يا أبا أمية، أعِرْنا سلاحك نلقَ فيه عدونا. فقال صفوان: أغصبًا؟ قال: بل عارِية مضمونة،قال: ليس بهذا بأس، فأعطاه مائة درع بما يكفيها من السلاح.

فخرج ﷺ في اثني عشر ألفًا، منهم ألفان من مسلمي مكة بعد الفتح، فيهم أناس ما زالوا مشركين، واستعمل عتَّاب بن أسِيد الأموي على مكة أميرًا على من تخلف عنه من الناس، وعمره إحدى وعشرون سنة.

عن الحارث بن مالك قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى حنين ونحن حديثو عهد بالجاهلية، فسرنا معه إلى حُنَين، وكانت لكفار قريش ومن سواهم من العرب شجرةٌ عظيمة خضراءُ يقال لها ذات أنواطٍ، يأتونها كل سنة فيعلقون أسلحتهم عليها، ويذبحون عندها ويعكفون عليها يومًا، فرأينا ونحن نسير مع رسول الله ﷺ سدرةً خضراء عظيمة، فتنادَينا من جنبات الطريق: يا رسول الله ، اجعل لنا ذاتَ أنواط كما لهم ذاتُ أنواط؛ فقال ﷺ: الله أكبر، قلتم – والذي نفسُ محمد بيده – كما قال قوم موسى لموسى: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [١٣٨: الأعراف]. إنها السنن، لتركُبنّ سنن من كان قبلكم[1].

---

(١) الاكتفاء ٢٤١. وابن هشام ٢/٤٤٢.

عن جابر بن عبدالله قال: لما استقبلنا وادي حنين من أودية تهامة أجوفَ حَطُوطًا[1]، ننحدر فيها انحدارا، في عماية الصبح[2]، وكان القوم قد سبقونا إلى الوادي فكمنوا لنا في شعابه وأحنائه[3] ومضايقه، وقد أجمعوا وتهيؤوا وأعدوا، فوالله ما راعنا إلا وقد شدوا علينا شدة رجل واحد، وانشمر الناس راجعين لا يلوي أحد على أحد.

وانحاز رسول الله ﷺ ذاتَ اليمين، وكان أبو سفيان بن الحارث آخذ بلجام ناقته ، فنزل وهو يقول:

أنا النبي لا كذب أنا ابن عبدالمطلب

ثم قال: أيها الناس، هلموا إليَّ أنا رسول الله، أنا محمد بن عبدالله، فلم يلووا على شيء[4]، وحملت الإبلُ بعضها على بعض، فانطلق الناس إلا أنه قد بقي مع رسول الله ﷺ نفر من أهل بيته: عمه العباس، وبنو عمه أبو سفيان بن الحارث، وأخيه ربيعة، والفضل بن العباس، وعلي بن أبي طالب وهو يقاتل بين

---

(١) أجوف : متسع. حطوط: منحدر.

(٢) عماية الصبح: ظلامه قبل أن يتبين.

(٣) الاحناء : الجوانب.

(٤) أي لشيء عظيم.

يديه أشد قتال، ومعهم نفر قليل من المهاجرين والأنصار، منهم أبو بكر وعمر، وأيمن بن عبيد الخزرجي واستشهد بين يدي رسول الله ﷺ، وأسامة بن زيد رضي الله عنهم[1].

الشماتة بهزيمة المسلمين[2]:

فلما انهزم الناس، تكلم رجال من جفاة مكة بما في أنفسهم من الضغن والحقد، فقال أبو سفيان بن حرب: لا تنتهي هزيمتهم دون البحر، وإن الأزلام لمعه في كنانته[3]، وصرخ جبلة بن الحنبل أخو صفوان لأمه وهو مشرك: ألا بطل السحر اليوم، فقال له صفوان وهو على شركه: اسكت فض الله فاك، فوالله لأن يَرُبّني رجلٌ من قريش أحبُّ إليَّ من أن يَرُبَّني رجل من هوازن. وقال شيبة بن عثمان: اليوم أدرك ثأري من محمد[4]. فأدرت به لأقتله فأقبل شيء حتى تغشى فؤادي فلم أطق ذاك وعلمت أنه ممنوع مني.

عودة المسلمين إلى القتال:

---

(١) الاكتفاء ٢/٢٤٣.

(٢) ابن هشام ٢/٤٤٣. والاكتفاء ٢/٢٤٣. والطبري ٣/٧٣. والكامل ٢/١٧٨. والبداية والنهاية ٤/٣٧٤.

(٣) الأزلام: السهام التي كانوا يستقسمون بها ويخضعون لحكمها.

(٤) كان أبوه قد قتل يوم أحد.

عن العباس بن عبدالمطلب قال: إني لمع رسول الله ﷺ آخذٌ بلجام بغلته البيضاء، وكنت امرأ جسيمًا شديد الصوت، ورسول الله ﷺ يقول حين رأى ما رأى من الناس: أينَ أيها الناس؟ فلم أر الناس يلوون على شيء، فقال: يا عباسُ اصرخ يا معشر الأنصار، يا أصحاب السَّمُرَة[1]، قال: فصرخت، فأجابوا لَبيكَ لَبيك، فذهب الرجل ليثنيَ بعيره فلا يقدر على ذلك، فيأخذ درعه فيقذفُها في عنقه ويأخذ سيفه وترسه ويقتحم عن بعيرِه ويخلي سبيلَه فيؤمُّ الصوتَ حتى ينتهي إلى رسول الله ﷺ، حتى إذا اجتمعَ إليه منهم مائة استقبلوا الناس فاقتتلوا.

وكانت الدعوة أول ما كانت: يا للأنصار، ثم خلصت أخيرًا: يا للخزرج، وكانوا صُبرًا عند الحرب، فأشرف رسول الله ﷺ في ركائبه، فنظر إلى القوم وهم يجتلدون فقال: الآن حمي الوطيس، فوالله ما رَجَعَتْ راجعةُ الناس من هزيمتهم حتى وجدوا الأسارَى مُكَتَّفِين عند رسول الله ﷺ. والتفت رسولُ الله ﷺ إلى أبي سفيانَ بن الحارث، وكان ممن صبر يومئذ مع رسول الله ﷺ وحسن إسلامه، وهو آخذ بثَفرِ بغلته[2]، فقال: من هذا؟ قال : أنا ابن أمِّك يا رسول الله، لا أكون آخر من أسلم وأول من يفر. ووقفت أم سليم زوج أبي

(١) السمرة: شجرة الرضوان التي بايعوا تحتها بيعة الرضوان.

(٢) الثفر: السير في مؤخر السرج تحت ذيل الدابة.

طلحة وهي حامل وفي يدها خنجر وأشارت على النبي ﷺ بقتل الفارين، فابتسم وشكرها.

انهزام المشركين:

صدق المسلمون القتال، وأخذ النبي ﷺ كفًا من حصباء وضرب به المشركين وقال: شاهت الوجوه فانهزموا، واستحرَّ القتل في بني مالك من ثَقيف، فقتل منهم سبعون تحت رايتهم.

وتفرق المنهزمون، فمنهم من ذهب إلى الطائف ومعهم مالك بن عوف، وبعضهم بأوطاس وبعضهم بنَخلَة، ولم يكن فيمن توجه نحو نخلة إلا بنو غيِرَةَ من ثقيف، وتبعت خيلُ رسول الله ﷺ مَنْ سلك نَخلَة، ولم تتبع من سلك الثنايا. وبعث ﷺ في آثار من توجه قِبَلَ أوطاس أبا عامر الأشعري فأدرك بعضَ من انهزم فناوشوه القتال، فقتل منهم تسعة مبارزة، بعد أن دعاهم إلى الإسلام، قيل : إنهم إخوة، وبرز العاشر فقتل أبا عامر، فأخذ الراية أبو موسى الأشعري[1] ابن عمه فقاتلهم وهزمهم. وظفر بالغنائم.

ووقف مالك بن عوف مع فوارس من قومه على ثنية من الطريق وقال: قفوا حتى يمضيَ ضعفاؤكم، ويلحقَ آخركم، فوقف هناك حتى مضى من لَحِقَ بهم من منهزمة الناس.

---

(١) هو عبدالله بن قيس أحد الحكمين يوم صفين، مات سنة ٥٠هـ.

ومرَّ رسول الله ﷺ بامرأة وقد قتلها خالدُ بن الوليد، والناس مزدحمون عليها فقال: ما هذا؟ قالوا: امرأة قتلَها خالدُ بن الوليد، فقال لبعض من معه: أدرك خالدًا فقل له: إن رسول الله ينهاك أن تقتلَ وَليدًا أو امرأة أو عَسِيفًا(١). وقال ﷺ يومئذ: إن قدرتم على بِجَاد - رجل من بني سعد بن بكر، فلا يُفلتَنَّكم، وكان قد قتل مسلمًا فقطَّعه عضوًا عضوًا وأحرقه، فلما ظفر به المسلمون ساقوه وأهله، وساقوا معه الشيمَاء بنت الحارث بن عبدالعزى أخت رسول الله ﷺ من الرضاعة، فعنفوا عليها في السياق، فقالت للمسلمين: إني لأخت صاحبكم من الرضاعة، فلم يصدقوها حتى أتو بها رسول الله ﷺ. فقالت، إني أختك من الرضاعة. قال: وما علامة ذلك؟ قالت: عضة عضضتنيها في ظهري وأنا متوركتك(٢). فعرف رسول الله ﷺ العلامة، وبسط لها رداءه فأجلسها عليه وخيَّرها بين البقاء عنده أو الرجوع إلى أهلها، فاختارت الرجوع، فأعطاها وأكرمها(٣).

وفي يوم حنين نزل قوله تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ

---

(١) العسيف: الأجير والعبد المستعان به.

(٢) توركته: حملته على وركها.

(٣) الواقدي ٣/٩١٣. والبداية والنهاية ٤/٤١٧. وابن هشام ٢/٤٥٨.

رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمۡ تَرَوۡهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [التوبة].

الغنائم:

أمر النبي ﷺ بجمعها وحبسها بالجعرانة ، ووليَهَا مسعود بن عمرو الغفاري. وهي: ستة آلاف من النساء والذرية، وأربعة وعشرون ألفًا من الإبل، وأربعون ألفًا من الغنم، وأربعة آلاف أوقية فضة.

٧١ – سرية الطفيل بن عمرو الدوسي إلي ذي الكفِتن (شوال ٨هـ)[1]:

بعثه رسول الله ﷺ؛ لهدم صنم عمرو بن حممة يُسمى ذا الكَفِين، وأمره أن يستمد قومه ويلقاه بالطائف، فخرج سريعًا إلى قومه، وأحرق الصنم وهو ينشد:

يا ذا الكَفِينُ لستُ من عبّادكا ميلادُنا أقدمُ من ميلادكا
إني حششت النار في فؤادكا

وجاء من قومه إلى النبي ﷺ أربعمائة، ومعهم منجنيق ودبابة[2].

٧٢ – سرية قيس بن سعد بن عبادة إلي صدآء[3]

---

(١) طبقات ٢/١٥٧.

(٢) الدبابة: آلة يدخل فيها الرجال، فيدبون فيها لنقب الأسوار الرازية.

(٣) سبل الهدى ٦/٣٢٢.

بعثه ﷺ في أربعمائة فارس إلى ناحية اليمن، بعد انصرافه من الجعرّانة، لقتال قبيلة صُداء، فقدم زياد بن الحارث الصدائي، وقال للنبي ﷺ: أنا وافد قومي إليك وكفيل بإسلامهم، فرد البعث.

فقدموا بعد خمسة عشر يومًا، فقال رسول الله ﷺ: إنك مطاع في قومك يا أخا صُدَاء، فقال: بل الله هداهم ثم قال: ألا تُؤمّرُني عليهم؟ قال: بلى ولا خير في الإمارة للمؤمن، فتركها، وأمره أن يؤذن في صلاة الفجر فأذن فأراد بلال أن يقيم فقال ﷺ: إن أخا صداء أذَّنَ ومن أذن فهو يُقيم[1] .

٧٣ غزوة الطائف:

(في شوال سنة ثمان) [2]

ذهب النبي ﷺ بالمسلمين إلى حصار فلول المنهزمين من ثقيف المتحصنين بالطائف؛ ولما قدم أغلقوا عليهم أبوابَ مدينتها، وصنعوا الصنائع للقتال.

ولم يشهد معه حنينًا وحصار الطائف عروةُ بن مسعود، ولا غَيلانُ ابنُ سَلَمَة، إذ كانا بـجُرش[3] يتعلمان صنعة الدباباتِ[1] والمجانيق[2] والضُّبُور[3] .

---

(١) الترمذي رقم ١٩٩. والاعتصام ١/٣١٥.

(٢) الطبقات ٢/١٥٨. والاكتفاء ٢/٢٥٤. وابن هشام ٢/٤٧٨.

(٣) جرش: من مخاليف اليمن من جهة مكة.

فقال كعب بن مالك حين أجمع ﷺ السير إلى الطائف:

قَضينَا مِن تِهامةَ كلَّ ريبٍ	وخيبرَ ثم أجمَمنا السيُّوفا[٤]
نُخيرُها ولو نطقَت لقالَت	قواطِعُهن دوسًا أو ثَقيفا
فلستُ لحاضنٍ إن لم تَرَوها	بساحة دارِكم منا ألوفا
وننتزع العروشَ ببطن وَجٍّ	وتصبحُ دورُكم منكم خُلُوفا[٥]

حصار الطائف[٦] :

ثم مضى رسول الله ﷺ حتى نزل قريبًا من الطائف، فقُتِلَ ناسٌ من أصحابه بالنبلِ لقرب المعسكر من حائط الطائف، ولم يقدر المسلمون على دخول حائطهم، فحَوَّل عسكره عند مسجده الذي بالطائف اليوم، وحاصرهم بضعًا وعشرين ليلة، وقاتلهم قتالاً شديدًا، وترامَوا بالنبل، ورَمَى ﷺ أهلَ الطائف

---

(١) الدبابة: آلة من آلات الحرب، يدخل فيها الرجال فيدبون بها إلى الأسوار لينقبوها.

(٢) جمع منجنيق، وهي من آلات الحصار، يرمى بها الحجارة الثقيلة ونحوها

(٣) الضبور: مفردها ضبر: وهو جلد يغشىَ خشبًا، فيها رجال تقرب إلى الحصون لقتال أهلها.

(٤) الريب: الشك، أجممنا السيوف: أرحناها.

(٥) العروش: سقوف البيوت. وج: موضع بالطائف، خلوف: تغيب عنها أهلها.

(٦) الكامل في التأريخ ٢/١٨٠، ١٨١. والمغازي ٣/٩٢٤. وابن هشام ٢/٤٨٣. والاكتفاء ٢/٢٥٤.

بالمنجنيق بنفسه، فكان ﷺ أول من رمى به في الإسلام[1] حتى إذا كان يوم الشدخة[2] عند جدار الطائف دخل نفر من أصحاب رسول الله ﷺ تحت دبابة ثم زحفوا بها إلى جدار الطائف ليخرقوه، فأرسلت عليهم ثقيف سكك الحديد محماة بالنار، فخرجوا من تحتها، فرمتهم ثقيف بالنبل فقتلوا منهم رجالاً، فأمر رسول الله ﷺ بقطع أعناب ثقيف فوقع الناس فيها يقطعون.

وقد روي أن رسول الله ﷺ قال لأبي بكر الصديق رضي الله عنه وهو محاصر ثقيفًا: يا أبا بكر إني رأيت أني أهديت لي قعبة[3] مملوءة زبدًا فنقرها ديك فهراق ما فيها، فقال أبو بكر: ما أظن أن تدرك منهم يومَك هذا ما تريد فقال ﷺ وأنا لا أرى ذلك. وعندما قال له رجل: أدعُ عليهم، قال: اللهم اهدِ ثقيفًا وائتِ بهم. ونزل على رسول الله ﷺ حال الحصار عَبِيدٌ فأسلموا فأعتقهم. ولما أسلم أهل الطائف تكلم نفر منهم في أولئك العبيد، فقال ﷺ: "لا، أولئك عتقاءُ الله". وقد استشهد من الصحابة أحد عشر: سبعة من قريش، وأربعة من الأنصار، ورجل من ليث[4].

---

(١) ابن هشام ٢/٤٨٣.

(٢) شدخ الرأس: كسر الرأس، والمراد بيوم الشدخة: يوم القتل.

(٣) القعبة: القدح.

(٤) وفقئت عين أبي سفيان بن حرب في تلك الغزوة. وعينه الأخرى يوم اليرموك. كذا في شرح المواهب ج٣ص٣٣.

قسمة الغنائم:

تبع الناس رسول الله ﷺ يقولون: اقسم علينا فيئَنا، حتى ألجؤه إلى شجرة فاختَطَفت عنه رداءه، فقال : **ردوا علي ردائي أيها الناس، فوالله لو كان لكم بعدد شجر تِهامة نعمًا لقسمتُه عليكم، فما ألفيتموني بخيلاً ولا جبانًا ولا كذابًا.** ثم أخذ وبَرة من سنَام بعير وقال: "والله ما لي من فيئكم ولا هذه الوَبرة إلا الخمسَ، والخمسُ مردودٌ عليكم، ردوا الخياطَ والمخيِط[1]؛ فإن الغُلول يكون على أهله عارًا ونارًا وشنارًا[2] يوم القيامة"[3]. فجاء أنصاريٌ بكُبةٍ[4] من خيوطِ شعر، فقال: يا رسول الله، أخذت هذه الكبة أعمل بها بَرذَعةَ بعيرٍ لي دَبِر[5]. فقال: أما نصيبي منها فلك، قال: أما إذا بلغتْ هذا فلا حاجة لي بها، ثم طرحها من يده.

---

(١) الخياط: الخيط. والمخيط: الإبرة.

(٢) الشنار: أقبح العار.

(٣) البيهقي ٧/١٧. والطبراني ١٨/٢٦٠. وابن هشام ٢/٤٩٢.

(٤) الكبة: ما جمع من الغزل ونحوه.

(٥) الدبر: الذي به الدبر: وهي القروح.

الطلقاء والمؤلفة قلوبُهم[1] :

أعطى ﷺ المؤلفة قلوبُهم وكانوا أشرافًا من أشرافِ الناس يتألفُهم ويتألف بهم قومَهم، فأعطى أبا سفيان بن حرب مئةَ بعير وأربعين أوقية من الفضة، فقال: وابني معاوية فأعطاه مئة، ثم قال: وابني يزيد فأعطاه مئة. وأعطى المئات لكل من حكيم بن حزام، والحارثِ بن كَلَدة، وسهيل ابن عمرو، وعيينةَ بن حصن، والأقرع بن حابس التميمي، ومالك بن عوف النضري، وصفوان بن أمية.

وأعطى خمسين من الإبل رجالاً من قريش: منهم مخرمة بن نَوفل الزهري، وعُمَير بن وهب الجمحي، وهشام بن عمرو، وسعيد بن يربوع المخزومي وعديَّ بن قيس السهمي.

وأعطى عباس بن مرداس أباعر[2] فسخطها، وعاتب النبي ﷺ بأبيات منها:

فأصبحَ نهبي ونهب العُبيد ... بين عُيَينَة والأقرعِ[3]

وما كان حِصْنُ ولا حابسُ ... يفوقان شيخي في المَجْمَع[4]

وما كنتُ دون امرئ منهما ... ومن تضع اليوم لا يُرفع

فقال ﷺ: اقطعوا عني لسانه، فأعطَوه حتى رضي فكان ذلك قطعَ لسانه[1] .

وفي الجعرانة بعد قسمة السبي أتاه وفد هوازنَ وقد أسلموا، فقالوا: يا رسول

---

(١) الواقدي ٣/٩٤٤.

(٢) أباعر: مفردها بعير، وهو الجمل البازل للذكر والأنثى، وجمع بعير: بعران، وجمع بعران أباعر.

(٣) العبيد: اسم فرس العباس.

(٤) شيخي، يريد أبه أباه مرداسًا، ويروى "شيخيّ" بتشديد الياء، يريد أباه وجده ويروى "يفوقان مرداس".

الله، إنا أصلٌ وعشيرة، وقد أصابنا من البلاء ما لم يخف عليك، فامنن علينا منَّ الله عليك. وقام رجل من بني سعد بن بكر، فقال: يا رسول الله إنما في الحظائر من السبايا خالاتُك وحواضنُك اللاتي كن يَكْفُلْنَكَ، ولو أنا مَلَحنا للحارث بن أبي شمر أو للنعمان بن المنذر، ثم نزل منا بمثل الذي نزلت به رجونا عطفه وعائدته علينا، وأنت خير المكفولين.

فقال ﷺ: أبناؤكم ونساؤكم أحبُّ إليكم أم أموالكم؟ فقالوا: يا رسول الله، خيرتنَا بين أموالنا وأحسابنا، بل ترد إلينا نساءنا وأبناءنا، فهو أحب إلينا، فقال لهم : أما ما كان لي ولبني عبدالمطلب فهو لكم، وإذا ما صليت الظهر بالناس فقوموا فقولوا: إنا نستشفع برسول الله إلى المسلمين وبالمسلمين إلى رسول الله في أبنائنا ونسائنا، فسأعطيكم عند ذلك وأسأل لكم، فلما صلى قاموا فتكلموا بالذي أمرهم به، فقال رسولُ الله ﷺ: أما ما كان لي ولبني عبدالمطلب فهو لكم؛ فقال المهاجرون والأنصار: وما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ. فقال

---

(١) قال ابن هشام: وحدثني بعض أهل العلم أن عباس بن مرداس أتى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال له: أنت القائل: فأصبح نهبي ونهب العبيد بين الأقرع وعيينة؟ فقال أبو بكر الصديق: بين عيينة والأقرع. فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: هما واحد. فقال أبو بكر: أشهد أنك كما قال الله ﴿وَمَا عَلَّمْنَـٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾ [يس: ٦٩].

الأقرع بن حابس: أما أنا وبنو تميم فلا، وقال عيينة بن حصن: أما أنا وبنو فزارة فلا، وقال عباسُ ابن مرداس: أما أنا وبنو سليم فلا. فقالت بنو سُلَيم: بلى، ما كان لنا فهو إلى رسول الله ﷺ. فقال: وَهَّنتُموني. فقال رسول الله ﷺ: أما من تمسك منكم بحقّه من هذا السبي فله بكل إنسان ستُ فرائض من أول فيء أصيبُه، فردوا إلى الناس أبناءهم ونساءهم.

إسلام مالك بن عوف:

وقال ﷺ لوفد هوازن: ما فعل مالك؟ فقالوا: هو بالطائف مع ثقيف، فقال ﷺ: أخبروه أنه إن أتاني مسلمًا رددت عليه أهله وماله وأعطيته مائة من الإبل، فأُخْبِرَ بذلك، وخاف ثقيفًا أن يعلموا بما قال رسول الله ﷺ له

ما إن رأيتُ ولا سمعتُ بمثله	في الناس كلهم بمثلِ محمدِ
أوفَى وأعطَى للجزيل إذا اجتُدِي	ومتى تَشَأ يُخبِرْكَ عما في غدَ
وإذا الكتيبةُ عرَّدت أنيابُها	بالسمهري وضربِ كلّ مهند[1]
فكأنه ليثٌ على أشبالهِ	وَسط الهَبَاءَة خادرٌ في مَرصَد[2]

فيحبسوه، فأُحضِرَ له فرس فخرج عليه ليلاً، فأدرك النبي ﷺ بالجعرانة أو بمكة فأعطاه ما وعده، وأسلم فحسن إسلامه، وقال حين أسلم:

فاستعمله رسولُ الله ﷺ على من أسلم من قومه، فكان يقاتل بهم ثقيفًا، لا يخرج لهم سرح إلا أغار عليه، حتى ضيَّق عليهم.

---

(١) عردت: أحجمت وفرت، والأنياب: سادات القوم. السمهري: الرمح. المهند: السيف المنسوب إلى الهند.

(٢) الهباءة: الغبار يقور عند اشتداد الحرب. الخادر: الذي في عربته. المرصد: المكان يرقب منه. ينعته باليقظة.

وَجْدُ الأنصار رضي الله عنهم:

عن أبي سعيد الخدري قال: لما أعطى رسولُ الله ﷺ ما أعطى من تلك العطايا في قريش وفي قبائل العرب، ولم يكن في الأنصار منها شيءٌ؛ وجَد هذا الحي من الأنصار في أنفسهم حتى كثرت منهم القالةُ[1]، حتى قال قائلهم: لقي رسولُ الله ﷺ قومَه، فمشى سعد بن عبادة إلى رسول الله ﷺ وقال: إن هذا الحيَّ من الأنصار قد وجدوا عليك في أنفسهم لما صنعت في هذا الفيء أعطيت قومك وسائر العرب عطايا عظامًا، ولم يك في هذا الحي من الأنصار منها شيء قال: فأين أنتَ من ذلك يا سعد؟ قال: ما أنا إلا من قومي، قال: فاجمع لي قومَك في هذه الحظيرة.

فلما اجتمعوا جاءهم، وجاء رجال من المهاجرين فتركهم فدخلوا، وجاء آخرون فردهم؛ فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: يا معشر الأنصار، ما قالةٌ بلغتني عنكم، وجِدَةٌ[2] وجدتموها عليَّ في أنفسكم؟ ألم آتِكُم ضُلالاً فهداكم الله، وعالة فأغناكم الله، وأعداء فألف الله بين قلوبكم؟ قالوا: بلى، الله ورسوله أمنُّ وأفضل، ثم قال: ألا تجيبوني يا معشر الأنصار؟ قالوا: بماذا نجيبك يا رسول الله؟ لله ولرسوله المنُّ والفضل، قال ﷺ: أمَا والله لو شئتم لقلتم فلصَدَقْتُم ولصُدِّقتم: أتيتَنا مُكَذَّبًا فصدَّقناك، ومخذولاً فنصرناك، وطريدًا فآويناك، وعائلاً فآسيناك[3]. أوجَدتم يا معشرَ الأنصار في أنفسكم في لُعاعة[1] من الدنيا تألفت

(١) القالة: الكلام الرديء.

(٢) الجدة: الغضب.

(٣) آسيناك: أعطيناك حتى جعلناك كأحدنا.

بها قومًا ليُسلموا ووكَلتكم إلى إسلامكم؟ ألا ترضون يا معشرَ الأنصار أن يذهب الناسُ بالشاة والبعير وترجعوا برسول الله إلى رحالكم؟ فوالذي نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنتُ امرأ من الأنصار، ولو سلك الناسُ شِعبًا وسلكتِ الأنصارُ شِعبًا لسلكتُ شعب الأنصار، اللهم ارحم الأنصارَ وأبناءَ الأنصارِ، وأبناءَ أبناءِ الأنصار.

قال: فبكى القومُ حتى أخْضَلُوا لِحاهم[٢]، وقالوا: رضينا برسولِ الله قَسمًا وحظًا، ثم انصرف رسولُ الله ﷺ وتفرقوا.

الدروس والعبر:

١- نظر أبو بكر الصديق رضي الله عنه إلى الجيش الإسلامي العارم، فقال: "لن نهزم اليوم من قلة"[٣]، لكنَّ الجيش ذهب أدراج الرياح في أول صدمة. فنزل قول الله تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ۝٢٥ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟

---

(١) اللعاعة: بالضم: البقية اليسيرة.

(٢) اخضلوها: بللوها.

(٣) سيرة ابن كثير ٣/٦١٠. والواقدي ٣/٨٩٠. والطبقات ٢/١٥٠. بلفظ: لن نغلب اليوم.

﴿وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [٢٥-٢٦: التوبة]. وهذا درس بأن الكثرة ليست العنصر الحاسم، والمبالغة في الاعتداد بالنفس مهلك.

٢- شجاعة النبي ﷺ في المواقف الحرجة هي المنقذ الوحيد، فقد وصف شجاعتَه فارسُ المسلمين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه قال: كنا إذا احمَرَّ البأس وحمي الوطيس نلوذ برسول الله ﷺ.

٣- ظهر في هذه الغزوة أبناء الدنيا، وأحاطوا بالنبي ﷺ ينازعونه ثوبه، يستعجلونه في قسمة المغنم؛ فقد نفد صبرهم وسال لعابهم حتى جف، وأبدى النبي ﷺ حكمة لسنا قادرين على استيعابها، ولا أفهم لماذا أعطى أبا سفيان وولديه ثلاثمائة بعير، وثروة من الفضة. وحرم الأنصار - إلا أن الدنيا لو كانت تساوي عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرًا منها شربة ماء. وأن هذا عنوان على رحمة الله الواسعة في دعوة الشاردين من خلقه إلى رحابه ولو بملء أفواههم وجيوبهم ولو على حساب المؤمنين، وقد قال ﷺ: "إني لأعطي الرجل وغيره أحب إليَّ منه خشية أن يُكَبَّ في النار على وجهه"[1].

٤- حديثه مع الأنصار ما زال يُبكي من قرأه إلى يوم القيامة، فما إن ذَكَّرَهُم بنعمة الله عليهم حين اختارهم أنصارًا لرسوله، وسيوفًا لدعوته حتى اخضلوا لحاهم وتابوا إلى رشدهم: ألم آتكم ضلالاً فهداكم الله ... ثم انتقل يتكلم بلسان الأنصار وينتصر لهم من نفسه: أتيتنا طريدًا فآويناك... فما هي الشاة، وما هو البعير، وما مُلْكُ سليمان بجوار هذا الخلود والمجد، أما ترضون أن يعود الناس بالشاة والبعير وتعودون برسول الله إلى رحالكم؟!.

---

(١) مسلم ١/١٣٢.

٥- كان تأخير قسمة السبي سببًا في مداواة جراح المهزُومين، فقد لحق بهوازن ضربة قاسية خسروا فيه أموالهم وأهليهم، واستثار نخوة المسلمين إذ بدأ بنفسه فوهب نصيبه ونصيب بني هاشم من السبي لهوازن، بعد أن علَّمهم كيف يتكلمون.

عُمرةُ رسولِ الله ﷺ من الجِعرانة

(القعدة سنة ثمان) [1]:

قال ابن إسحاق: ثم خرج رسول الله ﷺ من الجِعرانة معتمرًا، وأمر ببقايا الفيءِ فحبس بمَجنَّةَ بناحية مَرِّ الظهران، فلما فرغَ من عُمرته انصرفَ راجعًا إلى المدينة واستخلف عَتَّابَ بنَ أسيد على مكة، وخلف معه معاذ بن جبل يفقه الناس في الدين ويعلمهم القرآن، وأتْبِعَ رسولُ الله ﷺ ببقايا الفيء[2]. وقدم المدينة في ٢٧ ذي القعدة.

قال ابن إسحاق: وحج الناس تلك السنة على ما كانت العرب تحج عليه، وحج بالمسلمين تلك السنة عتَّاب بن أسيد، وأقام أهل الطائف على شركهم، ما بين ذي القعدة إلى رمضان من سنة تسع.

---

(١) ابن هشام ٢/٥٠٠. والاكتفاء ٢/٢٦٥.

(٢) قال ابن هشام: وبلغني عن زيد بن أسلم أنه قال: لما استعمل النبي صلى الله عليه وآله وسلم عتاب بن أسيد على مكة رزقه كل يوم درهمًا، فقام فخطب الناس. فقال: أيها الناس، أجاع الله كبد من جاع على درهم، فقد رزقني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم درهمًا كل يوم فليست بي حاجة إلى أحد.

كعب بن زهير[1]:

ولما قدمَ رسولُ الله ﷺ من منصرَفه عن الطائف كتبَ بُجير بن زهير بن أبي سُلمَى إلى أخيه كعب بن زهير يخبره أن رسول الله ﷺ قتل رجالاً بمكة ممن كان يهجوه ويؤذيه، وأنّ من بقي من شعراء قريش مثل ابن الزِّبَعرى وهبيرةَ بن أبي وهب قد هربوا في كل وجه، فإن كانت لك في نفسِك حاجة فَطِرْ إلى رسول الله ﷺ فإنه لا يقتل أحدًا جاءه تائبًا، وإن أنت لم تفعل فانجُ إلى نجائك من الأرض.

وكان كعب قد كتب إلى أخيه أبياتًا قال فيها:

ألا أبلغَا عني بُجيرًا رسالةً ... فهل لك فيما قلتُ ويحَك هل لكا

فبيِّن لنا إن كنتَ لستَ بفاعل ... على أيِّ شيء غيرِ ذلك دلكا

على خُلُقٍ لم ألفِ يومًا أبًا له ... عليه وما تُلْفِي عليه أبًا لَكا

فإن أنت لم تفعل فلستُ بآسِفٍ ... ولا قائل إما عثرتَ لعًا لكا[2]

سقاكَ بها المأمونُ كأسًا رويةً ... فأنهلك المأمونُ منها وعلَّكا[3]

قال: وبعث بها إلى بُجير، فكره أن يكتمها رسولَ الله ﷺ، فأنشده إياها، فقال لما سمع "سقاك بها المأمون": "صدق وإنه لكذوب، أنا المأمون". ولما سمع:

---

(١) ابن هشام ٢/٥٠١. والاكتفاء ٢/٢٦٥.

(٢) بآسف: بنادم، وقوله: "لعًا لك" كلمة تقال للعائر، يدعى له بها، ومعناها قم وانتعش.

(٣) أنهلك: سقاك النهل، وهو الشرب الأول، وعلك: سقاك العَلل، والعللُ: الشُّربُ الثاني .

على خُلُقٍ لم ألفِ يومًا أبًا له   عليه وما تُلْفِي عليه أبًا لَكا

فقال : **أجل لم يلف عليه أباه ولا أمه.**

فلما بلغ كعبًا كتاب أخيه ضاقت به الأرض وأشفق على نفسه، وأرجف به من كان في حاضره من عدوه، فقالوا: هو مقتول. فلما لم يجد من شيء بُدًا قال قصيدته التي يمدح فيها رسول الله ﷺ: وذكر فيها خوفه وإرجاف الوشاة به من عدوه ثم خرج حتى قدم المدينة، وجلس إلى رسول الله ﷺ فوضع يده في يده، ورسول الله ﷺ لا يعرفه، فقال: يا رسول الله: إن كعب بن زهير قد جاء ليستأمن منك تائبًا مسلمًا، فهل أنت قابلٌ منه إن أنا جئتك به؟ فقال: "نعم" قال: أنا كعبُ بن زهير، فوثب رجل من الأنصار فقال: يا رسول الله دعني وعدوَّ الله أضرب عنقَه، فقال: "دعه عنك فإنه قد جاء تائبًا نازعًا عما كان عليه" فغضب كعب على الأنصار لما صنع به صاحبُهم، وذلك أنه لم يتكلم فيه رجلٌ من المهاجرين إلا بخير، فأنشد قصيدته المشهورة في المسجد بعد صلاة الصبح:

بانت سُعَادُ فقَلبي اليومَ مَتبُولُ   مُتَيَّمٌ إثرَهَا لم يُفْدَ مكبُولُ[(١)]

وَمَا سُعادُ غَداةَ البَين إذ رَحَلُوا   إلاَّ أغَنُّ غضيضُ الطَّرفِ مَكْحُولُ[(٢)]

هيفاءُ مُقبلةً عَجزَآءُ مُدْبرةً   لا يُشتَكَى قصَرٌ منها ولا طُولُ[(٣)]

---

(١) بانت: فارقت فراقًا بعيدًا. وسعاد : اسم امرأة، متبول: أسقمه الحب وأضناه. ومتيم: ذليل مستعبد. مكبول: مقيد.

(٢) الأغن: الظبي الصغير الذي في صوته غنة.

(٣) هيفاء: صفة مشبهة من الهيف: وهو ضمور البطن، ودقة الخاصرة.

تَجلــو عَــوارض ذي ظَلْــمٍ إذا   كأنَّــه منــهَلٌ بــالرَّاحِ مَعلــولُ[1]

شُجَّت بذي شَبَمٍ مِن ماءِ مَحْنِيَةٍ   صَافٍ بأبطح أضحَى وهوَ مشمُولُ[2]

تَنْفِي الرياحُ القَذَى عنهُ وأفرَطَهُ   مِن صَوبِ غاديةٍ بيضٌ يَعاليلُ[3]

فيَالَـها خُلَّةً لـو أنها صَدَقَت   بوعدها ولو أنَّ النُّصحَ مقبولُ[4]

لكنها خُلَّةٌ قد سِيط من دَمِها   فَجْعٌ وَوَلْعٌ وإخلافٌ وتَبديلُ[5]

فما تدومُ على حالٍ تكون بها   كما تَلَوَّنُ في أثوابها الغُولُ[6]

---

(١) تجلوا: تصقل وتكشف. والعوارض: الأسنان. والمنهل: المسقي وهو الشرب الأول. وبالراح: الخمر. ومعلول: الشرب الثاني.

(٢) شجت: مزجت حتى انكسرت سَوْرَتُها، وذو شبم: ماء شديد البرد. والمحنية: منعطف الوادي. والأبطح: المسيل. والمشمول: الذي ضربته ريح شمال حتى برد.

(٣) القذى : ما يقع في الماء من تبن أو عود أو غيره. وأفرطه: سبق إليه وملأه. والصوب: المطر. والغادية: السحابة تمطر غدوة، ويروى "سارية" وهي السحابة تأتي ليلاً. واليعاليل: الحباب الذي يعلو وجه الماء.

(٤) الخلة (بالضم): الصديقة، يوصف به المذكر والمؤنث والمفرد وغيره.

(٥) سيط: أي خلط بلحمها ودمها هذه الصفات المذكورة في البيت. ويروى شيط وهو بمعناه. والفجع: الإصابة بالمكروه كالهجر ونحوه. والولع والولعان: الكذب، والإخلاف: خلف الوعد. يريد أن محبوبته متصفة بهذه الأخلاق، حتى صارت كأنها مختلطة بدمها.

(٦) الغول: ساحرة الجن، في زعمهم. يزعمون أن الغول ترى في الفلاة بألوان شتى، فتأخذ جانبا عن الطريق، فيتبعها من يراها، فيضل عن الطريق فيهلك.

ولا تَمَسَّكُ بالعَهْدِ الذي زَعَمَتْ ... إلا كما يمسكُ الماءَ الغرابيلُ

فلا يغرَّنْكَ ما مَنَّت وما وَعَدَتْ ... إنَّ الأمانيَّ والأحلامَ تَضليلُ

كانت مواعيدُ عُرقوب لَها مثَلا ... وما مواعيدُها إلا الأباطيلُ[1]

أرجو وآمُلُ أن تَدْنُو مودَّتُها ... وما إخال لدينا منك تَنْويلُ[2]

أمستْ سعادُ بأرضٍ لا يبلِّغُها ... إلا العتاقُ النَّجيباتُ المراسيلُ[3]

ولن يُبَلِّغها إلا عذافِرَةٌ ... لها على الأين إرقالٌ وتَبغيلُ[4]

من كل نضَّاحة الذِّفرى إذا عَرِقت ... عُرْضَتُها طامسُ الأعلامِ مَجْهُولُ[5]

ترمي الغيوبُ بعيْنَي مُفردِ لَهَقِ ... إذا تَوَقَّدَتِ الحِزَّانُ والمِيلُ[1]

---

(١) عرقوب : رجل اشتهر عند العرب بإخلاف الوعد، فضرب به المثل في الخلف.

(٢) التنويل: العطاء، والمراد به: الوصل. يريد أني مع جفائها وإخلاف الوعد، لا أقطع الرجاء في مودها.

(٣) العتاق: الكرام؛ الواحد: عتيق، والنجيبات: جمع نجيبة، وهي القوية الخفيفة. والمراسيل: جمع مرسال وهي السريعة.

(٤) العذافرة: الناقة الصلبة العظيمة. والأين: الإعياء والتعب. والإرقال والتبغيل: ضربان من السير السريع. يقول: لا يبلغ تلك الأرض إلا ناقة صلبة عظيمة، قوية على السير.

(٥) النضاحة: الكثيرة رشح العَرَق. والذفرى: النقرة التي خلف أذن الناقة، وهي أول ما يعرق منها . وعرضَتُها : همَّتها. طامس الأعلام: الدارس من العلامات أي أن الناقة عارفة للطريق المجهول لكثرة أسفارها.

ضـــخمٌ مُقَلَّـــدُها فَعْـــمٌ مقيَّـــدُها ... في خلقِهـا عـن بنـاتِ الفَحـلِ تفضـيلُ[2]

غلبــاءُ وَجنــاءُ عُلكُــومٌ مــذكَّرَة ... في دَفِّهـــا سَـــعَةٌ قُـــدَّامُها ميـــلُ[3]

وجِلــدُها مــن أطُــومٍ مــا يؤيِّســه ... طلـــح بضـــاحيَة المتـــنَين مَهْـــزُولُ[4]

حـرفٌ أخُوهـا أبوهـا مـن مُهَجَّنـة ... وعمُّهـــا خالُهـــا قَـــوْدَاءُ شِـــمْليلُ[5]

يمشـــي القُـــرادُ عليهـــا ثم يُزْلِقُـــهُ ... منـــها لَبـــان وأقـــرَاب زَهاليـــلُ[1]

---

(١) الغيوب: آثار الطريق التي غابت معالمها عن العيون. والمفرد: الثور الوحشي الذي تفرد في مكان وشبَّه عينيها بعينيه لأنه ألف البراري وخبرها. والحزَّان: الأمكنة الغليظة. والميل: العقدة الضخمة من الرمل.

(٢) المقلد: موضع القلادة في العنق. وفعم: ممتلئ ، ويروى: "عبل" وهو بمعناه. والمقيد: موضع القيد، يريد قوائمها. وبنات الفحل: الإناث من الإبل المنسوبة للفحل المعد للضراب.

(٣) غلباء: غليظة العنق. ووجناء : عظيمة الوجنتين، أو هي من الوجين، وهو ما صلب من الأرض. وعلكوم: شديدة. ومذكرة: عظيمة الخلقة تشبه الذكران من الأباعر. في دفها سعة: أي هي واسعة الجنبين، قدامها ميل: كناية عن طول عنقها، أو سعة خطوها.

(٤) الأطوم: سلحفاة بحرية غليظة الجلد، وقيل: هي الزرافة. ويؤيسه: يذلله ولا يؤثر فيه والطّلح : القُراد دويبة تلصق بالدابّة، والمتنان: صلبها عن يمين وشمال، وضاحية الشيء: ناحيته البارزة للشمس. مهزول: صفة للطلح مهزول من الجوع.

(٥) الحرف: القطعة الخارجة من الجبل، شبه الناقة به في القوة والصلابة. وأخوها أبوها: يريد أنها مداخلة النسب لم يدخل في نسبها غير أقاربها، والمهجنة: كريمة الأبوين، والقوداء: الطويلة الظهر والعنق. والشمليل: السريعة الخفيفة.

عيرانةٌ قذفت بالنَّحض عن عُرُضٍ مرفقُها عن بَناتِ الزَّور مفتولُ[٢]

كأنَّما فاتَ عينَيها ومَذْبَحَهَا من خطمها ومن اللَّحيين بِرطِيلُ[٣]

تُمرُّ مثْلَ عَسيبِ النَّخل ذا خُصَلِ في غارز لم تخوَّنهُ الأحاليلُ[٤]

قنواء في حرتيها للبصير بها عتقٌ مبينٌ وفي الخدَّين تسهيلُ[٥]

تخدي على يَسَرَاتِ وهي لاحقةٌ ذوابلٌ مسُّهُن الأرض تحليلُ[٦]

---

(١) يزلقه: من الإزلاق، أي يسقطه، ومنها: أي عنها. واللبان: الصدر، وقيل: وسطه. والأقراب: الخواصر: والمراد بها المثنى. والزهاليل: الملس.

(٢) العيرانة: الناقة المشبهةُ عَيْرَ الوحش في سرعته ونشاطه وصلابته، وهذا مما يستحسن في أوصاف الإبل. والنحض: اللحم. عن عرض: عن كل جانب. والزور: الصدر، وقيل: وسطه. وبنات الزور: ما يتصل به مما حوله من الأضلاع وغيرها.

(٣) الخطم: الأنف وما حوله. واللحيان: العظمان اللذان تنبت عليهما الأسنان. والبرطيل: حجر مستطيل. يصف وجهها بالطول.

(٤) عسيب النخل: جريده الذي لم ينبت عليه الخوص فإن نبت سُمي سعفًا. والخُصَل جمع خصلة من الشعر. وفي غارز: أي في ضرع. و لم تخونه: لم تنقصه. والأحاليل: مخارج اللبن. يعني أنها لا تحلب، وذلك أقوى لها على السير.

(٥) القنواء: الـمُحْدَوْدِ بة الأنف. والحرتان: الأذنان. والعتق: الكرم. والمبين: الظاهر. وتسهيل: سهولة ولين.

(٦) تخدى:تُسْرِع. واليسرات:القوائم الخفاف. ذوابل:جمع ذابل وهو الرمح الصلب اليابس. تحليل:قليل لم يبالغ فيه.

سُمْرُ العَجَايات يتركنَ الحصى زِيَمًا لم يَقِهِــنَّ رُءوسَ الأَكْــمِ تنعيــلُ[١]

كـأنَّ أَوْبَ ذراعيهـا وقـد عَرِقـتْ وقــد تَلَفَّــع بــالقور العســاقيلُ[٢]

يومـا يظـل بـه الحِرْبـاءُ مُصْـطَخِدًا كــأنَّ ضــاحِيَه بالشَّــمس مَمْلُــولُ[٣]

وقـال للقـوم حـاديهم وقـد جَعلت وُرْقُ الجنـادب يركُضـن الحصـى قِيلـوا[٤]

شدَّ النـهار ذراعًـا[٥] عَيْطَلٍ نَصِـفٍ قامــت فجاوبهــا نُكْــدٌ مثاكيــلُ[٦]

نَوَّاحـةٌ رِخـوَةُ الضَّـبعين لـيس لهـا لَمَّــا نَعَــى بِكرهــا النَّــاعون معقــولُ[٧]

---

(١) العجايات:الأعصاب المتصلة بالحافر. زيمًا:متفرقًا. الأكْم:الأرض المرتفعة.والتنعيل:شد النعل على ظفر الدابة. يريد أن أعصاب هذه الناقة قوية كالرماح السمر.

(٢) أوب:سرعة التقلب والرجوع.تلفع:اشتمل والتحف.القور:الجبل الصغير.العساقيل:السراب يصف سرعة ناقته في وقت الهاجرة وانتشار السراب فوق صغار الجبال. وسيأتي خبر كأنَّ في البيت الثالث بعد هذا.

(٣) مصطخدًا:محترقًا بالشمس. مملول:موضوع في الرماد الحار. وتسمى النار الكامنة بين الرماد مَلَة.

(٤)الحادي:السائق للإبل.الورق:لون يشبه الرماد.الجنادب:الجراد لصغير.قيلوا:من القيلولة.

(٥) خبر كأنَّ وهو المشبه به أي كأن أوب ذراعيها أوب دراعي عيطل.

(٦) شَدَّ النهار:وقت ارتفاعه.العيطل:الطويلة.نصف:المتوسطة في السن.النُّكدْ: اللاتي لا يعيش لهن ولد.

(٧) رخوة الضبعين:مسترخية العضدين.معقول:هنا العقل. يريد هنا أن الناقة سريعة نقل الخُطا تلطم بأقدامها الأرض كما تلطم النساء النُّكد المثاكيل

تَفــري اللَّبــان بكفَّيْهــا ومــدرَعُها ... مشـــقَّقٌ عـــن تراقيهـــا رعابيـــل[١]
تسـعَى الوشـاة جنابيهـا وقـولُهم ... إنَّـــك يـــابن أبي سُـــلمى لمقتُـــولُ
وقـال كـلُّ صـديق كنـتُ آملـه ... لا ألهينَّـــكَ إني عنـــك مشـــغولُ
فقلـتُ خلُّـوا سـبيلي لا أبـالكم ... فكــل مــا قــدَّر الــرَّحمنُ مَفعُــولُ
كلُّ ابـن أنثى وإن طالـت سلامتُه ... يومــا علــى آلــة حَــدْبَاءَ محمــولُ[٢]
نُبِّئـــتُ أنَّ رســـولَ الله أوعـــدني ... والعفــوُ عنــدَ رســولِ الله مــأمولُ[٣]
مهلاً هَداكَ الذي أعطاكَ نافلة الـ ... ـــقرآنِ فيهـــا مـــواعيظٌ وتفصـــيلُ[٤]
لا تأخــذنِّي بــأقوال الوشــاةِ ولم ... أذنـــب ولـــو كَثُــرتْ فيَّ الأقاويـــلُ
لقـد أقـومُ مقامًـا لـو يقـومُ بـه ... يـرى ويسـمعُ مـا لـو يَسـمَعُ الفيِـلُ[٥]

خدودهن، وكما تلطم النواحة التي مات بكرها خدها والنساء اللاتي يتجاوبن في البكاء أنشط لطم خدودهن .

(١) تفري:تقطَع.اللبان:الصدر.المدرع:القميص.رعابيل:قطع متفرقة وهو جمع رعبول. والمعنى أنها تضرب صدرها بكفيها مشققة الدرع تلهفُا على ولدها.

(٢) الآلة الحدباء:نعش الميت.

(٣) نبئت:أخبرت.وأوعدني:هددني بالقتل.مأمول:مرجو ومطموع فيه. وجميع ما تقدم توطئة لهذا البيت فإن غرضه من القصيدة التنصل والاستعطاف. ويروى أنبئت.

(٤) هداك:زادك هدى.النافلة:الزيادة.وسمي القرآن نافلة لأنه عطية زائدة على النبوة.

(٥) والله لقد أقوم فهو جواب قسم محذوف.والمقام هنا:مجلس النبي صلى الله عليه وآله وسلم. والمراد حضوره.

لَظَــلَّ يَرعَــدُ إلا أن يكــون لــه — مــن الرســول بــإذن الله تنويــل[(١)]
حــتَّ وضــعتُ يمــيني مــا أنازعــه — في كــف ذي نَقَمَــاتٍ قيلُــه القيــلُ[(٢)]
فَلَهْــوَ أخــوفُ عنــدي إذ أكلِّمُــه — وقيــلَ إنَّــكَ منســوبٌ ومســئُولُ[(٣)]
مــن ضَيغم بضَراء الأرض مَخدَره — في بطــنِ عَثــرَّ غيــلٌ دونــه غيــلُ[(٤)]
يغـدو فـيُلْحِمُ ضـرغامَين عيشُـهما — لحــمٌ مــن النــاس معفــورٌ خراديــل[(٥)]
إذا يســاور قِرْنًــا لا يَحــلُّ لــه — أن يتــركَ القِــرنَ إلا وهــو مفلــول[(٦)]
منــه تظــلُّ ســباعُ الجــوِّ ضــامرةً — ولا تَمَشَّــى بواديــه الأراجيــلُ[(٧)]
ولا يــزالُ بواديــه أخــو ثِقــةِ — مضــرجُ البــزِّ والدِّرســانِ مــأكولُ[(٨)]

---

(١) التنويل: التأمين.والمعنى لو كان الفيل مقامي لاضطرب من الفزع.وخص الفيل لعظمه.

(٢) خص اليمين لأن الأشياء الشريفة تعمل بها.النقمات: جمع نقمة.

(٣) أخوف: أشد إخافة وإرهابا.ومنسوب:أي إلى أمور صدرت منك. مسئول:عن سببها أي مسئول عن نسبك.

(٤) الضيغم: الأسد. ضراء الأرض: ما واراك من شجر ونحوه. مخدر الأسد: أجَمَتُه وغابته. عَثَّر: موضع مشهور بالأسد. الغيل: الأجَمَة. ويروى: من خادر من ليوث الأسد مسكنه.

(٥) بلحم: يطعم اللحم. معفور: ممرغ في العفر؛ وهو التراب. خراديل: قطع.

(٦) يساور: يواثب، القرن: المقاوم ، المفلول: المهزوم. ويروى: مجدول. أي مُلقى.

(٧) الجو: البر الواسع. ضامزة: ساكتة. والأراجيل : الجماعات من الرجال.

(٨) مضرج : مخضب بالدماء . والبز: السلاح. والدِّرسان: جمع دَرِسٍ. وهو الثوب الخَلق البالي.

إن الرسـول لنـورٌ يستضـاءُ بـه — مهنـدٌ مـن سُـيوفِ اللهِ مسـلولُ[1]

في عُصْبةٍ من قريشٍ قال قائلُهم — ببطنِ مكـة لمـا أسـلموا : زُولُـوا[2]

زالوا فما زال أنكاسٌ ولا كُشُف — عنـد اللقـاء ولا مِيـلٌ معازيـلُ[3]

شُـمُّ العـرانينِ أبطـالٌ لَبوسُـهم — مـن نسـجِ داودَ في الهيجـا سَـرابيل[4]

بيضٌ سوابغُ قد شُكت لها حَلَقٌ — كأنـه حَلَـقُ القَفْعَـاء مجـدول[5]

---

(١) يروى أن كعبًا أنشد من سيوف الهند: لأنها مضرب المثل في الجودة. فقال صلى الله عليه وآله وسلم: من سيوف الله.

(٢) في عصبة "يروى أيضًا: "في فتية" وزولوا: انتقلوا من مكان إلى مكان.
يقصد الهجرة.

(٣) أنكاس: جمع نِكْسٍ، الرجل الضعيف. سمي بذلك تشبيهًا بالنكس من السهام ، وهو الذي انكسر فوقه، والكشف: جمع أَكْشَف وهو الذي لا ترس معه في الحرب، والميل جمع أميل، وهو الذي لا سيف معه، أو هو الذي لا يحسن ركوب الخيل ولا يستقر على السرج، والمعازيل: جمع مِعْزَال، وهو الذي لا سلاح معه.

(٤) الشم: جمع أشم ، وهو الذي في قصبة أنفه علو مع استواء أعلاه، وذلك من علامات السيادة والكرم. والعرنين: الأنف، والأبطال: جمع بطل، وسمي بذلك لأنه تبطل عنده الدماء وتهدر، ولا ينال منه ثأر. ونسج داود أراد به الدروع. والهيجا: الحرب، وأصله ممدود فقصره. والسرابيل: جمع سربال.

(٥) السابغ: الطويل التام، وهذان وصفان للسرابيل في البيت السابق. وشُكّت نسجت، ويروى "سكت" بالسين، ومعناه ضيقت. والقفعاء: نبات له شوك ينبسط على وجه الأرض يشبه حلق الدروع. ومجدول: محكم الصنعة.

ليسوا مفاريحَ إن نالت رماحُهمُ قومًا وليسوا مجازيعًا إذا نيلوا

يمشون مشيَ الجمالِ الزُّهرِ ضربٌ إذا عرَّدَ السُّودُ التَّنَابيلُ[1]

لا يقعُ الطَّعنُ إلا في نحورِهمُ وما لَهُمْ عن حياضِ الموتِ تَهْلِيلُ[2]

---

(١) الزهر: جمع أزهر، وهو الأبيض، وعرَّدَ: نكب عن قرنه وهرب منه. والتنابيل: جمع تنبال، وهو القصير.

(٢) وصفهم بأنهم لا يفرون فيقع الطعن في ظهورهم، بل من شأنهم الأقدام على أعدائهم فيقع الطعن في نحورهم وصدورهم، تهليل: فرار، هلل عن قِرنه تهليلاً إذا فر.

فلما قال كعب: "إذا عرَّد السودُ التنابيل" وإنما يريد الأنصار لقول صاحبهم، وخص المهاجرين بمدحته - غضبت عليه الأنصار، فقال له النبي ﷺ: لو ذكرت الأنصار بخير فهم لذلك أهل، فقال بعد أن أسلم يمدح الأنصار ويذكر بلاءهم مع رسولِ الله ﷺ وموضعَهم من اليمن:

مَنْ سَرَّه كرمُ الحياةِ فلا يزل ... في مقنَبٍ من صالحي الأنصار[1]
ورثوا المكارِمَ كابرًا عن كابرٍ ... إن الخيارَ هم بنو الأخيارِ
المكرِهين السمهري بأذرعٍ ... كسوافل الهندي غير قصار[2]
والناظرين بأعين محمرةٍ ... كالجمرِ غير كليلةِ الأبصارِ
والبائعين نفوسَهم لنبيهم ... للموتِ يوم تَعَانُقٍ وكرَارِ
والذائدين الناسَ عن أديانهم ... بالمشرفي وبالقَنا الخطَّارِ[3]
يتطهرون يَرونه نُسكًا لهم ... بدماء من عَلقوا من الكفار
دَرِبوا كما دربت ببطنِ خَفِيَّة ... غُلْبُ الرقاب من الأسود ضَوارِي[4]

---

(١) أصل المقنب الجماعة من الخيل، وجمعه المقانب: أراد الفرسان.

(٢) السمهري: الرمح "كسوافل الهندي" يريد به الرماح. والرماح قد تنسب إلى الهند كما تنسب إلى الحط، انظر ديوان كعب ص ٢٦.

(٣) الذائدين: المانعين والدافعين، وقد وقع في نسخة "والقائدين" والمشرفي: السيف، والخطار: المهتز.

(٤) دربوا: تعودوا. وخفية: موضع تنسب إليه الأسود. وغلب الرقاب: غلاظها، وضوار: متعودة الصيد: جمع ضار.

وإذا حللــــتَ ليمنعــــوكَ إلــــيهم ... أصـبحتَ عنـد معاقِـل الأغفـار[1]

ضــربوا عليًــا يــومَ بــدرٍ ضــربةً ... دانــت لوقعتــها جميــعُ نــزارِ[2]

لــو يعلــم الأقــوامُ علمــي كلَّــه ... فــيهم لصــدَّقني الــذين أمــاري

قــوم إذا خــوتِ النجــومُ فــإنهم ... للطــارقين النــازلين مقــاري[3]

في الغُــرِّ مــن غَســانَ مــن جرثومــةٍ ... أعيــت محافرُهــا علــى المِنقــار[4]

٧٤ -سرية عيينة بن حصن[5] :

والسبب أن بني تميم شهروا السلاح في وجه بِشْر بن سفيان، ومنعوه من أخذ الصدقة من جيرانهم بني كعب من خزاعة، فقال لهم بنو كعب: نحن أسلمنا ولا بد في ديننا من دفع الزكاة. فقال بنو تميم: والله لا ندع بعيرًا واحدًا يخرج، فقدم

---

(١) معاقل: جمع معقل. وهو الموضع الذي يمتنع فيه من احتله. والاغفار: جمع غُفر، وهو ولد الوعل، ويضرب بها المثل في الامتناع

(٢) عليًا: أراد به عليَّ بن مسعود بن مازن الغساني، وإليه تنسب بنو كنانة لأنه كفل ولد أخيه عبدمناة بن كنانة بعد وفاته، فنسبوا إليه.

(٣) خوت النجوم: سقطت و لم تمطر في نوئها، والطارقون: الذين يأتون ليلاً، والمقاري: جمع مقري، وهو الكثير الإطعام للضيوف.

(٤) الجرثومة: أصل الشيء. المحافر: مواضع الحفر. والمنقار: حديدة كالفأس ينقر بها.

(٥) الطبقات ٢/١٦٠. وسبل الهدى ٦/٣٢٤.

بشرٌ وأخبر النبي ﷺ، فبعث عيينة في خمسين فارسًا إليهم، وليس مع عيينة مهاجريٌ ولا أنصاري، فهجم عليهم وأخذ مواشيهم وأسر أحد عشر رجلاً ومِثْلَهم من النساء وثلاثين صبيًا، وفر الباقون، فحبس النبي ﷺ السبيَ وكأنه يتوقع قدوم أهلهم فيتألفهم بردهم؛ فجاء عدة من وجوههم: كعُطارِد بن حاجب، والزّبْرَقان بن بدر، وعمرو بن الأهتم، فنادوا: يا محمد اخرج إلينا، فقال بلال: رسول الله يخرج الآن، فخرج، وأقام بلال الصلاة فتعلقوا به يكلمونه قائلين له: أتيناك بخطيبنا وشاعرنا فاسمع منا، فتبسم رسول الله ﷺ، وقدموا عُطارد فخطب، فرد عليه ثابت بن قيس بن الشماس ثم قام بعده الزبرقان وأنشد:

نحن الملوك فلا حيٌّ يقاربنا	فينا الملوك وفينا تُنصب البِيعَ[1]
وكم كسرنا من الأحياء كلهمُ	عند النهاب وفضل العز يُتبعُ
ونحن يُطعمُ عند القحط مطعمنا	من الشواء إذا لم يؤنَسِ القَزَعُ[2]
وننحر الكَوم عُبْطًا في أرومتنا[3]	للنازلين إذا ما أنزلُوا شبعوا

فقال رسول الله ﷺ: أجبهم يا حسان، فقال:

---

(١) البيع:مواضع الصلوات والعبادات، مفردها بيعة.

(٢) القزع:سحاب رقيق يكون في الخريف، مفردها قزعة.

(٣) الكوم:الناقة العظيمة السنام، مفردها كوماء. وعبطا: أي مات من غير علة. الأرومة:الأصل.

إن الـذوائب[1] مـن فِهـر وإخـوتهم ... قــد بينــوا ســنة للنــاس تُتَّبــعُ

يرضى بهم كل من كانت سريرته ... تقـوى الإلـه وبـالأمر الـذي شـرعوا

قــوم إذا حــاربوا ضــروا عــدوهمُ ... أو حــاولوا النفــع في أشــياعهم نفعــوا

ســجية تلــك منــهم غــير محدثــة ... إن الخلائــق فــاعلم شــرها البــدع

لا يرقـع النـاس مـا أوهـت أكفهـم ... عنـد الـدفاع ولا يوهـون مـارقعوا

ولا يضِــنُّون عــن جــار بفضــلهم ... ولا ينــالهم في مطمــع طَبَــعُ[2]

إن كـان في النـاس سبّاقون بعـدهمُ ... فكــل ســبق لأدنى ســبقهم تبــع

أكـرم بقـوم رسـول الله شـيعتهم ... إذا تفرقــت الأهــواء والشــيع

أعفـةٌ ذُكِـرت في الـوحي عفتـهم ... لا يطمعــون ولا يــرديهم طمــع

كـأنهم في الـوغى والمـوت مكتنـع ... أسْــدٌ ببيشــة في أرســاغها[3] فــدع

لا يفخــرون إذا نــالوا عــدوهم ... وإن أصــيبوا فــلا خُــور[4] ولا جُــزُع

إذا نصــبنا لحــيٍّ لم نــدبَّ لهــم ... كمــا يــدب إلى الوحشــية الــذرع[5]

نسْـموا إذا الحـربُ نالتْنـا مخالبُهـا ... إذا الزعــانف مــن أطرافهــا خشــعوا[1]

---

(١) الأعالي، وأراد هاهنا السادة.

(٢) الطبع: الدنس .

(٣) والموت مكتنع : أي دان. بيشة:من عمل مكة، مما يلي اليمن من مكة على خمس مراحل. الأرساغ: جمع رسغ، وهو موضع مربط القيد. فدع: اعوجاج إلى ناحية.

(٤) الخور: الضعفاء .

(٥) الذرع:ولد البقرة الوحشية.

خذ منهم ما أتى عفواً إذا غضبوا ... ولا يكن همك الأمر الذي منعوا

فإن في حربهم فاترك عداواتهم ... سُمًّا غريضًا عليه الصاب والسلع[2]

أهدى لهم مدحه قلب يؤازره ... فيما أحب لسانٌ حائك صنع

وأنهم أفضل الأحياء كلهم ... إن جدَّ بالناس جد القول أو شمعوا[4]

---

(١) أطراف الناس وأتباعهم . خشعوا: أي تذللوا.

(٢) السلع: نبات مسموم .

(٣) أي: يحسن العمل.

(٤) أي: هزلوا، وأصل الشمع: الطرب واللهو، ومنه جارية شموع، إذا كانت كثيرة الطرب .

فخلا الوفد بعضهم إلى بعض ، فقال قائل: تعلمن والله أن هذا الرجل مؤيد مصنوع له، لَخطيِبُه أخطبُ من خطيبنا، ولشاعِرُه أشعر من شاعرنا، ولهم أحلم منا، فرد ﷺ عليهم السبي والأسرى، فنزل في هذا الوفد لما رفعوا أصواهم ونادوا رسول الله ﷺ قولُ الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ﴾ [الحجرات:٢][1].

إرسال الوليد بن عقبة إلى بني المصطلق[2]:

بعثه ﷺ لجمع صدقات بني المصطلق، وكانوا قد أسلموا وبنوا المساجد، وكان بينهم وبين الوليد عداوة في الجاهلية، إلا أن عشرين منهم تلقوه بالجزور والنعم فرحًا به، وتعظيمًا لله ورسوله ﷺ متجملين بالسلاح، فظنهم خرجوا

---

(١) الطبري مج١٣/٢٦/١٥٩. ومجمع البيان ٩/٢٢١. أسباب النزول ٣١٩.

(٢) ابن هشام ٢/٥٦٠، الواقدي٣/٩٧٣. والطبري ٣/١١٥. أسباب النزول ٣٢٢.

لقتاله فرجع قبل أن يصل إليهم؛ فأخبر النبي ﷺ أهم ارتدوا، فَهَمَّ رسول الله ﷺ بغزوهم، فأتوه وأخبروه بالحقيقة، فنزل قول الله : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ﴾ [الحجرات: ٦] ثم قال: مَن تحبون أن أبعث إليكم؟ قالوا:عباد بن بشر، فبعثه إليهم.

٧٥- سرية قطبة بن عامر إلى خَثعم:

(في صفر سنة ٩هـ[١]:)

بعثه ﷺ في عشرين رجلاً إلى حيٍّ من خثعم بناحية تبالة، فخرجوا فأخذوا رجلاً فسألوه فاستعجم عليهم، فجعل يصيح بقومه فقتلوه، ثم انتظروا حتى نام القوم فأغاروا عليهم، فاقتتلوا قتالاً شديدًا حتى كثرت الجرحى في الفريقين، ونصر الله المسلمين عليهم، فسبوا وغنموا.

٧٦- سرية الضحاك بن سفيان إلى بني كلاب:

(في ربيع الأول سنة٩هـ[٢])

بعثه ﷺ على رأس جيش- وكان من الشجعان - ومعه الأصيد بن سلمة، فلقوا بني كلاب فدعوهم إلى الإسلام فأبوا؛ فقاتلوهم فهزموهم وغنموا أموالهم، فلحق الأصيد أباه سلمة وكان على فرس له فدعاه إلى الإسلام وأعطاه الأمان؛ فسبه وسب دينه؛ فضرب الأصيد عرقوبي فرس أبيه، فلما وقع الفرس ارتكز

(١) الطبقات ١٦٢/٢. وسبل الهدى ٣٢٧/٦.

(٢) الطبقات ١٦٢/٢. وسبل الهدى ٣٢٩/٦.

الأصيد على رمحه في الماء، ثم استمسك به، حتى جاءه واحد من المسلمين فقتله، ولم يقتله ولدُه.

٧٧ - سرية علقمة بن مجزز المدلجي:

في ربيع الأخر سنة٩هـ[١]:

بلغ رسول الله ﷺ من سكان السواحل بجدة أن أناسًا من الحبشة في عرض البحر تراياهم أهل جدة، فبعث إليهم علقمة في ثلاثمائة، فخاض البحر إلى الجزيرة التي هم فيها فهربوا.

٧٨ -سرية علي بن أبي طالب كرم الله وجهه:

في ربيع الأخر سنة٩هـ[٢]

بعثه ﷺ لهدم الفُلْس: صنم بنجد تعبده طيء؛ فخرج في مائة وخمسين على مائة بعير وخمسين فرسًا، فأغاروا مع الفجر على محلة آل حاتم الطائي، فهدموا الفلس، وساقوا السبي والنعم والشاء، وكان في السبي سفَّانة أخت عَدي بن حاتم، وهرب عدي إلى الشام. وقسم عليٌ الفيء، وعزل الخمس، وعزل آل حاتم فلم يقسمهم حتى قدم بهم المدينة وأحسن معاملتهم. وأكرم النبي ﷺ سفّانة بنت حاتم، فهو القائل: "**إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه**"[٣]، وحدثته عن

---

(١) سبل الهدى ٦/٣٣١. والطبقات ٢/١٦٣.

(٢) ابن هشام ٢/٦٤١. والطبقات ٢/١٦٤.

(٣) سنن البيهقي ٨/١٦٨. وابن ماجة ٣٧١٢. وتأريخ الخطيب ٧/٩٤. ومجمع الزوائد ٤/٢٣٤.

كرم أبيها. وأوعز إليها علي أن تطلب من النبي ﷺ أن يمنَّ عليها ففعلت؛ فأطلق سراحها وأكرمها؛ فدعت للنبي ﷺ بهذا الدعاء: **شَكَرتْك يدٌ افتقرَت بعد غنىً، ولا ملكتك يد استغنت بعد فقر، وأصاب الله بمعروفك مواضعه، ولا جعل لك إلى لئيم حاجة، ولا سلبَ نعمةَ كريم إلا وجعلك سببًا لردها عليه.**

وتحولت سفّانَة إلى داعية إسلامية فذهبت وراء أخيها إلى الشام، فأخبرته بتكريم النبي ﷺ، عليٍّ لأسرة آل حاتم فعلي لم يقسمها مع الغنائم بل قدم بها معززة مكرمة، فقال لها أخوها: ماذا ترين؟ قالت: أرى أن تلحق به سريعًا، فإن يكن نبيًا فللسابق إليه فضل، وإن يكن ملكًا فلن تذل في عز اليمن وأنت أنت، قال: هذا هو الرأي.

فقدم على رسول الله ﷺ في مسجده، فقال: من الرجل؟ قال: عدي بن حاتم، فانطلق به إلى بيته، قال عدي: فوالله إنه لذاهب بي إليه، إذ لقيته امرأة ضعيفة كبيرة فاستوقفته، فوقف لها طويلاً تكلمه في حاجتها، فقلت في نفسي: والله ما هذا بِمَلِكْ، فلما دخل بي بيته، ناولني وسادة وقال: اجلس عليها، قلت: بل أنت فاجلس عليها، فقال: بل أنت، فجلست عليها، وجلس على الأرض، فقلت في نفسي: ما هذا بملك، ثم قال : إِيْهٍ يا عدي بن حاتم، ألم تَكُ رَكُوسِيًا؟[1]، قلت: بلى، قال: أو لم تكن تسير في قومك بالمرباع؟[2] قلت: بلى، قال: فإن ذلك لا يحل لك في دينك، قلت: أجل والله، وعرفت أنه نبي مرسل يعلم ما يُجهل، ثم قال: لعلك يا عدي إنما يمنعك من الدخول في هذا

---

(١) والركوسية دين بين دين النصارى والصابئين.

(٢) يعني: كان يأخذ ربع الغنائم.

الدين ما ترى من حاجتهم، فوالله ليوشكن المال أن يفيض فيهم حتى لا يوجد من يأخذه، ولعلك إنما يمنعك من دخولٍ فيه ما ترى من كثرة عدوهم وقلة عددهم، فوالله ليوشكن أن تسمع بالمرأة تخرج من القادسية على بعيرها حتى تزور هذا البيت لا تخاف، ولعلك إنما يمنعك من دخولٍ فيه أنك ترى أن الـمُلْكَ والسلطان في غيرهم، وايم الله ليوشكن أن تسمع بالقصور البيض من أرض بابل قد فُتحت عليهم، قال: فأسلمت.

وكان عدي يقول: مضت اثنتان وبقيت الثالثة، والله لتكونَنَّ، ليفيض المال حتى لا يوجد من يأخذه[1].

أقول: قد فاض عندما وُجِد الخليفة الصالح عمر بن عبد العزيز رحمه الله حين أخبره عمال الأقاليم بأنهم لم يجدوا للزكاة مصرفًا، فأمرهم أن يزوجوا من لا زوج له، رغم أن سياسة من قبله كانت تمنع الراغبين في الإسلام في شرق الدنيا وغربها، متعللين بأنهم إنما يدخلون الإسلام هربًا من دفع الخراج، فقال: قبح الله هذه السياسة، نحن أمة هادية لا جابية. وإذا وُجد اليوم أمثال عمر فسيفيض المال حتى لا يوجد من يأكله أو يتزوج به[2]، فعسى الله أن يأتي بمثله.

٧٩ – غزوة تبوك[3] :

(١) البداية والنهاية ٥/٧٠. وابن هشام ٥٧٨/٢. وابن الأثير ١٩٤/٢. والذبري ١١٣/٣. والاكتفاء ٣٥٣/٢.

(٢) عمر بن عبدالعزيز. الشرقاوي ١٣٩.

(٣) بلغ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن الروم جمعت الجموع وجهزت الجيوش كما بلغه أن قيصر ملك الروم قد عزم على الزحف إلى المدينة المنورة لقتال المسلمين فجهز الرسول صلى الله عليه وآله وسلم جيشه في ظروف صعبة

(في رجب ٩ هـ - أكتوبر ٦٣٠م)[(١)] :

الروم في شمال الجزيرة ومصر وغيرها لا صلةَ لهم بأهل تلك الديار إلا قهر أهلها وبسط نفوذهم فأراد النبي ﷺ أن تكون العلاقة بين الإسلام والنصرانية قائمة على أساس يكفل الحرية للديانتين؛ لذا جهز الناس لغزو الروم في زمن عُسرة وشدة من الحَرِّ وجَدْبٍ من البلاد، وحين طابت الثمار، والناس يحبون المقام في ثمارهم وظلالهم ويكرهون الشخوص على الحال من الزمان الذي هم عليه، ومن أجل ذلك بين وجهته للناس؛ لبعد المسير، وشدة الزمان وكثرة العدو؛ ليتأهب الناس لذلك، فأمر الناس بالجهاز وأخبرهم أنه يريد الروم. وقال ذات يوم وهو في جهازه ذلك للجَدِّ بن قيس المنافق: "هل لك في جلادِ بني الأصفر[(٢)]"؟ فقال: يا رسول الله أو تأذنُ لي ولا تفتني فوالله لقد عرفَ قومي أنه ما من رجل بأشد عُجبًا بالنساء مني، وإني أخشى إن رأيت نساء بني الأصفر أن لا أصبر، فأعرض عنه رسول الله ﷺ. وقال: "قد أذنت لك" ففيه نزلت الآية: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ ٱئۡذَن لِّي وَلَا تَفۡتِنِّيٓۚ أَلَا فِي ٱلۡفِتۡنَةِ سَقَطُواْۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ

جدًا ليضرب جيش الروم كما هي خطة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في الإنقضاض على عدوه قبل أن ينقض عليه.

(١) ابن هشام ٢/٢١٥. والبداية والنهاية ٥/٥. والاكتفاء ٢/٢٧١. والطبقات ٢/١٦٥.

(٢) بنو الأصفر: هم الروم.

بِٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ [٤٩: التوبة]. والفتنة التي سقط فيها ليس نساء بني الأصفر، بل التخلف عن رسول الله ﷺ والرغبة بنفسه عن نفسه. وإن جهنم لمن ورائه.

وقال بعض المنافقين لبعض: لا تنفروا في الحر؛ زَهَادةً في الجهاد، وشكًّا في الحق، وإرجافًا برسول الله ﷺ، فأنزل الله تعالى فيهم: ﴿وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلاً وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا جَزَآءً بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ [٨١ -٨٢: التوبة]. ثم إن رسول الله ﷺ جد في سفره وأمر الناس بالجهاز والإنكماش،

وحضَّ أهلَ الغِنى على النفقةِ والحُملان في سبيل الله، فحمل رجال من أهل الغنى واحتسبوا، وأنفق عثمان بن عفان رضي الله عنه في ذلك نفقةً عظيمة لم ينفق أحد مثلَها[1].

وجاء سبعة من الأنصار أهل حاجة فاستحملوا رسول الله ﷺ، فقال: "لا أجد ما أحملكم عليه" ، فتولوا وأعينهم تفيض مع الدمع حزنًا ألا يجدوا ما ينفقون.

وقد روي أن ابنَ يامينَ بنَ عُمير بن كعب النضريَّ لقيَ أبا ليلى عبدَالرحمن بن كعب وعبدالله بن مغفل، وهما يبكيان فقال: ما يُبكيكما؟ قالا: جئنا رسول الله ﷺ ليحملنا فلم نجد عنده ما يحملنا عليه، وليس عندنا ما نتقوى به على

(١) قال ابن هشام: حدثني من أثق به أن عثمان بن عفان أنفق في جيش العسرة في غزوة تبوك ألف دينار. فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "اللهم ارض عن عثمان، فإني عنه راض".

الخروج معه، فأعطاهما ناضحًا له فارتحلاه[1]، وزودهما شيئًا من تمر، فخرجا مع رسول الله ﷺ. وفيهم نزلت الآية: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوۡكَ لِتَحۡمِلَهُمۡ قُلۡتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحۡمِلُكُمۡ عَلَيۡهِ تَوَلَّواْ وَّأَعۡيُنُهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ﴾ . [التوبة:٩٢].

وجاء المعذّرون من الأعراب، فاعتذروا إليه فلم يُعذرهم الله تعالى، وقد ذُكِرَ أنهم نفر من بني غفار.

تخلف كعب بن مالك، ومُرارة بن ربيع، وهلال بن أمية، وأبو خيثمة، وكانوا نفرَ صدق لا يتهمون في إسلامهم، فلما خرج رسول الله ﷺ ضرب عسكره على ثنية الوداع، أكمة مشرفة على المدينة، وعدد جيشه ثلاثون ألفًا. وعسكر ابن أبيِّ معه على حدة ثم تخلف مع من تخلف من المنافقين وأهل الريب.

علي كرم الله وجهه والمنافقون:

وخلف رسول الله ﷺ على المدينة علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، وأمره بالإقامة فيهم، فأرجف به المنافقون وقالوا: ما خلفه إلا استثقالاً له وتخففًا منه؛ فأخذ سلاحه ولحق بالنبي ﷺ وهو نازل بالجرف[2]، فقال: يا نبي الله، زعم المنافقون أنك إنما خلفتني أنك استثقلتني وتخففت مني. فقال: "كذبوا، ولكني

---

(١) ارتحلاه: وضعا عليه الرحل.

(٢) الجرف: موضع على ثلاثة أميال من المدينة نحو الشام، به كانت أموال لعمر بن الخطاب ولأهل المدينة.

خلفتك لما تركت ورائي، فارجع فاخلفني في أهلي وأهلك. أفلا ترضى يا علي أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى؟ إلا أنه لا نبي بعدي"[1]؛ فرضي ورجع.

نَدَمُ أبي خيثمة:

بعد أن سار رسول الله ﷺ أيامًا جاء أبو خيثمة إلى أهله في يوم حار فوجد امرأتين له في عريشين لهما في حائطه قد رشت كل واحدة منهما عريشَها وبرَّدت له فيه ماء وهيأت له فيه طعامًا، فنظر إلى امرأتيه وما صنعتا له فقال: رسول الله ﷺ في الضِّحِّ[2] والريح والحر، وأبو خيثمة في ظلّ بارد وطعام مهيأ وامرأة حسناء في ماله مقيم؟، ما هذا بالنِّصف[3]. ثم قال: والله لا أدخل عريش واحدة منكما حتى ألحق برسول الله ﷺ فهيئا لي زادًا ففعلتا، ثم قدم ناضحه فارتحله[4]، ثم خرج في طلب رسول الله ﷺ حتى أدركه حين نزل تبوك، فلما

---

(١) الأحكام للهادي ٣٨/١. والأمالي الصغرى ص١٠٤. والبخاري رقم ٤١٥٤. ٣٥٠٣. ومسلم ٢٤٠٤. والطبراني في الأوسط ٢٧٢٨. والترمذي ٣٧٣٠ - ٣٧٣١. وأحمد بن حنبل ١٦٠٨. وسنن ابن ماجة ٤٥/١. وأسد الغابة ١٠٠/٤. والنسآئي في الخصائص ٦٠. وابن كثير ١١/٥. وفتح الباري ٩١/٨. والاستيعاب ٢٠١/٣. والاصابة ٥٠٢/٢.

(٢) الضِّح: الشمس.

(٣)النصف، بالكسر: الإنصاف.

(٤) الناضح: البعير يستقى عليه، ارتحله: وضع عليه الرحل.

رأى خياله من بعيد، قال ﷺ: "كُنْ أبا خيثمة". فأخبر رسولَ الله ﷺ خبره مع امرأتيه، فدعا له بخير.

مشقة وآيات:

واجه جيش العُسْرة متاعب جمة، فكان الرجل والثلاثة على بعير واحد يقطعون صحراء قاتلة تجاوز الألفي كيلو متر ذهابًا وإيابًا في حر شديد، ولحقهم عطش شديد، حتى إن الرجل لينحر بعيره ليعتصر فرثه فيشربه ثم يلقي ما بقي على كبده فشَكَوا إلى رسول الله ﷺ فدعا الله سبحانه فأرسل سحابة فأمطرت حتى ارتوى الناس واحتملوا حاجتهم من الماء، ونظروا فإذا هي لم تجاوز العسكر، فقال المسلمون لرجل منافق في الجيش: هل بعد هذا من شيء؟، قال: سحابة مارة . لا عجب، فالمنافق مريض لا يصدق بشيء؛ فقد حدث أن ضلت ناقة النبي ﷺ فقال منافق متهكمًا: يزعم محمد أن الوحي يأتيه ولا يدري أين ناقته؟، فأخبرهم النبي ﷺ بمكانها فوجدوها. وبقي النفاق.

مر المسلمون بديار ثمود وهي أطلال هامدة، فذكَّرهم النبي ﷺ بعقاب الله النازل بهم، وقال: لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين أن يصيبكم ما أصابهم[1]. ولما مرَّ بالحِجْر قال: لا تسألوا الآيات [خوارق العادات] فقد سألها قوم صالح فبعث الله لهم ناقة فكانت تَرِدُ من هذا الفج وتصدر من هذا الفج، وكانت تشرب ماءهم يومًا ويشربون لبنها يومًا فعتوا عن أمر ربهم فعقروها، فأخذتهم صيحة أهمد الله بها من تحت أديم السماء منهم[2].

---

(١) البخاري رقم ٤٢٣ مكرر. ومسلم ٢٩٨٠. باختلاف يسير بينهما.

(٢) أحمد بن حنبل رقم ١٤١٦٢.

وروي أنه قال لأصحابه: "لا تشربوا من مائها شيئًا ولا تتوضؤوا منه للصلاة، وما كان من عجين عجنتموه فاعلفوه الإبل، ولا تأكلوا منه شيئًا، ولا يخرجن أحدٌ منكم الليلة إلا ومعه صاحب له". ففعل الناس ما أمرهم به رسولُ الله ﷺ.

قيادة حازمة:

كان النبي ﷺ إذا أخبِرَ بتخلف شخص يقول: "دعوه فإن يك فيه خيرٌ فسيُلحقُه الله تعالى بكم، وإن يكُ غيرَ ذلك فقد أراحكمُ الله منه"، حتى قيل يا رسولَ الله، تخلفَ أبو ذر وأبطأ به بعيرُه، فقال النبي ﷺ ما تقدم، فانتظر أبو ذر بعيره قليلاً ثم تركه وأخذ متاعه على ظهرِه ولحق بالرسول ﷺ ماشيًا، فقال ناظرٌ من المسلمين: يا رسول الله ، هناك رجل يمشي على الطريق وحده، فقال رسول الله ﷺ: "كن أبا ذر" فلما تأمله القوم قالوا: هو أبو ذر، فقال ﷺ: "رحم الله أبا ذر يمشي وحده، ويموت وحدَه، ويُبعث وحدَه"[1].

وقد حدث ما أخبر به النبي ﷺ، وهو من دلائل نبوته. فعن عبدالله ابن مسعود، قال : لما نفى عثمانُ أبا ذرٍّ إلى الرَّبَذة، وأصابه بها قَدَرُه، لم يكن معه أحد إلا امرأتُه وغلامه، فأوصاهما: أن غَسلاني وكفناني، ثم ضعاني على قارعة الطريق، فأول ركب يمر بكم فقولوا: هذا أبو ذرٍّ صاحب رسول الله ﷺ فأعينونا على دفنه، فلما مات فعلا ذلك به، وأقبل عبدالله ابن مسعود في رهط من أهل العراق ذاهبين للعمرة، فلم يرعهم إلا بالجنازةِ على ظهر الطريق، قد كادت الإبل تطؤُها، وقام إليهم الغلام، فقال: هذا أبو ذرٍّ صاحبُ رسول الله ﷺ فأعينونا على دفنه، فاستهل عبدالله بن مسعود يبكي ويقول: صدق

---

(١) المستدرك ٥١/٣. والدلائل للبيهقي ٢٢٢/٥. وكنز العمال ٣٣٢٣٢. وأسد الغابة ٩٨/٦. والاصابة ٦٤/٤.

رسول الله ﷺ: تمشي وحدك، وتموت وحدك، وتبعث وحدك، ثم نزل هو وأصحابه فَوَارَوه[1].

رسول الله ﷺ في تبوك:

بلغ المسلمون تبوك فأتى رسولَ الله ﷺ يُحنةُ بن رُؤية صاحب أيلةَ، فصالحه وأعطاه الجزية، وأتاه أهل جَرباء وأذرُع ودومة الجندل فأعطوه الجزية، فكتب رسول الله ﷺ لهم كتابًا ، فهو عندهم.

وكتب ليُحَنَّةَ: "بسم الله الرحمن الرحيم ❁ هذه أمنةٌ من الله ومحمد النبي رسول الله ليحنة بن رؤبَةَ وأهلِ أيلةَ سفنهم وسياراتهم[2] في البر والبحر، لهم ذمة الله وذمة محمد النبي، ومن كان معهم من أهل الشام وأهل اليمنِ وأهلِ البحر، فمن أحدث منهم حدثًا فإنه لا يحول ماله دون نفسه، وإنه طَيِّبٌ لمن أخذه من الناس، وإنه لا يحل أن يمنعوا ماءً يرِدونه، ولا طريقًا يُريدونه من بر أو بحر"[3].

وكتب لأهل جرباء وأذرح: بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من محمد النبي رسول ا لله إلى أهل جرباء وأذرح أنهم آمنون بأمان الله، وأمان محمد، وأن عليهم مائة دينار في كل رجب، ومائة أوقية طيبة، وأن الله عليهم كفيل بالنصح والإحسان إلى المسلمين، ومن لجأ إليهم من المسلمين[4].

---

(١) مروج الذهب ٢/٣٣٩. والطبقات الكبرى ٤/٢٣٤. وابن هشام ٢/٥٢٤. والاكتفاء ٢/٢٧٦.

(٢) السيارة: القافلة، والقوم يسيرون.

(٣) ابن هشام ٢/٥٢٥. والاكتفاء ٢/٢٧٨. والبداية والنهاية ٥/٢١.

(٤) البداية والنهاية ٥/٢١. والواقدي ٣/١٠٣٢. ودلائل البيهقي ٥/٢٤٧. وفيها : مائة دينار في رجب وافية طيبة.

٨٠ سرية دُومة الجندل[1] :

أرسل ﷺ خالد بن الوليد في أربعمائة وعشرين فارسًا إلى أكيدر من كندة، وكان ملكًا على دومة الجندل نَصرانيًا، وقال ﷺ لخالد: "إنك ستجده يصيد البقر". فخرج خالد وكان في ليلة مقمرة، فوجده كذلك مع أخ له؛ فقتلوا الأخ. وقدموا بأكيدر على رسول الله ﷺ، ومعه ثمانمائة من السبي ، وألف بعير ، وأربعمائة درع، وأربعمائة رمح.

عودة الرسول ﷺ من تبوك:

أقام ﷺ بتبوكَ بضعَ عَشرَةَ ليلة، ولما وجد الرومان قابعين خلف حدودهم، وقد ملأت قلوبَهم هيبةُ الدولة الفتية قَفَلَ راجعًا مؤيدًا منصورًا، ولما رأى المدينة من بعيد قال: "هذه طابة، وهذا أحد جبل يحبنا ونحبه"[2].

وخرجت النساء والصبيان لاستقبال النبي ﷺ وجيش العسرة، وقد واسى النبي ﷺ مَنْ تخلفوا مُرْغَمِينَ فقال: "إن في المدينة لرجالاً ما سِرتم مسيرًا ولا قطعتم واديًا إلا كانوا معكم"، قالوا: يا رسول الله وهم بالمدينة؟ قال: "وهم بالمدينة حبسهم العذر"[3].

المخلفون:

---

(١) ابن هشام ٥٢٦/٢. والاكتفاء ٢٧٨/٢. والبداية والنهاية ٢١/٥.

(٢) البخاري رقم ١٤١١، ٢٧٣٦، ٣١٨٧. ومسلم ٩٩٣/٢.

(٣) مسلم ١٥١٨/٣. والبيهقي ٢٤/٩ بلفظ حبسهم المرض.

ولما دخل ﷺ المدينة بدأ بالمسجد فصلى ركعتين ثم جلس للناس، فجاء المخلفون يعتذرون إليه ويحلفون له، وكانوا بضعة وثمانين رجلاً فقبل منهم علانيتهم، وبايعهم، واستغفر لهم. ووكل سرائرهم إلى الله.

المخلفون الثلاثة:

قال كعب بن مالك: جئت رسول الله ﷺ وسلمت عليه فتبسَّم تَبسُّم الـمُغْضَب، وقال لي: ما خَلَّفَك؟ ألم تكن قد ابتعتَ ظهرك؟ فقلت: بلى والله إني لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أن سأخرج من سخطه بعذر، ولقد أعطِيتَ جدلاً، ولئن كذبتُ لِتَرْضى عني لَيوشكَنَّ الله أن يسخطك علي، ولئن صدقْتُك وَوَجدتَ عليَّ فإني لأرجو فيه عفو الله عني، والله ما كان لي من عذر، والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنك، فقال ﷺ: أما هذا فقد صدق، فقم حتى يقضي الله فيك، فقمت. وقال رجال من قومي بني سلمة: ألا اعتذرت إلى رسول الله ﷺ كما اعتذر غيرك واستغفر لك، فوالله ما زالوا بي حتى أردت أن أرجع فأكذب نفسي، ثم قلت: هل لقي أحد غيري ما لقيت؟ قالوا: نعم، رجلان قالا مثل مقالتك، وهما مرارة بن الربيع العامري، وهلال بن أمية الواقفي، فذكروا رجلين صالحين فيهما أسوة.

ونهى رسول الله ﷺ عن كلامنا نحن الثلاثة دون غيرنا فاجْتَنَبَنَا الناس وتغيَّروا لنا حتى تنكَّرت لي الأرض، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة، فأما صاحباي فقعدا في بيوتهما، وأما أنا فكنت أشب القوم، وكنت أصلي مع رسول الله ﷺ وأطوف بالأسواق ولا يكلمني أحد، وأسلم على رسول الله ﷺ وهو في مجلسه فأقول في نفسي: هل حرَّك شفتيه برد السلام عليَّ أم لا؟ ثم أصلي قريبًا منه، فأسارقه النظر، فإذا أقبلتُ على صلاتي نظر إلي، وإذا التفت نحوه أعرض عني. ولـمَّا طالت جفوة المسلمين، تسوَّرت حائط أبي قتادة ابن عمي وأحب

الناس إلي، فسلمت عليه، فما رد عليَّ السلام، فقلت: أنشدك الله: هل تعلم أني أحب الله ورسوله؟ فسكت، فناشدته ثلاثًا، فقال: الله ورسوله أعلم؛ ففاضت عيناي، ثم غدوت إلى السوق فإذا نبطيٌ قدم بطعام من الشام يسأل عني فأشاروا إليَّ فدفع إليَّ كتابًا من ملك غسَّان ملفوفًا في حرير مكتوبًا فيه: "بلغنا أن صاحبك قد جفاك، و لم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة؛ فالحق بنا نواسِكَ" فقلت: وهذا من البلاء وقد بلغ بي ما وقعت فيه أن طمع فيَّ رجل مشرك فأحرقته.

فلما مضت أربعون ليلة إذا رسولٌ من عند النبي ﷺ يقول: اعتزل امرأتك، فقلت : أطلّقها؟ قال: لا، بل لا تقربها، وأمر صاحبي بمثل ذلك، فقلت لامرأتي: الحقي بأهلك حتى يقضي الله أمره. قال: وجاءت امرأة هلال ابن أمية رسول الله ﷺ فقالت: إن هلال بن أمية شيخ كبير ضائع لا خادم له أفَتَكْره أن أخدمه؟ قال: لا، ولكن لا يقربنك، قالت: ما به من حركة إلي، وما زال يبكي إلى يومه هذا، ولقد تخوفت على بصره. قال: فلبثنا بعد ذلك عشر ليال، فكملت خمسون ليلة من حين نُهِيَ المسلمون عن كلامنا، ولما صليت الصبح على ظهر بيتي وقد ضاقت علي الأرض بما رحبت، وضاقت علي نفسي؛ إذ سمعت صارخًا يقول: يا كعب بن مالك أبشر، قال: فخررت ساجدًا وعرفت أن قد جاء الفرج.

قال: وأخبر النبي ﷺ بتوبتنا حين صلَّى الفجر فأقبل الناس يبشروننا، وبشروا صاحبيَّ، ونزعت ثوبي لرجلين بشراني ما أملك غيره، واستعرت ثوبين وانطلقت إلى رسول الله ﷺ في المسجد والناس حوله، فقام إلي طلحة وهنأني، ما قام من المهاجرين غيره فما أنساها له.

قال كعب: فسلَّمت على رسول الله ﷺ ووجهه يبرق من السرور وقال: أبشر بخيرِ يوم مرَّ عليك منذ ولدتك أمك، قلت أمن عندك يا رسول الله أم من عند الله؟ قال: بل من عند الله، قلت: يا رسول الله إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله ورسوله، قال: أمسك عليك بعض مالك، فهو خير لك، قال: قلت إني ممسك سهمي بخيبر، وقلت: إن الله نجَّاني بالصدق، فلا أحدث إلا صدقا ما حييت، وما أعلم أحدًا من الناس أبلاه الله في الصدق أفضل مما أبلاني، وما تعمدت من كذبة منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا، وإني لأرجو أن يحفظني الله فيما بقي، وأنزل الله تعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلۡعُسۡرَةِ مِنۢ بَعۡدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٖ مِّنۡهُمۡ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّهُۥ بِهِمۡ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[١١٧- ١١٩ التوبة].

الدروس والعبر:

١- أدرك عاهل الروم أنه أمام قوة جديدة يرعاها الله، وستملك ما تحت قدميه والقتال معها مختلف عن قتال الكر والفر مع دولة فارس العظمى، ولذلك قرر أن لا يُغالب القَدر وألاَّ يواجه الجيش الإسلامي وهو يتحداه في عقر داره، وكأنه بهذا يُسَلِّم لرسول الله ﷺ مفتاح مملكته، فسرعان ما اكتسحها جيش محمد ﷺ من بعده، وهذا من عجائب الزمان.

٢- واجه المسلمون ابتلاء ومحنة حين دُعُوا للجهاد في ضيق وشدة وحر؛ ليقطعوا صحراء شاسعة، وبهذا الابتلاء ميَّز الله الصادقين.

٣- تخلف المنافقون؛ لأن عادتهم الذهاب للمغنم لا للمغرم.

٤- برز دور المجتمع في التربية حين نهى النبي ﷺ عن كلام الثلاثة، فأصبح المخلفون الثلاثة كأنهم يعيشون في غير مجتمع المدينة، حتى ضاقت عليهم الأرض، وهذا هو المجتمع الصالح.

٥- ربَّ ضارة نافعة؛ فالمنافقون الذين أزعجهم بقاء علي كرم الله وجهه خليفة لرسول الله ﷺ على المدينة، ونشروا إشاعةَ أن النبي ﷺ استثقله – تسبَّبُوا في تقليد النبي ﷺ له أعلى وسام : " أما ترضى أن تكون مني بمنزله هارون من موسى؟" أليس هارون هو الذي ابتهل من أجله موسى قائلاً: ﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَـٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَـٰمُوسَىٰ﴾. [٢٥-٣٦ طه].
وهاهو النبي ﷺ يقول: كل مزايا هارون لك يا علي ما عدا النبوة، وهل يعطى موسى سؤله ويمنع محمد ﷺ ؟ وهل قَصَّر عليٌ كرم الله وجهه في خدمة أخيه ونبيه محمد ﷺ ولم يفعل ما فعل هارون في خدمة موسى. ثم إن عليًا كشاشة الرادار يكشف أسراب المنافقين "فلا يحبه إلا مؤمن، ولا يبغضه إلا منافق"[1].

(١) مسلم ٧٦/١. والمرشد بالله ١٣٥/١. وابن حجر في الإصابة ٥٣/٢. والاستيعاب ٥٠٣/٣. ومصنف ابن أبي شيبة ٣٦٥/٦ رقم ٣٢٠٦. وتذكر الحفاظ للذهبي ١٠/١. وأحمد ابن حنبل ١٨٣/١ رقم ٦٤٢. وفتح الباري ٦٣/١. والبداية والنهاية ٣٩١/٧. والنسائي ١١٦/٨ رقم ٥٠١٩ . وتأريخ بغداد ٤١٧/٨. والترمذي ٥٩٤/٥ رقم ٣٧١٧.

مسجد الضرار:

أتى النبيّ ﷺ جماعةٌ من المنافقين من أهل قباء وهو يتجهز إلى تبوك فقالوا له: إنا قد بنينا مسجدًا لذي العلة والحاجة والليلة المطيرة والشاتية، وإنا نحب أن تأتينا فتصلي لنا فيه، فاعتذر بسفره، ووعَدَهم بالصلاة فيه عند رجوعه، وكان المسجد في الحقيقة وكرًا للمنافقين يعيبون فيه رسول الله ﷺ، ويستهزئون بالمسلمين، ويضاهون مسجد قباء، ولما رجع النبي ﷺ وهمَّ بالذهاب للصلاة في مسجدهم فنزل قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسۡجِدٗا ضِرَارٗا وَكُفۡرٗا وَتَفۡرِيقَۢا بَيۡنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَإِرۡصَادٗا لِّمَنۡ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبۡلُۚ وَلَيَحۡلِفُنَّ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّا ٱلۡحُسۡنَىٰۖ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ۝١٠٧ لَا تَقُمۡ فِيهِ أَبَدٗاۚ لَّمَسۡجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقۡوَىٰ مِنۡ أَوَّلِ يَوۡمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ فِيهِ رِجَالٞ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة ١٠٧ -١٠٨].

فأرسل نفرًا من أصحابه وأمرهم بهدمه وإحراقه وأن يتخذ موضعه كناسة للجيف والقمامة[1].

الدرس والعبرة:

١- عجبًا من المنافقين وإتقانهم لفنون الخداع، فهاهم اليوم يبنون مسجدًا ظاهره للعبادة، والذكر والأذان، وباطنه المؤآمرة والكيد للإسلام. وهذا الأسلوب من

---

(١) ابن هشام ٥٢٩/٢. ومحمد رسول الله ٣٤٠. وأسباب النزول ٢١٩.

أخطر الأسلحة فتكًا وأشدها إيلامًا، فلولا أن الوحي كشفهم لأمرضوا مجتمع قباء، ومزقوا أوصاله.

٢- على المؤمن الفطن أن يتعظ بهذا فلا ينخدع لكلمة حق إذا أريد بها باطل؛ فالمنافقون يجيدون دس السم في العسل.

٣- الإسلام – وإن كان يتعامل بالظاهر، ويكل إلى الله السرائر – إلا أن النبي ﷺ يقول: "المُؤمن كَيِّسٌ فَطِنٌ" و "لا يلدغُ من جُحْرٍ مرتين". وكم بُلي المسلمون بالمظاهر الخداعة، والأقنعة المزيفة، قال ﷺ: "إني لا أخاف على أمتي مؤمنًا ولا مشركًا، أما المؤمن فيمنعه الله بإيمانه، وأما المشرك فيقمعه الله بشركه، ولكني أخاف عليكم كل منافق الجنان، عالم اللسان، يقول ما تعرفون، ويفعل ما تنكرون"[١].

وفد ثَقيف وإسلامها

(في رمضان سنة تسع هـ):

قال ابن إسحاق: قدم على رسول الله ﷺ وفد ثقيف[٢] بعد رجوعه من تبوك، وكان من حديثهم أن رسول الله ﷺ لما انصرف عنهم تبعه عروة بن مسعود الثقفي فأسلم وأحب أن يرجع إلى قومه بالإسلام، فقال له ﷺ: "إنهم قاتلوك"، لأن فيهم نخوة الامتناع، فقال عروة: أنا أحب إليهم من أبكارهم[٣].

---

(١) نهج البلاغة ٥٦٥.

(٢) وذكر ابن كثير عن ابن عقبة: أن وفد ثقيف كانوا بضعة عشر رجلاً.

(٣) قال ابن هشام: "ويقال: من أبصارهم".

وكان فيهم محببًا مطاعًا؛ فخرج إليهم داعيًا للإسلام، راجيًا أن لا يخالفوه؛ لمنزلته فيهم فلما دعاهم وأظهر لهم دينه قتلوه.

فقيل لعروة قبل موته: ما ترى في دمك؟ قال: كرامة أكرمني الله بها، وشهادة ساقها الله إلي، فليس فيَّ إلا ما في الشهداء الذين قتلوا مع رسول الله ﷺ قبل أن يرتحل عنكم، فادفنوني معهم، فزعموا أن رسول الله ﷺ قال فيه: "إن مثله في قومه كمثل صاحبِ يس في قومِه".

ثم أقامت ثقيف بعد قتله أشهرًا فرأوا أنه لا طاقة لهم بحرب من حولهم من العرب، وقد بايعوا وأسلموا؛ فأرسلوا عبدَ يَاليِل بن عمرو، فأبى أن يفعلَ وخشي أن يُصنع به ما صُنِعَ بعروة، فقال: لست فاعلاً حتى ترسلوا معي رجالاً؛ فبعثوا معه ستة اختارهم هو.

فقدموا على رسول الله ﷺ فأنزلهم المسجد، وطلبوا أن يَدَعَ لهم صنمهم اللات ثلاث سنين فأبى حتى سألوه إبقاءها شهرًا كراهة أن يروعوا قومهم بهدمها حتى يَدْخُلَهم الإسلام؛ فأبى، وسألوه أن يعفيهم من الصلاة، وأن لا يكسروا أوثانهم بأيديهم فأعفاهم من كسرها، وأما الصلاة فقال: "لا خير في دين لا صلاة فيه" فقالوا: يا محمد، فسنؤتيكها وإن كانت دناءة؛ فأسلموا.

وأمَّر عليهم عثمان بن أبي العاص، وكان من أحدثهم سنًا، وذلك أنه كان أحرصهم على التفقه في الإسلام وتعلُّمِ القرآن[1]. وبعث رسول الله ﷺ أبا سفيان والمغيرة لهدم اللات صنم ثقيف فهدماه.

سنة تسع وتسمى بسنة الوفود[2]:

(١) ابن هشام ٢/٥٣٧. والبداية والنهاية ٥/٣٥.

(٢) ابن هشام ٢/٥٥٩ .

قال ابن إسحاق: لما افتتح رسول الله ﷺ مكة، وفرغ من تبوك، وأسلمت ثقيف وبايعت – ضربت إليه وفود العرب من كل وجه[1].

وإنما كانت العرب تتربصُ بالإسلام أمر هذا الحي من قريش، لأهم قادة العرب وخلاصة ولد إسماعيل، وقد تصدوا لحرب الرسول ﷺ، فلما افتتحت مكةُ ودانت له قريشٌ ودوَّخها الإسلام[2] عرفَت العربُ أنه لا طاقةُ لهم بحربِ رسولِ الله ﷺ ولا عداوتِه فدخلوا في دين الله أفواجًا، يَضربون إليه من كل وجهٍ. كما قال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا﴾ [النصر: ١ – ٣].

وهذه خلاصة من جاء من الوفود[3]:

قدم عليه بعد وفد ثقيف كل من: وفد تميم، وعَبْس، وفَزارة، ومُرَّة، وثَعْلَبة، ومُحارب، وبني سعد بن بكر، وكِلاب، ورُؤاس، وعُقَيل، ولقيط، وجعدة، وقُشير، وبني البكاء، وكنانة، وعبد بن عدي، وباهِلَة، وأشجَع، وسُلَيم، وهلال بن عامر، وقدَد[4] بن عمار، وعامر بن صَعصَعَة، وعَبد القَيس، وبكر بن وائل،

---

(١) قال ابن هشام: حدثني أبو عبيدة أن ذلك في سنة تسع، وأنها كانت تسمى سنة الوفود.

(٢) دوخها الإسلام: ذللها وأخضعها.

(٣) مغلطاي ٣٤١. ينظر في الوفود: الطبقات ١/٢٩١. والسبل ٦/٣٨٦.

(٤) وقيل: قدر بن عمار بن مالك بن يقظة السلمي، وفد على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأسلم وعاهده على أن يأتي بألف من بني سليم، فأتى قومه

وتَغلب، وحَنيفة، وطيِّء، وتُجيب، وخَولان، وجُعفي، ومُراد، وزُبيد، وكِندة، والصَّدِف، وخُشَين، وسعد هُذَيم، وبَلي، وبهراء، وعُذْرة، وسَلامان، وجُهَينة، وكلب، وجَرم، وبني أسد، وغَسَّان، والحارث بن كعب، وهَمدان، وسعد العشيرة، وعنس، والداريين الرهاويين[1]، وغامد، والنَّخع، وبَجيلة، وخَثعم، وحضرموت، وأزد عُمان، وغافِق، وبارق، ودَوس، وثُمالة، والحُدَّان، وأسلم، وجُذام، ومِهرة، وحِميَر، ونجران، وجَيشان.

وسنلتقط وقائع لبعض الوفود، وقد تقدم قصة بني تميم وعدي بن حاتم:

وفد بني عامر[2]:

قدموا على النبي ﷺ وفيهم عامر بن الطفيل، وأربد بن قيس، وجبَّار بن سلمى وهم رؤساء القوم وشياطينهم، فأراد عامر أن يغدر بالرسول ﷺ، وقد قال له قومه: إن الناس قد أسلموا فأسلم. قال: آليت أن لا أنتهي حتى تتبع العرب عَقِبي، أفأتبع عقِبَ هذا الفتى من قريش؟ ثم قال لأربد: إذا قدمنا على الرجل فإني سأشغَل عنك وجهَه، فإذا فعلتُ ذلك فاعْلُه بالسيف[3]. فلما قدموا

فأخبرهم الخبر، فخرج معه تسعمائة وقيل: ألف، وقيل: سبعمائة، فمات في الطريق ، فسألهم عنه فأخبروه أنه مات؛ فأثنى عليه. الاصابة ٢٢١/٣.

(١) هم حي من مذحج

(٢) ابن هشام ٥٦٧/٢.

(٣) فاعله بالسيف: يريد اقتله، ويروى "فاغله بالسيف" بالغين المعجمة، وهو من الغيلة، وهي القتل خديعة وخفية.

قال عامر: يا محمد، خالِنِي[1] قال: "لا والله حتى تؤمن بالله وحده" . قال: يا محمد، خالني، وجعل يكلمه وهو ينتظر من أربد ما كان أمره به، فجعل أربد لا يُحيرُ شيئًا[2]، فلما رأى عامر ما يصنع أربد قال: يا محمد خالِني، قال: "لا والله حتى تؤمن بالله وحده لا شريك له". فلما أبى عليه رسول الله ﷺ قال: أما والله لأملأنها عليك خيلاً ورجالاً، فلما ولى قال رسول الله ﷺ: "اللهم اكفني عامر بن الطفيل"[3]. فلما خرجوا قال عامر: ويلك يا أربد، أين ما كنت أمرتُك به؟ والله ما كان على ظهر الأرض رجل هو أخوفُ عندي على نفسي منك، وايم الله لا أخافُك بعدَ اليوم أبدًا، قال: لا أبالكَ لا تعجل علي، فكلما هممت أن أضربه دخلتَ بيني وبينه أفأضرِبُكَ بالسيف؟.

وفي الطريق ضرب الله جل وعلا عامرًا بالطاعون في عُنُقه فقتله في بيت امرأة من بني سلول، فجعل يقول: يا بني عامر، أغُدَّةٌ كغُدة[4] البَكْرِ في بيت امرأةٍ من

(١) خالني: يروى بكسر اللام مخففة، وبتشديدها مكسورة، فالأول معناه تفرد لي خاليًا حتى أحدثك على انفراد، والثاني معناه اتخذني خليلاً، من المخالة، وهي الصداقة.

(٢) أي لا يرد جوابًا.

(٣) ابن كثير ٦٩/٥. وانظر في عامر بن الطفيل: دلائل النبوة ٣١٨/٥. وابن سعد ٣١٠/١.

(٤) الغدة: داء يصيب البعير في حلقه فيموت منه، وكأنه ورم خبيث، والبكر بالفتح: الفتي من الإبل . وسَلول: قوم يصفهم العرب باللؤم والدناءة، وقال السموءل:

وإِنـا أنـاس لا نـرى القتـل سُبة   إذا مــا رأتــه عــامر وســلول

بني سلول؟. فدسه أصحابه في التراب وقدموا على قومهم، فقالوا: ما وراءك يا أربَد؟ قال: لا شيء، والله لقد دعانا إلى عبادة شيء لَوددتِ أنه عندي الآن فأرميه بالنبل حتى أقتله، فخرج بعد مقالته بيوم أو يومين معه جمل له يتبعه فأرسل الله تعالى عليه وعلى جمله صاعقة فأحرقتهما.

وفد بني حَنيفة ومعهم مسيلمةُ الكذاب:

أسلم الوفد وأعطاهم رسول الله ﷺ، فذكروا أنهم خلفوا مسيلمةَ في رحالِهم؛ فأمرَ له رسولُ الله ﷺ بمثلِ ما أمرَ به للقوم، وقال: "أما إنه ليس بشركم مكانًا" أي لحفظه ضَيعةَ أصحابه، فأخبروا مسيلمة بما قال وأعطوه ما أعطاه، فلما انتهوا إلى اليمامة ارتدَّ عدو الله وتنبأ وتكَذَّبَ لهم، وقال: إني أشرِكتُ في الأمر معه، وشهد له الرحال بن عنفوة فافتتن الناس به. وقال لوفده الذين كانوا معه: ألم يقل لكم حين ذكرتموني له: "أما إنه ليسَ بشركم مكانًا"؟ ما ذاك إلا لما كان يعلم أني قد أشرِكْتُ في الأمرِ معه، ثم جعل يَسجَعُ لهم الأساجيعَ. ويقول لهم فيما يقول مضاهاة للقرآن: لقد أنعم الله على الحُبلى، أخرجَ منها نَسَمَةً تسعَى، من بين صِفاق[1] وحَشَى. وأحلَّ لهم الخمرَ والزنا ووضع عنهم الصلاة، وهو مع ذلك يشهدُ لرسول الله ﷺ واجتمعوا عليه بأنه نبي[2].

قدومُ فروةَ بن مُسيك المُرَادي:

وقدم فَروَةُ بن مسيكٍ المراديُّ مفارقًا لملوكِ كِندة ومباعدًا لهم إلى رسول الله ﷺ، وكان قُبيل الإسلام بين مُراد وهَمدانَ وقعة أصابت فيها همدانُ من مرادٍ

---

(١) الصفاق: ما رَقَّ من البطن.

(٢) ابن هشام ٥٨١/٢. والاكتفاء ٢/ ٣٧١. وابن سعد ٣١٦/١.

ما أرادوا حتى أثخنوهم[1] في يوم يقال له الرَّدم. فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ قال له: يا فروةُ هل ساءك ما أصاب قومَك يومَ الردم؟ قال: من ذا يصيب قومَه مثلُ ما أصابَ قومي يومَ الرَّدم لا يسوءُه ذلك؟ فقال ﷺ: أما إن ذلك لم يزد قومَك في الإسلام إلا خيرًا. واستعمله على مُراد وزُبَيد ومذحج كلّها وبعث معه خالدَ بن سعيد بن العاصِ على الصَّدقةِ، فكان معه في بلادهِ حتى توفي رسولُ الله ﷺ .

وفد زبيد وكندة

وقدم عمرو بن معدي كرب مع وفد زبيد فأسلم، ثم ارتد، ثم أسلم وشهد صفين مع معاوية وقتل فيها. وقدم الأشعث بن قيس في ثمانين رجلاً من وفد كندة لابسين الحرير فأمرهم بشقه وأسلموا[2].

وفد الأزد[3]:

وفد على رسول الله ﷺ صُردُ بنُ عبدالله الأزدي في بضعة عشر رجلاً من قومه فأسلم وحسُن إسلامُه، فأمَّره ﷺ على من أسلم من قومِه وأمره أن يجاهد بمن أسلمَ من كان يليه من أهل الشرك من قبائل اليمن. فخرج حتى نزل بـجُرَش، مدينة مغلقة وبها قبائل من اليمن، وقد ضوت إليهم خثعم فدخلوها معهم حين سمعوا بمسير المسلمين إليهم، فحاصروهم فيها قريبًا من شهر، ثم

---

(١) أثخنوهم: أكثروا فيهم القتل.
(٢) الطبقات ٢٢٨/١. وسيرة ابن هشام ٥٨٣/٢. والاكتفاء ٣٢٩/٢.
(٣) ابن هشام ٥٨٧/٢. وطبقات ابن سعد ٣٣٧/١.

رجع عنهم حتى إذا كان بجبل يقال له شَكر، ظَنَّ أهل جُرَش أنه إنما ولى عنهم منهزمًا فخرجوا في طلبه حتى إذا أدركوه عطف عليهم فقتلهم قتلاً شديدًا.

وقد كان أهل جرش بعثوا رجلين منهم إلى رسول الله ﷺ بالمدينة يرتادان وينظران فبينما هما عند رسول الله ﷺ عشيةً بعد صلاة العصر إذ قال رسول الله ﷺ: بأي بلاد الله شَكر؟ فقال الجرشيان: ببلادنا جبل يقال له كشر – وكذلك يسميه أهل جُرَش فقال: "إنه ليس بكَشر ولكنه شكر" ، قالا: فما شأنه؟ قال: إن بُدنَ الله لتُنحرُ عنده الآن؛ فجلس الرجلان إلى أبي بكر أو إلى عثمان، فقال لهما: ويحكما إن رسول الله ﷺ الآن لينعى لكما قومكما فقوما إليه فاسألاه أن يدعو الله أن يرفع عن قومكما، فسألاه . فقال: "اللهم ارفع عنهم". فرجعا ووجدا قومهما قد أصيبوا يوم أصابهم صُرَد بن عبدالله في اليوم الذي قال فيه رسول الله ﷺ ما قال وفي الساعة التي ذكر فيها ما ذكر. فقدم وفد جرش على رسول الله ﷺ، فأسلموا وحَمى لهم حِمى حول قريتِهم على أعلام معلومة؛ للفَرَس والراحلةِ[1] وللمثيرةِ (بقرة الحرث)، فمن رعاه من الناس فمالُه سُحت.

وفد حمير: في رمضان. وقيل: عند مقدم النبي ﷺ من تبوك وقدم على رسول الله ﷺ رسول ملوك حمير بكتابهم وبإسلامهم، فكتب إليهم رسول الله ﷺ كتابًا اشتمل على مقادير الزكاة والجزية والواجب عليهم من المغنم، وأرسل معاذ بن جبل وعبدالله بن زيد لجمع الجزية والصدقة[2].

---

(١) الراحلة: واحدة الرواحل وهي الإبل.

(٢) الطبري ١٢٠/٣. وابن هشام ٥٨٩/٢. وابن كثير ٨٨/٥. وابن سعد ٢٦٤/١.

وصية الرسول ﷺ لمعاذ[1]:

وأوصى رسول الله ﷺ معاذًا وأبا موسى حين بعثهما إلى اليمن كلاً منهما على مخلاف، معاذ على مخلاف الجند وعدن وله مسجد في الجند قائم إلى اليوم، وأبو موسى ناحية زبيد وتهامة. فقال لهما: "يَسِّرا ولا تعسرا، وبشرا ولا تنفرا، وتطاوعا"، واستفتى أبو موسى رسول الله عن نبيذ العسل والذرة والشعير، فقال: "كل مسكر حرام"، وقال لمعاذ: إنك ستأتي قومًا أهل كتاب فإذا جئتهم فادعهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله؛ فإن أطاعوا لك بذلك فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة، فإن أطاعوا لذلك فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم وتُرَدُّ في فقراءهم، فإن أطاعوا لك بذلك فإياك وكرائم أموالهم، واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب[2].

وقد نقل في المشهور أن النبي ﷺ قال له: بم تقضي إن عرض قضاء؟ قال: بكتاب الله، قال: فإن لم تجد؟ قال: بسنة رسول الله، قال: فإن لم تجد؟ قال: أجتهد رأيي ولا آلو، فقال: الحمد لله الذي وفق رسول رسوله ﷺ لما يرضي الله ورسوله[3]. وقد مكث معاذ في اليمن حتى توفي رسول الله، أما أبو موسى فقدم في حجة الوداع.

العبرة والعظة:

(١) وقيل: إن معاذاً لم يكن واليًا بل مرشدًا متنقلاً في أعمال الولاة.

(٢) البخاري رقم ٤٠٨٦، ٤٠٨٨. و٤٠٩٠.

(٣) الطبقات ٣٤٧/٢. والسبل ٣٥٠/٥. وشفاء الأوام ٢٨٣/٣.

١- زعم بعض المخذولين أن الأسود العنسي إنما ثار ضد الظلم الاجتماعي الذي لحق باليمنيين من عمَّال رسول الله ﷺ - زاعما أن زكاة اليمنيين تجبى إلى المدينة، وقد سوَّد الله وجوههم بأمر الرسول لمعاذ ولكل عماله أن يأخذوها من الأغنياء ويردوها في الفقراء.

٢- حديث معاذ دليل على ترتيب العمل بالأدلة: القرآن ثم السنة، ودل على أن الاجتهاد أمر لابد منه فيما لا نص فيه؛ لأن الدين الخالد لابد له من هذه القواعد الثابتة لمواجهة ما يستجد من قضايا.

٨١ - سرية خالد بن الوليد ووفد بني الحارث بن كعب[1]

بعثه ﷺ في ربيع الآخر، أو جمادى الأولى سنة عشر إلى بني الحارث بنجران وأمره أن يدعوهم ثلاثًا إلى الإسلام قبل أن يقاتلهم.

فلما قدم عليهم بعث الركبان في كل وجه يدعون إلى الإسلام؛ فأسلم الناس، فأقام فيهم خالد يعلمهم الإسلام؛ فأخبر النبي ﷺ بذلك؛ فأمره بالقدوم فقدم مع وفد بني الحارث.

حوار الرسول مع الوفد:

هذا الوفد أهل عز ومنعة فَهُمْ بنو عبدالمدان الذين يضرب بعزهم المثل، فلما قدموا قال رسول الله ﷺ: من القوم كأنهم رجال الهند؟ قيل: هؤلاء رجالُ بني الحارث بن كعب، قال: بم كنتم تغلبونَ من قاتلكم في الجاهلية؟ قالوا: كنا نجتمع ولا نفترق ولا نبدأ أحدًا بظلم، قال: صدقتم. وأمَّر عليهم قيسَ بن الحُصَين، ومات ﷺ بعد رجوعهم بأربعة أشهر.

---

(١) ابن هشام ٥٩٢/١. وطبقات ابن سعد ٣٣٩/١.

وبعث ﷺ إليهم عمروَ بن حزم؛ ليفقهَهم في الدين، وولاَّه على صدقاتهم، وكتب له كتابه الشهير عهد إليه فيه عهده وأمره فيه بأمره: "بسم الله الرحمن الرحيم. هذا بيانٌ من الله ورسوله، يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود. عهد من محمد النبي رسول الله لعمرو بن حزم حين بعثه إلى اليمن أمره بتقوى الله في أمره كله، فـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ﴾ [١٢٨: النحل]، وأمره أن يأخذ بالحق كما أمره الله وأن يبشر الناسَ بالخير، ويأمرهم به ويعلمَ الناسَ القرآن ، بالذي لهم والذي عليهم، ويلينَ للناس في الحق، ويشتدَّ عليهم في الظلم، فإن الله كره الظلم ونهى عنه، فقال: ﴿أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [١٨: هود]، ويبشرَ الناسَ بالجنةِ وبعملها، وينذرَ الناسَ النارَ وعملها، ويستألفَ الناسَ حتى يَفْقَهُوا في الدين، ويعلم الناس معالـمَ الحجِّ، وسنتَه، وفريضتَه، وما أمر الله به، والحجُّ الأكبر: الحج الأكبر. والحج الأصغَرُ: هو العمرة. وينهى الناسَ أن يصلي أحدٌ في ثوب واحدٍ صغيرٍ إلا أن يكون ثوبًا يَثني طرفيه على عاتقَيْهِ، وينهى الناس أن يَحْتَبِي[1] أحد في ثوب واحد يُفْضِي بفرجِه إلى السماء. وينهى أن يعقِصَ أحد شعرَ رأسِه في قَفاه. وينهى إذا كان بين الناس هَيْجٌ عن الدعاء إلى القبائل والعشائر؛ وليكن دعواهم إلى الله عزوجل وحده لا شريك له، فمن لم يدعُ إلى الله ودعا إلى القبائل والعشائر فليُقَطَّعُوا بالسيف حتى تكون دعواهم إلى الله وحده لا شريك له، ويأمر الناس بإسباغِ الوُضوء: وجوههم وأيديهم إلى المرافق، وأرجلهم إلى الكعبين، ويمسحون برؤوسهم كما أمرَهم الله، وأمر بالصلاة لوقتها، وإتمام الركوع والسجودِ والخشوعِ، ويُغلّس

---

(١) يحتبي: يشتمل، يلتف.

بالصبح[1]، ويُهَجِّر بالهاجرة[2] حين تميل الشمس، وصلاة العصر والشمسُ في الأرض مُدبرة، والمغرب حين يُقبلُ الليلُ، لا يؤخر حتى تبدو النجومُ في السماء، والعشاء أول الليل، وأمر بالسعي إلى الجمعة إذا نودي لها، والغُسل عند الرَّواح إليها، وأمره أن يأخذ من المغانم خُمُسَ الله. وما كُتب على المؤمنين في الصدقة من العَقار عُشرُ ما سقت العيون وسقت السماء، وعلى ما سقى الغَربُ نصف العُشُر، وفي كل عَشْرٍ من الإبل شاتان، وفي كل عشرين أربعُ شياه وفي كلّ أربعين من البقر بقرةٌ، وفي كل ثلاثين من البقر تبيعٌ جذعٌ أو جذعَةٌ، وفي كل أربعين من الغنم سائمةٌ وحدها شاة؛ فإنها فريضةُ الله التي افترض على المؤمنين في الصدقة، فمن زاد خيرًا فهو خير له. وإنه من أسلم من يهودي أو نصراني إسلامًا خالصًا من نفسه ودان بدين الإسلام فإنه من المؤمنين: له مثلُ ما لهم وعليه مثل ما عليهم. ومن كان على نصرانيته أو يهوديتِه فإنه لا يردُّ عنها. وعلى كل حالم ذكر أو أنثى حرٍّ أو عبدٍ دينار وافٍ أو عوضُه ثيابًا، فمن أدى ذلك فإن له ذمةَ الله وذمةَ رسولِه، ومن منع ذلك فإنه عدوٌ لله ولرسولِه وللمؤمنين جميعًا. صلواتُ الله على محمد، والسلام عليه ورحمة الله وبركاته"[3].

وفد نجران[4]:

---

(١) التغليس: أن يصليه في أول الفجر.

(٢) التهجير: الصلاة في أول وقت الظهر. والهاجرة نصف النهار حين نزول الشمس.

(٣) سيرة ابن هشام ٢/٥٩٤. والاكتفاء ٢/٢٦٩.

(٤) سيرة ابن هشام ١/٥٧٣. والطبقات ١/٣٥٧.

وفد ستون رجلاً من نصارى نجران، ودخلوا المسجد بثيابهم المحبَّرة بأكسية الحرير، وخواتم الذهب، وجاءوا ببسط فيها تماثيل، ومسوح هدية للنبي ﷺ، فقبل المسوح، ولما حان وقت صلاتهم صلوا في مسجد النبي ﷺ مستقبلين بيت المقدس؛ فدعاهم إلى الإسلام فأبوا وقالوا: كنا مسلمين قبلكم، وظلوا يجادلون النبي ﷺ في الدين والمسيح، فنزل قول الله: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٥٩ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ۝٦٠ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾ [٥٩-٦١: آل عمران] فواعدوه الملاعنة من الغد، وهي أن يبتهل الفريقان إلى الله أن يصيب الكاذب بعذابه ولعنته، فقال كبيرهم: إن كان نبيًا ثم دعى عليكم لا يغضبه الله فيكم أبدا، وإن كان ملكًا فظهر عليكم لا يستبقيكم أبدا، لا تلا عنوه. وقيل: إنه قال لهم: لقد عرفتم أن محمدًا نبي مرسل، وقد جاءكم بالفصل من خبر عيسى، وما لاعن قوم نبيًا إلا هلكوا. وفي اليوم الثاني غدا النبي ﷺ بولديه الحسن والحسين وابنته فاطمة وعلي[1]. فقالوا: يا أبا القاسم قد رأينا أن لا

---

(١) الحاكم ٣/١٥٠ . وصححه على شرط مسلم . وابن كثير ١/٣٧١٠. وابن مردويه كما في الدر المنثور ٢/٦٨. والترمذي وأبو نعيم في الدلائل ١/٣٥٣. وأسباب النزول ٥٨. والقرطبي ٤/٦٧. والفخر الرازي ٤/٩٠٨. وأحمد رقم ١٦٠٨. ولوامع الأنوار ١/٨٣. روى مسلم لما نزلت: ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ﴾ دعا رسول الله عليًا وفاطمة وحسنًا وحسينًا

نلاعنك. فصالحوه على إعطاء الجزية ألفي حُلة في كل سنة: ألف حلة في صفر وألف حلة في رجب، مع كل حلة أوقية من ذهب. قالوا: أرسل معنا أمينًا، فأرسل أبا عبيدة عامر بن الجراح، فسمي بأمين الأمة.

نعم. رأوا وجوهًا لو سألت الله أن يزيل جبلاً من مكانه لفعل؛ لذلك قال النبي ﷺ: "والذي نفس محمد بيده إن كان العذاب لقد تدلى على أهل نجران، ولو فعلوا لاستئصِلُوا عن جَدِيدِ الأرض"[1].

الدروس[2]:

١- دلت القصة على مباهلة المخالف إذا أصر بعد ظهور الحجة. وقد عرف بالتجربة أن المبطل لا تمضي عليه سنة.

٢- جواز مصالحة أهل الذمة على ما يراه الإمام من أصناف المال.

٣- جواز مجادلة أهل الكتاب، وقد تجب إذا تعيَّنت المصلحة.

٤- إقرار الكافر بالنبوة لا يُدخِلُه الإسلام حتى ينطق بالشهادة، ويلتزم بأحكام الاسلام.

٥- كانت الأسرة النبوية هم خمسة الكساء دون غيرهم.

ضمام بن ثعلبة:

فقال: اللهم هؤلاء أهلي . رقم ٢٤٠٤ ج٤ص١٨٧١. وتفسير الطبري ج٣/٣/٤٠٧. قال: و لم يذكر علي في بعض الروايات المرسلة عن الشعبي لسوء رأي بني أمية في علي. وفتح الباري ٨/٩٤. والطبقات ١/٣٥٧.

(١) تفسير الطبري مج٣/٣/٤٠٨، ٤٠٩.

(٢) ابن حجر ٨/٩٥.

وفد ضمام بن ثعلبة رجلٌ من البادية ثائر الرأس يُسمَعُ دوي صوته ولا يفقه ما يقول، فأناخ جمله بالمسجد وقال: أيكم ابن عبدالمطلب؟ فدلوه عليه، فقال: إني سائلك ومشدد عليك فلا تجد عليَّ في نفسك؟ قال: سل ما بدالك، قال: أنشدك بالله، آللهُ أرسلك إلى الناس كلهم؟ قال: نعم. وناشده عن فرائض الإسلام كلها، والرسول ﷺ يقول: نعم. فقال: آمنت وصدقت. ولما ولَّى قال: فَقُهَ الرجل، ثم ذهب ضمام إلى قومه ودعاهم إلى الإسلام فأسلموا[1].

وفي البخاري "٤٦": فإذا هو يسأل عن الإسلام: الصلاة والصيام والزكاة .. والرجل يقول: هل عليَّ غيرها، ويجيبه: لا، إلا أن تطوع. فأدبر وهو يقول: والله لا أزيد عن هذا ولا أنقص، فقال ﷺ: أفلح إن صدق.

وفد عبدالقيس:

كان النبي ﷺ بين أصحابه رضي الله عنهم فقال: سيطلع عليكم ركب هم خير أهل المشرق، لم يُكْرَهُوا على الإسلام، قد أمضوا الركائب وأفنوا الزاد، وكان فيهم عبدالله بن عوف الأشج وهو أصغرهم سنًا، وكان دميمًا، وكأنه لاحظ أن الرسول ﷺ ينظر إلى دمامته، فقال: يا رسول الله إن المرء بأصغريه قلبه ولسانه. فقال له: إنَّ فيك خصلتين يحبهما الله ورسوله الحلم والأناة، وقد أكرم هذا الوفد؛ لأنهم أتوه من ساحل الخليلج الفارسي وهي ديار ربيعة، وأمرهم بأركان الإسلام ، ونهاهم عن أنبذة من الدُّبَّا والحَنْتَم والنقير

---

(١) ابن هشام ٥٧٣/٢. وطبقات ابن سعد ٢٩٩/١. وسبل الهدى ٥٣٨/٦. وابن حجر ١٠٧/١، وقيل: إنه جزام بن بطال.

والـمُزَفت[1]. وقد سألوه أن يرخص لهم في شربها لأن أرضهم وخمة، فقال: إذا رخصت لأحدكم قام إلى ابن عمه فضرب ساقه بالسيف[2].

وفد طيء[3]:

قدم وفد طيء على رسول الله ﷺ خمسة عشر رجلاً وكان رئيسهم زيد الخيل، وقال النبي ﷺ: ما ذكر لي رجل من العرب إلا رأيته غير ما قيل فيه إلا زيد الخيل، وسماه زيد الخير.

وفد بني أسد:

وفدوا وفيهم ضرار بن الأزور، وطليحة بن عبدالله الذي ادعى النبوة فيما بعد، فأسلموا وقالوا: يا رسول الله أتيناك في سنة شهباء ندَّرع الليل البهيم، و لم تَبْعَثْ إلينا؛ فأنزل الله: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم ۖ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [١٧: الحجرات][4].

---

(١) الدبا: القرع، والحنتم: جرار مدهونة خضر. والنقير: أصل النخلة ينقر، والمزفت: ما طلي بالزفت. وإنما نهاهم لكثرة شربهم له.

(٢) الطبقات ٣١٤/١. والاكتفاء ٣٣٦/٢ ونور اليقين ٢٦١.

(٣) ابن هشام ٥٧٧/٢. والطبقات ٣٢١/١.

(٤)أسباب النزول ٣٢٧.

وسألوه عن العيافة والكهانة فنهاهم عن ذلك كله، وسألوه عن ضرب الرمل، فقال: "عَلِمَهُ نبي "إدريس" فمن صادف مثل علمه فذاك؛ وإلا فلا"(١).

الكذابان: مسيلمة الحنفي والأسود العنسي:

وقد كان تكلم في عهد رسول الله ﷺ الكذابان: مسيلمةُ بن ثُمامة الكذاب باليمامة في بني حَنيفة؛ والأسودُ بن كعب العَنسي بصنعاء.

عن أبي سعيد الخدري، قال : سمعتُ رسول الله ﷺ وهو يخطب الناس على منبره يقول: "أيها الناس، إني قد رأيت ليلة القدر، ثم أنسيتُها، ورأيت في ذراعيَّ سوارينِ من ذهب فكرهتُهما، فنفختُهما فطارا، فأولتُهما هذين الكذابين: صاحبَ اليمن وصاحبَ اليمامة"(٢).

كتاب مسيلمة إلى رسول الله ﷺ والجواب عنه:

كتب مسيلمة بن ثُمامة: من مسيلمة رسولِ الله إلى محمد رسولِ الله. سلامٌ عليك، أما بعد فإني قد أشركتُ في الأمر معك، وإن لنا نصفَ الأرض، ولقريشٍ نصفَ الأرض، ولكن قريشًا قوم يَعتَدون. وقدم بالكتاب رسولان. قال ابن إسحاق: فقال لهما ﷺ حين قرأ كتابَه: "فما تقولان أنتما"؟ قالا: نقول كما قال، فقال: "أما والله لولا أن الرسل لا تُقتلُ لضربتُ أعناقَكما". ثم كتب إلى مسيلمة: "بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسولِ الله إلى مسيلمة

---

(١) الطبقات ٢٩٣/١. والاكتفاء ٣٣٨/٢.

(٢) أحمد بن حنبل ١١٨١٦. ودلائل النبوة ٣٣٤/٥.

الكذاب، السلامُ على من اتبع الهدى. أما بعد فإن الأرض لله يورثُها من يشاءُ من عبادهِ والعاقبةُ للمتقين". وذلك في آخر سنة عشر[1].

حجة أبي بكر رضي الله عنه:

حج بالناس أبو بكر ومعه ثلاثمائة رجل وعشرون بدنة، وبعث النبي ﷺ معه سورة براءة؛ ليبلغها في الحج الأكبر، فأرسل وراءه عليًا كرم الله وجهه على ناقته القصوا وأمره أن يأخذ براءة من أبي بكر؛ فأدركه ببعض الطريق فقال: استعملك رسول الله ﷺ على الحج؟ قال: لا، ولكنه قال: لا يؤدي عني إلا أنا أو رجل مني[2]، فأمرني بقراءة براءة على الناس، وأنبذ إلى كل ذي عهد عهده[3]. فقرأها عليٌ على الناس يوم عرفة، وقيل: عند جمعهم في منى، وبث أبو بكر مؤذنين هنا وهناك ينقلون صدى أذان علي ببراءة، وكان علي ينادي بأربع: لا يدخلن الجنة إلا نفس مؤمنة، ولا يطوف بالبيت عريان، ولا يجتمع مسلم

---

(١) سيرة ابن هشام ١/٦٠٠. والاكتفاء ٢/٤١٤.

(٢) المسند ١/١٨ رقم ٤، ص٣١٨ برقم ١٢٩٦، ٦/١٦٣ رقم ١٧٥١٨، رقم ١٧٥١٩، ١٧٥٢٠. والترمذي ٥/٥٩٤ رقم ٣٧١٩. والنسائي في الخصائص ٨٢. والطبري في تفسيره مج٦/١٠/٨٤ والكشاف ٢/٢٤٣. والسيوطي في الدر المنثور ٣/٣٧٨، ٣٧٩. وابن أبي شيبة ٦/٣٦٦، رقم ٣٢٠٧١. والمحب الطبري في ذخائر العقبى ٦٩. والحاكم في المستدرك ٣/٥١. وابن ماجه في سننه ١/٤٤ برقم ١١٩.

(٣) إقرأ الآيات الأُوَلْ من سورة براءة.

وكافر في المسجد الحرام بعد عامه هذا، ومن كان بينه وبين النبي ﷺ عهد فعهده إلى مدته، ومن لم يكن له عهد فأجله إلى أربعة أشهر[١].

الدروس والعبر:

١- أجهزت سورة براءة على الوثنية وقطعت دابرها؛ لتتهيأ الأجواء لحجة الإسلام الكبرى في العام القادم بقيادة النبي ﷺ.

٢- ذكر الفراء[٢] أن العرب قد كانوا أخذوا ينقضون عهودًا بينهم وبين النبي ﷺ فنزلت عليه آيات من آول براءة أمِرَ فيها برد عهودهم إليهم، وأن يجعل الأجل بينه وبينهم أربعة أشهر، فمن كانت مدته أكثر من أربعة أشهر حطَّه إلى أربعة، ومن كانت مدته أقل من أربعة أشهر رفعه إلى أربعه، وجعل لمن لم يكن له عهد خمسين يومًا أجلاً إلى نهاية المحرم، يسيحون آمنين في مدتهم، وكل ذلك يبدأ من يوم النحر، فإن وجد أحد بعد ذلك على شركه فهو مباح الدم كما قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلۡأَشۡهُرُ ٱلۡحُرُمُ فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ﴾ [٥: التوبة]، والمراد بالأشهر الحرم محرم، وجاز جمعه لأنه متصل بذي الحجة وذي القعدة وهما حرام.

٣- لا يعتبر هذا من باب الإكراه في الدين، بل هو كما قال الشيخ الغزالي رحمه الله: ليعلم من يشاء أن تشريع قانونٍ بمحو الوثنية كتشريع قانون بمحو الأمية –

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/٥٤٣. وتأريخ الطبري ٣/١٢٣. وتفسيره مج٦/١٠/٨٤. وابن سعد ٢/١٦٨. ومغلطاي ٣٤٢.

(٢) معاني القرآن له ١/٤٢٠.

عمل إنساني نبيل، وأن اعتراضًا عليه لا يصدر من رجل يؤثر الخير للأمم ويتمنى لها السمو والكرامة[1].

حوادث قبل حجة الوداع[2]:

١- مات عبدالله بن أبي وصلى عليه الرسول ﷺ، فنزل قول الله تعالى: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٖ مِّنۡهُم مَّاتَ أَبَدٗا وَلَا تَقُمۡ عَلَىٰ قَبۡرِهِۦٓۖ إِنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُواْ وَهُمۡ فَٰسِقُونَ﴾ [٨٤: التوبة] [3].

٢- آلى النبي ﷺ من نساءه شهرًا، والسبب أنه ذبح ذبيحًا فقسمته عائشة رضي الله عنها بين أزواجه فردَّت زينب بنت جحش رضي الله عنها نصيبها، فقال: زيديها، فزادتها ثلاث مرات كل ذلك ترده. فحلف أن لا يدخل عليهن شهرًا، ففاء إليهن في تسع وعشرين من الشهر وقال: الشهر ثلاثون، وتسع وعشرون.

٣- باع المسلمون أسلحتهم وقالوا: انقطع الجهاد، فقال ﷺ: "لا ينقطع الجهاد حتى ينزل عيسى بن مريم".

٤- لاعَنَ ﷺ بين عويمر العجلاني وامرأته بعد العصر؛ لأنها حبلت وزوجها بتبوك. والملاعنة نظام خاص بالزوجين، فإذا أنكر الزوج ولده متهمًا أمه بالزنى

---

(١) فقه السيرة للغزالي ص٤٥٣.

(٢) ملغطاي ٣٤٤.

(٣) أسباب النزول ٢١٦.

وليس له شهود فيحضر مع امرأته عند الحاكم ويشهد أربع شهادات أنه صادق فيما رماها به من الزنى، والخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين ، فإن اعترفت المرأة رجمت وإلا شهدت أربع شهادات أن زوجها كاذب فيما رماها به، والخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين، ثم يفرق بينهما الحاكم إلى الأبد، ويلحق الولد بأمه.

٥- مات النجاشي ملك الحبشة رحمه الله، وصلى عليه النبي ﷺ صلاة الغائب.

٨٢ - سرية علي كرم الله وجهه الثانية إلي اليمن

بعثه ﷺ في رمضان سنة ١٠هـ في ثلاثمائة رجل، كلهم فرسان، وعممه بيده، وكانت أول خيل إسلامية تصل إلى مذحج، فدعاهم إلى الإسلام فأبوا ورموا بالنبل والحجارة، فحمل عليهم علي كرم الله وجهه فقتل منهم عشرين وانهزموا، ثم دعاهم إلى الإسلام فأسلموا[1]. وقد كان بعث ﷺ قبله خالد بن الوليد، ثم بعث عليًا مكانه.

وقد ذكر البخاري أنَّ عليًّا بعث من اليمن بِذُهَيْبَة إلى النبي ﷺ فقسمها في أربعة نفر بين عيينة بن بدر، وأقرع بن حابس، وزيد الخير، والرابع: إما علقمة أو عامر بن الطفيل، فقال رجل من أصحابه: كنا نحن أحقَّ بهذا من هؤلاء؛ فبلغ النبي ﷺ قوله، فقال: ألا تأمنوني وأنا أمين من في السماء، يأتيني خبر السماء

(١) عيون الأثر ٣٥٨/٢. والواقدي ١٠٧٩/٣.والطبقات ١٧٠/٢.

صباحًا ومساء، فقام رجل غائر العينين، مشرف الوجنتين، ناشز الجبهة، كث اللحية، محلوق الرأس، مشمَّر الإزار، فقال: يا رسول الله اتق الله، قال: ويلك أولستُ أحقَّ أهلِ الأرض أن يتقي الله، قال: ثم ولى الرجل، قال خالد بن الوليد: يا رسول الله ألا أضرب عنقه، قال: لا، لعله أن يكون يصلي، فقال خالد: وكم من مصلٍّ يقول بلسانه ما ليس في قلبه. قال رسول الله ﷺ: **"إني لم أومر أن أنقب قلوب الناس ولا أشق بطونهم"**، قال: ثم نظر إليه وهو مُقَفٍّ فقال: **"إنه يخرج من ضئضئ**[1] **هذا قومٌ يتلون كتاب الله رطبًا، لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية"**. وأظنه قال: "لإن أدركتهم لأقتلهنم قتل ثمود"[2].

حجة الوداع: (١٠ هـ - ٦٣٢م) [3]:

تجهز ﷺ للحج، وأعلم الناس، فحدث بالمدينة جدري منعت بعضهم من الحج معه، فأعلمهم أن عمرة في رمضان تعدل حجة، وخرج ﷺ في ٢٥ ذي القعدة[4]، ولم يحج من المدينة غير هذه الحجة، وحج بنسائه كلهن. وأهلَّ بالعمرة والحج قارنًا بعد صلاة الظهر من ذي الحليفة، وخير الناس بين أنواع

---

(١) من نسله وعقبه ومن نفس عجينته وطينته.

(٢) البخاري رقم ٤٠٩٤. ورقم ٦٩٩٥، ٧١٢٣، ٣١٦٦.

(٣) ابن هشام ٦٠١/٢. وطبقات ابن سعد ١٧٣/١.

(٤) قال ابن هشام: فاستعمل على المدينة أبا دجانة الساعدي، ويقال سباع بن عُرفُطة الغفاري .

الحج الثلاثة: القران والإفراد والتمتع، فمن كان معه هدي حجَّ قارنًا بأن يحرم بالحج والعمرة معًا؛ لأن سَوْقَ الهدي شرط في صحة حج القارن. ومن لا هدي معه حج مُفْرِدًا بأن يحرم بالحج ثم يعتمر بعد أيام التشريق عمرة الحج، ومن شاء حج متمتعا بأن يحرم بعمرة متمتعًا بها إلى الحج.

فأشعر ﷺ هديه وقلده[1]، ومعه مائة بدنة، ومعه جموع لا تحصى، ولبَّى وأمر الناس برفع أصواتهم بالتلبية.

وقد دخل على عائشة رضي الله عنها وهي تبكي وأخبرته أنها حائض وقالت: وددت أني لم أخرج معكم، فقال: لا تقولي ذلك، فإنك تقضين ما يقضي الحاج إلا أنك لا تطوفين بالبيت، ولما شاهد البيت قال: اللهم زد هذا البيت تشريفًا وتعظيمًا وتكريمًا ومهابة، وزِدْ مَنْ عَظَّمَهُ ممن حجه واعتمره تشريفًا وتكريمًا ومهابة وتعظيمًا وبرًا.

قدوم علي كرم الله وجهه محرماً من اليمن:

قدم علي كرم الله وجهه من اليمن ولقي النبي ﷺ بمكة، فدخل على فاطمة الزهراء عليها السلام فوجدها قد حلت وتهيأت فقال: ما لك يا ابنة رسول الله؟ قالت: أمرنا رسول الله ﷺ أن نحل بعمرة، أي إنها حجت متمتعة، فجاء علي إلى النبي ﷺ فقال: يا علي بما أهللت؟ فقال بما أهلَّ به النبي ﷺ، قال: فأمسك فإن معنا هديًا، فأشركه في هديه وبقي على إحرامه مع رسول الله ﷺ، ونحر رسول الله ﷺ الهدي عنهما، نحر بيده ثلاثًا وستين، ونحر علي الباقي[2]. وقد كان علي كرم الله وجهه سبق جيشه وأناب عليهم رجلاً، ولما

---

(١) التقليد : تعليق نعل، والإشعار: شق جانب سنامها شقًا صغيرًا ويسلت الدم ليعرف أنها هدي.

(٢) ابن هشام ٢/٦٠٢. وابن كثير ٤/٢٢٨.

دنى الجيش استقبلهم علي، وإذا بهم قد اكتسوا حللاً مما غنموه فنزعها؛ فَشَكَوْهُ إلى رسول الله ﷺ، فخطب فيهم رسول الله ﷺ وقال: "أيها الناس لا تشْكُوا عليًا، فإنه لأخشن في ذات الله من أن يُشْكَى"[1]. قال بريدة: كنت من أصحاب خالد، وكنت أبغض عليًا، فاختص علي بجارية من السبي، فقلت لخالد: ألا ترى لهذا، فلما قدمت إلى النبي ﷺ ذكرت له ذلك، فقال: "يا بريدة أتبغض عليًا"؟ فقلت: نعم، قال: "لا تبغضه، فإن له في الخمس أكثر من ذلك"[2].

خطبة الوداع - يوم عرفة:

عَلَّم النبي ﷺ أمته مناسكهم وسُنَنَ حجهم، وقال: "خذوا عني مناسككم"، وخطب الناس خطبته الشهيرة المسمَّاه بخطبة الوداع، منتهزًا حضور الجمع العظيم الذي أربى على مائة ألف، وقال: "أيها الناسُ، اسمعوا قولي، فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبدًا. أيها الناسُ إن دماءكم وأموالكم عليكم حرامٌ إلى أن تلقَوا ربَّكم كحُرمةِ يومِكم هذا وكحرمةِ شهرِكم هذا، وإنكم ستلقَون ربكم فيسألُكم عن أعمالِكم ، وقد بلَّغتُ؛ فمن كانت عنده أمانةٌ فليؤدها إلى من أئتمنه عليها، وإن كل ربِى موضوع، ولكن لكم رؤوس أموالِكم لا تَظلمون ولا تُظلَمون، قضى الله أنه لا ربِى، وأن ربى عباس بن عبدالمطلب موضوعٌ كله، وإن كل دمٍ كان في الجاهلية موضوع، وإن أولَ دمائِكم أضعُ دمُ ابن ربيعةَ بن الحارثِ بن عبدِ المطلب [وكان مسترضعًا في

---

(١) الحاكم ١٣٤/٣. وقال : صحيح ووافقه الذهبي على تصحيحه. وابن هشام ٦٠٣/٢. والمسند رقم ١١٨١٧. "لأخشن في ذات الله أو في سبيل الله".
(٢) البخاري رقم ٤٠٩٣. والبداية ١٢٠/٥. وسبل الهدى ٣٥٩/٦.

بني ليث فقتلته هُذَيل] فهو أول ما أبدأ به من دماء الجاهلية. أما بعد أيها الناس، فإنَّ الشيطانَ قد يَئسَ من أن يُعبدَ بأرضِكم هذه أبدًا، ولكنه إن يُطَعْ فيما سوى ذلك فقد رضي به مما تحقرون من أعمالكم؛ فاحذروه على دينكم. أيها الناس: إن النسيء زيادة في الكفر يُضَلُّ به الذين كفروا يُحلُّونه عامًا ويحرمونه عامًا ليواطئوا عدَّة ما حرم الله فيحلوا ما حرَّم الله ويحرموا ما أحل الله. وإن الزمان قد استدارَ كهيئته يومَ خلقَ اللهُ السموات والأرضَ، وإن عدة الشهورِ عند الله اثنا عشر شهرًا، منها أربعةٌ حرُمٌ: ثلاثةٌ متواليةٌ ورجبُ مُضَرَ[1] الذي بين جُمادَى وشَعبان. أيها الناس: فإن لكم على نسائكم حقًا ولهن عليكم حقًا، لكم عليهن أن لا يُوطِئنَ فُرُشَكم أحدًا تكرهونَه، وعليهن أن لا يأتينَ بفاحشة مبيِّنة، فإن فعلنَ فإن اللهَ قد أذنَ لكم أن تهجروهنَّ في المضاجع وتضربوهنَّ ضربًا غيرَ مبرِّح[2]، فإن انتهين فلهنَّ رزقهنَّ وكسوتهن بالمعروف، واستوصوا بالنساء خيرًا فإنهن عندكم عَوَانٍ[3] لا يملكن لأنفسهن شيئًا، وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجَهن بكلماتِ الله، فاعقِلوا أيها الناسُ قولي، فإني قد بلغتُ وقد تركتُ فيكم ما إن اعتصتم به فلن تضلوا أبدًا، أمرًا بينًا، كتاب الله وسنة نبيه[4]. أيها الناس اسمعوا قولي واعقلِوه، تَعَلَّمُنَّ أن كل مسلم أخ للمسلم، وأن

---

(١) إنما أضاف رجبًا إلى مضر لأنها كانت تعظمه، ولم يكن أحد من العرب يفعل ذلك سواها.

(٢) غير مبرح : أي غير شديد. برح به الأمر: إذا اشتد عليه وشق.

(٣) عوان: جمع عانية وهي الأسيرة.

(٤) ولا يعارض الحديث الصحيح المتواتر: "إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي أبدا: كتاب الله وعترتي أهل بيتي، إن اللطيف الخبير نبأني أنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض". الإمام الهادي في الأحكام ١/٤٠. والإمام زيد

المسلمين أخوة، فلا يحل لامريءِ من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفسٍ منه، فلا تظلمُنَّ أنفسكم، اللهم هل بلغتُ"؟ فقال الناس: اللهم نعم، فقال رسول الله ﷺ : "اللهم اشهد".

وكان يصرخ بكلام رسول الله ﷺ ربيعةُ بن أمية بن خلف، قال: يقول له رسول الله ﷺ: قل يآ أيها الناس إن رسول الله ﷺ يقول: هل تدرون أيُّ شهر هذا؟ فيقول لهم، فيقولون: الشهر الحرام، فيقول: قل لهم: إن الله قد حرم عليكم دماءكم وأموالكم إلى أن تلقوا ربكم، كحرمة شهركم هذا، ثم يقول: قل يآ أيها الناس إن رسول الله ﷺ يقول: هل تدرون أيُّ بلد هذا؟ قال: فيصرخ به، قال: فيقولون البلد الحرام؛ قال: فيقول: قل لهم: إن الله قد حرم عليكم دماءكم وأموالكم إلى أن تلقوا ربكم، كحرمة بلدكم هذا، قال: ثم يقول: قل: يا أيها الناس، إن رسول الله ﷺ يقول: هل تدرون أي يوم هذا؟ قال: فيقوله لهم. فيقولون: يوم الحج الأكبر، قال: فيقول: قل لهم: إن الله قد حرم عليكم دماءكم وأموالكم إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا.

خطبته ﷺ بغديرِ خُمٍّ:

روى أهل الصحاح وأهل السير وغيرهم خطبة غدير خُم من طرق كثيرة؛ فالنسائي عن أبي الطفيل، عن زيد بن أرقم قال: لما رجع رسول الله ﷺ من حجة الوداع ونزل غدير خم، أمَرَ بدوحات فقمِمْنَ، ثم قال: "كأني قد دعيت

---

٤٠٤. وأحمد بن حنبل ٣٠/٤ رقم ١١٠٤ و١١١٣١. و١٩٣٣٢ و٢١٦٣٤. ورقم ١١٢١١ و١١٥٦١. والترمذي ٣٧٨٦ و٣٧٨٨، والطبراني ١٨٦/٥ رقم ٥٤٠. ومسلم ١٨٧٣/٤ رقم ٢٤٠٨. إذ أهل البيت هم ترجمان السنة ورأس حماة السنة الشريفة.

فأجبت، إني قد تركت فيكم الثَّقَلَين: كتاب الله وعترتي أهل بيتي، فانظروا كيف تخلفوني فيهما، فإنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض، الله مولاي وأنا ولي كل مؤمن. ثم أخذ بيد علي وقال: من كنت مولاه فهذا وليه، اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه". قال : قلت لزيد: سمعته من رسول الله ﷺ، قال: نعم، وإنه ما كان في الدوحة رجل إلا رآه بعينه وسمعه بأذنه[1]. فقال له

(١) مسلم ٤/١٨٧٣ رقم ٢٤٠٨. والخصائص ٨٤ رقم ٧٦- ٨٧. و المسند رقم ٦٤١، ٩٥٠، ٩٦٤، ١٣١٠. والترمذي في السنن رقم ٣٧١٣. ومجمع الزوائد ٩/١٠٣ وما بعدها بروايات عدة. وتأريخ الاسلام عهد الخلفاء للذهبي ٦٣١. وتذكرة الحفاظ ١/١٠. وابن حبان ٦٨٩٢. وأمالي أحمد بن عيسى ٤/٣١٠. والمستدرك ٣/١٣٤. ووافق على تصحيحه الذهبي . ومسند البزار ١٩٠٠. ومسند الشاشي ١/١٦٦. والمصنف لابن أبي شيبة ٦/٣٧٢رقم ٣٢١١٨. والبداية لابن كثير مج٤/٧/٣٨٣. والسيرة ٤/٤١٦ له وقال: إنه متواتر، ولا سبيل إلى إنكاره، وإنه لا حظ للشيعة فيه، ولا متمسك لهم، ولا دليل. لكنَّ النص كفلق الصبح لا يغيُّر فيه رأي ابن كثير شيئًا. والينابيع ٣٢٩.وكنز العمال ١١/٣٣٢ رقم ٣١٦٦٢. وقد ساق في مواضع كثيرة جدًا.وتفسير الرازي ٦/٥٣ في تفسير: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [٦٧: المائدة]،. والسيرة الحلبية ص٣/٢٧٤. والاستيعاب ٣/٢٠٣. وابن عساكر ٤٢/٢٠٥. وأسد الغابة ٤/١٠٣. والروضة الندية للأمير في شرح قوله:

وَبخُـمٍّ قَـامَ فِـيهِم خَاطِبًـا ... تحـتَ أشْـجَارٍ بَهـا كَـانَ تَفَيَّـأ
قَائِلاً مَنْ كُنت مَولاهُ فَقَـدْ ... صَارَ مَوْلاهُ كَمـنْ كُنـتُ عَلِيـا

عمر بن الخطاب رضي الله عنه: هنيئًا لك، أصبحت وأمسيت مولى كل مؤمن ومؤمنة. وبعض الروايات: "من كنت مولاه فعلي مولاه ..." [1] .

موت إبراهيم - سنة ١٠هـ:

مرض إبراهيم بن رسول الله ﷺ ونقل إلى مشربة بجوار أمه مارية وأختها سيرين تمرضانه، فجاءه النبي ﷺ وهو يحتضر وقال: إنا يا إبراهيم لا نغني عنك من الله شيئًا. وفاضت روح الطفل. وحزن النبي ﷺ ودمعت عينه، وقال: لا نقول إلا ما يرضي الرب، وإنا لفراقك يا إبراهيم لمحزونون.

صادف موت إبراهيم كسوف الشمس، فقال الناس: إنها انكسفت لموته، فقال ﷺ: "إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا تنكسفان لموت أحد ولا لحياته، فإذا رأيتم ذلك فصلوا وادعوا" [2].

العبرة:

---

(١) حديث الغدير لا ينكره إلا مكابر جاهل، قال الذهبي في تذكرته ٧١٣/٢ في ترجمة محمد ابن جرير: ولما بلغه أن ابن أبي داود تكلم في حديث الغدير عمل كتاب الفضائل وتكلم على تصحيح الحديث ، قلت [الذهبي] : رأيت مجلدًا من طرف الحديث لابن جرير فاندهشت له ولكثرة تلك الطرق . وقال في سير أعلام النبلاء ٤١٥/٢: ثابت بلا ريب.

(٢) البخاري رقم ١٠١١، ٩٩٧. وصلاة الكسوف ركعتان: في كل ركعة خمس ركوعات، ويكبر موضع التسميع إلا في الركوع الأخير. ولها كيفيات أخرى.

دلت هذه الحادثة على عظمة الرسول ﷺ، وشدة اتصاله بالله، وتمسكه بمبادئه في أحلك المواقف وأشدها إيلامًا. ومن قرأ كتابات المستشرقين وجدهم في هذا الموضع واقفين إجلالاً وإعظامًا وإكبارًا معترفين بصدق الرجل الذي لا يرضى في أحلك المواقف إلا الصدق والحق. فلو كان غير النبي ﷺ لما فوَّت هذه الفرصة الذهبية، فقد جاءت دعاية سانحة؛ إذ كسفت الشمس يوم موت إبنه، وقال الناس : إنها انكسفت لموته.

أمهات المؤمنين رضي الله عنهن:

تزوج ثلاث عشرة امرأة، ودخل بإحدى عشرة، وتوفي عن تسع وهن: عائشةُ بنت أبي بكر، وحفصةُ بنت عمر بن الخطاب، وأم حبيبةَ بنتُ أبي سفيان بن حرب، وأم سَلَمَةَ بنتُ أبي أميةَ بن المغيرة، وسودةُ بنتُ زَمعَة بن قيس، وزينبُ بنتُ جَحشٍ بن رئاب، وميمونةُ بنتُ الحارث ابن حزن ، وجويريةُ بنتُ الحارث بن أبي ضِرار، وصفيةُ بنتُ حُيَي بن أخطب.

أسماؤهن حسب ترتيب الزواج بهن[1] :

١- خديجة بنت خُويلد (قرشية): هي أول نسائه، أصدقها عشرين بَكرَة[2]، ولدت له جميع أولاده ما عدا إبراهيم، عقد بها عمها، وتوفيت قبل الهجرة بخمس ، وقيل: بأربع، وقيل: بثلاث.

٢- سَودَةَ بنتَ زَمعَة القرشية (قرشية): زوجه إياها سليط بن عمرو، ويقال: أبو حاطب بن عمرو بن عبدشمس، وأصدقَها رسول الله ﷺ أربعمائة

---

(١) ابن هشام ٦٤٤/٢. والاستيعاب ٤. والمعارف ١٤١/١٣٣.

(٢) البكرة: الفتية من الإبل.

درهم[1]. وكانت قبله عند السكرانِ بن عمروٍ. ويقال: إن عقد عائشة قبلها. توفيت في آخر خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

٣- عائشةَ بنتَ أبي بكر (قرشية): عقد عليها وهي بنت سبعِ سنين، وبنى بها بالمدينة وهي بنتُ تسعِ سنين أو عَشر، ولم يتزوج رسولُ الله ﷺ بكرًا غيرَها، زوَّجَه إياها أبوها أبو بكر رضي الله عنه، وأصدقها أربعمائة درهم. وقبض ﷺ وهي إبنة ثمانية عشر سنة، وتوفيت سنة ثمانية وخمسين في عهد معاوية.

٤- زينبَ بنتَ جحش (قرشية): زوَّجه إياها أخوها أبو أحمدَ بن جحش، صداقها أربعمائة درهم، وكانت قبله عند زيد بن حارثةَ مولاه وفيها أنزل الله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَـٰكَهَا﴾ [٣٧: الأحزاب][2]. وكانت أول نساء النبي ﷺ لحوقًا به، وتوفيت سنة عشرين في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

٥- أمَّ سلمةَ هند بنتَ أبي أميةَ بن المغيرةِ المخزومية (قرشية)[3]: زوجه إياها سلَمةُ بنُ أبي سلمةَ ابنُها، صداقها فراش حشوهُ ليف وقَدَحًا وصَحفةً ومجشة[4]

---

(١) ذكر ابن إسحاق أن سليطًا وأبا حاطب كانا غائبين بأرض الحبشة في هذا الوقت. سيرة ابن هشام ٢/٦٤٤.

(٢) تفسير الطبري ١٢/٢٢/١٧.

(٣) وقيل: اسمها رملة واسم أبيها حذفة، وقيل: سهيل، وقيل: هشيم. ينظر الروض النضير ٢/١٩٧.

(٤) المجشة: أراد بها الرحى.

وكانت قبله عند أبي سلمة بن عبد الأسد. واسمه عبدالله، فولدت له: سلمة، وعمر، وزينب، ورقية. وتوفيت سنة تسع وخمسين في عهد معاوية.

٦- حفصة بنت عمر بن الخطاب (قرشية): زّوجه إياها أبوها عمر بن الخطاب رضي الله عنه، أصدقها أربعمائة درهم، وكانت قبله عند خُنيس بن حُذافة السهمي. وتوفيت سنة خمسة وأربعين، وقيل: سبعة وعشرين.

٧- أم حبيبة، واسمها رملة بنت أبي سفيان صخر بن حرب (قرشية): زوّجه إياها خالدُ بن سعيد بن العاص، وهما بأرض الحبشة، وخطبها النجاشي وأصدقها عنه أربعمائة دينار. وكانت قبله عند عبيدالله بن جحش الأسدي بعد أن تنصّر. وتوفيت سنة أربع وأربعين في عهد معاوية.

٨- جويريةَ بنتَ الحارث بن أبي ضِرار الخُزاعية: كانت في سبايا بني المصطَلق من خزَاعة، فوقعت في السهم لثابت بن قيس بن شماس الأنصاري، فكاتبها على نفسها، فأعانها النبي ﷺ وتزوجها. وتوفيت سنة ست وخمسين في عهد معاوية.

٩- صفية بنت حُيَي بن أخطَب: من بني النضير من سبط النبي هارون، من سبايا خيبر، اصطفاها النبي ﷺ لنفسه، ثم أعتقها، ثم تزوجها، وأولَمَ بها وليمة ما فيها شحم ولا لحم، وإنما السويق والتمر، وكانت قبله عند كنانة بن الربيع بن أبي الحُقَيق. وتوفيت في سنة خمسين في عهد معاوية.

١٠- ميمونةَ بنت الحارث الهلالية: زوَّجه إياها العباس بن عبدالمطلب، زوج أختها، أصدقها العباس أربعمائة درهم، وكانت قبله عند أبي رُهم العامري القرشي، ويقال : إنها التي وهبت نفسها للنبي ﷺ، وذلك أن خطبة النبي ﷺ انتهت إليها وهي على بعيرها، فقالت: البعير وما عليه لله ولرسوله، فأنزل

الله تبارك وتعالى: ﴿وَٱمۡرَأَةً مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا﴾ [الأحزاب:٥٠]. ويقال: إن التي وهبت نفسها للنبي ﷺ زينبُ بنت جحش. ويقال: أم شريك، ويقال: بل هي امرأة من بني سامة ابن لؤي. وتوفيت سنة إحدى وخمسين، وقيل: ست وستين، وقيل: ثلاثة وستين.

١١- زينب بنت خزيمة الهلالية: أم المساكين، سميت بذلك؛ لرحمتها إياهم ورقتها عليهم، زوَّجه إيها قَبيصة بن عمرو الهلالي، صداقها أربعمائة درهم وذلك في سنة ثلاث، وكانت قبله عند عُبيدة بن الحارث بن المطلب بن عبدمناف، وكانت قبل عبيدة عند جهم بن عمرو بن الحارث وهو ابن عمها. ولم تلبث عنده إلا شهرين أو ثلاثة.

فهؤلاء الإحدى عشرة اللاتي بَنى بهن رسول الله ﷺ، فمات قبلَه منهن اثنتان: خديجةُ، وزينب بنت خُزَيمة، وتوفي عن تسع كما ذكرنا. **واثنتان لم يدخل بهما:** أسماء بنت النعمان الكندية، تزوجها فوجد بها بياضًا[1]، فمتَّعها وردها إلى أهلها. وعَمرَةُ بنت يزيدَ الكِلابية، وكانت فائقة الجمال والبسطة، فلما قدمت على رسول الله ﷺ قالت لها عائشة: قولي لكي تحظي عنده: أعوذ بالله منك، ففعلت، فقال: "منيعٌ عائذُ الله" فردها إلى أهلها. ويقال: إن التي استعاذت امرأة كندية، بنت عم لأسماء بنتِ النعمان، ويقال: إن رسول الله ﷺ دعاها فقالت: إنا قوم نُؤتَى ولا نأتي، فردها إلى أهلها.

ذكر كُتَّابِه ﷺ

كُتَّابِه ﷺ: الإمام علي كرم الله وجهه وأبيّ بن كعب وعبدالله بن الأرقم الزهري وعامر بن فهيرة وخالد بن سعيد بن العاص وحنظلة بن الربيع وزيد بن

(١) برص.

ثابت وأبو بكر الصديق وعمر الفاروق وعثمان ذو النورين وشرحبيل بن حسنة وعبدالله بن أبي السرح وهو أول من كتب له من قريش ثم ارتد، ومعاوية بن أبي سفيان وغيرهم .

وقال ابن أبي الحديد[1]: والذي عليه المحققون من أهل السيرة أن الوحي كان يكتبه علي بن أبي طالب وزيد بن ثابت وزيد بن أرقم . وأن حنظلة بن الربيع ومعاوية كانا يكتبان له إلى الملوك وإلى رؤساء القبائل ويكتبان حوائجه بين يديه ويكتبان ما يجيء من أموال الصدقات، وقد روي أن النبي ﷺ قال لابن عباس "اذهب وادع لي معاوية" قال فجئت فقلت: هو يأكل قال: ثم قال لي "اذهب وادع لي معاوية" قال: فجئت فقلت: هو يأكل فقال: " لا أشبع الله بطنه"[2] .

نبذة من معجزاته ﷺ

---

(١) شرح النهج ٤٦١/١

(٢) مسلم ٢٠١٠/٤برقم ٢٦٠٤ والنسائي ٥/١ في مقدمة السنن عندما قيل له: ألا تخرج فضائل معاوية كما أخرجت فضائل علي؟ فقال: أي شيء أخرج؟ "اللهم لا تشبع بطنه" فجعلوا يضربونه حتى أخرجوه من المسجد ومات بسبب ذلك. وذكر الذهبي: أن معاوية كان كاتبا فيما بين النبي صلى الله عليه وآله وسلم وبين العرب. سير أعلام النبلاء ١٢٣/٢.

ظهر على يديه ﷺ معجزاة كثيرة عدها بعضهم بألف معجزة نذكر منها: القرآن وهو أعظمها، والإسراء والمعراج، وتظليل الغمام له، وكلام الشاة المسمومة له بعد طبخها، ومسير الشجر إليه وكلامها له، وكلام الحمار والجمل والضبية له، وحنين الجذع إليه، ونبوع الماء من بين أصابعه، وحديثه عن بيت المقدس ولم يره، وقصة أم معبد وشاتها، وحادثة سراقة ابن مالك ، ونسج العنكبوت على الغار الذي هو فيه، وانشقاق القمر، وخروجه من بين الملأ من قريش وهم منتظرون خروجه ليقتلوه، ووضع التراب على رؤوسهم ولم يروه، ورميه بالتراب في وجوه القوم يوم بدر وحنين، وإخباره بالمغيبات مثل : قوله لعمار " تقتلك الفئة الباغية " وقوله لعائشة "ستنبحك كلاب الحوأب " وقوله للزبير "إنك تقاتل عليًا وأنت له ظالم" وقوله لعلي "ستقاتل الناكثين والقاسطين والمارقين" وأيضا قوله "أشقى الأولين عاقر الناقة وأشقى الأخرين قاتلك يخضب هذه من هذا " وقوله لسراقة "كأني بك وقد لبست سواري كسرى" وقوله لعمر في شأن سهيل بن عمرو "سيقوم مقاما تحمده يا عمر" ومنها نعيه النجاشي وجعفر وهما بعيدين، وقوله لأبي ذر الغفاري " تمشي وحدك وتموت وحدك وتبعث وحدك"، وغيرها كثير لا يمكن حصرها هنا، وقد تخصصت لذكرها المطولات[(١)].

قصة الأسود العنسي:

واسمه عيهلة ويقال: عبهلة بن كعب: من عنس بطن من مذحج، بلغه مرض النبي ﷺ لما عاد من حجة الوداع غير مرض الموت، وكان مشعوذًا فادَّعى

---

(١) انظر عيون الأثر ٣٧٥/٢ و كتاب إثبات نبوة النبي للإمام المؤيدبالله، والشفاء للقاضي عياض، ودلائل النبوة للبيهقي. فقد تخصصوا لهذا الشأن.

النبوة، فاتبعته مذحج وكانت ردة الأسود أول ردة في الإسلام في عهد رسول الله ﷺ، واستطار أمره كالحريق، وغلب على البلاد من حضرموت إلى الطائف، ومن عدن إلى البحرين والأحساء، وهرب منه عمَّال رسول الله ﷺ، فهرب معاذ إلى أبي موسى بمأرب فلحقا بحضرموت، وقاتله شهر بن باذان عامل رسول الله ﷺ على اليمن، فقُتِلَ شهر وتزوج الأسود بامرأته. وكان خليفته على مذحج عمرو بن معدي كرب، ولبث ثلاثة أشهر أو قريبًا من أربعة، وتم اغتياله بمساعدة امرأة شهر بن باذان. وذُكِرَ أن قيس بن مكشوح أحد من قتل الأسود ارتد وتابعه جماعة من أصحاب الأسود، وخافه أهل صنعاء، وأتى إلى فيروز الديلمي وداذويه، وقد اشتركا في قتل الأوسود معه؛ فخادعهما فقتل داذويه، وفطن فيروز فهرب إلى خولان، وملك قيس صنعاء، فكتب فيروز إلى أبي بكر فأمدَّه فهزم قيسًا وأرسله إلى أبي بكر بعد وفاة النبي ﷺ فوبَّخه فأنكر الردة فعفا عنه[1].

مرض النبي ﷺ ووفاته:

يوم الإثنين ١٢ ربيع أول ١١هـ ٧ يونيو ٦٣٢م:

ابتدأه المرض في أواخر صفر، فاستمر المرض ١٣ يومًا، وقيل: ٧ أيام بعد أن خرجَ إلى بَقيعِ الغَرقَد[2] من جوف الليل ومعه أبو مويهبة مولاه، فقال: "السلامُ عليكم أهلَ المقابر، ليهنئ لكم ما أصبحتم فيه مما أصبح الناس فيه. أقبلتِ الفتنُ كقطَعِ الليلِ المظلم يتبعُ آخرُها أولَها، الآخرةُ شرٌّ من الأولى. يا أبا مويهبة، إني قد أوتيتُ مفاتيحَ خزائنِ الدنيا والخلدِ فيها ثم الجنة، فخُيِّرتُ بين ذلك وبين لقاء ربي والجنة. فقلت: بأبي أنت وأمي، فخذ مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها ثم

---

(١) الكامل ٢/٢٢٧. و تأريخ الإسلام للذهبي عهد الخلفاء ص١٤، ٣٠.

(٢) بقيع الغرقد: مقبرة أهل المدينة، وهي داخل المدينة.

الجنة، قال: لا، والله يا أبا مويهبة لقد اخترت لقاء ربي والجنة[1]. ثم استغفر لأهل البقيع، ثم انصرفَ، فبدأه صداع شديد في بيت ميمونة. وخرج في أثناء مرضه فصعد المنبر فحمد الله، ثم قال: "يا معشر المهاجرين، استوصوا بالأنصار خيرًا، فإن الناسَ يزيدون وإن الأنصارَ على هيئتها لا تزيد، وإنهم كانوا عيبتي[2] التي أويت إليها فأحسنوا إلى محسنهم وتجاوزوا عن مسيئهم".، قالت عائشة: لما اشتد به وجعه استأذن أزواجه أن يُمَرَّض في بيتي فأذنّ له، فخرج بين الفضل بن العباس وبين رجل آخر تخط رجلاه في الأرض. قال عبيدالله بن عبدالله بن عتبة بن مسعود: فأخبرت عبدالله بن عباس بالذي قالت عائشة، فقال لي: هل تدري من الرجل الآخر الذي لم تسمِّ عائشة؟ قال: قلت: لا، قال ابن عباس: هو علي بن أبي طالب[3]. قال الطبري: وكانت لا تقدر أن تذكره بخير وهي تستطيع[4]. وقد ذُكر عند عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ أوصى إلى عليٍّ كرم الله وجهه، فقالت: من قاله؟ لقد رأيتُ النبي ﷺ وإني لمسندته إلى صدري، فدعا بالطست فانخنث فمات، فما شعرت، فكيف أوصى إلى علي؟[5].

---

(١) الحاكم ٥٦/٣. وأسد الغابة ٣٠٢/٦. ومجمع الزوائد ٥٩/٣. وأحمد رقم ١٥٩٩٧.

(٢) عيبة الرجل: خاصته وموضع سره.

(٣) البخاري رقم ٤١٧٨ بلفظه. وفتح الباري ١٤١/٨.

(٤) الطبري ١٨٩/٣.

(٥) البخاري رقم ٤١٩٠.

قال الشوكاني: إعلم أن جماعة من البمغضين للشيعة عدُّوا قولهم إن عليًا عليه السلام وصيًا لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من خرافاتهم، وهذا إفراط وتعنت يأباه الإنصاف وكيف يكون الأمر كذلك وقد قال بذلك جماعة من الصحابة كما ثبت في الصحيحين أن جماعةً ذكروا عند عائشة أن عليًا وصي، وكما في غيرهما واشتهر الخلاف بينهم في المسألة، وسارت به الركبان، ولعلهم تلقنوا قول عائشة في أول الطلب، وكبر في صدورهم حتى ظنوه مكتوبًا في اللوح المحفوظ، وسدوا آذانهم عن سماع ما عداه، وجعلوه كالدليل القاطع، وهكذا فليكن الاعتساف والتنكب عن مسالك الإنصاف، وليس هذا بغريب بين أرباب المذاهب، فإن كل طائفة في الغالب لا تقيم لصاحبتها وزنا، ولا تفتح لدليلها وإن كان في أعلى رتبة الصحة أذنًا، إلا من عصم الله وقليل ما هم[1].

وكلام الشوكاني صحيح؛ فإن المريض الذي تتحدث عنه عائشة هو نبي الأمة وخاتم الرسل، ولا يعقل أن يظل معزولاً مسندًا إلى صدرها؛ لأن زوَّاره كل المؤمنين به القريبين منه، فالمدينة عن بكرة أبيها حتمًا ستزوره ليل نهار، كما لا يليق بآل هاشم الكرام أن يتخلوا عن دُرّتهم، وسواد عيونهم؛ فلا يحيطون به كما هي عادتهم إحاطة السِّوار بالمعصم، يخدمونه، ويستقبلون عواده؟. فقد كانت فاطمة الزهراء عليها السلام حبيبة أبيها، والباقية الوحيدة من أولاده، والحسن والحسين رضي الله عنهما قرة عين جدهما، وأبوهما عليٌّ كرم الله وجهه الذي

---

(١) وقد شدد الشوكاني على إثبات الوصية في كتاب مخطوط بقلمه عندي وهو مطبوع أيضًا.

هو بمثابة ابنٍ لرسول الله وابن عمه وصهره، ومعه عمه العباس وابنه الفضل وعبدالله وغيرهم من أقارب الرسول الذين لا يكادون يخرجون حتى للصلاة في المسجد وما يفصلهم عنه سوى الباب؛ خوفًا منهم على رسول الله ﷺ، وتفانيًا في خدمته، ورعاية لحقه، وكذلك نساؤه. وكان لعائشة رضي الله عنها مكانتها، وارتياح النبي ﷺ لها، ولولا ذلك ما طلب النبي ﷺ التمريض في بيتها، ولكن لا يعني أنها متفردة به حتى تقول: فمتى أوصى؟، وقد روى ابن سعد أنه مات في حجر عليٍّ كرم الله وجهه مسندًا إلى صدره[1]، وهو ما أكده ابن عباس.

وروت عائشة وهي أكثر من روى تفاصيل مرضه ﷺ – أنه قال لها: "ما آزال أجد ألم الطعام الذي أكلت بخيبر، وهذا أوان وجدت انقطاع أبهري من ذلك السم"[2]. وقالت: لما دخل بيتي واشتد به وجعه قال: هريقوا علي من سبع قرب لم تُحَلْل أوكيتُهُنَّ، لعلي أعهد إلى الناس"[3]. فأجلسناه في مِخْضَبٍ

(١) طبقات ابن سعد ٢٦٢/٢ . وروى ابن أبي شيبة عن أم سلمة قالت: والذي أحلف به إن كان علي لأقرب الناس عهدًا برسول ﷺ ، قالت: عدنا رسول الله يوم قبض في بيت عائشة فجعل رسول الله (ص) غداة بعد غداة يقول: أجاء علي؟ مرارًا قالت: وأظنه كان بعثه في حاجة، قالت: فجاء بعد فظننا أن له إليه حاجة، فخرجنا من البيت فقعدنا بالباب فكنت من أدناهم من الباب ، قالت: فأكب عليه علي فجعل يساره ويناجيه، ثم قبض من يومه ذلك، فكان أقرب الناس به عهدًا. المصنف ٣٦٥/٦ رقم ٢٩٠٦٦.

(٢) البخاري ٤١٦٥.

(٣) البخاري ٤١٧٨.

لحفصة، ثم طفقنا نصب عليه من تلك القرب حتى طفق يشير إلينا بيده. قالت: ثم خرج إلى الناس فصلى بهم وخطبهم. **قلتُ:** ولعله في هذه الخطبة قال: من كنت جلدت له ظهرًا فهذا ظهري فليستقد منه، ومن كنت شتمت له عرضًا فهذا عرضي فليستقد منه، ولا يمتنعن أحدكم فإن الشحناء ليست من طبعي. فصلى الظهر ثم أعاد مقالته، فقال رجل: إن لي عندك ثلاثة دراهم، فقال: أعطِهِ يا فضل. أيها الناس من كان عنده شيء فليؤده ولا يقُل: فضوح الدنيا، فإن فضوح الدنيا أيسر من فضوح الآخرة، فقال رجل: عندي ثلاثة دراهم غللتها، فقال: خذها منه يا فضل، وقال آخر: إنّي كذّاب فاحش نؤوم فدعا له بصلاح حاله.

ولم يُنسِهِ مرضُه والكربُ الذي هو فيه أن يفكّر في أمر أمته، وأن يضع لمسات أخيرة للإجهاز على الوثنية، قالت عائشة وابن عباس: لما نزل برسول الله ﷺ طفق يطرح خميصة له على وجهه، وهو يقول: "لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجدً"[1].

ولما أقعده المرض عن الخروج إلى المسجد شعر يومًا بناشطٍ؛ فخرج إلى المسجد وأبو بكر يصلي بالناس فأفرجوا له وكادوا يفتتنون برؤيته، فأشار إليهم أن اثبتوا، ثم صلى بالناس قاعدًا وأبو بكر إلى جانبه، ثم استقبل أصحابه فكان أول ما تكلم به أن استغفر لأصحاب أحُد وأكثر الصلاة عليهم، ثم قال: "إن عبدًا من عباد الله خيره الله بين الدنيا وبين ما عنده فاختار ما عندَ الله". قال: ففهم أبو بكر أنه ينعى نفسه؛ فبكى وقال: نفديك بأنفسنا وأبنائنا، فأثنى عليه النبي ﷺ وقال كما رواه الزهري: "لو كنت متخذًا من العباد خليلاً لا اتخذت أبا

---

(1) البخاري ٤١٧٩.

بكر خليلا، ولكن محبةٌ وإخاءٌ وإيمان حتى يجمع الله بيننا عندَه"[1]. وعاد إلى بيته مشغولاً بمصير أمته رغم شدة المرض.

عن ابن عباس قال: يوم الخميس وما يوم الخميس؟ اشتد برسول الله ﷺ وجعه، فقال: "ائتوني أكتب لكم كتابًا لن تضلوا بعده أبدًا". فتنازعوا، ولا ينبغي عند نبي تنازع، فقالوا: ما شأنه، أهَجَرَ؟ استفهموه، فذهبوا يردون عليه، فقال: "دعوني فالذي أنا فيه خير مما تدعونني إليه". وأوصاهم بثلاث، قال: "أخرجوا المشركين من جزيرة العرب، وأجيزوا الوفد بنحو ما كنت أجيزهم". وسكت عن الثالثة، أو قال: فنسيتها[2]. وعنه قال: لما حُضِر رسول الله ﷺ وفي البيت رجال، فقال النبي ﷺ: "هلموا أكْتُبُ لكم كتابًا لا تضلون بعده". فقال بعضهم: إن رسول الله ﷺ قد غلبه الوجع، وعندكم القرآن، حسبنا كتاب الله. فاختلف أهل البيت واختصموا ، فمنهم من يقول: قربوا يكتب لكم كتابًا لا تضلون بعده، ومنهم من يقول: غير ذلك، فلما أكثروا اللغو والاختلاف، قال ﷺ: "قوموا". فكان ابن عباس يقول: إن الرزية كل الرزية ما حال بين رسول الله ﷺ وبين أن يكتب له ذلك الكتاب، لاختلافهم ولغطهم[3].

---

(١) البخاري ٤٥٤-٤٥٥. وبعضهم ناقش هذه الرواية فانظر لوامع الأنوار للسيد مجد الدين ١/١٢٥ وما بعدها.

(٢) البخاري ٤١٦٨. وفتح الباري ٨/١٣٢ رقم ٤٤٣١.

(٣) البخاري ٤١٦٩. وفتح الباري ٨/١٣٢ رقم ٤٤٣٢. والطبراني في الكبير ١١/١٢٢٦. ومسند ابن حنبل ٤/٤٣٧. وكنز العمال ١١/٥٥٤.

ثم دعا بحبيبته وقرة عينه فاطمة عليها السلام وسارَّها بشيء فبكت، ثم دعاها وسارَّها بشيء فضحكت، فأخبَرَتْ بعد موته أنه أخبرها بوفاته فبكت، ثم أخبرها أنها أول أهل بيته لحقوًا به فضحكت[1]. ولما ثقل النبي صلى الله عليه وآله وسلم وتغشاه الموت قالت فاطمة سلام الله عليها: واكرب أباه. قال: ليس على أبيك كرب بعد اليوم.

فلما مات قالت تندبه: يا أبتاه، أجاب ربًا دعاه، يا أبتاه، مَنْ جَنَّةُ الفردوس مأواه، يا أبتاه، إلى جبريل ننعاه. فلما دفن قالت لأنَسٍ: أطابت أنفسكم أن تحثوا على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم التراب؟[2].

ومما روته عائشة رضي الله عنها أثناء مرضه: أن عبد الرحمن بن أبي بكر دخل وفي يده سواك أخضر، فنظر إليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، قالت: فعرفت أنه يريده فأخذته من عبدالرحمن وقضمته ثم مضغته فأعطيته رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فاستن به[3].

وكان عليه السلام يدخل يديه في الماء فيمسح بهما وجهه ويقول: لا إله إلا الله، إن للموت سكرات، ثم نصب يده فجعل يقول : اللهم في الرفيق الأعلى حتى قبض ومالت يده[4]. وكان يقول: اللهم اغفر لي، وارحمني، وألحقني بالرفيق الأعلى[5].

---

(١) البخاري ٤١٧٠. وفتح الباري ١٣٥/٨ رقم ٤٤٣٣.

(٢) البخاري ٤١٩٣. وفتح الباري ١٤٩/٨ رقم ٤٤٦٢.

(٣) البخاري ٤١٨٥.

(٤) البخاري ٤١٨٤-٤١٨٦.

(٥) البخاري ٤١٧٦.

لدُّ رسول اللّه ﷺ[1]:

اجتمع إليه بعضٌ من نسائه: أم سلمة وميمونة، وبعض من نساء المسلمين، منهن أسماء بنت عُمَيس، وعنده العباسُ عمُّه فأجمعوا على أن يَلُدُّوه، وقال العباس: لأُلُدَّنه، فلَدُّوه، فلما أفاق رسول الله ﷺ قال: من صنع هذا بي؟ قالوا: يا رسول الله عمُّك. قال: هذا دواء أتى به نساء جئن من نحو هذه الأرض - وأشار نحو أرض الحبشة - ولم فعلتم ذلك؟ فقال العباس: خشينا يا رسول الله أن يكون بك ذات الجَنب، فقال: "إن ذلك لداء ما كان الله ليقذفني به، لا يبقى في البيت أحدٌ إلا لُدَّ إلا عَمِّي" فلقد لُدَّت ميمونةُ وإنها لصائمة لِقَسَمِ رسول الله ﷺ عقوبةً لهم بما صنعوا به. ورواية البخاري عن عائشة، قالت: لددناه في مرضه، فجعل يشير إلينا: أن لا تلدوني، فقلنا: كراهية المريض للدواء، فلما أفاق قال: "ألم أنهكم أن تلدوني"، قلنا: كراهية المريض للدواء، فقال: "لا يبقى أحد في البيت إلا لدَّ وأنا أنظر إلا العباس فإنه لم يشهدكم"[2].

٨٣ - جيش أسامة "سرية":

---

(١) اللد: وضع الدواء في جانب الفم بغير اختيار المريض.

(٢) البخاري ٤١٨٩. لعله ترك العباس توقيرًا له لأنه بمنزلة الأب.

دعا رسول الله ﷺ في مرضه أسامة بن زيد، فقال: سر إلى مقتل أبيك فأوطئهم الخيل فقد وليتك على هذا الجيش، فإن أظفرك الله بالعدو، فأقلل اللبث وبث العيون، وقدم الطلائع. فلم يبق أحد من وجوه المهاجرين والأنصار إلا كان في ذلك الجيش؛ منهم أبو بكر وعمر؛ فتكلم قوم وقالوا: يستعمل هذا الغلام على جلة المهاجرين والأنصار؟ فغضب رسول الله ﷺ لما سمع ذلك، وخرج عاصبًا رأسه، فصعد المنبر وعليه قطيفة، فقال: "أيها الناس، ما مقالة بلغتني عن بعضكم في تأميري أسامة؟ لئن طعنتم في تأميري أسامة فقد طعنتم في تأميري أباه من قبله، وايم الله إن كان لخليقًا للإمارة، وابنه من بعده لخليق بها، وإنهما لمن أحب الناس إلي فاستوصوا به خيرًا فإنه من خياركم"[1] ثم نزل ودخل بيته، وجاء المسلمون يودعون رسول الله ﷺ، ويمضون إلى عسكر أسامة بالجُرُفِ.

وثقل رسول الله ﷺ، واشتد ما يجده، فأرسل بعض نسائه إلى أسامة وبعضِ من كان معه يُعلمونهم ذلك، فدخل أسامة من معسكره - والنبي ﷺ مغمور، وهو اليوم الذي لدُّوه فيه - فتطأطأ أسامة عليه فقبَّله، ورسول الله ﷺ قد أسكِتَ فهو لا يتكلم، فجعل يرفع يديه إلى السماء، ثم يضعهما على أسامة كالداعي له، ثم أشار إليه بالرجوع إلى عسكره، والتوجه لما بعثه فيه، فرجع أسامة إلى عسكره، ثم أرسل نساء رسول الله ﷺ إلى أسامة يأمرنه بالدخول ويقلن: إن رسول الله ﷺ قد أصبح بارئًا، فدخل أسامة من معسكره يوم

---

(١) البخاري رقم ٤١٩٩. وفتح الباري ١٥٢/٨. وابن سعد ٢٤٨/٢. والطبري ١٨٦/٣.

الإثنين ١٢ شهر ربيع الأول، فوجد رسول الله ﷺ مفيقًا، فأمره بالخروج وتعجيل النفوذ، وقال: اغد على بركة الله، وجعل يقول: أنفذوا بعث أسامة، ويكرر ذلك، فودع رسول الله ﷺ وخرج ومعه أبو بكر وعمر، فلما ركب جاءه رسول أم أيمن، فقال: إن رسول الله ﷺ يموت، فأقبل ومعه أبو بكر وعمر وأبو عبيدة، فانتهوا إلى رسول الله ﷺ حين زالت الشمس من هذا اليوم وهو يوم الاثنين، وقد مات واللواء مع بريدة بن الحصيب، فدخل باللواء فركزه عند باب رسول الله ﷺ، وهو مغلق، وعليٌّ كرم الله وجهه وبعض بني هاشم مشتغلون بجهازه وغسله. فقال العباس لعلي وهما في الدار: امدد يدك أبايعك؛ فيقول الناس: عم رسول الله بايع ابن عم رسول الله فلا يختلف عليك اثنان، فقال له: أو يطمع يا عم فيها طامع غيري؟ قال: ستعلم؛ فلم يلبثا أن جاءهما الأخبار بأن الأنصار أقعدت سعدًا لتبايعه، وأن عُمَرَ جاء بأبي بكر فبايعه، وسبق الأنصار بالبيعة، فندم علي كرم الله وجهه على تفريطه في أمر البيعة وتقاعده عنها، وأنشده العباس قول دريد:

أمــرهم أمــري بمنعــرج اللّــوَى   فلم يستبينوا النصح إلا ضُحى الغد[1]

وفاة الرسول ﷺ ومقالة عمر:

توفي رسول الله ﷺ وعمره ٦٣ سنة، وقيل: ٦٠، وقيل: ٦٥، وقيل: ٦٢[2]، لكن عمر لم يصدق بموته وقال: إن رجالاً من المنافقين يزعمون أن رسول الله ﷺ مات، ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى، فقد غاب

---

(١) الواقدي ١١١٧/٣. وابن أبي الحديد ١/١٤٠، ١٤١.
(٢) البداية ٢٥٧/٥، وتأريخ خليفة ٩٦. والطبري ٢١٧/٣.

عن قومه أربعين ليلة ثم رجعَ إليهم. ووالله ليرجعنَّ فليقطعن أيديَ رجالٍ زعموا أنه مات.

وأقبل أبو بكر حين بلغه الخبر وعمر يكلم الناس، فدخل بيت رسول الله ﷺ وكشف عن وجهه وقَبَّلهُ، وقال: بأبي أنت وأمي أما الموتةُ التي كتب الله عليك فقد ذقتَها، ثم لن تَصيبك بعدها موتةٌ أبدًا، ثم خرج وعمر يكلم الناس، فقال: على رِسلك يا عمر أنصت، فأبى إلا أن يتكلم، فلما رآه لا ينصت أقبل على الناس، فلما سمع الناس كلامه أقبلوا عليه وتركوا عمر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أيها الناس، إنه من كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت. ثم تلا هذه الآية: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾ [١٤٤: آل عمران]. فكأن الناس لم يسمعوها إلا يومئذ، قال عمر: فلما سمعتها وقعت ما تحملني رجلاي[١].

خبر السقيفة[٢]:

اجتمعت الأنصار في سقيفة بني ساعدة يوم توفي رسول الله ﷺ، فأجلست سعدَ بنَ عبادة الخزرجي لتبايعه، وبلغ الخبر أبا بكر وعمر ومن معهما فأتوا مسرعين، ونَحَّوُا الناس عن سعد، فقال أبو بكر: يا معاشر الأنصار: منا رسول

---

(١) البخاري ٤١٨٧. فتح الباري ١٤٥/٨.

(٢) ابن هشام ٦٥٦/٢. والطبري ٢٠٣/٣. والبداية ٢٦٥/٥. وهيكل ٥٠٥، واليعقوبي ٧/٢، والعقد الفريد٢٥٧/٤. والكامل لابن الأثير ٢٢٠/٢. وتأريخ الإسلام للذهبي ص٥ وما بعدها.

الله فنحن أحق بمقامه. وقال حباب بن المنذر: منا أمير ومنكم أمير، فإن عَمِلَ المهاجري في الأنصاري شيئًا ردّ عليه، وإن عَمِلَ الأنصاري في المهاجري شيئًا ردّ عليه، وإن لم تفعلوا فأنا جُذيْلُها المحكّك، وعُذيقُها المرجّب[1]، لَنُعيدنّها جَذَعَة. قال عمر: وكنت زوقت في نفسي كلامًا، فقال أبو بكر: على رسلك يا عمر، فما ترك كلمة زوقتها في نفسي إلا تكلم بها. فقال أبو بكر: نحن المهاجرون أول الناس إسلامًا، وأكرمهم أحسابا، وأوسطهم دارًا، وأحسنهم وجوهًا، وأمسهم برسول الله رحمًا، وأنتم إخوان لنا في الإسلام، وشركاؤنا في الدين، نصرتم وواسيتم، فجزاكم الله خيرًا، فنحن الأمراء وأنتم الوزراء، لا تدين العرب إلا لهذا الحي من قريش ، فلا تَنفُسُوا على إخوانكم المهاجرين ما فضلهم الله به، وقد رضيت لكم أحد هذين الرجلين يعني عمر أو أبا عبيدة. فقالا: ما كنا لنتقدمك وأنت صاحب رسول الله ﷺ وثاني اثنين، فضرب عمر على يده وثنّى أبو عبيدة، وقيل: العكس، وقيل: سبقهما بشير بن سعد، فناداه الحباب، عَقَقْتَ عَقَاقِ، أَنَفَسْتَ على ابن عمك الإمارة، قال: لا، ولكن كرهت أن أنازع قومًا حقًا جعله الله لهم، ولما رأت الأوس ما صنع بشير، وما تدعوا إليه قريش، وما تطلب الخزرج من تأمير سعد، قال بعضهم لبعض وفيهم أسيد: لئن وليتها الخزرج مرة لم يجعلوا لكم معهم نصيبًا أبدًا، فقوموا فبايِعُوا، فازدحَمُوا على أبي بكر يبايعونه، فانكسر على سعد والخزرج ما أجمعوا عليه، ثم

(١) الجذيل المحكك: عود ينصب في مبارك الإبل تتمرس فيه الإبل الجرباء، والعذيق: تصغير عَذق، وهو النخلة. والمرجب: الذي له جعل رجبة، وهي دعامة تبنى حولها من الحجارة، وذلك إذا كانت النخلة كريمة وطالت تخوفوا عليها أن تنقعر من الرياح العواصف.

بايع الحاضرون من قريش، ونادى أبو عبيدة: يا معشر الأنصار كنتم أول من نصر فلا تكونوا أول من غيّر وبدّل. وقام المنذر بن أرقم فقال: لو أن عليًا طلب هذا الأمر لم ينازعه فيه أحد.

وكان الناس عند البيعة يطأون وسادة سعد بن عبادة حتى وطئوا سعدًا نفسه. وقال عمر: اقتلوا سعدًا قتل الله سعدًا فإنه صاحب فتنة.

وقال عمر: فوالله ما وجدنا فيما حضرنا أمرًا أوفق من مبايعة أبي بكر، خشينا إن نحن فارقنا القوم و لم تكن بيعة أن يحدثوا بعدنا بيعة، فإما بايعناهم على ما لا نرضى، وإما خالفناهم فيكون فساد[1].

وجاء البراء بن عازب فضرب الباب على بني هاشم وقال: يا معشر بني هاشم بويع أبو بكر، فقال بعضهم: ما كان المسلمون يحدثون حدثًا نغيب عنه ونحن أولى بمحمد. فقال العباس: فعلوها ورب الكعبة.

وكان المهاجرون والأنصار لا يشكون في علي، فلما خرجوا من الدار قام الفضل بن العباس وكان لسان قريش، فقال: يا معشر قريش إنه ما حقت لكم الخلافة بالتمويه، ونحن أهلها دونكم، وصاحبنا أولى بها منكم.

وقام عتبة بن أبي لهب فقال:

ما كنت أحسب أن الأمر منصرف ... عن هاشم ثم منها عن أبي الحسن
عن أول الناس إيمانًا وسابقة ... وأعلم الناس بالقران والسنن
وآخر الناس عهدًا بالنبي ومن ... جبريل عونٌ له في الغسل والكفن
من فيه ما فيهم لا يمترون به ... وليس في القوم ما فيه من الحسن

---

(١) تأريخ الإسلام – عهد الخلفاء للذهبي ص٨. وابن هشام ٦٥٦/٢ وما بعدها.

فبعث إليه علي فنهاه. وتخلف عن بيعة أبي بكر قوم من المهاجرين والأنصار ومالوا مع علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، منهم: العباس وابنه الفضل، والزبير بن العوام، وخالد بن سعيد بن العاص، والمقداد بن عمرو، وسلمان الفارسي، وأبو ذر الغفاري، وعمار بن ياسر، والبراء بن عازب، وأبي بن كعب. وكان ممن تخلف عن بيعة أبي بكر أبو سفيان، وقال: أرضيتم يا بني عبدمناف أن يلي هذا الأمر غيركم؟ وقال لعلي: امدد يدك أبايعك، وأنْشَدَ:

بني هاشم لا يطمع الناس فيكم ولا سيما تيم ابنُ مُرَّة أو عدِي
فما الأمر إلا فيكم وإليكم وليس لها إلا أبو حسن علي

فقال علي كرم الله وجهه لما طلب العباس وأبو سفيان مبايعته: أيها الناس شقوا أمواج الفتن بسفن النجاة، وعرِّجوا عن طريق المنافرة، وضعوا تيجان المفاخرة، أفلح من نهض بجناح أو استسلم فأراح، هذا ماء آجِنٌ، ولقمة يغص بها آكلها، ومجتني الثمرة لغير وقت إيناعها كالزارع بغير أرضه، فإن أَقُلْ يقولوا: حرص على الملك، وإن أسكت يقولوا: جزع من الموت، هيهات بعد اللَّتَيَّا والَّتِي[1]، والله لابن أبي طالب آنسُ بالموت من الطفل بثدي أمه، بل اندمجت على مكنون علم، لو بحت به لاضطربتم اضطراب الأرشية في الطُّوِي[2] البعيدة[3].

---

(١) مثل قاله رجل تزوج بطويلة سيئة الخلق، فطلقها وتزوج قصيرة فكانت أسوأ، فطلقها وقال: لا أتزوج بعد اللتيا والتي، فصارت مثلاً يقال في الشدائد الصغيرة والكبيرة.

(٢) الأرشية: حبال الدلاء. الطوي: جمع طوية وهي البئر . والبعيدة: العميقة.

(٣) النهج ص١١١. وابن أبي الحديد ١/١٨٤. واليعقوبي ٢/١٠.

مشاورة أبي بكر لمقربيه:

أرسل أبو بكر إلى عمر وأبي عبيدة والمغيرة بن شعبة ليستشيرهم في شأن علي ومن معه، فأشاروا بالتفاوض مع العباس وتوليته شيئًا من الأمر له ولعقبه؛ لِيُقْطَعَ عن علي، فردَّ العباس عليهم بأن أسرة الرسول ﷺ أولى بالأمر من غيرهم، أما أبو سفيان فقد قيل: لما اجتمع الناس على بيعة أبي بكر، أقبل وهو يقول: إني لأرى عجاجة لا يطفئها إلا دم، يا آل عبدمناف فيم أبو بكر من أموركم؟ أين المستضعفان؟ أين الأذلان علي والعباس؟ ما بال هذا الأمر في أقل حي من قريش؟ ثم قال لعلي: ابسط يدك أبايعك فوالله لئن شئت لأملأنها خيلاً ورجلاً. فأبى عليٌّ كرم الله وجهه عليه، فتمثل بشعر المتلمس:

ولن يقيم على خسف يراد به إلا الأذلان عير الحي والوتد

هذا على الخصم مربوط برمته وذا يشج فلا يبكي له أحد

فزجره علي، وقال: ما أردت بهذا إلا الفتنة، وطالما بغيت للإسلام شرًا، لا حاجة لنا في نصيحتك. وأبو سفيان ليس صاحب مبادئ، فقد قيل: إن عمر نصح أبا بكر أن يترك له مالاً جاء به من خراج بعض البلاد؛ فما لبث أن جاء مبايعًا[1].

وأما علي فقد اختلفت روايات التعامل معه، فقائل: إنه امتنع حتى ماتت فاطمة، وسكتوا عنه طوال هذه المدة، ثم بايع طائعًا، وقيل: مكرهًا، وقائل: إن عمر ومجموعته ذهبوا إلى بيت فاطمة وكسروا الباب وأرادوا إحراق البيت، وقادوا عليًا بالقوة. وبعضها يقول: إن فاطمة كانت حاملاً فأسقطت إلى غير ذلك.

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١/٨٣ و ١٨٤. واليعقوبي ٢/١٠.

لكني أستبعد بعض المبالغات، مثل: رواية ضرب خالد بن الوليد لفاطمة عليها السلام بالسوط حتى أثر في جنبها، ودفع عمر للباب حتى تسبب في إسقاط جنينها، مع أنه روى الإمام الذهبي عن أبي بكر في سياق وصيته بالخلافة لعمر؛ إذ قال: فاخترت لكم خيركم في نفسي فكلكم ورِم لذلك أنفهُ رجاءَ أن يكون الأمر له. ثم قال: أما إني لا آسي على شيء إلاَّ على ثلاث فعلتهن، وثلاث لم أفعلهن، وثلاث وددْتُ أني سألت رسول الله ﷺ عنهن: ودِدْتُ أني لم أكن كشفتُ بيتَ فاطمةَ وتركتُهُ وإن أغلق علي الحربَ، ووَدَدْتُ أني يوم سقيفة بني ساعدة كنت قذفتُ الأمرَ في عنق عمر أو أبي عبيدة، ووددتُ أني كنت وجَّهتُ خالد بن الوليد إلى أهل الرِّدة، وأقمت بذي القَصَّة، فإن ظفر المسلمون وإلا كنت لهم مددًا وردءًا، ووددتُ أني يوم أتيتُ بالأشعث أسيرًا ضربتُ عُنُقُه، فإنه يُخَيَّلُ إليَّ أنه لا يكون شر إلا طار إليه، ووددتُ أني يوم أتيتُ بالفجاءة السُّلمي لم أكن حرَّقتُه وقتلته أو أطلقته (نجيحًا)، ووددتُ أني حيث وجَّهْتُ خالد بن الوليد إلى الشام وجَّهْتُ عمر بن الخطاب إلى العراق، فأكون قد بسطت يميني وشمالي في سبيل الله، ووددتُ أني سألت رسول الله ﷺ في هذا الأمر ولا ينازعه أهله، وأني سألتُهُ هل للأنصار في هذا الأمر شيء؟ وأني سألته عن العمة وبنت الأخ، فإن في نفسي منها حاجة[1].

---

(١) تأريخ الإسلام – عهد الخلفاء ١١٧ وما بعدها. ومروج الذهب ٢/٣٠١. والإمامة والسياسة لابن قتيبة ١/٣٦. والطبراني في الكبير ١/٦٢رقم ٤٣. ومجمع الزوائد ٥/٢٠٢. والطبري ٣/٤٣٠.

إلا أن الطريقة التي تمت بها البيعة محل نظر عند بعض النقَّاد؛ إذ يرى أن بيعة أبي بكر رضي الله عنه التي وصفها عمر رضي الله عنه بأنها فلتة[1]، والطريقة التي نقلت بها الخلافة إلى عمر وهي الوصية، والطريقة التي وصلت إلى عثمان رضي الله عنه؛ إذ انحصر الاختيار في عبدالرحمن بن عوف رضي الله عنه، فالمرشحون ستة والناخب واحد، فيقول أصحاب هذه الوجهة: إن هذه ثغرة تركت للمستبدين أن يصلوا إلى كرسي الخلافة. أما البعض فيجعل من كل طريقة دليلاً على عقد الخلافة.

دفنه ﷺ في المكان الذي توفي فيه:

فلما فرغ من جهاز رسول الله ﷺ يوم الثلاثاء وضع على سريره في بيته، وقد كان المسلمون اختلفوا في دفنه، فقائل: ندفنُه في مسجده، وقائل: مع أصحابه، وقائل: في مكة، وقائل: في بيت المقدس محل الأنبياء، فقال أبو بكر: إني سمعته ﷺ يقول: "ما قبض نبي إلا دُفِنَ حيث قبض"[2]. فحفر له تحت فراشه.

ثم دخل الناس يُصلون عليه أرسالاً: الرجال، ثم النساء، ثم الصبيان، ولم يؤم الناس على رسول الله ﷺ أحد، ثم دفنه علي ومعاونوه من وسط ليلة الأربعاء. قالت عائشة: ما علمنا بدفنِ رسول الله ﷺ حتى سمعنا صوت المساحي من جوفِ الليل. قال ابن إسحاق: وكان الذينَ نزَلوا في قبر رسول الله

---

(١) إشارة إلى حديث عمر حيث قال: "إن بيعة أبي بكر كانت فلتة وقى الله شرها". البخاري رقم ٦٤٤٢. ومسند أحمد ١/١٢٣ رقم ٣٩١. وهو مشهور في كتب التواريخ.

(٢) فتح الباري ١/٥٢٩.

ﷺ علي بن أبي طالب، والفضلُ بن عباس وقُثَمُ ابن عباس، وشُقران مولى رسول الله ﷺ[1].

وعند وفاة الرسول الأعظم ﷺ أتوقف حيث توقف الوحي وانقطع خبر السماء، وعلى شفير أشرف قبر أودع أطهر جسد، على أمل أن ألقاك يا رسول الله على الحوض لتسقيني شربة لا أظمأ بعدها أبدًا.

إن لم تكن في معادي آخذًا بيدي — فضلاً وإلا فقل يا زلة القدم

حا شاه أن يُحرم الراجي مكارمه — أو يرجع الجار منه غير محترم

وإني لأعتذر من تطفلي على حياة رسول الله ﷺ المقدسة، ولست لذلك بأهل، إلا أنَّ علمي بأنه ﷺ على خلق عظيم شجَّعني على أن أدلي بدلوي مع تقصيري، يدفعني لذلك الحب، ويحدوني الشوق، وحسبي أني بذلتُ جهدي، وسلكت الاعتدال والتوسط، واستفدت من شتى المصادر والمراجع؛ فجاءت السيرة العطرة صغيرة الحجم، كبيرة الفوائد، نفع الله بها وتقبلها .. آمين ، آمين.

❁ ❁ ❁

(١) كنز العمال ١٨٧٦٣. ودلائل البيهقي ٢٥٦/٧ وما بعدها. والمنتظم ٤٩/٣. والطبقات ٣٠١/٢.

أهم الأحداث في السيرة

-محرم ٧هـ:	غزوة خيبر.	"أغسطس ٦٢٨م".
- صفر ٤هـ:	بعث الرجيع.	"مايو ٦٢٥م".
-صفر ١١هـ:	تجهيز جيش أسامة.	"مايو ٦٣٢م".
-١٢ ربيع أول:	مولد النبي ﷺ.	"أغسطس ٥٧٠م".
-ربيع أول:	الهجرة إلى المدينة.	"يونيو ٦٢٢م".
-ربيع أول ٤هـ:	إجلاء بني النضير.	"يونيو ٦٢٥م".
-١٢ ربيع أول ١١هـ:	وفاة رسول الله ﷺ.	"٧ يونيو ٦٣٢م".
-١٤ ربيع أول ٣هـ:	مقتل كعب الأشرف.	"فبراير ٦٢٤م".
-جمادى أول ٨هـ:	غزوة مؤتة .	"سبتمبر ٦٢٩م".
-رجب: ٥ من النبوة:	الهجرة الأولى إلى الحبشة.	"٦١٥م".
-رجب ٨هـ:	غزوة تبوك.	"أكتوبر ٦٣٠م".
-٢٧ رجب: ق هـ بسنة:	الإسراء والمعراج.	"٦٢١م".
-٢ شعبان ٥هـ:	غزوة بني المصطلق.	"٦٢٦م".
-١٧ رمضان ٢هـ:	غزوة بدر.	"يناير ٦٢٤م".
-رمضان ٨هـ:	فتح مكة المكرمة.	"يناير ٦٣٠م".
-١٥ شوال ٢هـ:	غزوة بني قينقاع.	"فبراير ٦٢٤م".
-٧ شوال ٣هـ:	غزوة أحد.	"يناير ٦٢٥م".
-١٦ شوال ٣هـ:	غزوة حمراء الأسد.	"٦٢٥م".

-شوال ٥هـ: غزوة الخندق. "فبراير ٦٢٧م".

-١٠ شوال ٨هـ: غزوة حنين. "فبراير ٦٣٠م".

-شوال ٨هـ: غزوة الطائف. "فبراير ٦٣٠م".

-ذي القعدة ٥هـ: غزوة بني قريظة. "إبريل ٦٢٧م".

-ذي القعدة ٦هـ: صلح الحديبية. "فبراير ٦٢٨م"

-ذي القعدة ٧هـ: عمرة القضاء. "فبراير ٦٢٩م".

-ذي الحجة ١٠هـ: حجة الوداع. "مارس ٦٣٢م".

-١٨ذي الحجة: خطبة الغدير. "٦٣٢م".

١- ابتسام البرق في شرح القصص الحق في سيرة سيد الخلق – محمد بن يحي بهران –
منشورات مكتبة الحياة – بيروت .

٢- أبجد العلوم – صديق حسن القنوجي – دار الكتب العلمية – دمشق ١٩٧٨م.

٣- أحكام – الإمام الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين – مكتبة التراث – صعدة – ط ١ .

٤- أسباب النزول – الواحدي – دار ابن كثير – دمشق – ط ١ .

٥- الإستيعاب – أبي عبد الله بن عبد البر القرطبي – دار الكتب العلمية – بيروت – ط ١٤١٥-١٩٩٥ م.

٦- أسد الغابة – ابن الأثير – دار الكتب العلمية .

٧- الإشارة إلى سيرة المصطفى – مغلطاي بن قليج – دارالقلم دمشق دارالشامية بيروت –ط١.

٨- الاعتصام بحبل الله المتين - الإمام القاسم بن محمد - مطابع الجمعية الملكية.

٩- الأعلام - خير الدين الزركلي - دار العلم للملايين -بيروت -ط ٦ .

١٠- أعيان الشيعة - محسن الأميني - دارالتعارف - بيروت - ١٤٠٦هـ .

١١- الإكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله- أبي الربيع سليمان بن موسى الكلاعي -عالم الكتب - ط ١ .

١٢- أمالي المرشد بالله - عالم الكتب - بيروت - ط ٣.

١٣- الإمامة والسياسة -ابن قتيبة - دارالأضواء-ط١ .

١٤- البحر الزخار - الإمام المهدي أحمدبن يحيى المرتضى -دار الحكمة اليمانية - ط ١ .

١٥- البرهان في أصول الفقه - الجويني - ط ١ .

١٦- البيان والتبيين - الجاحظ - مكتبة الخانجي - القاهرة -ط ٥ .

١٧- تاج العروس - محمد مرتضى الزبيدي - دار الفكر -١٩٩٤م - ١٤١٤هـ-

١٨- تأريخ الإسلام - الحافظ الذهبي - دار الكتاب العربي -ط ١

١٩- تأريخ الخلفاء - الحافظ السيوطي - دار الفكر .

٢٠- تأريخ الطبري -دار التراث -تحقيق محمد أبو الفضل .

٢١- التأريخ الكبير - البخاري - دار الكتب العلمية - بيروت .

٢٢- تأريخ اليعقوبي -مؤسسة الأعلمي -ط ١ .

٢٣- تأريخ بغداد- الخطيب - دار الفكر -.

٢٤- تأريخ خليفة بن خياط - دار طيبة الرياض-ط ٢ .

٢٥- التحف شرح الزلف - السيد مجد الدين المؤيدي - مكتبة مركز بدر العلمي .
٢٦- تراثنا - نشرة فصيلة تصدرها مؤسسة آل البيت (ع) لإحياء التراث العربي.
٢٧- تفسير أهل البيت عليهم السلام - عبدالله بن أحمد الشرفي - مكتبة التراث الإسلامي - صعدة - ط ١ .
٢٨- تفسير الطبري - ابن جرير الطبري -دار الفكر - ط ١ .
٢٩- التنبيه والأشراف - المسعودي - دار ومكتبة الهلال .
٣٠- تيسير المطالب في آمالي أبي طالب -الإمام أبي طالب -مؤسسة الأعلمي ، بيروت.
٣١- الحاكم الجشمي ومنهجه في التفسير - عدنان زرزور - مؤسسة الرسالة.
٣٢- حلية الأولياء - دار الكتب العلمية - بيروت - ط ١ .
٣٣- حياة محمد رسول الله (ص) - محمد حسين هيكل -مكتبة النهضة المصرية .
٣٤- خصائص أمير المؤمنين- النسائي - دار الكتاب العربي - ط ٢ .
٣٥- دلائل النبوة - البيهقي - دار الريان ، الكتب العلمية -ط ١ .
٣٦- ديوان البويصري .
٣٧- الرسالة المحمدية - عبد العزيز الثعالبي - دار ابن كثير -ط ١ .
٣٨- الروض الأنف - السهيلي - دار الفكر .
٣٩- روضة الناظر - عبدالله بن قدامة - المكتبة الملكية -مؤسسة الريان .
٤٠- زاد المعاد - ابن القيم الجوزية - دار إحياء التراث - القاهرة - ١٩٩٢- ١٤١٣هـ-.

٤١- سبل الهدى والرشاد - الإمام محمد بن يوسف الصالحي - لجنة إحياء التراث - القاهرة - ١٩٩٢-١٤١٣ .

٤٢- سنن ابن ماجة - دار الكتب العلمية - تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي.

٤٣- سنن أبي داود - دار الكتب العلمية -ط ١ .

٤٤- سنن البيهقي - أبي بكر البيهقي - دار المعرفه -ط ١ .

٤٥ - سنن الترمذي - محمد بن عيسى الترمذي - دار الكتب العلمية -.

٤٦- سنن الدارمي - دار الكتب العلمية -بيروت .

٤٧- سنن النسائي - أبي عبد الرحمن النسائي - مكتبة المطبوعات الإسلامية - ط١ .

٤٨- سير أعلام النبلاء - الذهبي - مؤسسة الرسالة -بيروت .

٤٩- سيرة المصطفى - هاشم معروف الحسني - دار الشريف الرضي - ط ٢ .

٥٠- السيرة النبوية - ابن كثير - دار إحياء التراث .

٥١- السيرة النبوية - ابن هشام - الحلبي -ط ٢ .

٥٢- سيرة سيد المرسلين - جعفر سبحاني - دار الأضواء - ط ٢ .

٥٣- الشافي - الإمام عبدالله بن حمزة - مكتبة اليمن الكبرى -ط١ .

٥٤- شرح المواهب اللدنية - الزرقاني - المطبعة الأزهرية - القاهرة - ط ١ .

٥٥- شرح نهج البلاغة - ابن أبي الحديد - مكتبة الحياة .

٥٦- الشعر والشعراء - ابن قتيبة - دار الحديث - ط ٢

٥٧- الشفا - القاضي عياض - مؤسسة علوم القرآن - ط ٢ .

٥٨- شفاء الأوام - الأمير الحسين بن بدر الدين - جمعية علماء اليمن - ط ١ .

٥٩- صحيح ابن حبان -ابن بلبان - دار الكتب العلمية -ط ١ .

٦٠- صحيح البخاري - دار ابن كثير -ط ٣ .

٦١- صحيح مسلم - دار إحياء التراث - تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي.

٦٢- الصحيح من سيرة النبي ص -جعفر العاملي - دار الهادي -ط ٤ .

٦٣- الطبقات الكبرى - ابن سعد - صادر بيروت .

٦٤- العقد الفريد - الأندلسي - دار الكتاب العربي - بيروت - ١٤٠٦هـ.

٦٥- عيون الأثر - ابن سيد الناس - مكتبة دار التراث -ط ١ .

٦٦- الغدير - الأميني - دار الكتب الإسلامية .

٦٧- الغطمطم الزخار - الشهيد السماوي .

٦٨- فتح الباري - ابن حجر العسقلاني -دار الفكر -المكتبة السلفية .

٦٩- فقه السيرة - محمد الغزالي - دار الكتب الحديثه .

٧٠- القاموس المحيط - الفيروز آبادي - مؤسسة الرسالة -ط ٢ .

٧١- الكامل في التاريخ - ابن الأثير - دار الكتاب العربي - ط ٤ .

٧٢- الكامل في ضعفاء الرجال - ابن عدي الجرجاني - دار الفكر.

٧٣- كنز العمال - المتقي الهندي - مؤسسة الرسالة - ١٤٠٩هـ -١٩٨٩م .

٧٤- كنز الفوائد - الكراجكي - دار الأضواء -بيروت - ط ٥ .

٧٥- الألي المضيئة - الشرفي - مخطوط .

٧٦- اللزوميات - أبوالعلاء المعري - دار صادر- بيروت .

٧٧- لسان العرب - ابن منظور - دار صادر - بيروت -ط ١ .

٧٨- لوامع الأنوار - السيد مجدالدين المؤيدي - مكتبة التراث الإسلامي -ط ١ .

٧٩- مجمع البيان - الطبرسي - مؤسسة الأعلمي - ط ١ .

٨٠- مجمع الزوائد – دار الكتاب العربي – الهيثمي –ط ٣ .

٨١- محمد رسول الله (ص)–محمد رضا –دار الكتب العلمية –ط ١ .

٨٢- مختار الصحاح – أبو بكر الرازي – دارالفكر – بيروت – ١٤٠٤هـ .

٨٣- مروج الذهب – المسعودي – دار الأندلس –ط ٥ .

٨٤- مسند الإمام أحمد بن حنبل – المكتبة التجارية –ط ٢ .

٨٥- مسند الإمام زيد بن علي – دار مكتبة الحياة – بيروت – ١٩٦٦م .

٨٦- المصابيح – لأبي العباس الحسني – مخطوط .

٨٧- مصنف – عبد الرزاق الصنعاني – المكتب الإسلامي –ط ٢ .

٨٨- مصنف – ابن أبي شيبة – دار التاج .

٨٩- المعارف – ابن قتيبة – دار الشريف الرضي – ط ١ .

٩٠- المعتمد في أصول الفقه – البصري – دار الكتب العلمية – ط ١ .

٩١- المعجم الأوسط – الطبراني – دار الحرمين –القاهرة .

٩٢- المعجم الكبير – الطبراني –مكتبة العلوم والحكم .

٩٣- معجم ما استعجم – عبدالله البكري – عالم الكتب – بيروت – ط ٣ .

٩٤- المغازي – الواقدي – مؤسسة الأعلمي .

٩٥- المنتظم – ابن الجوزي – دار الكتب العلمية – ط ١ .

٩٦- منهاج السنة – ابن تيمية – دار الكتب العلمية – بيروت .

٩٧- منهاج الوصول إلى معيار العقول – الإمام المهدي أحمد بن يحيى المرتضى – دار ٩٨- الحكمة اليمانية – ط ١ .

٩٩- المواهب اللدنية – ابن حجر القسطلاني –دار الكتب العلمية –ط ١ .

١٠٠- نهج البلاغة – مؤسسة المعارف – محمد عبده –ط ١ .

١٠١- نور اليقين – محمد الحضري – دار الفكر.

١٠٢- نيل الأوطار – الشوكاني – دار الكتب العلميه – ط ١ .

١٠٣- هداية العقول إلى غاية السؤل – الحسين بن القاسم – المكتبة الإسلامية ٣.

١٠٤- وفاء الوفاء – علي بن أحمد السمهودي – دار التراث العربي –ط ٤ .٢

١٠٥- ينابيع النصيحة في العقائد الصحيحة – الأمير الحسين بن بدر الدين – مكتبة بدر – صنعاء – ط ١ .

❁ ❁ ❁